بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات في كتاب الله

زينب الغزالى الجبيلى

المجلد الأول

دار
الشروق

نظرات
في
كتاب الله

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات
في
كتاب الله

زينب الغزالي الجبيلي

مراجعة وتقديم
د. عبد الحي الفرماوي

المجلد الأول

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه .

أما بعد :

فقد عاشت الداعية المجاهدة « زينب الغزالى » ، « مع كتاب الله » تعالى ، حياتها - بحلوها ومرها - تتلوه ، وتستمع إليه يُتْلى ، وتقرأ مايعينها على فهم مراد الله تعالى فيه ومنه ، وتلزم نفسها ، وتكيِّف واقعها على الالتزام بهذا الذى فهمت .

وأكسبها ما كانت تتلوه ، وتستمع إليه ، وتقرأ حوله ، وتلزم نفسها به : خشوعا فى قلبها ، ونورا فى بصيرتها ، وسلامة فى فهمها ، وصوابا فى التزامها .

كما أكسبها ذلك : رغبة جيَّاشة صادقة ، فى تقديم مافهمت ، وتبسيط ماوجدت فى كتاب الله تعالى من نور وهداية ، إلى السيدات المسلمات ، وقد كان . . فى الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٦٤ ، ثم إلى الأخوات المسلمات ، وقد كان . . فى الفترة من عام ١٩٦٤ إلى الآن . وماتزال الداعية المجاهدة - حتى ساعة كتابة هذه السطور - تقدم ، وتبسّط ، وتفيض ، وتفيد ، فى : دروس ولقاءات ؛ ليفهمنْه كما فهمته هى ، وليسعدْن به كما سعدت هى ، ولينتج هذا الفهم لهنَّ - مع الرغبة الصادقة ، وتوفيق الله - التزاما واعيا ، مثمرا ، منقذًا ، كما أنتج لها .

* * *

وقد حقق الله تعالى ـ لإخلاصها وصدقها ــ ماأرادت ، منذ أن عاشت هى والسيدات المسلمات، ثم هى والأخوات المسلمات « مع كتاب الله » تعالى ؛ فترات طويلة فى جلسات تحفها الملائكة حول مائدة القرآن العظيم .

* * *

كانت الداعية المجاهدة : تقرأ فى كتاب الله ، خلال هذه الجلسات ، فتنثال عليها الخواطر من العليم الحكيم ؛ ومن ثم تنسكب فى قلوب من يستمع لها أنوار الفهم لهذا الكتاب الكريم الخالد ، وتنشرح لشرحها له الصدور ، وتستجيب خاضعة ـ بالالتزام ـ لربها : القلوب والعقول والصدور والأبدان ، ويحاول كل مستمع بنفسه وفى نفسه ولنفسه ، ومع إخوانه ، أن يقيم صرح هذا الدين : بحسن إدراك ، وسعة فهم ، وإخلاص قصد ، وصحة سلوك .

* * *

وقد طُلِب منى أن أقوم بمراجعة هذه الخواطر التى سجلتها الداعية الكبيرة وهى تعيش « مع كتاب الله » نظرا إلى أن تخصصى فى تفسير القرآن الكريم وعلومه الشريفة . وكدت أعتذر عن ذلك ، لاعتلال صحتى وضيق وقتى ، لولا تقديرى للداعية المجاهدة وحرصى على أن ترى هذه المعايشة الصادقة « مع كتاب الله » النور ؛ ليستفيد منها المسلمون والمسلمات على أوسع نطاق وأدْوَمه .

* * *

ومن اللازم فى هذا التقديم : أن نحيط القارئ علما بالمنهج الذى تقوم عليه هذه المعايشة، والذى يتجلى ـ باختصار ـ فى النقاط التالية :

١ ـ شرح ـ الداعية المجاهدة ـ للآيات ، وكشفها لمعانيها ، بعبارات سهلة ، وأسلوب واضح ، لاغموض فيه ولا غرابة ولا إبهام .

٢ ـ ربط معانى القرآن الكريم وأحكامه بواقعنا الذى نعيشه ، فى محاولة ـ صادقة ـ لتقويم هذا الواقع على هدى هذه الأحكام ، وفى إطار هذه المعانى ، وفى محاولة ـ صادقة ـ دائبة لعلاج أمراض المجتمع ، عن طريق إبراز هذه المعانى ، وتلك الأحكام ، والأخذ بأيدى المسلمين ، أفرادا وجماعات ـ مع هذا التقويم ، وذاك العلاج ـ لربط حياتهم بهذه المعانى ، وإسعادهم عن طريق الالتزام بهذه الأحكام .

٣ ـ التركيز الشديد على الجانب العملى فى الإسلام ، والذى يقوم على :

(أ) بناء الفرد المسلم ، على أساس : فهم سليم ، ومعرفة واسعة شاملة لهذا الدين ، وثقة به عقيدة وشريعة ، والتزام به ، وتطبيق له . كل ذلك : بخلق قويم ، وعاطفة نبيلة ، يصطبغ بهما عمله وكل تصرف له .

(ب) بناء البيت المسلم ، فى تكوينه ، وفى تسْييره ، وفى تقويمه ، على أساس من : عقيدة سليمة ، وخلق قويم ، وعواطف صادقة ، بما يعين أفراده على السكن فى حياتهم ، ويشيع المودة بينهم فى تعاملاتهم ، ويظلّلهم بالرحمة ، ولو كان فى خصوماتهم .

(جـ) تكوين الأمة المسلمة ، التى يُبْنَى أفرادُها ، وتتكون أسرها على الأسس والمعانى السابقة .

كل ذلك ليكون للدعوة حصاد ، وللإسلام وجود ينمو ويتحرك ويتقدم عملاقا ، يبدِّد الجهل ، ويحارب الظلم ، وينشر العدل ، ويشيع الأمن ، ويخرج الناس من ظلمات الأرض وعبادة طواغيتها والخضوع لمادياتها ، إلى نور الإسلام ، وحرية العبادة لرب السموات والأرض ، والتعالى على ماديات الحياة ، وأرجاسها ، وأدناسها ، فى ظل وجود الدولة الإسلامية .

٤ ـ الدعوة القوية إلى إحياء فرائض الاسلام الغائبة ، من مثل :

(أ) الحكم بما أنزل الله ، والعمل بما شرع إنقاذًا للعباد وإحياءً لهم . وتربط الداعية المجاهدة بين مايعانيه المسلمون فى واقعهم ، من تخلف وهوان ، وبين إهمالهم

تحكيم شرع الله فيهم . ويحسُّ القارئ بلوعة الداعية المجاهدة لتغْييب ما أنزل الله من تشريع عن حياتنا وأحكامنا وأنظمتنا التربوية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية . . إلخ . كما يشعر - مع ذلك - بثقتها المطمئنة بأن الله تعالى سيغمر أتْباع هذا الدين برحمته ، ولن يتخلى عن إسباغ نعمته عليهم بتمكينهم من العمل بشرعه ، والتزامهم بهديه ، مهما حِيل بينهم وبين ذلك .

(ب) وجوب الجهاد فى سبيل الله تعالى ؛ لجعل كلمة الله هى العليا ، وإزالة العوائق من طريق تبليغها ، ونصرة الإسلام وأهله ، والذَّوْد عن حياضه ، بوعى ، وعلم ، وامتلاك للقدرة المؤهلة لذلك ؛ لتعود للإسلام دولته ، ويأخذ المسلمون دورهم فيما يحقق خيريتهم من : إيمان بالله تعالى ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر بعز واقتدار، يمكنهم من كلمة الحق تُقال ، والنصيحة المخلصة الواعية تُقدَّم . ونلحظ هنا بجلاء : ثقة الداعية المجاهدة الواضحة القوية بانتصار الإسلام وأهله ، واندحار الباطل وجيشه .

٥ - الإكثار من التوجه إلى الله تعالى بالحديث المباشر ، والدعاء إليه تعالى - بقلب مُفْعَم بالإيمان ، واثق بالإجابة - عقب آيات الوعد ، والاستعاذة عقب آيات الوعيد .

٦ - اعتماد الداعية المجاهدة على الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تستشهد به منه فى معايشتها « مع كتاب الله » تعالى . واستشهادها بالحديث النبوى قد يكون لبيان معنى الآية وتوضيحها ، كما قد يكون لضرب المثل بالحديث الشريف المقرِّب لمقصود الآية ومعناها . كما قد يكون - كذلك - لزيادة الأُنْس والإمتاع ، ببيان تعانُق الحديث الشريف والآية الكريمة حول المعنى المطروح فى الآية القرآنية .

وقد اقتضى إبراز هذا الهدف ، والمحافظة على هذا المنهج ، وتوضيح هذه المعايشة، تجنيب القارئ الدخول فى كثير من القضايا والمسائل التى عنى بها كثير من المفسرين ، بل التى كانت تصطبغ بها - أحيانا - تفسيراتهم .

وهكذا ، وصلت معايشة الداعية المجاهدة « مع كتاب الله » تعالى : إلى ماأرادتْ لها صاحبتها أوكادت ، كما لبست هذه المعايشة ـ كذلك ـ ثوبا قشيبا ترفع به هامتها ، وتحدِّدُ به مكانتها بين رفوف مكتبة القرآن الكريم ، الرفيعة المنزلة ، العالية القدر .

* * *

وأضرع إلى الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن يجعله : مرشدا لهديه ، نافعا لعباده ، وزادًا لنا ﴿ يوم لاينفع مال ولابنون * إلا من أتى الله بقلبٍ سليم﴾(١) .

د . عبد الحى الفرماوى
أستاذ التفسير بجامعة الأزهر

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« مع كتاب الله »

إن كتاب الله هو كلمة الله الأخيرة على خاتم رسله محمد ﷺ . ولقد كان لى معه جلسات وجلسات أسأل الله أن يتقبلها عنده . لقد عايشت آياته أيام خلوتى مع الله ، فى السجن ؛ فالسجن لأصحاب الدعوات خلوة . وما أعذبها من خلوة حينما ينقطع الإنسان عن الدنيا بكل زخارفها وشواغلها ، ويعيش مع الله ، مع آياته يسبح فى رحابها بقلبه وروحه فيسمع ربه يحدثه بآياته بلا حائل ، فيقطف من ثمارها بقلبه معانى وأسرارًا وفيوضا نورانية تجلى ظلمة القلوب .

نعم ، عشت ـ بفضل الله تعالى ـ مع آيات الله وعايشتها وعشقت أنغامها ، وفتح الله تعالى لها قلبى ـ بفضله وحده ـ فتمعنتها بكل ذرات جسدى حتى ذبت بين آياته بقطرات دمع تستجدى البر الرحيم أن يرحم قلبًا ضعيفًا مسكينًا فقيرًا إلى رحمته وعفوه ، « فلن يدخل أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته » . فيا ألله يا أرحم الراحمين تغمدنا برحمتك وأدخلنا فى زمرة عبادك الصالحين .

نعم ، عشت ـ بفضل الله ـ لحظات مع كتاب الله ـ فما أحلى أوقات الطاعة ، مهما طالت فهى قصيرة ـ فكانت لحظات عذبة حلوة تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة . وأحببت أن يعيش معى أبنائى وبناتى على طريق الدعوة هذه اللحظات وهذه الأشواق ، فيسر الله لى كتابة هذه الصفحات (مع كتاب الله) راجية من الله العلى القدير أن يتقبله فى ميزان حسناتى وأن ينفع به .

ولقد كانت عدتى فى تسطير هذه الصفحات ما علق بذاكرتى ، مما سطرته فى

السجن على هامش مصحفى وبين سطوره ، مما كان يفيض على خاطرى وقلبى وأنا أعيش فى رحاب آياته سبحانه وتعالى .

وتزودت من زاد علمائنا السابقين ممن توفّروا على تفسير كتاب الله ؛ فتتلمذت على القرطبى فى تفسيره ، وعلى الحافظ ابن كثير وكان لى معه أشواق وأشواق ، وعلى الألوسى وأبى السعود والقاسمى والأهوازى ، وعشت فى ظلال الشهيد سيد قطب رحمه الله .

وأخذت أراجع فى السنة ما وسعنى جهدى ، فهى خير مفسر لكتاب الله ، وكل من كتبوا فى التفسير من علمائنا الأفاضل كانوا يحومون فى رحابها وينهلون من معينها .

وكانت أكثر جلساتى مع كتاب الله بين صفحات ابن كثير ، فأخذت علىَّ لُبى ، فكنت أطالع ما سطره وكأنى أنظر إليه وحبات النور تتلألأ فى جبينه وتتفجر من ثناياه .

فهل رأيت حلقات العاشقين الهائمين حول كتاب الله ؟

إن شئتها فاجلس وخل قلبك عن الأغيار وعش مع ابن كثير وهو يسطر بقلم من نور تفسير القرآن العظيم .

إنه يأخذك من دنياك لتعيش مع رسول الله ـ ﷺ ، ومع صحابة رسول الله وهم يقتدون بهديه فهو زعيمهم الأوحد وأسوتهم العليا ـ صلى الله عليه وسلـم . ما أحوجنا ونحن فى عصر تكاثفت فيه الفتن علينا ـ وعلينا وحدنا نحن المسلمين ـ للعودة إلى كتاب الله ، فيكون لنا زادًا لدنيانا وأخرانا .

ما أحوجنا للعودة إلى كتاب الله ليكون لنا منهاجًا لسلوكنا وحياتنا كلها . ما أحوجنا للعودة إلى كتاب الله ليكون للأمة دستورًا فى جميع شئونها . فنسعد فى رحاب القرآن ، وننعم فى حكمه ، فهى نعمة لا تفضلها نعمة . إنه فى رحاب حكم القرآن تحل الأزمات المعقدة .

فى رحاب حكم القرآن تتربى الأمة على هدى ربها .

إن القرآن ما نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ إلا ليكون دستورًا لحياة البشرية إلى يوم القيامة **﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾** .

تأمل معى : **﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم . . ﴾** (ليحكم) لا ليهجر .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلِّموا تسليما ﴾ تأمل معى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك . . . ﴾ .

وإن ما يسر الله لى كتابته « مع كتاب الله » خطوة نحو العودة إلى كتاب الله . نسأل الله تعالى أن يجعلها خطوة مباركة ، وأن يتقبلها عنده ، وأن ينفع به كل من قرأه أو ساهم فى إخراجه للمسلمين ، ويجعل عملهم هذا ذخرًا لهم يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

زينب الغزالى الجبيلى

(١) سورة الفاتحة

مكية وآياتها سبع

فاتحة الكتاب هى أول سورة نزلت مكتملة بآياتها السبع ، وهى سورة جامعة . فى آياتها مقاصد القرآن كلها من عقيدة وتشريع وقصص، وذلك فى إجمال بليغ جامع . ففى آياتها القليلة القصيرة بيان شافٍ للتوحيد والتوكل والبراء من المشركين والضالين والمعطلين أحكام الله تعالى عن العمل بها .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ
يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى أقام ببعثة محمد ـ ﷺ ـ خير الأمم وأنزل عليه خير كتاب وافتتحه بخير سورة هى أم القرآن ، الشافية ، الواقية ، الرقية ، الكنز، التفويض ، المناجاة ، النور . كل ذلك أسماء للسورة العظيمة أم الكتاب . « الحمد لله» الذى أنعم على أمة رسوله ـ ﷺ ـ فاختار منهم حفظة لكتابه وورّثهم حفظه وتفسيره وبيان غاياته ومقاصده .

فالعلماء ورثة الأنبياء ؛ فهم يشرحون للناس ما غمض عليهم ، ويبينون أحكامه ، حلاله وحرامه ، محكمه ومتشابهه . فالمؤمنون يحيون به وله فى الدنيا ، ويحيون فى حياة أبدية فى الجنة .

سورة الفاتحة

إنه كتاب مبين افتتح بأعظم سورة فى القرآن .

عن أبى سعيد بن المعلى - رضى الله عنه - قال : كنت أصلى فدعانى رسول الله - ﷺ - فلم أجبه حتى صليت فأتيته فقال ما منعك أن تأتينى ؟

قال قلت : يا رسول الله كنت أصلى . قال : ألم يقل الله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ ؟

ثم قال لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد . قال فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لى لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قال : نعم « الحمد لله رب العالمين » هى « السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته »(١) .

ولما كانت الصلاة قد فرضت فى مكة فى ليلة الإسراء والمعراج ، فقد أجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب مكية حيث نزل قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم** ﴾ من سورة الحجر(٢) وهى مكية .

وقد اشتملت هذه السورة العظيمة على اسم الله الأعظم (الله) ، ثم جمعت من أسمائه الحسنى (الرحمن ، الرحيم ، الملك) . والأسماء الثلاثة الأول افتتحت بها السورة ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين** ﴾ ثم جاء الوصف ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ ثم جاء الإعلان لأن ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ هو ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ .

﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . ﴿ **الحمد لله** ﴾ الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها عدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد . . والرب هو المالك المتصرف . و ﴿ **العالمين** ﴾ جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله عز وجل . ﴿ **يوم الدين** ﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، إلا من عفا عنه . ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ الأول تبرؤ من الشرك ، والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل ؛ أى لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة .(٣)

---

(١) رواه البخارى كتاب التفسير تفسير سورة الفاتحة وتفسير سورة الحجر .

(٢) الآية : ٨٧ .

(٣) انظر ابن كثير : ١ / ٢٥ .

سورة الفاتحة

عندما يستغرق الإنسان فى مشاهد ﴿ **يوم الدين** ﴾ وموقف الناس والأمم فى هذا اليوم العصيب ﴿ **يوم لا ينفع مال ولابنون * إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ ، ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ ، يوم تنشر الصحف ﴿ **وإذا الصحف نشرت** ﴾ ، يوم توضع الموازين ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا** . . . ﴾ ـ يجول المسلم بقلبه فى ساحات ومواقف هذا اليوم ، فتستغرقه يقظة فى القلب وصحوة فى الضمير، توقفه ليسائل نفسه ويحاسبها ، فيجد نفسه تهتف من أعماقها : يارب يا مالك الدنيا والآخرة يامالك يوم الدين ، ﴿**اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ، فارزقنا إيمانًا يملأ جنبات حياتنا وارزقنا عملا صالحًا يرضيك عنا . ارزقنا صلاة تصلنا بجلالك . ارزقنا زكاة نخرجها تزكو بها نفوسنا وأموالنا . ارزقنا شهادة فى سبيلك وفى سبيل دعوتك وتحكيم كتابك فهو الصراط المستقيم .

إنه يمتثل لأمر الله ونهيه ، إنه يسمع كلام ربه وكأنه ينزل عليه هو ليحققه فى نفسه ويقوم به فى الناس . إنه يخترق الحجب بقلبه وروحه ـ لأنه على الصراط المستقيم ـ ليشهد ملائكة الله تسبح وتكبر فيشعر أن الكون كله معه وأنه ليس وحده ، بل يسير معه على الدرب عباد الله كثيرون ، وملائكة لله لا يعلم عددهم إلا خالقهم .

فالهداية هى الإرشاد والتوفيق . و ﴿ **الصراط المستقيم** ﴾ هو الطريق الواضح الذى لا عوج فيه . و ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ مفسر للصراط المستقيم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون فى سورة النساء ﴿ **من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا** ﴾ .(١)

وتختتم السورة بالبراء ، من ﴿ **المغضوب عليهم** ﴾ وهم الذين غضب الله عليهم لمعرفتهم الحق ، ثم حيدتهم وانحرافهم عنه . وكذلك : من ﴿ **الضالين** ﴾ وهم الذين ضلوا عن الحق ، فلم يهتدوا إليه أصلاً (٢) . ومع هؤلاء وهؤلاء : كل من يسير فى ركابهم من الذين خالفوا الإسلام ، طريق « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

---

(١) آية : ٦٩ .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن (بتصرف يسير) .

(٢) سورة البقرة مدنية

إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى فى حجة الوداع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ
مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾

اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور ؛ فمنهم من قال هى مما استأثر الله بعلمه ، ومنهم من فسّرها ، واختلف هؤلاء فى معناها . « وقد وردت فى تفسيرها وجوه كثيرة ، نختار منها وجها . إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهى فى متناول المخاطبين به من العرب ؛ ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتاب المعجز ، الذى لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . . الكتاب الذى يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فلا يملكون لهذا التحدى جوابا !

« والشأن فى هذا الإعجاز هو الشأن فى خلق الله جميعا . وهو مثل صنع الله فى كل شىء وصنع الناس . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات ، فإذا أخذ الناس هذه الذرات ، فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز ، كائنًا فى دقته ما يكون ، ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة ، حياة نابضة خافقة ، تنطوى على ذلك السر الإلهى المعجز ، سر الحياة ، ذلك السر الذى لا يستطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر . وهكذا القرآن . . حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلامًا وأوزانًا ، ويجعل منها الله قرآنا وفرقانًا . والفرق بين

صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض . . هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة ! » (١) .

وبعد أن قال الحق تبارك وتعالى « الٓمٓ » للإعجاز ابتداءً : يعقب ذلك بالإشارة إلى موطن الإعجاز ألا وهو القرآن الكريم ، فيقول تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾ أى : لا شك فيه ، إذْ لا يختلط به الباطل . إنه عين الصدق والحق ، وهو الحقيقة الواضحة ، الناطقة بحقائق هذا الوجود ، وذلك الكون ، جاء بها هذا الكتاب يسطع بالنور ، ويبرهن على القدرة ، ويعلن عن الحكمة ، ويصدر عن الأمانة ، ويبسط آياته لبيان عظمة الخالق جل وعلا .

ولكى يكون القرآن لا ريب فيه على مر العصور : تكفل الله وحده بحفظه .

قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وإذا كانت جميع الكتب السماوية ـ قبل القرآن ـ لم تسلم من التحريف والتبديل ، فإن القرآن يبقى وحده ، فريدًا ، سالمًا من أى تبديل أو تحريف .

يقول الشيخ محمد الغزالى ، فى معنى ذلك « نحن نوقن بأن القارات الخمس لاتحوى سجلاً للوحى الأعلى إلا فى هذا الكتاب العزيز » (٢) .

إن الله تبارك وتعالى يهدى بكتابه هذا الذين اتقوه : ﴿ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾(٣) .

ومعنى التقوى هنا اتقاء العذاب بالطاعة والامتثال . ويستحيل أن يتقى الإنسان ربه إلا إذا عرفه حق المعرفة .

فالتقوى ثمرة المعرفة الحقيقية التى تعلو إلى مرتبة الشهادة القلبية ، كما أراد الله تعالى منا فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

ويقول ـ ﷺ ـ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به ، حذرًا لما به بأس » (٥) .

---

(١) فى ظلال القرآن : ١ / ٣٨ . (٢) دستور الوحدة الثقافية : ص ٢٧ .

(٣) المائدة : ١٦ . (٤) آل عمران : آية ١٠٢ .

(٥) رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد باب الورع والتقوى ، ورواه الترمذى فى السنن كتاب صفة القيامة ، باب١٩ وقال : «حسن غريب» !

وسأل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أبى بن كعب عن التقوى ، فقال له أما سلكت طريقًا ذا شوك ؟ قال : بلى .

قال : فما عملت ؟

قال : شمرت واجتهدت .

قال : فتلك التقوى .

ووصفها على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بأنها : « الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل » .

وجاء فى فضل التقوى عن عبد الله بن عمرو . قال : « قيل يا رسول الله ـ ﷺ ـ أى الناس أفضل ؟

قال : كل مخموم القلب ، صدوق اللسان .

قالوا : صدوق اللسان نعرفه فما هو مخموم القلب ؟

قال : هو التقى النقى ، لا إثم فيه ولا بغى ، ولا غل ، ولا حسد »(١) .

هذه هى التقوى التى تجعل المسلم يحب ربه ، ويخافه فى الوقت نفسه ، فيتحرى الطاعة ، فلا يفتقده الله حيث أمره ، ويخشى المعصية ، فلا يراه الله حيث نهاه ، وتلك منزلة المتقين ، الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه ، يخافون أن يمسهم غضب من ربهم ، فيحذرون المعصية ، ويشفقون من أن تفوتهم الطاعة ، على أكمل وجه لله جل وعلا .

وقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ المتقين غير مرة فى كتابه العزيز . وفى هذه السورة يوضح سماتهم وخصائصهم بأنهم : ﴿ **يؤمنون بالغيب** ﴾ .

أى أنهم يؤمنون بأن هذا العالم الدنيوى القائم المشهود : وراءه عالم آخر مستور ، قائم قيام هذا العالم الملموس المنظور .

فالجنة قائمة ، وإن لم يروها ، فإيمانهم بها إيمان بالغيب . والنار قائمة ، وإن لم يروها ، فالتصديق بها تصديق بالغيب . وكذلك الإيمان بالله ، وملائكته ، واليوم الآخر . . . كل ذلك إيمان بالغيب .

وهذا الإيمان يدفعهم إلى خشية الله يوم القيامة . فهم على يقين من أن الله تعالى

---

(١) رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد باب الورع والتقوى ، وفى الزوائد : هو إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

سيتجلى عليهم وينظر إليهم . ولهذا فهم يعملون لهذا اليوم ، ويعدون له الزاد . أولئك هم المتقون ، الذين يؤمنون بالغيب ، وبالآخرة هم يوقنون .

وقد بين الإمام الشهيد حسن البنا ـ عليه رحمة الله ـ ذلك فقال :

« ليس المراد بالإيمان بالغيب التسليم الأعمى بدون دليل أو برهان ، مما يؤدى إلى اعتقاد الخرافات ، والتصديق بالأوهام ، وبما لا يتفق مع الحقائق العليا ، التى جاء بها الدين الحنيف ؛ فقد نهينا عن مثل هذا الإيمان المتهافت . فالمراد بالذين يؤمنون بالغيب هو هذا الصنف المشرف الشفاف من النفوس الطيبة اللينة الحسنة الاستعداد ، لتقبل الحقائق ، وإن جاءتها عن غير طريق الحواس » .

ومن صفات المتقين ، أنهم ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ . والصلاة هى : الركن الثانى من أركان الإسلام بعد الشهادتين اللتين بهما نعتقد أن لله الفاعلية فى كل كونه .

والعبادات كلها توقيفية ، ومعنى ذلك أننا نتلقاها عن الرسول ـ ﷺ ـ ونقوم بها على النحو الذى أداها به رسولنا الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد علّمنا أن نصلى كما رأيناه يصلى ، ونحج كما رأيناه يحج ، ونصوم كما كان يصوم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ ، يختلف عما إذا قال « يؤدون الصلاة » . فإقامة الصلاة ، تعنى أن ينصرف المصلى بتكبيرة الإحرام عن نفسه ودنياه ، ويعيش ما يقرأ من القرآن ، ويؤدى ركعاته وسجداته بخشوع قلبه وخضوع روحه ، إلى أن يرتقى الخشوع إلى مرتبة كأنها الحضور والشهود لله ، وكأنه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان .

ومن إقامة الصلاة أن تصلى لوقتها ، فإن ذلك من أفضل الأعمال .

والصلاة تقوم النفس وتقويها ، وتجعل لها عزيمة وإرادة ودفعة حياة ، وبذلاً دائماً فى سبيل الله .

وطهارة البدن ونظافة الأطراف ، تعوّد النظافة الحسية التى ترتقى بك مع الذكر والتسبيح والتهليل إلى طهارة قلبية .

ومن صفات المتقين أيضًا ، أنهم كما وصفهم القرآن : ﴿ . . . **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة ـ وإن كان حكمها مازال معمولاً به ـ واختار ابن جرير أنها تعم الزكاة وغيرها من النفقات ، فالمسلم ينفق من ماله حين يجد أخاه المسلم فى حاجة إلى الطعام ، وكذلك الثياب ، وغيرها .

وهؤلاء المتقون ﴿ **يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ . إنهم يؤمنون بالقرآن الذى أنزل على محمد - ﷺ - كما يؤمنون بالكتب التى نزلت من قبل .

إنهم لا يفرقون بين نبوة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونبوة محمد - ﷺ - الخاتم لكل النبوات . . .

إنهم يؤمنون بالكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، وبالكلمات التى تنزلت على جميع الأنبياء من بعد آدم . فهم كما وصفهم تعالى بقوله :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥

ولكن ليس معنى الإيمان بما أنزل من قبلنا أن نعمل بشرائع الأمم قبلنا دائمًا ، بل نعمل بالقرآن والسنة المبينة له ، ونؤمن بأن هذه الرسالات متفقة معنا فى العقائد ، وتختلف فى التشريع ، وأننا مطالبون بأن يكون للقرآن الهيمنة الكاملة على كل الرسالات .

قال تعالى :

﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾(١) .

وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤

والإيقان بالآخرة يعنى أنهم لا يشكون فى أمر الآخرة ، ويرونها ماثلة أمام أعينهم رأى العين ، ولا يتم الإيمان إلا باليقين .

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥

هؤلاء المتقون المفلحون ، هم الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ويهتدون إذا ضل

---

(١) المائدة : ٤٨ .

الناس ، فيعيشون غرباء فى أوطانهم وبين ذويهم ، ويعملون على إصلاح ما أفسد الناس من سنة نبيهم - ﷺ - يجاهدون فى سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، يقولون كلمة الحق وهم يعلمون أن الموت أقرب إليهم من شراك نعالهم .

إنهم طائفة ظاهرة على الحق ، قائمة به حتى تقوم الساعة ، وهى قائمة لا يضيرها من خالفها ، ولا من خذلها حتى ينفخ فى الصور الموعود وهم على ذلك ، فينتقلون إلى دار الكرامة ، ويناديهم ربهم : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ (١) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

بعد الحديث عن المتقين وصفاتهم فى الآيات السابقة تتحدث الآيات هنا عن طائفة مناقضة للمتقين ومناهضة لهم ، وهى طائفة الكافرين، لا تنفعهم الذكرى ، ولاتجدى معهم الموعظة . لا يهتدون ، ولاينتفعون بها فى الكتاب من آيات بينات ، يزداد بها المتقون إيمانًا مع إيمانهم ، بينما لايزداد الكافرون بها إلا ضلالاً على ضلالهم .

وإصرار الكافرين على كفرهم ، ليس السبب فيه تقصيرًا فى البلاغ ، ولا عيبًا فى القرآن، ولكن لأن الكفر متشبث بقلوب هؤلاء ، بما اكتسبوا من سيئات رانت على قلوبهم فغلّفتها، وعلى أسماعهم فأصمّتها ، وعلى أبصارهم فأعمتها .

إنهم لا يعاندون الله ولا يعاندون رسوله - ﷺ - بل إنهم يعاندون أنفسهم بعنادهم للحق الذى جاءهم من ربهم ، وللحقيقة القائمة فى ضميرهم .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟
أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟

---

(٢) الزخرف : ٦٨ .

سُورَةُ البَقَرَةِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾
أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ
ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ
كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

بين الله سبحانه وتعالى لنا بإيجاز صفات المتقين ، ثم صفات الكافرين ، ثم بين هنا بشىء من التفصيل صفات طائفة المنافقين ، لأن عالم المنافقين عالم متفرد . إذ النفاق خليط غير متكافئ من باطل ألبس بحق ، وحق أشرب بباطل ، يشع فيه النور فجأة كما يختفى فجأة ، ويستحيل إلى ظلام دامس مخيف ـ فلا تكاد تميز بين نار استوقدت لتضيء وأخرى لتلهب عالمًا تسود فيه دواعى الحيرة والتردد والقلق والتساؤل .

وأصل النفاق : أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن ، وهو المتعارف عليه شرعًا بـ «إظهار الإيمان وإخفاء الكفر » . وقد ظهر بين صفوف المسلمين ـ أول ما ظهر ـ فى المدينة . وسورة البقرة أول سورة مدنية تتناول المنافقين بذكرهم وبيان صفاتهم . ولم يكن الحال بمكة يدعو إلى ظهور أمثال هؤلاء المنافقين ، لأنه لم تكن للإسلام دولة تحمل الناس على منافقة المسلمين ، بل كان كفار مكة يظهرون للمسلمين عداءهم الذى يكنونه .

أما فى المدينة وقد صارت الشوكة والغلبة للمؤمنين ، وقامت دولتهم بقوتها ، بجيشها ، بحكومتها ، وقبل ذلك كله بقائدها ورائدها محمد ـ ﷺ ـ إذن فقد تغير الحال ، وأصبحت الدولة للمسلمين ، وهنا ظهر النفاق .

وخطر الكفر أقل من خطر النفاق ، ذلك أن أهل الإيمان يقفون من الكفار وجهًا

لوجه ، ويعلنون الحرب عليهم ، فمقاومة الكفر أهون وأيسر من مقاومة النفاق ، لأن النفاق غير معلن ، ولذلك نجد قيامنا فى هذه الدائرة صعبًا وحرجًا ، والأمة الإسلامية قد عانت - فى تاريخها الطويل - من المنافقين أكثر مما عانته من أعدائها الظاهرين . ولذا كان القرآن معنيًّا برسم ملامحهم ، ووصف علامات نفاقهم ، حتى يتعرفها المؤمنون فيحذروهم ، ولايقعوا فى حبائل خداعهم .

وحتى نعلم خطر هذه الفئة على الإسلام والمسلمين ، فلنتصورهم وهم يأتون رسول الله - ﷺ - ومن بعده من المؤمنين ، فيقولون : « نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » والله يعلم إنهم لكاذبون . . وهم يظنون أنهم بكذبهم هذا قد خدعوا الله ورسوله والذين آمنوا ، بينما هم المخدوعون حقًّا ؛ ذلك أنهم يسيرون فى طريق نهايته الدرك الأسفل من النار ، ولن يجدوا لهم نصيرا .

فما أقسى قلب من خالط أهل الحق ، واستمع من رسول الله - ﷺ - وعايش التعاليم والمبادئ التى علّمها وشرحها رسول الله - ﷺ - لأصحابه ، ثم أصر - بعد هذا - على الكفر سرا . وما أتعس وأبأس من نافق فى الدنيا حتى إذا كان يوم القيامة واتجه المنافقون ليجلسوا حيث يجلس المؤمنون - كما كانوا يفعلون فى الدنيا - إذا بسور يضرب بينهم ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فينادون المؤمنين : ﴿ **ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله . . .** ﴾ (١).

والمرض هو الشك . قال بذلك غير واحد من صحابة رسول الله - ﷺ - منهم ابن عباس ، وابن مسعود . وقال بذلك أيضًا جماعة من التابعين ، منهم مجاهد ، وقتادة والحسن البصرى .

وعن عكرمة وطاوس فى قلوبهم مرض يعنى الرياء (٢) .

وقد جازاهم الله فى الدنيا بمزيد من المرض على مرضهم ، ذلك أن الجزاء من جنس العمل . أما فى الآخرة فقد أعد لهم العذاب الأليم ، وتلك هى عاقبة كذبهم الذى لم يتخلوا عنه فى الدنيا .

والكذب أول آيات المنافق ، وبه يدارى نيته الخبيثة وباطنه السيئ . وأعظم الكذب :

---

(١) الحديد : ١٤ .

(٢) ابن كثير : ١/ ٤٨ .

الكذب على الله ، وعلى رسوله - ﷺ - قال تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ (١) .

ثم بين الحق تبارك وتعالى صفة أخرى فيهم ، وهى أنهم :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

و « الفساد خروج الشيء عن حال استقامته ، وكونه منتفعًا به ، ونقيضه الصلاح ، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة » (٢) .

والإفساد فى الأرض إنما يكون بمعصية الله ، فبقدر ما فيها من المعاصى بقدر ما فيها من فساد وإفساد .

يقول تعالى : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ (٣) .

وهذه الطائفة من الناس قد اتخذت ادعاء الإيمان بالله واليوم الآخر ذريعة لكى يفعلوا ما يحلو لهم ، وحجابًا يستترون وراءه من قبيح أفعالهم .

وهذه صفة المنافقين فى كل زمان ، قبل البعثة ، وبعدها ، وإلى يومنا هذا ، بل إلى يوم الدين بنفس صفاتهم وخلائقهم التى وضحها القرآن ، كما سبق بيانه . فإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض ، بتعطيل شرع الله ، قالوا : ما نريد إلا الإصلاح . فهم مفسدون ، مرة باسم المصلحة العامة ، ومرة باسم الحضارة .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال :

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

وليس بين هؤلاء المنافقين والدرك الأسفل من النار إلاّ الموت ، وليس بينهم وبين الجنة إلا أن يوافق باطنهم ظاهرهم ، وفعلهم قولهم » .

قال تعالى :

﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * إلاالذين تابوا**

---

(١) الصف : ٧ .
(٢) محاسن التأويل ، القاسمى ، ١/ ٤٣ .
(٣) الروم : ٤١ .

وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيمًا ﴾(١) .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وبعد نهيهم عن المنكر فى الآية السابقة بـ ﴿ لا تفسدوا ﴾ ، يأتى أمرهم بالمعروف فى هذه الآية بـ « آمِنُوا » .

وقوله تعالى : ﴿ آمنوا كما آمن الناس ﴾ يعنى الإيمان الحق ، الذى أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ به ، والذى عرَّفه العلماء بأنه « قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان» . ولكنهم يرون أنفسهم فى مكانة تعلو بهم عن إيمان العامة ، فلابد لهم من لون خاص من الإيمان ، يتناسب مع مناصبهم ومراكزهم ، وسياساتهم ورئاستهم . لون من الإيمان لا أمر فيه ولا نهى ، لا شرع فيه ولا شريعة .

وبإيجاز : يريدون إيمانًا غير الإيمان الذى عليه الناس ، والناس عندهم ، هم السفهاء ، ولهذا قالوا :

﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ ﴾

ولكن الله سبحانه وتعالى قد رد عليهم مقولتهم ، وحصر السفاهة فيهم ، وتولى عن المؤمنين الجواب عليهم ، فقال تعالى :

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى ، القليل المعرفة بمواطن المصالح والمضار . وهم كذلك ولكنهم لا يعلمون ، فقد فتنوا بأهوائهم ، فصدوا عن السبيل . ولشدة سفههم لا يعون حقيقة أمرهم ، ولا حقيقة أمر من رموهم بالسفه بغير علم .

ويضيف الله تعالى صفة أخرى للمنافقين بقوله تعالى :

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

---

(١) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ .

وهم مذبذبون بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، لا ينتمون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وبينما يرفضون أن يكونوا على مثل إيمان المؤمنين ، ويعدونهم من السفهاء ، فهم حين يلتقون بهم يؤكدون لهم أنهم على مثل ما هم عليه من الإخلاص لله ، وذلك لأن الله قذف فى قلوبهم الرعب من المؤمنين ، حتى إذا انتهوا إلى أعوانهم من الكفار الذين يعادون المؤمنين ، أكدوا لهم الولاء ، ووضعوا أيديهم فى أيديهم ، مصرحين بكفرهم ساخرين مستهزئين .

وقوله تعالى : ﴿ **ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾ يعنى أنه يزيدهم ضلالاً على ضلالهم، وطغيانًا على طغيانهم ، ومرضًا على مرضهم ، فيزدادون حيرة على حيرتهم ، فلا هم يخرجون مما هم فيه ، ولا هم يظلون على ما هم عليه ، فهم فى زيادة مستمرة من الرجس على رجسهم ، فلا يفيقون إلا وهم فى قاع جهنم ، مع فرعون وهامان وقارون وأمية بن خلف .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾

قال قتادة : « قد والله رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة» (١)، فتلك صفقة خاسرة ، وتجارة كاسدة ، وجهل منهم بما فيه مصلحتهم وصالح أمرهم فى الدنيا والآخرة .

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾

ويضرب الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الأمثال لهؤلاء المنافقين حتى يزيد صورتهم وضوحًا : يكشف حال هؤلاء المنافقين ، ويفضح أعماق شعورهم ، ويقف على حيرتهم بالتصور الملموس. فهذا رجل قد أوقد حطبًا ، وظن أن نار الحطب ستظل ، ليهتدى بها ، وهو فى جوف ليل ساحق الظلمة ، فلما أنار الحطبُ ما حوله ، ورأى كل شىء على حقيقته، واغتر به كثيرًا ، وظن أنه يستطيع أن يسير بهذا الضوء المؤقت ، فوجئ بأن الضوء كان خداعًا له ، إذ لم يستمر الضوء إلا قليلاً ، وعاد إلى ظلام دامس، وقد نفد وقوده وتحول إلى رماد .

---

(١) فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، ١/ ٦٣ .

هكذا حال المنافقين .

إنهم طلبوا معرفة الحق ، فلما أضاء الحق لهم تمردوا عليه ـ سبحانه ـ فذهب بنورهم ، وحلت عليهم ظلمة كثيفة من الكفر والنفاق .

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وكذلك فى الآيتين ١٩ ، ٢٠ مثل آخر ضربه الله لنوع آخر من حالات النفاق ، حالة قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أخرى ، فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم على ما ذكرته هاتان الآيتان (١) ، فهم لقلة إيمانهم فى فزع دائم ، وفى حذر غير نافع وكلما ازداد الإسلام قوة ، استكانوا وتابعوه ، ثم تعرض لهم الشكوك فيرتدون إلى الظلام وإلى ضلال النفاق .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

فى بداية السورة عشنا مع عالم المفلحين الناجين بطهارة قلوبهم واستقامة سلوكهم ، فقد أقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله ، والتزموا منهج الحق فى حياتهم ، فأحسن الله فى الآخرة عاقبتهم ، وأكرم مثواهم ومستقرهم . ثم بين لنا السبيل الذى يُلْحقنا بهم وهو: عبادة الله الواحد الأحد ، الذى خلقنا وخلق الذين من قبلنا : خلقهم جميعًا ليعبدوه ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (٢) .

فإذا عرفنا ذلك ، واعتقدناه ، وعملنا به ، نكون من المتقين الناجين المفلحين .

---

(١) انظر تفصيل ذلك ابن كثير : ١ / ٥٤ ، ٥٥

(٢) الذاريات : (٥٦ ـ ٥٨) .

ثم يقول :

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

وهذا مزيد من التذكير بنعمة الخالق ، فهو لم يخلقنا عبثا ، ولن يتركنا سدى ، فقد يسر لنا الحياة ، وقدر فى الأرض أقواتنا ، وفى السماء أرزاقنا ، فبسط الأرض حتى كانت لنا فراشًا وثيرًا ، ورفع السماء فكانت لنا ظلا ظليلا ، وأنزل منها الماء ليخرج من الأرض مكنونها من الأقوات التى قدرها الله لعباده وخلقه . . فكيف نجعل لله بعد ذلك ندا . . أونظيرًا . . . أو شريكًا فى أى شىء وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وليس كمثله شىء ؟

وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟
فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا
رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

بعد أن ذكرنا الله سبحانه وتعالى بنعمه يدعونا إلى الإيمان بالقرآن . . . بالرسالة التى أرسل بها نبيه ـ ﷺ ـ حتى يتم لنا الإيمان به .

من كان فى شك من أن هذا القرآن منزل من عند الله ، فيمكن له أن يزيح هذا الشك عن صدره بأن يأتى بسورة من مثل هذا القرآن ، فإن استطاع ذلك ، فهو على حق فى أن هذا القرآن ليس منزلاً من عند الله ، وإن لم يستطع فليؤمن بهذا الكتاب ، وليصدق برسالة من نزل عليه الكتاب ، وليتق الله ربه باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وإلا كانت عاقبته النار التى أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين . ﴿ **نارا وقودها الناس والحجارة** ﴾ .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يتحدى الذين يَشُكُّون وَيُشَكِّكُون فى رسالة محمد ـ ﷺ ـ

يتحداهم إلى يومنا هذا ، وإلى أن تقوم الساعة : أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . ولو بسورة . . . ولو بآية ؟ .

وهذا إنذار من الله ـ سبحانه ـ للعباد ، فليس أمامهم إلاّ أن يسلموا . . . ويسلموا لله رب العالمين ، وإلاّ فالنار التى أعدت للكافرين .

أما من آمن بهذا الكتاب ، وعمل بما أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ به فله البشارة من الله ورسوله بجنات غير محدودة ولا معدودة ، كلما رزقهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها رزقًا وأعطاهم عطاء ، قالوا : لقد رزقنا هذا من قبل .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ
بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

نزلت هذه الآية لما قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، أى كالذى استوقد نارًا أو كصيب ، وهذا مروى عن السّدى ، عن ابن عباس وابن مسعود⁽¹⁾ .

وقيل نزلت ردًا على المشركين الذين قالوا : « ما بال الله يضرب المثل بالذباب والعنكبوت؟» . يضرب الله المثل بالبعوضة البسيطة ، التى تستصغرها وتستحقرها الأنظار لينبه إلى أن سهولة الخلق لديه فى بسط الأرض ، وجعل الجبال موازين لها ، وفى رفع السموات وبث الأفلاك ، مثل سهولة الخلق لديه لهذه البعوضة ، لذلك فهو لايستحيى أن يضرب مثلاً مّا : بعوضة فما فوقها .

« أى أية بعوضة صغيرة كانت أو كبيرة ، فما فوقها ، قيل : فوقها فى الصغر والحقارة ، وقيل : فما فوقها فى الكبر »⁽²⁾ .

يضرب الله بها المثل ، وهو يعلم أن فيها الإعجاز للإنسان المتغطرس ، وفيها مزيد

---

(1) تفسير ابن كثير ج ١ / ٦٤ ط الحلبى .

(2) تفسير ابن كثير ج ١ / ٦١ .

من الإيمان للمتعظ المتدبر ، إذْ بينما يمر عليها الكافر ولا يعيها ، ينظر إليها المؤمن ويتدبرها ويتعظ بالحق الذى تنطق به .

والفسوق هو « الخروج » تقول العرب فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرتها ، ويقال للفأرة فويسقة ، لخروجها عن جحرها للفساد . والفاسق : يشمل : العاصى والكافر، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش ، والمراد من الآية الفاسق والكافر، والله أعلم⁽¹⁾ .

والمسلم الذى يصر على المعاصى ، ويعطل أمر الله ونهيه ، إنما هو من الفاسقين ، وقد يكون عاقبة إصراره على الذنب أن يقع فى الكفر وهو لا يدرى .

إذن فالفسق يكون بمعنى المعصية : تارة ، ويكون بمعنى الكفر ، تارة أخرى .

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

والعهد فى الآية قد يراد به ما عهد الله به إلى أهل الكتاب فى التوراة والإنجيل . وقد يكون العهد هو ما أخذه الله على جميع بنى آدم فى عالم الذر ، حيث أقروا له بالربوبية . وشهدوا على أنفسهم بالعبودية لله ـ سبحانه ـ لقوله تعالى : **﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾**⁽²⁾ .

ونقض العهد مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أعظم الذنوب . وأكبر عهد أخذه على بنى آدم هو عهد الخلافة : خلافة بنى آدم عن الله فى الأرض . . يحكم بحكمه . . يأمر بأمره . . ينهى بنهيه ، وذلك بعد العهد الذى أخذه عليهم بأنه الرب الخالق ، وهم العبيد ، وذلك بقوله تعالى : **﴿ ألست بربكم ﴾**؟ وبقولهم إجابة عليه سبحانه بكلمة **﴿ بلى ﴾** .

والذين أسلموا قلوبهم وأبدانهم لله ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه ، هم أصحاب العهد الذين لم ينقضوه .

أما الذين يفعلون غير ذلك ، فهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٦٥ .

(٢) الأعراف : ١٧٢ .

فبعد أن علموا أن الإسلام هو انقياد وطاعة ، حادوا عن الطريق المستقيم .

السياق فيه إجمال ، والصلات المطلوبة فى مجموعها كما قال سيد قطب : صلة الرحم والقربى ـ صلة الإنسانية ـ صلة العقيدة والأخوة الإيمانية ص ٥٢ .

وقيل : يقطعون كل ما أمر الله بوصله من الطاعات ، فيتركون الصلوات ، فينقطعون عن رحمة الله ، وعن الصلة بالله ، ويقطعون الصلة بينهم وبين الله أيضًا بتركهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويقطعون حبل الله الواصل إليهم من السماء بهجرهم للقرآن ، وكتمانهم للعلم عن المسلمين ، فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

هذا بيان للخلق ، لكى يتفكروا : أنهم كانوا أمواتًا : كانوا عدمًا ، ثم صاروا أنفسًا حية . تخرج إلى الدنيا ، وتحيا ما شاء الله لها أن تحيا ، ثم تموت ، ثم تمكث فى القبور حتى يأتى الإحياء الثانى بعد الموتة الثانية ، وهو البعث يوم النشور ، لترجع إلى الله ـ عز وجل ـ .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

فالله سبحانه وتعالى خلق لنا كل ما فى الكون ، فإذا استعملناه فيما يرضيه فقد أحسنا ، وإذا استعملناه فيما يغضب الله فقد أسأنا ، خلق لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ، وهذه نعمة كبرى ، **﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ﴾** ، فلا نرى فيها من فطور . رفعها الله بقدرته ، وسوّاها بحكمته ، وجمّلها بإبداعه . ويمسكها بعظمته . **﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليمًا غفورًا ﴾** ⁽¹⁾.

ثم هو سبحانه : عليم بكل شىء : **﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾**⁽²⁾.

---

(١) فاطر : ٤١ .

(٢) الملك : ١٤ .

سُورَةُ البَقَرَةِ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا
مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم
بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

الخلافة عهد قائم بين الحق تبارك وتعالى وبين خلقه منذ آدم ، ذلك أن الله تبارك وتعالى سأل الخلق ـ حين كانوا فى عالم الذر ـ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .

وهذه الأمانة فى صورتها الكبرى هى العهد بالخلافة ، إذن فكل إنسان من ولد آدم مسئول عن تلبية نداء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومسئول عن تحمل التبعة التى قبلها عن الله . فالذين شهدوا لله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحدانية ، ولرسوله بالرسالة ، قد استجابوا لله ـ سبحانه وتعالى ـ حين دعاهم ، وقد جاء محمد ـ ﷺ ـ وأقام هذه الخلافة ، وصحح للذين سبقوه من أمم الأنبياء من قبله : ما وقعوا فيه من خيانة للعهد وتقصير فى حمل الأمانة ، وبيّن لهم مسئولية كل مسلم عن إقامة أمر الإسلام فى نفسه وفى غيره .

وسؤال الملائكة هنا ليس اعتراضًا على الله ، ولا حسدًا لبنى آدم ـ إذ لم يكن هناك تنافس بين آدم والملائكة على الخلافة ، حتى يقال هذا ـ لكنه سؤال استعلام واستكشاف ، كما ذكر ابن كثير(١) .

وحين رد الله ـ سبحانه وتعالى عليهم هذا الاستفهام بقوله : ﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ لم تعد الملائكة الكرة .

ثم تفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ملائكته فكشف لهم عن بعض سر اختياره لخليفته ﴿ **وعلّم آدم الأسماء كلها** ﴾ فتعلمها ، ثم عرض الأشياء على الملائكة ، وقال : ﴿ **أنبئونى بأسماء هؤلاء** ﴾ فعجزت الملائكة مسبحة بنعمة الخالق وحده قائلة :

---

(١) تفسير ابن كثير ، ١/ ٦٩ .

﴿ سبحانك لا علم لنا إلاّ ماعلمتنا ﴾ ، ثم أقرت لله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعلم مع الحكمة قائلة : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم﴾ .

وقد سماه الله آدم لأنه خلقه من أديم الأرض ، من جميع عناصرها . وناداه الله ـ سبحانه وتعالى ـ باسمه فلبى ، وقد علمه الله الأسماء كلها بما فيها اسمه ، ثم أمره أن يذكر أسماء الأشياء كلها ، فتلاها جميعًا ، وحين ذاك تمت الحجة تفضلاً من الله على الملائكة ، وعند ذلك أمرهم بالسجود له .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤)

وحين أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة بالسجود لآدم : كان ذلك أمرًا تكريميا من الله لآدم ، فالسجود هنا ليس بمعنى العبادة ، بل سجود تحية وسلام وإكرام ، وهو طاعة لله عز وجل لأنه امتثال لأمره تعالى .

وكان آدم بمثابة الكعبة لابد أن يتجه الإنسان إليها فى صلاته ، فيكون السجود لله لا لأحجار الكعبة .

وقد أطاعت الملائكة أمر الله وسجدت لآدم ، معترفة بفضله عليها بتعلم الأسماء ، وأبى إبليس أن يسجد ، فنزل عليه غضب الله ، وصدر أمر جديد .

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)

ونادى الله آدم وزوجه ليسكنا الجنة ، وحذرهما من الأكل من شجرة معينة فى الجنة ، ولهما بعد ذلك أن يأكلا من حيث شاءا ، كما شاءا ، وكيف شاءا ، ومتى شاءا . وهنا ظل إبليس يوسوس لآدم وزوجه بالأكل من الشجرة ، موحيا إليهما أنها شجرة الخلد والملك الذى لايزول ، حتى وقع آدم ، فأكل من الشجرة ، وحين ذلك تحسس نفسه فوجدها عارية من ستر الطاعة ، فأخذ يخصف عليه من ورق الجنة ، ولكن الجنة لم تخلق لهذا ، فلم يكن لأحد أن يعصى ربه فى جنته . لقد عجز عن ستر عورته التى لم

يكن يراها ، ونظر إلى زوجه فرآها مثله ، لقد خرجا ـ بمعصية ربهما ـ مما كانا فيه من نعيم السعادة .

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ
فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩

فمن سلك سبيل المحسنين التائبين فلا يخاف ولا يحزن ، أما من سلك سبيل إبليس فهو من أصحاب النار « خالدين فيها » .

وقد وضع الله بذلك قانونًا وناموسًا ثابتًا للإنسان فى كل زمان ومكان ، وهو أن سعادته فى اتباع الهدى ، وشقاءه ـ فى الدنيا والآخرة ـ فى تكذيب آيات الله والصد عن منهج الله تعالى .

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ
فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ
وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١

ينادى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبناء العبد الصالح والنبى المبعوث : إسرائيل . فياأولاد الرجل الذى وهب نفسه لله ، يا أولاد يعقوب ، حفيد إبراهيم . . ﴿ **يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** ﴾ ، وقد أنعم الله عليهم بالكثير من النعم ، ذكر سيدنا موسى لهم بعضها حين قال لهم : ﴿ **يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين** ﴾ ⁽¹⁾ أى أن أهل زمانهم لم ينالوا مثلهم . إذا كان المطلوب بيان نعم الله عليهم ، فهذا قليل وهناك ما هو أهم منه ، ويبدو هذا من مقارنة ﴿ **جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا** ﴾ بتفجير الماء ونزول المن والسلوى . فاشكرونى على ذلك بالإيمان بى ، والوفاء بعهدى عليكم ، حتى تنالوا ما عاهدتكم عليه وواعدتكم به من الجزاء والثواب العظيم .

أوفوا بعهد التوحيد الذى أخذه عليكم آباؤكم من قبل ، واخشونى ولا تعرضوا

---

(١) المائدة : ٢٠ .

أنفسكم لغضبى وعقابى ، وإنكم لن تفوا بعهدى حتى تؤمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم، ألا وهو القرآن ، مصدقًا لما بين أيديكم من التوراة والإنجيل ، فلا ينبغى أن تكونوا أول كافر به ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً** ﴾ والثمن القليل هو الدنيا بحذافيرها ، فهى لاتساوى شيئًا أمام آية واحدة تكفرون بها من آيات الله .

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

وتلبيس الحق بالباطل ، هو طريق من أراد أن يكتم الحق ، فيظهره بصورة غير صورته الحقيقية ، ويستبدلون به الباطل وهم يعلمون . وهذا إثم عظيم ، وذنب كبير، فإن يكتم أهل الحق ما اسْتُحْفِظُوا عليه ، وصاروا عليه أمناء ، فمن يبينه للناس بعدئذ؟ .

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أى أقيموا الصلاة كما فرضها الله ، وأنزلها وشرعها . كما يقيمها من آمن بما أنزل الله على رسوله ، وآتوا الزكاة كما يؤتيها أصحاب محمد ـ ﷺ ـ ولاتصح لكم صلاة ولا زكاة حتى تنضموا إلى صفوف الراكعين من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ فتركعوا معهم لله رب العالمين ، ذلك أن محمدا قد جاء بالرسالة الخاتمة المكملة لما بين أيديكم ، فما خالفكم فيه من أعمال فهو بمثابة نسخ لما بين أيديكم ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، حتى تكونوا قد وفيتم بعهدكم ، وأكدتم إيمانكم بما بين أيديكم ، فتصيروا من أمة محمد ـ ﷺ ـ .

۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

هذا استفهام بعد استفهام ، واستنكار بعد استنكار . إنه اللوم الشديد ، والعتاب الصارخ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ للذين علموا الحق ودرسوه يذكّرون به الخلق ، ويدعونهم إلى العمل بما فيه ، ثم يقعون هم فيما يحذرون منه ، ويقترفون ماينهون عنه ، ولايجدون لأنفسهم زاجرا من الناس عن الشر ، ولا آمرا من الناس بالخير .

﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ . أفلا يعقل هؤلاء شيئا مما يقرءون ، أو حرفا مما يعلّمون الناس؟

أقست قلوبهم إلى هذا الحد ؟ أم غلبتهم شهواتهم وأهواؤهم وما ينالون من العطاء المادى والثناء القاتل ؟

لقد نزلت هذه الآية بين مانزل فى بنى إسرائيل ، إلا أنها عامة فى الحكم ، لأن العبرة بعموم اللفظ ، لابخصوص السبب .

لقد كان علماء بنى إسرائيل يبشرون بمحمد - ﷺ - وينعتونه للناس ويستفتحون عليهم به ، ويأمرونهم بالإيمان به إذا ظهر ، ولكنهم حين جاء محمد - ﷺ - كفروا به .

عن ابن عباس فى هذه الآية يقول : « أتأمرون الناس بالدخول فى دين محمد - ﷺ - وغير ذلك مما أمرتم به من إقامة الصلاة ، وتنسون أنفسكم » .

وقد جاء رجل إلى ابن عباس فقال : يا ابن عباس إنى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ؟ قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ؟ قال : وماهن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثانى ، قال : قوله تعالى : ﴿ . . . **لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون** ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث : قال : قول العبد الصالح شعيب عليه السلام : ﴿ . . . **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت** . . . ﴾ أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك » .

وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم
مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

وهذا طريق كل من أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حيث يتطلب الكثير من مجاهدة النفس والاستعانة بالله - سبحانه وتعالى - حتى يقوى على مواصلة السير لما سيلقاه من صعاب ، فهو فى حاجة دائمة إلى الصبر ، ولايعوّد الصبر كالصوم ؛ « فالصوم نصف الصبر » .

والذى يدعو إلى الله ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، لابد أن يستعين بالله ويستهديه فيما يعترض طريقه من صعاب شتى .

والصلاة ثقيلة وشاقة على نفوس الكثير من الناس . أما الخاشعون الذين ألانوا الجانب لله ، وخفضوا الجناح بين يديه ، وتدبروا آياته ، واتصلوا بالله سبحانه وتعالى فى

صلاتهم ، فقد حبب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصلاة إليهم ، لأن فيها مناجاته سبحانه والقرب منه ، فهؤلاء الخاشعون قد جعلت قرة أعينهم فى الصلاة .

ولا يتأتى الخشوع فى الصلاة إلاّ من اليقين بالله واليوم الآخر ، وخوف اللقاء ، وعرض الأعمال على الله ، والاعتقاد بأن الصلاة ميزان الأعمال جميعاً ، فإن صَلَحَتْ صَلَحَ سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله ، وأنه سوف يرجع إلى الله فى يوم معلوم . ثم توفى كل نفس ما كسبت .

فخوف العبد من ربه ولقائه يبعث فى القلب الحضور والخشوع ، ويصرف المصلى عن أمور الدنيا مستشعرا اللقاء مع الله ، فيخضع له ويستنير قلبه بالنور المتجلى عليه فى صلاته ، فيزداد بالله يقينا وله حبا .

وهنا يسلم نفسه ويكل أمره لله رب العالمين ، فتصدر عنه الطاعة لله عن محبة ورضا ، وتقع فى النفس رهبة من معرفة الله ، ورغبة فى المزيد من المعرفة ، تشفى صدر هذا العبد المصلى ، الذى يحس بالوجود : ساجداً لله ، حين يسجد ، راكعا لله حين يركع .

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

يذكّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنى إسرائيل بنعمته عليهم حين حباهم بالرسالة وحين أيدهم بأنبيائه وعضدهم برسله ، مفضلا إياهم على جميع العالمين ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ أى على عالمى أهل زمانهم .

وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

اعلموا أن هناك يوما ستسألون فيه عما فعلتم ، وما فرطتم ، فاتقوا ذلك اليوم واعملوا له ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، لا تجزى نفس عن نفس ، ولكن كل نفس مسئولة عما قدمت ، اتقوا اليوم الذى لاتنفعكم فيه شفاعة ، ولن يأخذ الله منكم فداء لأنفسكم من النار ، ولا أنتم تنصرون على أى وجه من الوجوه .

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

وفرعون علم على كل من ملك مصر كافرا ، من العماليق وغيرهم ، كما أن قيصر

علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا ، وكسرى لمن ملك الفرس وهذا اختيار ابن كثير⁽¹⁾ .

وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ كان قد رأى رؤيا هالته : رأى نارا خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ، إلاّ بيوت بنى إسرائيل ، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل ، وعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد من بنى إسرائيل وأن تترك البنات، كما أمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأرذلها، ظنا منه أنه بذلك يمكنه أن يمنع قضاء الله ، أو يقف أمام أمر الله (٢) .

ولم يكن فرعون وحده هو الذى يقوم بتعذيب بنى إسرائيل ، من قبل موسى ومن بعده ، ولكنه استخدم أهله وجنوده جميعا فى ذلك ، إلا امرأته آسية التى آمنت بموسى ودعت ربها أن ينجيها من فرعون وعمله . وقوله تعالى : ﴿ **آل فرعون** ﴾ يعنى فرعون وجنوده الذين شاركوه فى بغيه وظلمه وعتوه ، وهم شركاء معه فى الظلم والبطش ، وسيكونون شركاء معه فى عذاب جهنم ، لقوله تعالى : ﴿ **... ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ . وهذا مصير كل طاغية وأعوانه وجنوده ، مهما احتج الجنود بأنهم مغلوبون على أمرهم ، مقهورون فى تنفيذ أوامر أسيادهم ، فالكل يستحق اللعنة والعذاب. قال تعالى : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ . لافرق فى الخطأ بين فرعون ووزيره هامان ، وجنودهما المساعدين لهما على الظلم .

وقد ذكّرهم الله بنعمته عليهم ، إذ كانوا يعيشون فى مصر أذلاء مغلوبين على أمرهم ، فأرسل لهم موسى ليحررهم من تحكم هذا الطاغوت المتجبر ، ويستخلصهم من ذل العبودية والمسكنة للبشر ، ليكونوا عبيدا لله الواحد القهار .

ذلك أن ماكان يقع بأبنائهم وأزواجهم تحت أبصارهم لَعَذَابٌ شديد أليم . والإنسان فى كثير من الأحيان يحتمل العذاب على نفسه أكثر مما يحتمله فى غيره ، إلا أن آل فرعون يلزمونهم أن يروا العذاب ويعايشوه ، مبالغة فى الإيذاء والانتقام .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

اذكروا نعمة الله عليكم إذ شق لكم فى البحر طريقا يابسا تسيرون عليه ، وجعل كل جانب من جوانب البحر كالجبل العظيم ، فلم يستطع فرعون وجنوده إدراككم ،

---

(١) ابن كثير ، ١ / ٩٠ . (٢) خلاصة ما ورد فى التفاسير .

ولكن أدركه الغرق هو وجنوده . ولقد رأيتم هذه الآية أمام أعينكم وأنتم تنظرون ؛ ألم يكن الأجدر بكم حينئذ أن تذعنوا لأمر الله ، وتشكروا إحسانه إليكم ، بدلا من هذا التمرد المستمر فى غير ما حياء ؟!

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٥١)

وبعد أن نجاهم الله ـ سبحانه ـ من فرعون ، وأخرجهم من مصر ، سألوا موسى حياة مستقرة يحكمها كتاب يأتى من عند الله يهتدون به ويتبعون مافيه . فسأل موسى ربه أن يؤتيهم كتابا ، فوعده الله بالتوراة ، وهى كتاب بنى إسرائيل ، يعرفون منه ما أحل الله وما حرم . وحدد له ميقاتا : أربعين يوما ، يأتيه موسى بعدها ، فيؤتيه ربه الكتاب . فلما ذهب موسى لميقات ربه ، اتخذ بنو إسرائيل عجلا يعبدونه ، وكان موسى قد ترك معهم أخاه هارون يعظهم ويقوم بالأمر فيهم حتى يعود موسى ـ عليه السلام ـ وبينما موسى يناجى ربه أخبره الله بما فعل قومه ، فرجع موسى إلى قومه ـ غضبان أسفا ـ فوجدهم اتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار ، يعبدونه من دون الله .

وأصل ذلك ـ كما قال المفسرون ـ أنه فى أثناء غيبة موسى جمع السامرى الحلى ، ثم صنع منها عجلا ودعاهم إلى عبادته ، فعكفوا عليه ، وكانت تلك الفتنة قد وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما .

وعجل الذهب رمز التعلق بزخارف الدنيا .

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)

ومع ذلك فقد عفا الله عنهم ، ورفع عنهم رجس عبادتهم للعجل ، تفضلا منه ونعمة ، لعلهم بذلك يتطهرون ، فيسمعون ، فيعقلون ، فيشكرون .

وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

والكتاب هنا هو التوراة ، وهو الفرقان ، والإنجيل كذلك فرقان ، والقرآن فرقان . ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفرق به بين الحق والباطل . .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ
فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

اقتلوا هذه النفوس الضعيفة المريضة الكافرة : توبة إلى الله ، وبراءة إليه من أنفسكم ، حتى إذا ما تطهرتم من رجس الشرك بالله : يتوب الله عليكم ويرحمكم ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ الذى بين لكم آياته ، وغطاكم بنعمه ، فعصيتموه ، وأشركتم به ، فلن [illegible] لكم إلا بقتل أنفسكم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾

وهذه آية عجيبة من آيات الله لبنى إسرائيل ، تمثل قمة الحلم والكرم من الله العلى الكبير.

إن بنى إسرائيل أمة تمردت على الحق ، فلم تذعن له ، ولم تسلم ، برغم ما بدا لهم من الآيات البينات .

فبعد كل ذلك نراهم يقولون : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ . يطلبون أن يَرَوُا الله جهرة . . لأن قلوبهم عجزت عن إبصاره ، ولو أبصرته القلوب لتأدبت الألسن ، وتهذبت الجوارح واستقامت النفوس .

ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ومن يتدبر الآيات : يلمح طباع بنى إسرائيل النافرة عن الحق ، التى تزداد سوءا بعد سوء . . . مع كل نعمة من نعم الله . . ومع كل ابتلاء من الله ، فلا النعم أخضعت قلوبهم فشكرت ، ولا النقم أصلحت نفوسهم فاستقامت .

فبعد كل ماكان منهم : أنزل عليهم الغمام ظلا فوق رءوسهم ، وأنزل عليهم المنّ

والسلوى ، حتى يأكلوا مما رزقهم الله من طيبات .

ومعنى ذلك : أنهم ظلموا ، وما شكروا .

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

والقرية هى بيت المقدس ، وقد قال لهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ادخلوا القرية فى خشوع ، كأنكم فى ركوع دائم أو سجود ، وذلك تنبيه من الله ـ تعالى ـ لهم من البداية : أن يسلموا الأمر لله ، ولايجادلوا فى أوامره وآياته .

﴿ **وادخلوا الباب سجدا** ﴾ .. طائعين .. منيبين .. خاشعين لله .. خاضعين له .. ﴿ **وقولوا حطة** ﴾ واسألوا الله ـ تعالى ـ أن يحط عنكم خطايكم .

فماذا فعل بنو إسرائيل ؟

هل انتبهوا لتحذير الله لهم ؟ هل اتعظوا بما سبق لهم ؟ لا ، ولكن بدلوا القول الذى قيل لهم .

وهذه قمة المعاندة والاستهزاء والمخالفة والفسوق ؛ ولذا كانت العقوبة عاجلة وقاصمة .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ
ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

.. لقد ضرب موسى الحجر فانفجر الماء من جهاته الأربع ، من كل جهة ثلاث عيون ، فكانت اثنتى عشرة عينا ، ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ .

ذلك أن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر ولدا ، وكان أحفاده اثنتى عشرة قبيلة ، يدعون «أسباط بنى إسرائيل» لكل قبيلة منهم زعيم من أحفاد يعقوب ، فكانت لكل قبيلة منهم عين تأخذ منها حاجتها من الماء .

وقد أورد القرطبى نكتة لطيفة حول هذه الآية ، يقول فيها : « وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء ، وفلق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبَّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد فى وصولهم إلى المراد ؛ وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد »⁽¹⁾ .

ولا يخفى على القارئ أن معجزة موسى كانت كامنة فى العصا لا فى الحجر .

فلما استسقى موسى ، وفجر له الحجر عيونا ، قال : ﴿ **كلوا واشربوا من رزق الله . . .** ﴾ .

ثم عقب ذلك بالتذكير ، قائلا : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ يعنى « لاتقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها » ⁽²⁾ .

ولكن ، هل شكروا نعمة الله عليهم ؟ هل قنعوا برزقه إياهم ؟ ماكان أَكْثَرُ بنى إسرائيل ليفعلوا هذا .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ
ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟
يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟
يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿ **لن نصبر** ﴾ إنهم فى هلع مستمر على بطونهم . عادوا إلى طبيعتهم البهيمية وقالوا : لانريد رزقا ينزل من السماء ، ﴿ **فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض** ﴾ حتى يطمئنوا ، فهم لايؤمنون إلا بالأسباب ، أما المسبب فقد أساءوا به الظنون وارتابوا .

ولكن نبى الله موسى عليه السلام علم أن هؤلاء القوم لايريدون شرعا ، ولا إسلاما ، ولاأمنا ، ولا نظاما : بل يريدون حطام الدنيا .

إذْ يعلمون أن هذا الرزق غير مضمون لهم ، لأنه مشروط بشرط ثقيل عليهم ،

---

(1) القرطبى : ١ / ٤١٩ .

(2) تفسير ابن كثير ، ١/ ١٠٠ .

ألا وهو ﴿ **لاتعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ وهذا أمر يستحيل فى حقهم ، ولا يزال للآن ، فنحن نرى اليوم إفسادهم وعتوهم فى الأرض .

ولذا لم يسأل موسى ربه ما طلبه بنو إسرائيل ، ذلك أنه لما أراد أن يرتفع بهم إلى أعلى : ركنوا هم إلى أسفل ، إنهم يريدون أن يأكلوا الثوم والعدس ، والبصل ، ومع أن طعامهم الذى رزقهم الله كان أطيب وألذ وأنظف .

﴿ **اهبطوا مصرا** ﴾ يعنى اهبطوا بلدا ، أى بلد الزراعة ، أىّ مصر من الأمصار ، أى انحدروا إليه ، فإن ما سألتم يكون فى الأمصار ، لا فى القفار .

والمعنى أن هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير ، فى أى بلد دخلتموها وجدتموه ، فليس يساوى ـ مع دناءته وكثرته فى الأمصار ـ أن أسأل الله فيه .

وقد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وطبع عليهم بالحقارة ، وذلك لأنهم ابتداء : جحدوا بآيات الله ، وأنكروا شريعته ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ثم إنهم قتلوا أنبياءهم ومن اتبعوهم من الدعاة والمصلحين القائمين بين الناس بالقسط ، ثم بعد ذلك بعصيانهم وتمردهم ، واعتداءاتهم ، وإفسادهم فى الأرض بغير الحق .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

فالمسلمون الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأسلموا وجوههم لله ، وهم قائمون للآن على هدى محمد ـ ﷺ ـ : ملتزمون بمنهج القرآن والسنة ، وكذلك الذين انخلعوا عما كانوا عليه حين بلغتهم دعوة محمد ـ ﷺ ـ ، وانتظموا فى دين الله ـ أولئك هم الصادقون ـ من أتباع الأنبياء ، وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وعملوا صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وكلما انتكست أمة ، فالفريق الثابت منها على المنهج ، هو الفريق الناجى ، الذين لهم من الله فضل وعطاء ، وعليهم من الله أمن وسكينة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

هنا وقفة أخرى مع بنى إسرائيل يذكرهم فيها ربهم بما أخذه عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لاشريك له ، واتباع رسله . ثم يذكرهم حين أخذ عليهم الميثاق، ورفع فوقهم الجبل ، ورأوه وهم ينظرون ، وهم يقفون تحته موقفا رهيبا ، وهو سبحانه يناديهم **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** . **﴿ ما آتيناكم ﴾** أى التوراة ، و **﴿ بقوة ﴾** أى قوة الجد والطاعة .

﴿ واذكروا ما فيه ﴾ ليس معناه مجرد تلاوته فقط ، وإنما بتلاوته والعمل به . والقرآن اليوم يرتل ويتلى ويسمع آناء الليل وأطراف النهار ، إلا أنه معطل ومهجور ، فعلى المسلمين اليوم أن ينتشلوا أنفسهم من براثن ما وقعت فيه اليهود والنّصارى من قبل .

ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

ولكنهم ما لبثوا أن تولّى كثير منهم . .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

وليس ببعيد عليكم أمر الذين اعتدوا منكم يوم السبت ، حين تحايلوا على ماحرم الله حيلا أخرجتهم عن مقتضى التسليم الصادق لأوامر الله. حيث إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان قد حرم عليهم العمل يوم السبت ، ثم اختبرهم بأن جعل الحيتان تأتى وتظهر يوم السبت ، ثم تختفى بقية أيام الأسبوع ، فاحتالوا على ذلك بما سول لهم الشيطان ، فحفروا حياضا عند البحر ، وفتحوا عليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها ليلا فيصطادونها يوم الأحد ، فعاقبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على اعتدائهم هذا، قال تعالى : **﴿كونوا قردة خاسئين﴾** ، و **﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾** (١) .

---

(١) انظر : القرطبى ١/ ٤٤٠ ، ابن كثير ، ١/ ١٠٥ .

وهذا التحايل على شرع الله عادة موروثة فى بنى إسرائيل ، عادة كل من أراد أن يرجع عن الحق ويتنصل منه ، فيحل ماحرم الله ويسميه بغير اسمه .

فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

جعلنا آية المسخ : تذكرة لمن هو حاضر ، ولمن يأتى بعد بنى إسرائيل ، ولهذا يجب أن نكون من المتقين الذين يتعظون بآيات بنى إسرائيل . فنتوب إلى الله ، ونسارع بالعودة لكتابه ونبيه ، ونرمى بالجاهلية خلف ظهورنا ، ونحيل الحياة إلى الحكم بما أنزل الله والإسلام لله .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ
أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

موقف آخر لبنى إسرائيل ـ والعفو الممتد من الله : صاحب الفضل الجزيل والعفو الجميل .

لقد قال لهم نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ ... **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ... ﴾. وهذا الأمر ليس من فراغ ، ولكن حدثت حادثة فى بنى إسرائيل تحكيها لنا كتب التفسير المعتمدة . يقول ابن كثير (١) : عن عبيدة السلمانى ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل آخر منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا ، وهذا رسول الله فيكم ؟فأتوا موسى ـ عليه السلام ـ ، فذكروا ذلك له ، فقال : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ .

فقالوا : ﴿ **أتتخذنا هزوا** ﴾ .

قال : ﴿ **أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ .

قال : فلو لم يعترضوا ، لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ١ / ١٠٨ .

قالوا : **﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾** .

لقد عفا الله عن ذاك رحمة بهم من غير نسيان ، فلم يفطنوا ، وسألوا ما عفا عنه ، فشددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم . وفى هذا يقول تعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾**(١) .

إن الله سبحانه لا يغفل ولا ينسى ، وحين ينزل الشرع من السماء يسكت عن أشياء لحكمة يعلمها ، فلا يصح السؤال عنها ، لأنه سؤال عما عفا الله عنه . شددوا على أنفسهم ، ولو نظروا فى الأمر بعين الرضا والتسليم لله رب العالمين ، لما أصابهم العنت .

قال : **﴿ إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾** . ثم ذكّرهم بعد ذلك بوجوب الاستماع إلى أمر الله دون جدال أو سؤال **﴿ فافعلوا ماتؤمرون ﴾** ، ولكن لم يفعلوا . لقد أصبحوا مطالبين ببقرة ، لاكبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ، ولكن **﴿ عوان بين ذلك﴾** ، أى بين بين .

وفى هذا من المشقة عليهم ما فيه .

إلا أنهم عادوا للعناد مرة أخرى .

قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفْرَآءُ
فَاقِعٞ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ
تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠

ولو لم يقدموا المشيئة لما هداهم الله ، ولما أجابهم ، ولأخر عليهم الأمر تأخيرًا يعجزون به عن فعل المأمور به ، فيعذبون بذلك .

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ
قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١

يعنى إنها بقرة مدللة لا مذللة ، فهى لاتحرث الأرض ، ولا تدير الساقية ، مبرأة من كل عيب ، مكرمة ، حسنة ، صحيحة ، ولاشية فيها أى ليس فيها لون آخر غير

---

(١) المائدة : ١٠١ ، ١٠٢ .

الصفرة الفاقعة الصافية ، التى تعجب الناظرين ، وتبعث فى صدورهم السرور والانشراح لرؤيتها .

قالوا : ﴿ **الآن جئت بالحق** ﴾ يعنى الآن بان لنا الحق وظهر ، ولو أنهم أنصفوا لبان لهم الحق فيما أمرهم الله منذ البداية ﴿ **فذبحوها وماكادوا يفعلون** ﴾ لغلو ثمنها ، فقد أصبحت موصوفة بأوصاف ستة .

يقول القرطبى فى تفسيره (١) : « وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شددوا فشدد الله عليهم ، ودين الله يسر والتنطع فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية » .

وروى فى قصص هذه البقرة روايات يرجع إليها من شاء فى مظانها من كتب التفسير.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

واذكروا ﴿ **إذ قتلتم نفسا** ﴾ بغير حق ، فاختلفتم فى أمر قاتل هذه النفس ، والله - سبحانه وتعالى - مظهر للحق وإن أخفيتموه ، ومخرج لما تكتمونه فى صدوركم .

ولما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يظهر الحق ، ويخرج ما غيبوه من أمرهم ، قال لأهل القرية : اضربوا القتيل ببعض هذه البقرة ، يعنى بجزء من أجزائها . وهذه مفأجاة عجيبةتبين لنا حكمة الله ، وكيف كان من تبيانه لآياته ما يجعل الأرض الصلبة تنطق بأن الله على كل شىء قدير ، وبأنه هو وحده صاحب الأمر .

فهذه البقرة ذبحت لحكمة يعلمها الله ، وليرينا من آياته فى الخلق والبعث بعد الموت ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها** ﴾ .

فأخذوا القطعة التى أخذها موسى من البقرة ، فلما ضربوا بها القتيل إذا به يحيا ، فسألوه : من الذى قتلك ؟ .

فقال المقتول المبعوث : ابن أخى ، ثم مات ثانية . .

فسبحان باعث الحياة من الموت .

---

(١) تفسير القرطبى ١ / ٤٥٤ ، ٤٥٥ بتصرف يسير .

لقد أعطاكم يابنى إسرائيل من الآيات والأعاجيب ما إن اتعظتم به لما غفلتم عنه طرفة عين .

﴿ **كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ فهل عقل بنو إسرائيل ؟ هل خشعت قلوبهم لما رأوا من آيات الله ؟ أم ماذا حدث ؟

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ وأى قسوة وقعت بالقلوب ﴿ **فهى كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ . وكان ينبغى أن تكون نورا وحياة وعطاء وتلقيا وطاعة ورحمة واستجابة لله ، ولكنها صارت كالحجارة أو أشد قسوة ، فالحجارة ألين من قلوب المتمردين على الله سبحانه ، ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار** ﴾ .

وكذلك يكون بعض الناس ، تقسو قلوبهم فهى كالحجارة ، إلا أنه يأتى عليهم وقت تلين قلوبهم ، فتخشع فتنهمر الدموع من عيونهم كالأنهار ﴿ **وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء** ﴾ . أما هؤلاء : فلا .

وبعض الناس كذلك تقسو قلوبهم ، فإذا رأوا من الآيات البينات شيئا استجاب للآية التى اخترقت قلبه فشقته ، ثم تخرج من عينه دموع الخشية . وتختلف درجة هذا عن الأول فى اللين والرقة ؛ وليس فى بنى إسرائيل من أمثال هذا ولا ذاك .

﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ . كذلك المؤمن حين يصل به الخوف والخشية إلى أعلى ما يمكن بلوغه .

وقد نبهنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن نعى هذا الدرس حتى لاتقسو قلوبنا كقسوتهم حيث ـ قال تعالى ـ : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾(١) .

وهذه القصة تبين لنا بعض صفات بنى إسرائيل ، وتبين أنه لايجوز التعامل معهم إلاّ

---

(١) الحديد : ١٦ .

ونحن موقنون بأن نفوسهم المريضة تحتوى على كم متراكم من اللجاج والجدال والكبر والعناد، كما حدث فى ذبح البقرة والتلبيس والتدليس، وتدبير المكائد، واتهام الآخرين بالقيام بها ظلما وبهتانا ، كما حدث أيضا فى قتل اليهودى عمه ليستولى على أمواله .

ثم هم بعد ذلك كله لايؤمنون بآيات الله ، ولا تلين قلوبهم لذكر الله ، وإن كانت الحجارة قد تفجرت عيونا أمامهم ، فإن قلوبهم أشد صلابة وقساوة وبعدا عن التأثر بآيات الله .

ثم هم بعد ذلك لايوقرون عظيما ، ولا يرحمون ضعيفا ، وقد رأينا كيف كان سوء أدبهم ، إذ يقولون لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ، كأنه رب موسى وحده وليس ربهم . . . سوء فى الأدب ، وفجاجة فى التعبير .

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

إن هؤلاء القوم يُدْعون إلى الحق فلا يستجيبون له ، ولا يؤمنون به ، وبعض المسلمين يطمعون فى أن يؤمنوا لهم .

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من المؤمنين ألا يطمعوا فى أن يؤمن لهم هؤلاء ، أو أن تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؛ إذ هم أصحاب القلوب القاسية الذين سمعوا كلام الله فحرفوه من بعد ما علموا مافيه وعقلوا مايحويه .

هؤلاء الذين استخلفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الأرض ، واستأمنهم على صحف موسى وعيسى ليعيشوا شريعة الله عملا والتزاما ، ودعوة وبلاغا ، ولكنهم لايثوبون لحق تبين لهم ، لقد خانوا الله ورسوله من قبل ، وخانوا أماناتهم ، وخدعوا المؤمنين ، فلايطمعن أحدكم فى أن يكون هؤلاء اليهود يوما ما معكم على صراط مستقيم .

لقد دلل الله سبحانه وتعالى على استحالة إيمانهم بقسوة قلوبهم . وفى الآية التالية يبين لنا سبحانه أنهم جمعوا ـ مع قسوة القلوب ـ فساد العقول ، فلا قلب يخشع للحق ، ولا عقل يرتقى إليه ، فمن أين يعرف الإيمان لهم طريقا ؟

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم

بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا
يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

فهل تظنون بعد ذلك أيها المؤمنون أن يكون هؤلاء على مثل ما أنتم عليه ؟!

إنهم حين يلقون أصحاب محمد ـ ﷺ ـ ومن تبعهم من المؤمنين ، يعترفون لهم بنبوة محمد ـ ﷺ ـ ورسالته ، حتى إذا ما خلا بعضهم إلى بعض قالوا : « أتخبرون المسلمين أنكم على علم بنبوة محمد ـ ﷺ ـ ومافتح الله به عليكم من أمره فى التوراة ، ليكون ذلك حجة لهم عليكم يوم القيامة عند ربكم ، فتعذبون فى النار ، بعد أن تظهر خديعتكم ، ويتبين حقدكم على محمد ـ ﷺ ـ والحق الذى جاءكم به ؟» .

وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى حاجة إلى المؤمنين ليخبروه بما لايعلم : سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فأى عقل هذا الذى به عبدوه ؟!

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

هذه صورة أخرى من صور الضلال والجهل والانحراف عن الصراط : صورة الفتوى بغير علم . . والحديث بالظن .

وأسرع الناس فتوى بغير علم أسرعهم إلى النار ، وإن الظن لأكذب الحديث (١) ، إنها فتنة عظمى تصيب الذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانى ، إلا تلاوة ، وهم لايعلمون من الحق إلا تخيلات أملتها عليهم أمانيهم وأهواؤهم .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟
بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

إنهم يحرفون الكتاب على علم ، أو يفتون فى الكتاب على جهل ، ثم يقولون : ﴿هذا من عند الله﴾ ، هذا وحى الله وكلام الله ، فغرتهم الأمانى وأردتهم الظنون لاريب ، ذلك أن الله يعلم أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ، فيلعنهم بكل حرف كتبوه ، وبكل كذب على الله أشاعوه ، وبكل فتوى باطلة أفتوا بها ولفقوها .

---

(١) رواه البخارى كتاب الأدب باب (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) .

فويل لهم مما يفعلون ليشتروا به ثمنا قليلا . والثمن القليل هو الدنيا ، وهى بحذافيرها لاتساوى شيئا أمام ما أعده الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده الصالحين .

وهؤلاء الذين نبتت أجسادهم من السحت ، والذين بنيت أعضاؤهم على ثمن الكفر ، الويل ثم الويل من الله لهم والنار أولى بهم .

وهذه المصيبة العظمى تصيب طائفة من الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، تغريهم الدنيا بزخارفها الباطلة ، وترقيهم للمناصب العالية ، أو تخيفهم تهديدات الظالمين ، ثم لايصادف ذلك منهم إيمانا صادقاً ، ولا توحيدا خالصا لله رب العالمين ، فيبدلون كلام الله لينالوا عرض الحياة الدنيا .

وكما وقع أحْبَار بنى إسرائيل فى هذه المصيبة وقع ـ وللأسف ـ بعض المسلمين اليوم .

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠

تلك حجة كل من أراد أن يستحل لنفسه معصية ربه ويخدع المؤمنين .

وما يعلم هؤلاء ما هذه النار التى يدّعون بأنها لن تمسهم إلا أياما معدودة ! !

ولكن اليهود ادعوا ذلك : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ .

وهذا نفس ما ادعاه المشركون ، فماذا قال لهم؟

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢

ماذا فعل الله ببنى إسرائيل بعد ذلك كله ؟ وماذا فعل من كفر من بنى إسرائيل (اليهود والنصارى) مع الله ؟

جهلوا ، وتمردوا ، وأفرطوا ، اختلفوا وتعنتوا ، اختلقوا وزوروا ، بدلوا وحرفوا ، سرقوا وأجرموا ، والله سبحانه يعفو عنهم مرة أخرى فيأخذ عليهم عهدا وميثاقا جديدا ، به يرفعون ما وقع عليهم من الرجس والغضب ، وهى دعوة مجددة للإيمان باعثة للحق فى

نفس المعرضين الذين حادوا عن الطريق : أن يأخذوا بها ، علهم بذلك أن يجدوا الطريق ويسيروا فيه .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

لاتتخذوا من دون الله إلها . . وهذا أساس كل خير . . والشرك بالله أساس كل شر.

ولا خير فى أمة حرمت بر الوالدين ، فبر الوالدين رأس البركة ، ولا يعجل الله سبحانه عقوبة فى الدنيا قبل الآخرة مثل عقوبة العاق لوالديه ، ولا يعجل الله إثابة فى الدنيا قبل الآخرة مثل إثابة البار بوالديه ، وقد قرن الله رضاه برضاهما ، وشكره بشكرهما ، فقال : **﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾** .

وعن ابن مسعود ـ رضى عنه ـ قال : قلت يا رسول الله أىّ العمل أفضل ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أىّ ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أى ؟

قال : الجهاد فى سبيل الله »(١) .

وقوله تعالى **﴿ وذى القربى ﴾** يعنى وإحسانا بذى القربى . . وهم الذين يمتون إليكم بصلة رحم أو عصب . بكل على درجته : الأقرب فالأقرب . . وكذلك القريب فى المكان ، كالجار ، وصلة الأقارب والأرحام سبب فى رفع غضب الله عن قوم قطعوا أرحامهم ، فالبلاء لاينزل إلا بذنب ، ولايرفع إلاّ بتوبة .

قال تعالى : **﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾**(٢) .

ومن يتدبر الآية يستشعر خطورة الأمر : أمر قطع الأرحام ، الذى من محصلته

---

(١) البخارى كتاب الأدب باب البر والصلة .

(٢) محمد : ٢٢ـ٢٣ .

الفساد فى الأرض ، ولعنة الله التى تصيب الآذان بالصمم عن الحق ، وتعمى الأبصار عن الذكر .

ويجب أن يفطن القائمون بعلاج المجتمعات الخاملة المريضة إلى ذلك . . فالعلاج موصوف من الله الحكيم . ولا تؤتى الدعوة ثمارها المرجوة إذا لم تكن دعوة بالله إلى الله .

وبعد أن أوصانا تعالى بعبادته وحده لاشريك له ، ثم بالإحسان إلى الأقارب ، يوصينا بالإحسان إلى اليتامى والمساكين ، ثم يوصينا بالناس أجمعين ، حتى لا يبقى ممن نعرفه أحد إلاوقد أحسنا إليه ، فيكون شهيدا لنا يوم القيامة . وحتى من لانعرفه ، أمرنا أن نحسن إليه القول ، وأقل ذلك إلقاء السلام .

قال تعالى : ﴿ **وقولوا للناس حسنا** ﴾ .

يعنى كلموهم كلاما طيبا ، ولينوا لهم جانبا . ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما يدخل فى ذلك : الحلم ، والصفح ، والعفو ، وكل خلق حسن .

ولقد جمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذا الميثاق بين الإحسان الفعلى والإحسان القولى ، ثم أكمل ذلك كله بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وهكذا يتم الخير ، وتتم الرحمة ، فماذا بعد يا بنى إسرائيل ؟؟

توليتم عن الحق الذى دعيتم إليه ، وتعاهدتم على الوفاء له ، ووثقتم مع الله تعالى المواثيق من أجله .

والقلة القليلة ـ فى كل أمة ـ هم الذين يتمسكون بالحق ، ويوفون بالعهد ، ويبحثون عن الطريق ، ويصرون على السير فيه ، ويحثون من حولهم على الاعتصام به . أما الكثرة الكثيرة ، فقد غلبت عليهم شقوتهم ، وأعرضوا عن الطريق ، وضلوا وأضلوا : ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ (١) .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

لقد أخذ الله عليهم أيضا المواثيق ، التى شهدوا عليها وأقروا بها . فماذا فعلوا . . ؟

---

(١) يوسف : ١٠٣ .

سُورَةُ البَقَرَةِ

ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ
تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

يقول ابن كثير (١) عن ابن عباس : « أنبأهم الله بذلك من فعلهم ، وقد حرم عليهم فى التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم ، فكانوا فريقين : طائفة منهم حلفاء الخزرج . وطائفة حلفاء الأوس . فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على أخوانه ، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة، يعرفون فيها ما عليهم ومالهم ، والأوس والخزرج : أهل شرك ، يعبدون الأوثان، ولايعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولاحلالا ولا حراما . فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة ، وأخذًا به بعضهم من بعض ، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم ، وقتلوا من قتلوا منهم ، فيما بينهم : مظاهرة لأهل الشرك عليهم .

يقول الله ـ تعالى ذكره ـ حيث أنبأهم بذلك **﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾** أى تفادونهم بحكم التوراة ، وتقتلونهم ، وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولايخرج من داره، ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا؟ ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج ـ فيما بلغنى ـ نزلت هذه القصة » اهـ .

والذى أرشدت إليه الآية الكريمة ، وهذا السياق : ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها ويخالفون شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة ، فلهذا لا يؤمنون على مافيها ، ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول

---

(١) ابن كثير ـ ١ / ١٢١ بتصرف يسير .

الله ـ ﷺ ـ ونعته، ومبعثه ومخرجه ، ومهاجره ، وغير ذلك من شئونه التى أخبرت بها الأنبياء قبله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . واليهود ـ عليهم اللعن ـ الذين كفروا يتكاتمونه بينهم ، ولهذا قال تعالى : **﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزى فى الحياة الدنيا ﴾** ، أى بسبب مخالفتكم شرع الله وأمره **﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾** جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذى بأيديهم **﴿ وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ﴾** أى لايفتر عنهم ساعة واحدة **﴿ولاهم ينصرون ﴾** أى وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ، ولايجيرهم منه ، ويقفون بين يدى الله ، ليس لهم من قوتهم ولا من حولهم شىء ، ولكن عرايا من كل شىء ، يحاسبهم ربهم حسابا عسيرا ، ويصليهم ناراً .

وما من مفرق بين أحكام الله ، إلا ويلقى خزيا عظيما فى الدنيا قبل الآخرة ، ليكون آية مشهودة ، لكل من يفعل فعله ، أو يسلك مسلكه ، أو يسير مساره ، والآيات واضحة وبينة ، والعبرة لمن يعتبر .

فالقرآن كل لا يتجزأ ، والسنة كذلك ، والإسلام دين شامل كامل تام ، جاء ليحكم كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس جميعا .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقيم على بنى إسرائيل الحجة بإتيان موسى ـ عليه السلام ـ الكتاب ، وهو التوراة ، وبما أرسل من أنبياء من بعده يذكرون بذلك الكتاب ، ويشرحون تعاليمه لبنى إسرائيل ، ويمتن كذلك ببعثه عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ الذى جاءهم بالبينات وأيده الله بروح القدس : يعنى جبريل وقيل الإنجيل .

ما أكثر ما يمتن به الله عليهم ، ولكن بنى إسرائيل لا يخرجون عن دائرة انتكاسهم ، فهم يقتلون الأنبياء ، كلما جاءوهم فذكروهم بالحق ، لأنهم لايريدون أن يخضعوا لبيان الله على ألسنة رسله ، بل يخضعون كل شىء لأهوائهم وشهواتهم .

وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وهنا يبين الله أن على قلوبهم أغلفة غليظة ، تحجبهم عن الحق ، فلا يؤمنون به ، ولذلك لعنهم الله : بما كفروا وجحدوا من أمره ودينه .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟
نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

لقد كان يهود المدينة ، يقولون لأهلها من الكفار المشركين : إنه سيأتى الرسول الخاتم الذى ننتصر به عليكم ، ونفتح به بلادكم . فلما جاءهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعه القرآن ، مصدقا لما معهم من التوراة ، استكبروا وأنكروا الحق الذى كانوا من قبل يؤمنون به ﴿ **فلعنة الله على الكافرين** ﴾ كفرا تلو كفر .

وهذه لعنة بعد لعائن كثيرة ، وقعت على بنى إسرائيل ، فكل كفر تعقبه لعنة ، وكل لعنة يعقبها كفر وهكذا دواليك .

إنهم الكافرون . . وهم المغضوب عليهم . . وهم إخوان القردة والخنازير ، فلعنة الله على الكافرين ، الذين يكفرون بالحق ، ويفسقون عنه ، ويظاهرون عليه أهل الباطل ، أولئك مطرودون من رحمة الله سبحانه .

۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

لقد جاءهم موسى ومعه الآيات البينات ، ليذكرهم بالله ربهم ليخشوه ويتقوه ، ويتعظوا بما آتاهم ، ويستشعروا وجود المالك الخالق ، وليعلموا أنهم مكلَّفون بعبادته واتباع نبيه المرسل إليهم ، إلاّ أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا ، ومع هذا : اتخذوا عجلا من

الذهب ، فعبدوه ، فبئس ما اتخذوا ، وبئس ما صنعوا وبئس ما عبدوا ، وبئس ماهداهم إليه عقلهم إن كانوا يعقلون .

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم
بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ
بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣

لايزال الله سبحانه يعدد عليهم أخطاءهم ، ويذكرهم بها ، وهذا اللون من الخطاب هو فى حق اليهود شيء من العذاب الذى يصيبهم الله به فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو الدليل والآية على كونهم أهل النار ، فلن يعصمهم من الله بعد ذلك عاصم ، ولن يقيهم منه واق .

لقد أخذ الله سبحانه عليهم الميثاق فأبوا أن يستجيبوا له حتى رفع الجبل فوقهم ، ورأوه كأنه ظلة : آية منه ﴿ **وظنوا أنه واقع بهم** ﴾ ، وناداهم مناد من قبل ربهم ﴿ **خذوا ماآتيناكم بقوة واسمعوا** ﴾ وما إن قبلوه إلاّ وخالفوه ، فقالوا : ﴿ **سمعنا وعصينا** ﴾ .

وما ذلك إلا لأنهم أشربوا حبهم للعجل ، حتى خَلَص ذلك إلى قلوبهم فأعماهم وأصمهم ، « وحبك الشيء يعمى ويصم » فقد دخل حبهم لعجل الذهب قلوباً خاوية من الحب لله ، فتملك منها وأحاط بها .

وما كان ذلك منهم إلا لكفرهم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ورسله ، وهم بعد ذلك يدعون أنهم لن يؤمنوا إلا بما جاءهم به موسى ، متخذين ذلك ذريعة للكفر بمحمد ـ ﷺ ـ .

ويستمر الحق سبحانه فى الاستهزاء بهم ، والسخرية بإيمانهم قاذفا به فى وجوههم ، رادا كيدهم فى نحورهم . فيقول :

قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ
ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤

وكيف يتمنون الموت ، ولم يقدموا له عملا ، اللهم إلا نفوسا منغمسة فى الكبر على الله وعلى رسله ، وعلى آياته ؟!

أتدعون أن الله يؤثركم على غيركم من عباده ؟! كذبتم . . ولو كان الأمر كذلك لتمنيتم الموت . .

وأخبر الله رسوله مسبقا بأنهم لن يتمنوه أبداً لعلمه بظلمهم . وأنه لايتمنى الموت ظالم، ولكن يخافه ، وهم كذلك ، ليقينهم بأن الله سوف يعذبهم أشد العذاب ، ويخزيهم أشد الخزى ، ويكسوهم به لكبرهم وافترائهم على الله وظلمهم .

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ
وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

فهم أحرص الناس على الحياة وعلى طول العمر . ولكن الله البصير بما يعملون ، الخبير بما هم عليه ، سيميتهم فى موعدهم المحدد لهم . ولن يزحزحهم عن الموت ولاعن العذاب طول عمرهم فى الدنيا التى أحبوها وأحبوا الحياة فيها ، فكيف يمكن أن يدعى مثل هؤلاء أن لهم الحياة الآخرة خالصة من دون الناس ؟ والله سبحانه يمهل الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

كيف يكون مثلكم أولياء لله من دون الناس ، وأنتم الذين عاديتم الله وملائكته ورسله ؟

وقد أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا أن هذه الآية جواب لليهود من بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولى لهم .

عن أنس بن مالك ، قال : « سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ـ ﷺ ـ وهو فى أرض يخترف (١) ، فأتى النبى ـ ﷺ ـ فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلاّ نبى : فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟

قال : أخبرنى بهنَّ جبرائيل آنفا .

قال : جبريل ؟

---

(١) يخترف : يجنى التمر .

قال : نعم .

قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ [1] هذه الآية : ﴿ **من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك** ﴾ .

أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى .

فجاءت اليهود ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : أى رجل عبد الله فيكم ؟

قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا .

قال : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟

فقالوا : أعاذه الله من ذلك .

فخرج عبد الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه .

قال : فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله [2] » .

ولو أن الله قد أنزل على نبيه ميكائيل ما آمنوا به ، ولكنهم جبناء يدّعون ماليس فى قلوبهم ﴿ **والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ .

إن الذى أنزل عليك جبريل بالقرآن إنما هو الله .

وكل ما يتنزل به جبريل عليك ، إنما هو بشرى للمؤمنين ـ لانذير حرب وشؤم كما زعمت يهود ـ هو علامة على نبوتك وأمارة على صدقك .

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

إن الله عدو للكافرين الذين يفترون على الله وملائكته ورسله الكذب .

---

[1] يعنى : النبى ـ ﷺ ـ .

[2] رواه البخارى ، كتاب : التفسير ، باب : قوله (من كان عدوًّا لجبريل) .

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

إن القرآن الذى أنزله الله على محمد ، وما فيه من آيات بينات . . إنما يتنزل به جبريل على قلبه ، وما دعا إليه محمد ـ ﷺ ـ إنما هو الحق ، وما يكفر بالحق ويكذب به إلاالفاسقون ، المنكرون للحق وهم يعلمون .

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

يدعو الله سبحانه نبيه لتذكر حال بنى إسرائيل الذى لايتغير أبدا ، وهو أنهم منافقون، وهم دائما أهل كذب وضلالة ، لايعاهدون عهدا إلا نقضوه ، ولايعدون وعدا إلاأخلفوه ، لأن أكثرهم لايؤمنون ، فلاتبتئس بما يفعلون يامحمد ، وذرهم فى خوضهم يلعبون .

وهذه الآية صريحة فى أن اليهود ـ فى كل زمان ومكان ـ ينقضون العهود . ﴿ كلما ﴾ تفيد تكرار حدوث الخلف مع كل وعد ، ولذلك يجب أن يعلم المسلمون : أن اليهود لاعهد لهم ، ولا يوفون بوعد ، بنص القرآن الكريم .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

إن طائفة من أهل الكتاب نبذوا وطرحوا الحق الذى يعلمونه ، وأنكروه كأن الأمر لايخصهم فى شىء ، وغير موجه إليهم ، تركوا العلم الذى فيه حياتهم وسعادتهم ، ثم ماذا فعلوا بعد ذلك ؟

وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ
ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ
هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ
مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟

لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

لقد أقبلوا على تعلم السحر واتباعه وأرادوا به كيدا لرسول الله - ﷺ - وسحره .

يقول القرطبى : إن « ما » نافية ، حيث إن الله لم ينزل على الملكين سحراً ، والملكان هما جبرائيل وميكائيل ، فيكون تقدير الكلام (وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا : يعلمون الناس السحر) (١) بـ (بابل هاروت وماروت) .

وبابل هى الأرض المعروفة(٢) وأما هاروت وماروت ، فهما : الساحران اللذان يعلمان الناس السحر .

وعلى هذا يكون قولهما هذا من باب التبرئة لأنفسهما لأنهما علما الخير من الشر ، والكفر من الإيمان .

ويرى الحسن البصرى ، أن الملكين أنزلا بالسحر ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لايعلما أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلاتكفر(٣) .

وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

لو أنهم وحدوا الله سبحانه ، وعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، واستقاموا على طريق الأنبياء من قبل محمد - ﷺ - وعلموا أن الحق كله إنما جمع فى صحف محمد - ﷺ - بين دفتى القرآن العظيم .

لو أنهم صدّقوا وعملوا بما علموا ، لكانت مثوبة الله على ذلك خيرا لهم من الدنيا وما فيها، مما فتنوا به وبهروا ، ورضوه لأنفسهم ، ولو على حساب رضوان الله .

نعم ، لو كانوا يعلمون لاكتفوا بالله فعّالا ، وما انتكسوا ولجئوا لغيره سبحانه .

---

(١) انظر ابن كثير ، ١/ ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) قال فى القاموس : « بابل ، كصاحب موضع بالعراق ، وإليه ينسب السحر والخمر » .

(٣) انظر ابن كثير : ١/ ١٤٣ .

سُورَةُ البَقَرَةِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ
ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ
بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥

أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين بصدق الحديث وصراحته ، وذلك لما يتناسب مع طهارةقلوبهم وصفاء نيّاتهم. ونهاهم عن التشبه بالكافرين فى أقوالهم وأفعالهم .

وقد كان اليهود إذا أرادوا أن يقولوا « اسمع لنا » قالوا (راعنا) وراعنا : من الرعونة ، وهى الحمق . ورجل أرعن ، يعنى أهوج فى منطقه ، وقد كان اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ يقولونها سبا للنبى ـ ﷺ ـ ويوارون بالرعونة .

وقد نفرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ من الكافرين وأعمالهم وأقوالهم ، حيث بين أنه قد أعد لهم العذاب الأليم ، ثم زادنا منهم نفورا ولهم بغضا حين كشف سرائرهم .

وبين شدة عداوتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبين المؤمنين ، فلا يتشبهون بهم .

وفى هذا تهديد ووعيد ونهى شديد عن التشبه بالكفار أقوالاً وأفعالاً وعبادة ولباسا وأعيادا .

بل قد أمرنا بتعمد مخالفتهم فى أمورهم التى لم تشرع لنا ولانزلت إلينا .

والله تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده ـ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ فتنزلت عليهم رحمات الله ، فيرضون بحكمه ودينه ، ويرضون باتباع نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧

إن الله الذى نزل الكتاب ، وبعث محمدا ومن قبله الأنبياء والمرسلين ، له الأمر سبحانه : من قبل ومن بعد . . فله أن ينسخ مما أنزل ، وله أن يضيف إلى ما أنزل .

وقوله تعالى : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها﴾ يعنى خيراً مما نسخنا ، أو مثل ما تركنا .

وإن ذلك لمن الإعجاز القرآنى ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ينزل القرآن ويتحدى به المشركين أن يأتوا بمثله ، ولو بآية ، فلا يستطيعون ذلك ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

ولكن الله سبحانه يريهم من براهين كماله وإعجازه أنه ينسخ هذا القرآن المعجز ، فلايخرج عن إعجازه إلا بكونه خيراً منه أو مثله .

وهذا الخطاب وإن كان موجها إلى شخص رسول الله ـ ﷺ ـ الذى يعلم تمام العلم أن الله على كل شىء قدير ، إلا أن فيه توبيخا للجاحدين والمكذبين ، واستهانة بعقولهم وعجزهم .

وبعد أن نهانا الله تعالى عن التشبه باليهود : قولا ، وفعلا ، مبينا لنا شدة عداوتهم للمؤمنين ، حذرنا من التأثر بهم وسلوك مسلكهم ، فقال :

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

فإلى متى أيها المؤمنون تسيرون خلف اليهود ، متشبهين بهم فيما قل أو كثر ؟ هل ستظلون على ذلك حتى تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى من قبل ، بحجة العقل والمنطق ، فلا تجدون أنفسكم إلا وقد وقعتم فى الكفر بعد الإيمان ، والردة بعد الاتباع؟ .

وحاش لله أن يسأل أهل الإيمان محمداً ـ ﷺ ـ كما سئل موسى من قبل .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

وفى هذا مزيد من التحذير للمؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، مبينا لهم عداوتهم الظاهرة والباطنة ، واليهود منهم خاصة الذين يحسدون الذين آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ وصدقوا بما أنزل عليه .

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

فكل ما قدمتم من خير : فرضا كان أو تطوعا ، فإنما هو لأنفسكم ، وستجدونه عند الله ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ .

إن هؤلاء اليهود والنصارى : لفرط حقدهم وحسدهم ، عميت قلوبهم ، فصدت عن الحق ، وعميت أعينهم ، فصدت عن السبيل ، وظلوا يكذبون حتى صدقوا أنفسهم أوتوهموا ذلك .

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ١١١

إن هى إلا أمانى يتمنونها ، ولا برهان لهم ولا حجة ، فاليهود يقولون : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، والنصارى يقولون : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، فكذب بعضهم بعضا ، وكذبهم الله جميعا ، فقال تعالى :

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢

فأى نصر للمؤمنين .؟ وأى تأييد .؟. وأية محبة من الله لمن أسلم وجهه لله وهو محسن؟ وصدق الله إذ قال : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ ؟

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ
وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣

وهكذا . . كذّب بعضهم بعضا . . وصَدَقَ الطرفان : ليست النصارى على شىء ، ما داموا لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - وليست اليهود على شىء ما داموا لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - .

لقد قال ذلك أهل العلم منهم ، ثم قاله كذلك الذين لا علم لهم ، كما قالت الآية : ﴿ **كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم** ﴾ وهم الذين لايتلون الكتاب من المشركين والكفار . فتشابه بالكفر قلب من علم بمن لايعلم .

ويوم القيامة : طوبى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن من أمة آدم إلى أمة موسى وعيسى ، إلى أمة محمد ـ ﷺ ـ وأخلصوا دينهم لله ، وهم يحسنون الفهم كما يحسنون العمل الذى أمرهم الله ـ سبحانه ـ به .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ **ومن أظلم** ﴾ ؟ استفهام يفيد النفى ، يعنى « ليس هناك أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » . وأعظم الظلم أن يكون المنع عن بيت الله الحرام والكعبة المشرفة ، وهذا ما فعله المشركون الذين أخرجوا الرسول ـ ﷺ ـ من مكة ، هو وأصحابه ومنعوهم : من الصلاة فى المسجد الحرام ، ومن حج البيت .

هؤلاء لا ينبغى أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين ؛ فليس لهم فى الدنيا إلا الذلة والخزى ، ولا فى الآخرة إلا العذاب العظيم ، وذلك بما حملت قلوبهم من نفاق ، وبما كفروا به من الحق الذى أنزل على محمد ـ ﷺ ـ .

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

هناك روايات عديدة فى سبب نزول هذه الآية ، وجملتها أن التوجه إلى المشرق والمغرب لله تعالى ، سواء إلى بيت المقدس ، أو إلى الكعبة ، أو إلى أى اتجاه فى السفر عند صلاة التطوع ، فهو جائز (١)، لأن المشرق والمغرب لله تعالى ، وله ما فى السموات والأرض .
فأينما وُجد المؤمنون ، ولَّوا وجوههم شطر القبلة بدليل قوله تعالى : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ ؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ معهم ، يسمعهم ، ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم .

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ
قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ، ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨ .

والذين اتخذوا لله ولدا هم اليهود والنصارى . حيث يقول تعالى : **﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾** (١)

والآية حجة تدحض قول هؤلاء ، وكل من يدعى أن لله ولدا ، لأنه سبحانه لا ولد له ، ولاشريك ، ولا صاحبة ، سبحانه تنزهت أسماؤه ، وعلت عن الكيف والمثل صفاته .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

إن مشركى العرب ، قد تشابهت قلوبهم مع اليهود والنصارى ، الذين قالوا ذلك من قبل ، وقد رد الله عليهم أن الآيات واضحة بينة ، ولكنها لقوم يوقنون ويعقلون ويتذكرون ، ولكن هؤلاء يكابرون . ألم يروا فى السماء آية وفى الأرض آية وفى أنفسهم آية؟

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

ولقد تشابهت قلوب الكافرين قديما بقلوب الكافرين حين أنزل الله على محمد الكتاب المبين .

أنت بشير للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ونذير للذين أعرضوا وقالوا : **﴿ لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾**. بشير للذين عرفوا قدرة الله فى سمواته وأراضيه ، وفى الزهرة الملونة ، وفى الماء الجارى ، وفى حياة الأبوين وبث الذرية منهما .

ونذير لمن لم يتعظ بتلك الآيات ، فسبحان الله ، إن الآيات حولهم ومن فوقهم ، ومن تحتهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم ، مبثوثة فى الكون كله ، ويقولون : **﴿ لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾**. إنه الإثم المبين فى نفوسهم ، والظن الأثيم فى ضمائرهم .

---

(١) التوبة : ٣٠ .

وهؤلاء هم أصحاب الجحيم ، فلا تبتئس ، فلن تسأل عنهم ، فكل امرئ بما كسب رهين .

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ
وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

لن ترضى اليهود ولا النصارى عن محمد ـ ﷺ ـ وتعترف بنبوته ، إلا أن يتبع ملتهم وحاش لمحمد ـ ﷺ ـ أن يتبع ملتهم ، وهو رسول الله الأمين ، وصفيه من خلقه .

وهكذا هم فى كل زمن : لايرضون عن المسلمين حتى يدخلوا فى ديانتهم المحرفة ، وعقائدهم المزيفة .

ويجب على المسلمين ـ حكاما ومحكومين ـ أن يتعاملوا معهم على هذا الأساس الواضح .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ : أى يؤمنون به ، ويعملون بمنهجه ، ويدعون الناس إليه .

هؤلاء هم الذين يتلون القرآن حق تلاوته ، لا أولئك الذين ادعوا حفظ القرآن وأبعدوه عن الحكم والسياسة والاجتماع والتعليم والاقتصاد .

﴿ ومن يكفر به ﴾ أى بالكتاب الذى أنزل على محمد ـ ﷺ ـ بلاغا لأمته ومنهجًا لها ، أولئك هم الخاسرون ، لأنهم كفروا بما أنزل على محمد ـ ﷺ ـ وهو الحق .

ويعود الحق ـ تبارك وتعالى ـ فينادى بنى إسرائيل :

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾

يابنى إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم ، فاتبعوا محمداً ـ ﷺ ـ ، ولا تنتكسوا ، وصححوا أخطاءكم ، واستغفروا ربكم ، وانطقوا بالشهادتين وقولوا : « لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، محمد عبد الله ورسوله » لتكونوا بعد ذلك من الشاكرين الذاكرين .

وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

اتقوا يوم القيامة . يوم لاتجزى فيه نفس عن نفس شيئاً .

﴿ **ولا يقبل منها عدل** ﴾ لأنه يوم لا مفر فيه من الجزاء ، يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه .

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

يقول ابن كثير رحمه الله (١) : وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر بها إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ فروى عن ابن عباس روايات فى ذلك ، قال ابن عباس : «ابتلاه الله بالمناسك» . وعن التميمى عن ابن عباس قال ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد .

فى الرأس : قص الشارب، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس .

وفى الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبْط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وروى أيضا عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : « ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ **وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾ .

قلت له : وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ .

قال : الإسلام ثلاثون سهما ، منها عشر آيات فى براءة ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ إلى آخر الآية . وعشر آيات فى أول سورة ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ و ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾. وعشر آيات الأحزاب ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** ﴾ إلى آخر الآية ، فأتمهن كلهن ، فكتبت له براءة ، قال الله تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذى وفى** ﴾ . والأصح أن الكلمات هى ما سأل إبراهيم ربه فى قوله : ﴿ **رب اجعل هذا بلدًا آمنا** ﴾ ، ﴿ **ربنا تقبل منا** ﴾ ﴿ **واجعلنا مسلمين لك** ﴾ ﴿ **وابعث فيهم رسولا منهم** ﴾ .

قلت : لأن النص يفسر بعضه بعضا أ هـ .

وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، جـ ١ ، ص ١٦٥ .

والبيت هو البيت الحرام بمكة المكرمة ، قد جعله الله مثابة للناس يثوبون إليه ، متعلقة قلوبهم به ، محبة له ، ﴿ وأمنا ﴾ فهم حين يصلون إليه ويعيشون حوله ، يستشعرون الأمن والاستقرار ، فهم فى أمن بطاعتهم لله ، وفى أمن من معصيتهم إياه ، متعلقين بالبيت ، متعلقة قلوبهم بجلال الله ووحدانيته وعظمته .

والمقام ، قد يكون المقصود به الحرم كله ، وقد يكون المراد منه المسجد ، وقيل : هو الحجر الذى وضعته زوجة إسماعيل تحت أقدام إبراهيم حتى غسلت رأسه (١) .

وقد كلف الله إبراهيم وإسماعيل بأن يطهرا البيت من الأوثان والأصنام التى تعبد من دون الله ، فلا يعظم عند البيت غير الله ، ولايقدس غيره ولا يرجى غيره سبحانه ، وقيل يطهر من النجس والرجس وقول الزور .

ولم يثبت أن الأصنام نصبت حول البيت فى عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولعل المقصود هنا أن يوصى إبراهيم وإسماعيل أولادهما وذراريهما ومن حول البيت ، بأن يحافظوا عليه مستقبلا من أن يلوث بالشرك ، أو بعبادة غير الله .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

يسأل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه أن يجعل رزقه لأهل الحرم من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، أجابه الله بقوله : ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ﴾ فأرزقه ، فهو الإله الواحد ، الذى يرزق عبده الذى لم يشرك به ، والذى جعل له شريكا ، ومن كفر به فجحده ، وما من أحد غيره يرزق .

واستجاب الله لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فجعل البلد آمنا ، ورزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله ، ومن كفر متعه إلى حين ؛ والحين يوم القيامة لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ . ثم أضطره إلى العذاب الأليم فى الآخرة .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

---

(١) انظر كتب التفسير .

إنها حلاوة الإيمان الكامل الذى لا يتخلله نقص . والتوحيد الذى لايشوبه شرك ، إنه يبنى البيت مؤتمرا بأمر الله ثم يدعو الله هو وإسماعيل ، ويخافان ألا يتقبل الله منهما ، وتلك حقيقة من تحلى بالإخلاص الكلى لله تعالى :

﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾(١) .

إنها قمة الخشوع لله تعالى ، والإشفاق من خشية الله ألا يقبل منهم .

رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨

ربنا لاتخيب مسعانا ورجاءنا ودعاءنا : اجعلنا ـ بحسن عطائك ـ من المقبولين . . . من الذين يقولون (يارب) فيجيبهم ربهم .

إنهما يعلمانا كيف نتواضع لله ، وكيف لانغتر بعمل عملناه لوجه الله ، مهما كان كثيرا ؛ لأن الأعمال منه وإليه .

تعلم يا ابن آدم من رءوس النبوات ، وقيادات الرسل . . . تعلم ولا تقل بيدى أعطيت ، وبنفسى فعلت ، لقد صليت ليلا ، وصمت نهارا . . . تعلم التواضع . . . كيف تكلم ربك . . ؟ وكيف كلّم الرسل ربهم؟

إننا يارب لانستطيع أن نسلم القلوب والوجوه والجوارح لك ، إذا لم تأخذ أنت بأيدينا وبقلوبنا وبمشاعرنا ، وبوجداننا . فالفضل لك ، والمنة لك ، أولا وآخرا . كما أننا لانملك من أمر ذريتنا شيئا . **﴿ وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾** فعلّمنا يارب كيف نؤدى مناسكك التى كلفتنا بها لنحج بيتك ونطوف به ونسعى عنده . علمنا كيف نقف بين يديك ، ونتوب إليك . . كيف نركع تحت عز عظمتك وعلاك . . . كيف نسجد بين يدى القدرة المعطية الآخذة ، الباسطة المحسنة ، القادرة الحانية ، الرحيمة القوية ، شديدة العقاب ، واسعة الرحمة .

إننا لانستطيع أن نتوب إلا أن تريد أنت التوبة لنا ، فإن لم تكن التوبة عطاء منك ، فكيف نتوب ؟

---

(١) المؤمنون : ٦٠ .

رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

ابعث منا رسولا فيهم يربيهم على اليقين بأنك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لاوالد له ولا ولد .

هذا النبى الذى هو منهم ، ومن ذريتى وذرية إسماعيل ، يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم ، فلا تردنا يارب إلا وقد أخذت بنا إلى ساحة رضاك وعفوك ومغفرتك .

وقد استجاب الله لذلك الدعاء . ففى الحديث عن العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم . وبشارة أخى عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » (١). أما دعوة إبراهيم فهى قوله ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ ؛ وأما بشارة عيسى فهى قوله تعالى ﴿ يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾ ؛ وأما رؤيا أمه ، فقد رأت فى المنام نورًا ، قالت : فجعلت أتبع بصرى النور فجعل النور يسبق بصرى حتى أضاء لى مشارق الأرض ومغاربها (٢).

وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾

هذا هو إبراهيم صاحب المواقف والكلمات التى اختبر بها فنجح .

فالذين يرغبون عن ملة إبراهيم : سفهاء . . . لهم قلوب ، إلاّ أنهم لايفقهون بها . . ولهم عيون ، ولكن لا يبصرون بها . . . ولهم آذان ، إلا أنهم لا يسمعون بها :

﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ اصطفاء للهداية والإرشاد ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ الذين اجتبيناهم ، فكسوناهم بأردية المحبة والمودة والعطاء والتكريم والإعزاز ورفع الدرجات والمراتب .

---

(١) رواه أحمد . (٢) رواه البيهقى فى الشعب ، وابن إسحاق فى السيرة .

إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

إن العبد الذى يفخر بأنه عبد ، ويشرف بارتداء ثياب العبودية لله ، هو الذى يناديه ربه : أسلم ، فيقول : أسلمت لرب العالمين ، وبذلك نال إبراهيم مكانته .

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

لقد اصطفى لهم التوحيد ، واصطفاهم له ، ولذلك كان عليهم أن يلزموه ويتمسكوا به ، حتى لا يأتيهم الموت ـ حين يأتيهم ـ إلا وهم على الإسلام ، وهذه وصية إبراهيم ويعقوب كما أنها وصية كل مسلم بعده إلى أن تقوم الساعة .

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى
قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

والخطاب موجه للمشركين الذين كفروا بمحمد ، وهم من أحفاد إسماعيل ، كما هو موجه إلى الكفار من بنى إسرائيل ، فكان الواجب عليهم أن يكونوا على ما كان عليه آباؤهم، وما أوصوا به من التوحيد الخالص لله تعالى ، حيث قال يعقوب لبنيه : ﴿**ماتعبدون من بعدى**﴾ فأخذوا على أنفسهم عهدا بأن يعبدوا إلهه الذى لا إله غيره ، وقد عبده من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحق : إلها واحداً لا شريك له .

فيا من ادعيتم أنكم على ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب : كذبتم ، فلو أنكم صدقتم لاتبعتم محمداً ـ ﷺ ـ ولبايعتموه .

أما النسب فلن ينفعكم ما لم تكونوا على ما كانوا عليه من التوحيد والإسلام لله رب العالمين .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وإنما تسألون عن عملكم أنتم ، و ﴿ **كل امرئ بما كسب رهين** ﴾ .

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

إن اليهود والنصارى ، قالوا لرسول الله : إن الهدى هو ما نحن عليه ، فاتبعنا يامحمد تهتد ، فقال تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا ﴾ ؛ لأن إبراهيم كان حنيفا مسلما، وما كان مثلكم من المشركين .

قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

قال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل ، كالقبائل فى بنى إسماعيل .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : الأسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر .

ومجمل الآية يعنى أن نؤمن بما أنزل على الأمم من قبلنا مجملا ، ونؤمن بما نزل على محمد - ﷺ - تفصيلا .

وهل اليهود أو النصارى أصحاب دين قائم ؟ لا . هذه قضية يجب على المسلمين أن يفهموها . يجب أن نفهم جميعا أن اليهود قد ارتدوا عن دينهم ، لأن دينهم الإسلام ، وأن النصارى قد ارتدوا عن دينهم ، لأن دينهم إنما هو الإسلام . وكل دين جاء من عند الله - سبحانه وتعالى - إنما هو الإسلام ، وكل دين يخالف دين الإسلام فإنما هو بدعة وضلالة . وإذا كنا قد أمرنا أن نعاملهم على أنهم أهل كتاب ، ففى الوقت نفسه أمرنا أن نعتقد أنهم خالفوا وعصوا الكتاب الذى نزل عليهم إن لم يتبعوا محمداً - ﷺ - ، وإن أبيحت لنا ذبيحتهم وإن تزوج رجالنا من نسائهم . وما نشترك معهم فيه، إنما هو أمر واحد ، وهو الإيمان باليوم الآخر ، وإن كانت معتقداتهم الفاسدة قد عطلت عنهم اسم الإيمان . وإن شئت فقل هؤلاء كفرة اليهود وأولئك كفرة النصارى .

ولذلك جاء المرسوم الإلهى بقرار ينفى عنهم الهدى :

فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ
اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

يقول ابن كثير (١) : « يقول تعالى فإن آمنوا ، يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ماآمنتم به يأيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ **فقد اهتدوا** ﴾ أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أى عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ **فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله** ﴾ أى فسينصرك الله عليهم ويظفرك بهم ﴿ **وهو السميع العليم** ﴾ » .

ويستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم تركهم الهدى ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزينتها ، وابتغاء الجاه الباطل والمجد الزائف .

ولابد ـ إذن ـ أن ننتقل بالمسلمين من إطار الخيال والوهم ، إلى إطار الواقع والحقيقة، وهذا كلام صريح . . كلام صريح أن الإسلام استسلام لله والتزام ، وأن الإسلام دين ودولة ، ولا يمكن أن يكون الإسلام بالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وشريعة الله معطلة ، والجهاد فى سبيل الله معطل .

وهذه الآية تخاطبنا اليوم . كما خاطبت الرسول ـ ﷺ ـ من قبل . . . إنها تخاطب المجددين حتى يعود المسلمون مرة أخرى فى الدائرة حول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله » . دائرة الحكم بما أنزل الله .

هذه الآية التى نحن بصددها ، إنما هى الحجة فى أيدى شهداء القضية الإسلامية فى كل قرن، تقول لهم :أبشروا فالذين يخالفون صفوفكم، ويخرجون على رأيكم، وينقسمون وينشقون عليكم، إنما ﴿ **هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم** ﴾ .

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

أتناظروننا ، وتجادلوننا فى الله ، وأنتم الذين قتلتم أنبياءه ، وعبدتم الأوثان ، وفيكم رسلكم ؟ وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا

---

(١) ابن كثير : ١/ ١٨٧ .

تقتلون . فكانت لكم أعمالكم المستمدة من هواكم وشياطينكم ، وكانت لنا أعمالنا المنزلة علينا من رب العالمين فى كتاب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أنتم لكم أعمالكم ، بما حرفتم فى كتبكم ، ونحن لنا أعمالنا بالحق الذى نزل علينا .

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟
هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ
مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

قالت اليهود : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : كانوا هودا .

وقالت النصارى : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : كانوا نصارى ، فكذب بعضهم بعضا .

وكان الجواب الرادع من الله لهم على لسان رسوله : **﴿ أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾** .

أنتم أيها الظالمون المكذبون الضالون : تعلمون أنهم جميعا مسلمون ، ولكنكم تكتمون الحق الذى أمرتم من الله أن تعترفوا به ، فالتوراة والإنجيل يشهدان بذلك ، وينطقان به ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده ، وخاصة إن كانت هذه الشهادة من الله ، فى كتاب أنزله من السماء ، وأنتم اليوم تسمعون من المسلمين ما كتمتموه أنتم **﴿وما الله بغافل عما تعملون ﴾** .

أما إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، فلن ينفعكم اليوم انتسابكم إليهم .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

ولكن تسألون عن أعمالكم أنتم وما قدمتموه لأنفسكم .

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

سُورَةُ البَقَرَةِ

مع بداية الجزء الثانى من سورة البقرة نرى النبى - ﷺ - فى موقف من مواقفه العظيمة الجليلة ، نراه وهو يقلب وجهه فى السماء يدعو ربه ، ويقدم بين يديه قلبه مناجيا مستعطفا فى أمر يخالج كل ذرات نفسه ، وكل نبضات قلبه ، أمر الوقوف بين يديه ، وتوجيه الوجه إليه سبحانه ، فما قصة ذلك الموقف ؟

كان النبى - ﷺ - : يصلى فى مكة بين الركنين ، متجها إلى الصخرة فى بيت المقدس، ولما انتقل إلى المدينة واستقر بها : صعب عليه أن يتجه إلى الصخرة فقد كان يشتاق إلى شىء غال . . . يشتاق إلى قِبْلَةِ أبيه إبراهيم . . . يشتاق إلى أن يصلى إلى الكعبة ، بدلا من بيت المقدس .

والفترة التى صلى فيها إلى بيت المقدس ليست بالقليلة ، إلاّ أنه يؤمل فى أن يعطيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عطاء يستقر به القلب فى وجهته أثناء الصلاة .

وشاء الحق ـ سبحانه ـ واستجاب لحبه (١) وأشواقه وتلهفانه وتعطفه وابتهالاته ، ووجّهه قبلة يرضاها منة وتكرما . . فمنحه ما يرضى قلبه ومشاعره ومواجيده .

وأخبره ـ فيما أخبر ـ أن السفهاء من الناس سيقولون ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها** ﴾؟

وأمره بأن يرد عليهم حينذاك فيقول .

﴿ **لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾. وهو رد الثابت على الحق، الواثق من ربه، المثبت من الله .

لقد أمرنا الله أن نصلى إلى بيت المقدس ، فلبينا .

واليوم يأمرنا ـ سبحانه لدعائنا ورجائنا ـ أن نصلى إلى الكعبة ، تكرما وتفضلا منه ، وهو الذى يعطى بغير مسألة ، فأعطى وأكرم وأجزل ، ونحن له حامدون . . عابدون . . طائعون . .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

---

(١) الحب : بكسر الحاء : المحبوب .

لقد جعلناك وأمتك وسطا . « أى عدلا » ، فقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ محمداً ـ ﷺ ـ وسطا بين الأنبياء ، أى عدلا وحقا . . فهو عدل الله فى الأرض . . . إن طلب العدل ، فمحمد ـ ﷺ ـ مصدره . . . وإن طلب الكمال فمحمد ـ ﷺ ـ مثاله . . فهو الخاتم الممثل لكل الأنبياء ، والممثل لشريعة الله ، ومنهج الله . وسط أى : عدل كله ، وكمال كله .

والأمة التى أرسل فيها محمد ـ ﷺ ـ لتقوم به ، وبالأمر الذى بعث من أجله إنما هى أمة وسط بالعدل تحكم ، وبه تقوم . . تنصف المظلوم ولاتخشى فى الحق لومة لائم . فهى الأمة الوسط . . خير أمة أخرجت للناس . . تعلم الحق فتعتقده ، تصديقا قلبيا وعقليا ووجدانيا ، فتعيشه وتعايشه .

و ﴿ **شهداء على الناس** ﴾ بمعنى :

- شهداء الله فى الأرض . على أنه هو الحق ، وقوله الحق ، ورسوله ـ ﷺ ـ الحق .
- شهداء الله فى الأرض . على أن الإسلام منهج حياة وشريعة تنفذ ، وحكم ينفذ ، فيعيش بين الناس ، ويعيش به الذين أسلموا لله ، فقالوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .
- شهداء الله فى الأرض . . الذين لايحيدون عن قانونهم ودستورهم ، ولايحتكمون إلى غير القرآن ، ولايتمسكون بغير السنة .
- شهداء الله فى الأرض . . ولاؤهم لله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم لمن يبايعهم ويعاهدهم على أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وعن أبى الأسود ، أنه قال : « قدمت المدينة وقد وقع بها مرض ، فجلست إلى عمر ابن الخطاب ، فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرا ، فقال : وجبت . . . ثم مر بأخرى فأثنى عليها شرا ، فقال عمر : وجبت ، فقال أبو الأسود ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » . قال : فقلنا وثلاثة فقال : «وثلاثة » قال : فقلنا واثنان قال : «واثنان » ثم لم نسأله عن الواحد » (١) . قلت : والشاهد لا يشهد إلا بما يرى فلابد أن

---

(١) رواه البخارى كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت .

يكون هؤلاء الشهود قد عايشوه وعرفوا منه التقوى والصلاح كاعتياده المسجد وغيره من العبادات ، والمعاملات ، والخلق الكريم أ. هـ .

وهكذا تكون شهادة المسلمين فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة ، فقد ورد عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« يدعى نوح يوم القيامة فيقال له ، هل بلغت؟

فيقول : نعم .

فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغكم ؟

فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد .

فيقال لنوح : من يشهد لك ؟

فيقول : محمد وأمته .

قال : فذلك قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ .

ثم يخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ أنه ما شرع له التوجه أولاً إلى بيت المقدس إلا امتحانًا واختبارًا للخلق ، حين ينقلهم بعد ذلك إلى الكعبة التى جعلها الله سبحانه قبلتهم من بعد .

فالمؤمنون الصادقون : يطيعون الله فيك ، ويتوجهون معك إليه أينما توجهت ، أما الضعفاء منهم فيفتنون بكلام السفهاء ، فينقلبون على أعقابهم مرتدين عن الإسلام .

وكل ما أتى به الله ـ سبحانه وتعالى ـ : لأمة محمد من أوامر : إنما هو صناعة لهذه الأمة على عينه ، حتى تستحق ـ بجدارة ـ أن تكون الأمة الوسط .. الشاهدة على الناس .

والله يعلم هؤلاء وأولئك ، فيثبت الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله مايشاء ، ولذلك قال بعدها : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ .

وقيل ﴿ **إيمانكم** ﴾ هنا بمعنى صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله .

فعن ابن عباس ء قال : لما وجه النبى ـ ﷺ ـ إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله .. ! كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾(١) .

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

لقد كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرى تقلب وجه رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السماء ، فاستجاب الله له ، فولاه قبلة يرضاها ويحبها ، ذلك أنه كان يحب قِبْلة إبراهيم .

والاتجاه بالوجه إلى القبلة ليس معناه الاتجاه الجسدى وكفى ، ولكنه اتجاه قلبى وروحى وعقلى . فالوجه يستدير ويتقلب بحثا عن ذلك الذى تعلق به القلب وشغفت به الروح .

﴿ وحيثما كنتم ﴾ أيها المسلمون ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ من أى اتجاه أنتم فيه . وذلك تجميع لقلوب المسلمين جميعا فى اتجاه واحد وغاية واحدة ، فهم يلتفون حول الحق ، وإليه يسعون .

وليس هذا الاتجاه هو مقصود الصلاة فحسب ، ولكنه اتجاه إيجابى ، يستجيب لآيات الله ، الروح فيه تأخذ وتعطى . . . عطاؤها من نفسها لله . . وأخذها من الله ، تجليات مع كتابه كى تفهم مراده وتستوعب مراميه .

وبيت المقدس ـ وإن كان قبلة المسلمين الأولى ، إلاّ أنه ـ ليس القبلة الأقدم ، فالكعبة أقدم منه ، وقد اتجه إليها آدم من قبل ، ومن قبل آدم صلت إليها الملائكة . وهى البيت الذى أمر الله نبيه إبراهيم وابنه أن يرفعا القواعد منه ، ويتخذانه قبلة . وهو الأمر الذى يعلمه أهل الكتاب ، مكتوبا عندهم ، إلا أنهم يتكاتمونه ، وقد هددهم الله على ذلك بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ .

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ

---

(١) رواه الترمذى عن ابن عباس ، كتاب تفسير القرآن باب « ومن تفسير سورة البقرة » وقال : حديث حسن صحيح .

وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

بعد أن أخبرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أهل الكتاب يعلمون أن القبلة التى وجه الله سبحانه إليها رسوله إنما هى الحق من عند الله ، كان المتوقع أن تكون النتيجة لذلك أن يؤمنوا له ويتبعوا قبلته ، لولا العناد والاستكبار والحسد .

يقول الشهيد سيد قطب (١) رحمه الله :

« فهم فى عناد يقوده الهوى ، وتؤرثه المصلحة ، ويحدوه الغرض . وإن كثيرا من طيبى القلوب ، ليظنون أن الذى يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لايعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم فى صورة مقنعة . وهذا وهم . . إنهم لايريدون الإسلام ، لأنهم يعرفونه ! ! فهم يخشون على مصالحهم وعلى سلطانهم . ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لايفتر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل ، عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجها لوجهه ، ويحاربونه من وراء ستار ، ويحاربونه بأنفسهم ، ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار . وهم دائما عند قول الله تعالى لنبيه الكريم :

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم﴾ » انتهى .

وقضية القبلة ـ هنا ـ والاتجاه إليها أصبحت قضية الحق والباطل ، وقضية الوحى المنزل والهوى . . ولذلك ينبغى أن نحذّر المسلمين من الاتجاه إلى قبلة الله بالأجساد فقط بل والاتجاه إلى قبلتهم بالقلوب . فنحن نرى اليوم الكثيرين من أهل القبلة يتقربون إلى اليهود والنصارى ، بل يتشبهون بهم . وأظهر الأمثلة على ذلك هو التقليد الأعمى لهم فى كل مظاهرهم ومخابئهم الخبيثة ، وقد نهانا الإسلام عن التشبه بهم ، وأوردت السنة أدق التفاصيل ، حتى لايكون هناك أدنى شبهة فيما بيننا وبينهم . بل قد أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ بمخالفتهم أمرا صريحا لايحتمل تأويلا . ولكن مع ذلك لانرى استجابة خالصة لأوامر الله ورسوله تنبئ عن صدق الاتجاه إلى قبلة الإسلام ، ولكنه التقليد الأعمى ، والجرى وراء المظاهر الكاذبة الخادعة التى بهرنا بها وبألوانها الزائفة .

---

(١) ظلال القرآن : ١/ ١٣٤ .

وبنفس البساطة والأريحية التى أخذنا بها عنهم زيهم ومظهرهم ، أخذنا شرعهم ونظامهم وسياستهم وطريقتهم فى قيادة أوطانهم .

وبنفس البساطة والأريحية امتدت أيدينا إلى دستورنا وقانوننا لنعبث فيه بالتبديل والتغيير لأحكام الله ووضع الكثير من أحكام الذين حادوا وضلوا وحرفوا وأضلوا ، فماذا بقى بعد ؟

سبحانك ربى لا إله غيرك ، ولامعبود سواك .

وما تلك الركعات التى يركعها البعض منكم ، ويتركها الكثيرون ؟

لقد انقسم اليهود والنصارى على أنفسهم ﴿ **وما بعضهم بتابع قبلة بعض** ﴾ فكلاهما قد شرد عن الحق وانتهى الأمر . ولكن الحق قد جاءنا من ربنا ، وأنزل إلينا العلم صافيا ، ولذلك فقد جاءنا التهديد المرعب المهيب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ فانظر الخطاب ، وتفكر فيمن خاطب ومن خوطب ، فستعلم خطورة الأمر أيما خطورة .

وإذا كان الخطاب لمحمد ـ ﷺ ـ من الله الرءوف الودود فى هذه الآية : فالمراد منه هو أمته ـ ﷺ ـ وما ينبغى لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يكون من الظالمين ، ولا أن يضل عنه اتباع الحق المنزل عليه من الله ، والعاقبة تدور على من بعده من المؤمنين به وبالحق المنزل عليه من الله ، ولذلك فقد جاء السياق القرآنى ـ فيما بعد ـ موجها للمؤمنين ، يقول تعالى :

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

ثم عاد الخطاب مرة أخرى للرسول ـ ﷺ ـ :

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

وفى ذلك إشارة إلى أن المؤمنين جميعهم مخاطبون بما خوطب به الرسول ـ ﷺ ـ فى القرآن ، فصاحب الرسالة هو الله . . ومبلغها رسوله ، والمقصود بها : إنما هم المؤمنون . . وهم من بعد رسولهم مكلفون بتبليغها عن ربهم ، ثم عن رسولهم .

وكتمان الحق عن علم : دليل الجحود : وقعت فيه اليهود من قبل ، ومن بعدهم وقعت فيه النصارى ، واليوم يقع فيه الكثير ممن ينتسبون إلى الإسلام .

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

لكل إنسان على هذه الأرض وجهة هو موليها وجهه . . كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (١) . فالطرق متعددة . . والإسلام طريقه واحدة . . هى التوحيد . . . وقبلة واحدة ، هى الكعبة . . وسبيل واحد . . وهو أن يعيشوا فى محبة الله بالطاعة له ، مهتدين بما جاء به محمد ـ ﷺ ـ .

والآية تحث على المسابقة والمنافسة فى الخير ، وتحصيل الصالحات ، مذكرا بالموت ، والحشر . فذكر الموت : خير واعظ ، وخير محرك للهمم البليدة المتكاسلة عن طاعة الله .

يعد هذا المشهد ، وهو موقف اليهود من تحويل القبلة : آخر المشاهد المتوالية عن بنى إسرائيل ، ومكر اليهود ، ولم يبق عنهم فى السورة إلا موقفهم من القتال مع نبيهم ـ فى قصة طالوت وجالوت .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

فالبيت قبلة لأهل المسجد . . والمسجد : قبلة لأهل الحرم ، والحرم : قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها . . .

وهذا الأمر يتكرر للمرة الثالثة على التوالى . . ذلك أنه أمر خطير فى رسم سياسة الأمة الإسلامية ، وضرورة وحدتها ، فالعقيدة بتوحيد الله سبحانه وعدم الإشراك به : تلزمهم بتوحيد مصلحتهم ، ووجهتهم ، وسياستهم ، وأمتهم . .

فأمتهم واحدة كما أن كتابهم واحد ، وذلك لأن إلههم إله واحد . . له يسلمون . .

---

(١) الليل : ٤ .

ولشريعته ينقادون . . وبحكمه وأمره يعملون . . فالأمر والنهى مستمد من وحى الله : كتابا وسنة . ومهما تعددت دولهم فأمرهم جميعا شورى بينهم . . فوحدة القبلة تعنى : وحدة الكلمة ، والأمة ، والوجهة . . وقد كان اليهود يعلمون أن الرسول - ﷺ - سيوجه لقبلة إبراهيم أول بيت وضع للناس . . وذلك مكتوب عندهم فى كتبهم . وكانت العرب تتمنى أن تكون قبلتهم قبلة أبيهم إبراهيم ، فأراد الله أن يبطل حجج المشركين الذين قالوا سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلة أبينا . . ولم يرجع الرسول - ﷺ - إلى دينهم . . وكذلك أبطل حجة أهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أن قبلة محمد هى الكعبة ، فلما وجدوا قبلته بيت المقدس قالوا ليس هذا هو النبى . . فاختبر الله المؤمنين ، ثم أعادهم إلى قبلتهم حتى يبطل حجج الكافرين .

﴿ **فلا تخشوهم واخشونى** ﴾ لا تخشوا إلا الله الذى كف حجة الظالمين ، وفرج قلوب المؤمنين باستجابته . وخشيتكم لله تورثكم الاطمئنان الذى به تتبعون محمداً - ﷺ - اتباع يقين فيما هو عليه من الله . وانظروا كيف طاعته لله فى الاتجاه للبيت المقدس ، ثم تضرعه ليحوله إلى الكعبة ، مع الالتزام بالأمر حتى يقضى سبحانه بما يرضيه . . ولما صدر الأمر من الله استقبل الكعبة حامدا لله شاكرا له ما أتم به نعمته عليه ، وعلى المؤمنين ليبسر لهم طريق الهدى . ﴿ **ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون** ﴾ إلى ما ضلت عنه الأمم ، فقد اجتباكم بنعمته ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس ، فكنتم أشرف الأمم وأكملها طاعة لله .

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

يمن الله - سبحانه وتعالى - على أمة محمد - ﷺ - بتيسير أسباب الهداية لهم ، فكما أرسل إليهم محمداً - ﷺ - يتلو عليهم آيات الله ويطهرهم من رجس الأوثان والشرك بالله ، ويعلمهم الكتاب - الذى هو القرآن - والحكمة - التى هى السنة - ويبين لهم كل الأمور التى اختلفوا فيها . . وعليها . . . ويعلمهم أمورا لم يكونوا يعلمونها - كما أرسل إليهم هذا الرسول الكريم - ﷺ - فقد هداهم إلى القبلة حتى تتم النعمة عليهم . . فحق لهم أن يشكروه ولا يكفروه ، ويذكروه فلا ينسوه . . . وشكر الله هو : ذكره . .

ونسيان الله هو كفره . نذكره بطاعته ، فيذكرنا بالقبول، ونذكره بالتوبة ، فيذكرنا بالمغفرة . . ونذكره ـ بالحمد ، فيذكرنا بالمزيد . . ونذكره بالدعاء، فيذكرنا بالإجابة . .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣

إن المؤمن إما أن يكون شاكرا ربه على نعمه . . وإما أن يكون صابرا على ضراء مسّتْه . . . وعلى الشكر والصبر تدور أمور الشريعة كلها .

والصبر صبران ، صبر على الطاعات والقربات ، وصبر عن المحرمات والسيئات . وهناك صبر ثالث : وهو الصبر على المصائب والنوائب . . . وما أوتى عبد عطاء أوسع من الصبر .

وقد قال على زين العابدين : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟

قال فيقوم جماعة من الناس ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون إلى أين يا بنى آدم ؟

فيقولون : إلى الجنة .

فيقولون : قبل الحساب ؟

قالوا : نعم .

قالوا : ومن أنتم

قالوا : نحن الصابرون .

قالوا : وما كان صبركم ؟

قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله .

قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

قال ابن كثير :(١)

ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾(٢) .

وقد تقدم تفسير قوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ فى الربع الثالث من سورة البقرة .

وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٧ .

(٢) الزمر : ١٠ .

يخبرنا الله تعالى أن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون . كما جاء فى صحيح مسلم : قال رسول الله - ﷺ - « إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب - جل جلاله - « إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون » (١) .

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

إن الناس معادن ، والله - سبحانه وتعالى - يمتحن الناس ، فبأى شىء يمتحنهم؟ لقد شاءت إرادته وحكمته أن يختبرهم بشىء من « الخوف » : خوف الفقر . . خوف الظلم . . . خوف العدو . .

وهذا النوع من الخوف هو موطن البلاء ، أما خوف الله - سبحانه وتعالى - وخوف الذنوب والمعاصى وخوف النار ، فإنما هو النعم الإيمانية التى أنعم الله بها على العبد . . والخوف من النوع الأول لا يتملك قلب المؤمن ، ولا يمسه ولا يفسد عليه إيمانه ، فالمؤمن لا يخاف الفقر وهو يعلم أن الله هو ﴿ الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٢) ، ولا يخاف ظالما، وهل يملك الظالم من نفسه أن يخرج شربة ماء حبست فيه ؟!

ونحن حين نقرأ سيرة الرسول - ﷺ - وصحابته الذين عذبوا فى سبيل الله لا نرى منهم من خاف - بعد توحيد الله - من العبيد المشركين أحدا . وعندما نسير مع المسيرة الإسلامية لنرى مولانا الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام أبا حنيفة ومالكا ، والشافعى وحسن البنا ، ومن سار على دربهم - نجد أن الإيمان عندما يخالط الضمائر ، ويتلبس بالنفوس ، ويمسك بالقلوب يجعلها فوق المادة ، وفوق الظلمة ، وفوق الخوف ، وفوق الدنيا كلها .

---

(١) انظر مسلم كتاب الإمارة باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة .

(٢) الذاريات : ٥٨ .

والجوع مصدر آخر من مصادر البلاء والفتنة ، ولكن المتوكل على ربه المتزود بالرجاء فيه ، يقول : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (١) .

فالتقوى خير زاد ، وإن جاعت الأجساد . . فهى تشبع الأرواح وتطمئن القلوب ، وحينذاك تنزل السكينة . . ويرفع البلاء .

﴿ ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ .

فالأموال قد تضيع وتعوض . والأنفس تزهق فى الدنيا لتلتقى مرة أخرى فى الآخرة . . والثمرات ، إن قلت هذا العام تزد فى العام المقبل . . ولكن الإيمان بالله لا يعوض . . وثواب الصبر لا يعوض ، وقد فطنت إلى ذلك امرأة من الصالحات القانتات حين فقدت ولدها وعظم خطبها ، وجاءها الناس يواسونها ويصبرونها ، فقالت لهم : « إن مصيبتى أقل من أن أجزع عليها » ، تعنى بذلك أن ثواب الصبر على المصيبة أكبر من أن تجزع عليها ، فصبرت .

وهكذا تتلقى قلوب المؤمنين الأقدار عن الله سبحانه .

وحين سئل الإمام الشافعى عن ثمانية أمور « واجب ، وأوجب . . . عجيب ، وأعجب . . صعب ، وأصعب . . قريب ، وأقرب » :

قال : « من واجب الناس أن يتوبوا ، وترك الذنوب أوجب .

والدهر فى تصرفه عجيب ، وغفلة الناس عنه أعجب .

والصبر فى النائبات صعب ، ولكن فوات الثواب أصعب .

وكل ما ترتجى قريب ، والموت دون ذاك أقرب » . وصدق الإمام الشافعى فيما قال : فإن البلاء شديد . . . ولكن يهون منه الثواب المرجو من ورائه ، وذكرنا للموت ، الذى ماذكر فى شدة إلا وسعها ، ولا فى سعة إلاّ ضيقها .

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع ، وهو قول ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة (٢) .

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

فها هو ذا الله الواحد الأحد . . . صاحب السموات ورافعها بلا عمد . . وصاحب

---

(١) البقرة : ١٩٧ . (٢) انظر : كتب السنة .

الأرض وباسطها ، وصاحب يوم البعث والحشر والنشور ، يقول : إنه يصلى على أمته التى صبرت ، وعلى عبده الذى صبر .

إن لحظة من صلاة الله على العبد ، هل تساويها الدنيا . . ؟ وهل تساويها أعمالك كلها وإن وزنت مثاقيل الجبال ؟ لا والله . . . . ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ .

فهؤلاء أهل الهدى ، وأهل الخشية ، وأهل المودة والمحبة هم عباد الله المخلصون ، ينادون من رب العالمين . . ﴿ **يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ (١) .

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

والطواف بين الصفا والمروة ميراث نبوى من عهد إبراهيم نبى الله وخليله عن هاجر زوجه ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ .

وحين يطوف الحاج أو المعتمر بين الصفا والمروة سعيدا ضارعا إلى الله . . مظهرا ضعفه بين يديه سبحانه . . . متجردا من الحول والقوة . . ويتصور عظمة الخالق ، متأملا خلق السموات والأرض والجبال الرواسى ، التى فجر الله من خلالها الينابيع والآبار والأنهار والبحار والمحيطات ، مستشعرا فقره إليه ، وعجزه بين يديه ـ تزداد قوته فى السعى . . وتسرع منه الخطى ، ويشمر عن ساعد الجد ؛ فتتساقط كل شهواته ومعاصيه ، مع كل قطرة عَرَقٍ تخرج من جسده . . ويرق قلبه بين يدى الله ـ عز وجل ـ ويخف جسمه فارًا من عذاب الله إلى رحمته . . وتنزوى عنه نفسه الأمارة بالسوء ، وينحسر عنه شيطانه . . فتسمو روحه لتتلقى عن واهبها وملهمها معانى كثيرة للسعى الذى يقوم به أول ما يقوم بخشوع وامتثال ورضا وتسليم ، فيتذكر أمه هاجر بانكسار كل مشاعرها ومواجيدها ، وانحسار كل حواسها نحو هدف واحد ، ترجوه وتسعى إليه . وبيركة المكان الطاهر تنتقل إليه كل مشاعرها نحو الله ، فيصيح لسان الحق منه : «اللهم أنا أنا . . وأنت أنت . . أنا العبد وأنت الإله . . أنا المخلوق ، وأنت الخالق . . أنا الفقير وأنت الغنى ، أنا الذليل وأنت العزيز ، أنا الطالب وأنت المطلوب ،

---

(١) الزخرف : ٦٨ .

أنا العائذ وأنت المجير ، أنا المذنب وأنت الغفار ، أنا الراجى حماك ، الراضى برضاك ، المستنجد بعفوك ، وأنت الله الذى لا إله إلا هو » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ
وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ
وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا
لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

وجاءت هذه الآيات لتنزل بالوعيد الشديد . . وتصب لعناتها الغاضبة من الله سبحانه . . وملائكته . . وكل خلقه . . على كل أفاك أثيم ، معتد على الحق ، مغير لطريقته . . وهم الذين يكتمون ما أنزل الله سبحانه من الآيات البينات لهداية الخلق . . ومن هؤلاء أهل الكتاب ، الذين كتموا الحق الذى قرءوه فى الإنجيل وفى التوراة من خبر محمد ـ ﷺ ـ ثم أنكروا الحق وطمسوه عن الناس . . فهؤلاء ملعونون من الله الذى كتموا ما بيّن وجحدوا ما أنزل . . . . . ملعونون من الناس الذين أضلوهم بغير علم .

إن أوامر الله ـ تبارك وتعالى ـ لا تمضى بمضى الأنبياء . . وليس من حق البشر بعد ما ينتقل نبيهم إلى الرفيق الأعلى ـ وقد بلّغ ما أنزل إليه من ربه كله ـ أن تعبث أيديهم أو ألسنتهم فتضيف إليه حرفا ، أو ترفع منه حرفا . . ولما كان العلماء فى أمة محمد ـ ﷺ ـ هم السرج المنيرة والأدلة على الخير . . فقد كان أجرهم عظيما إن أحسنوا ، وكذلك كان عقابهم عظيما إن كتموا وبدلوا .

فمن استقام منهم ولم يجامل فى دين الله ولا بدين الله ، ولم يخش فى الله البشر ، ولم يخوفه قول طاغية ولا قوة ظالم . . ولا بأس طاغوت . . فهؤلاء مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، أولئك العلماء الذين يقولون لأولياء الأمور : هذا أمر الله وأمر الرسول ـ ﷺ ـ وليس لنا أن نضيف إليه أو ننقص منه أو نبدل فيه . . فالزم مكانك كعبد لله . . فليس لك فى دينه من شىء ، وليس لنا كذلك معاشر العلماء فى دينه من شىء إلا أن نبينه للناس كما استأمننا الله عليه .

فهم إن فعلوا ذلك استغفرت لهم الملائكة ، واستغفرت لهم مخلوقات الله كافة .

أما الذين علموا الحق ثم كتموه مجاملة لحاكم ، أو هربا من المسئولية ، أو طمعا فى الدنيا ، فهؤلاء عليهم لعنة الله ، ويلعنهم اللاعنون من الملائكة والمؤمنين الذين يغارون على أمر الله ، ويحرصون على هديه ، ويعملون بمنهجه سبحانه . .

على أن باب التوبة مفتوح أمام هؤلاء العلماء . وطريق توبتهم هى أن ينتقلوا من دائرة السلبية مع الخير ، إلى دائرة الإيجابية مع الله ، ومن يناصره .

وهم بولائهم المستأنف بعد التوبة ، وبيانهم للحق كما أنزله الله ـ قد وعدوا من الله ـ كرما وفضلا ـ أن يتوب عليهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم لأنه هو التواب الرحيم . . **﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى﴾** (١) .

أما أولئك الذين قست قلوبهم ، وصدوا عن سبيل الله ، وماتوا وهم كفار ولم يعلنوا خروجهم على الظالمين ، وانضمامهم لأهل الحق والدين ، ولم يرتدوا أثواب عبودية الله ، وماتوا وهم يكتمون الحق واشتروا الدنيا بالآخرة ، ولم ييسر الله لهم توبة يحتضنهم بها بأنوار رضاه ورحمته ، ويكتنفهم فى ستره ، فهؤلاء مطرودون من رحمة الله ، وعليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ .

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

بعد الدرس العظيم فيما هو واجب أن يكون ماثلاً وقائما فى نفوس وسلوك الذين يتصدرون للدعوة إلى الله ، يذكر الله سبحانه وتعالى أن ألوهيته تعم الخلق جميعا . . هو الله الواحد القهار . . وأنه المنفرد بالوحدانية وأن لا شريك له ولا صاحب ، وأنه هو الرحمن الرحيم ، الذى عمت رحمته الكون كله . .

فيالبؤس الذين لا يعيشون معنى الرحمن الرحيم ، ويالَشقاء الذين لا يعتقدون أن إلههم إله واحد ، لا إله إلا هو .

يقول الشهيد سيد قطب (٢) فى هذه الآية : « ومن وحدانية الألوهية التى يؤكدها هذا التأكيد ، بشتى أساليب التوكيد ، يتوحد المعبود الذى يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتتوحد الجهة التى يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، ويتوحد

---

(١) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) ظلال القرآن : ١ / ١٥٢ .

المصدر الذى يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ، ويتوحد المنهج الذى يصرف حياة الخلق فى كل طريق .

وهنا ـ والسياق يستهدف إعداد الأمة المسلمة لدورها العظيم فى الأرض ـ يعيد ذكر هذه الحقيقة التى تكرر ذكرها مرات ومرات فى القرآن المكى، والتى ظل القرآن يعمق جذورها، ويمد فى آفاقها حتى تشمل كل جوانب الحس والعقل، وكل جوانب الحياة والوجود. يعيد ذكر هذه الحقيقة ليقيم على أساسها سائر التشريعات والتكاليف. ثم يذكر من صفات الله هنا ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ؛ فمن رحمته السابغة العميقة الدائمة تنبثق كل التشريعات والتكاليف » . أهـ .

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي
ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا
وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

هذه الطريقة فى تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون ، لنرى القدرة الماثلة أمامنا، القائمة بين أيدينا كى نستدل بها على وجود من خلقها .

فهو سبحانه يدعونا للتأمل فى خلق السموات والأرض . فإن فى هذه السموات بنجومها ، وأبراجها وأفلاكها وما فيها من آيات عظمى من سحاب وأمطار ورعد وبرق : لعبرة لكل معتبر . . متدبر . . متفكر . . من خلق هذا كله ؟ فرفع السماء بغير عمد ترونها ، وزينها بزينة الكواكب ، وحفظها من كل شيطان مارد ، وجعل الشمس فيها سراجا وهاجا ، وجعل القمر نوراً لامعا ، وأجرى السحاب الثقال بما يحمله من ماء ، وسير الرياح لتثير السحاب ، فتنزل المطر من السماء ليسقى بلدة ميتا . . . فيحييها ، وجعل الرعد مسبحا بحمده يثير فى النفس الرهبة . . . ويشعر بصفات الجلال والعظمة والجبروت . وهو الذى جعلها سبعا طباقا ، وأوحى فى كل سماء أمرها، وجعل فيها الملائكة ، ينزلون منها إلى الأرض بوحيه وبشاراته ، . . فمن الذى خلقها ؟ ما من شك أنه هو الله وليس يقدر على ذلك إلا الله .

﴿ **والأرض** ﴾ . . وما فيها من جبال رواس ، وأنهار جوار ، وأودية مبسوطة ، وبحار مشقوقة . . وما فيها من إنس وجان ، وطير وأسماك وحيوان . . يختلف فى الأشكال والألوان . . والزرع الذى يسقى بماء واحد ، ويخرج مختلفا ألوانه يفضل بعضه على بعض فى الأكل . . وغير ذلك كثير .

﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ يعقب كل منهما الآخر ويخلفه فى عظمة وجلال لايخفى على أحد ، ويشهد وينطق بعظمة الله وجلاله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وجعل الفلك تسير وتحمل ماشاء لمن شاء ، ولو شاء لأسكن الرياح فظلت الفلك رواكد على ظهر البحر . . إلا أن رحمته سبحانه تغمدت العباد على ظلمهم . . ووسعتهم على بغيهم . ولم تقتصر على عبادة المؤمنين ، ولكن عمت الناس أجمعين بالمنفعة .

كما أنزل من السماء ماء . . مسخراً . . لا يتعب فيه الإنسان ، ولا يجتهد من أجل الحصول عليه . . أنزل من السماء ماء طهورا إلى الأرض ، فأحياها بعد ما كانت ميتة . فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . . وذلك حين ارتشفت الماء كما يرتشفه الظمآن ، وهو يلهث . . فتطمئن نفسه ويذهب ظمؤه ، وهكذا الأرض تحيا عروقها بالماء . . وتخرج نباتا مختلفا ألوانه . . رزقا وزينة ، يبعث فى الصدر الانشراح لرؤيته ، ويحرك الألسن المؤمنة بالشكر لله رب العالمين سبحانه .

وقد صدق الله سبحانه حيث قال ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ (١) .

فكل ما على الأرض من نبات ودواب أصله الماء . . فمن الذى جعله نباتا مختلفا ألوانه . . ؟ ومن الذى صيره دوابَّ مختلفا أشكالها وأنواعها . ؟ ومن الذى أحاله بشرا سويا عاقلا ، متكلما . ، ﴿ **أإله مع الله تعالى الله عما يشركون** ﴾ وتصريف الرياح ، بتحولها من وجهة إلى وجهة . . وجعلها للعذاب تارة ، وللخير والمنفعة أخرى . . من الذى صَرّفها ؟ ﴿ **أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ! !

وهذا السحاب المعلق فى جو السماء ـ لا هو يصعد إلى السماء ، فيلتصق بها . ولاهو يهبط إلى الأرض فيسقط عليها ، إلا أنه مسخر بين السماء والأرض ، برغم ثقله حتى تأتيه الرياح ، بأمر ربها فتضرب بعضه ببعض لتحيله مطرا غزيرا ، من بعد ما كان ظلا ظليلا . .

---

(١) الأنبياء : ٣٠ .

من الذى سخره ؟ ﴿ أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

نعم فى كل هذه الآيات أدلة قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على صانع مبدع حكيم قدير ، فما هى حجة الذين يتنطعون ، وينصرفون عن تلك الآيات فيقولون « إنها الطبيعة !! » ؟ .

هؤلاء قد غالطوا مغالطة عجيبة . . إن كنتم لا تؤمنون بوجود الله لأنكم لا ترونه ، فما هى هذه « الطبيعة » التى تتكلمون عنها ؟ ما صفاتها ؟ هل رأيتموها ؟ وكيف خلقت كل هذا وألفت بينه هذا التأليف العجيب . . ؟!

ولنستعمل معا العقل الذى وهبنا الله إياه ، ولنقل لهؤلاء :

إن لم يكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق ، فمن الذى خلق . . ؟

فإما أن يكون الخالق هو أنتم . . وأنتم لم تدعوا ذلك ، ولا نحن .

وإما أن تكون المخلوقات قد خلقت نفسها ، وهى أيضا لم تدع ذلك .

وإما أن يكون خلقها فرد بعينه معلوم من الناس . . ولم نسمع يوما ما أن أحدا قد ادعى ذلك . . فلابد وأن يكون هناك خالق لهذه المخلوقات ، وأن يكون واحدا . . قادرا . . عليما . . حكيما . . واسعا . . مدبرا . . يشهد كل خلقه بوحدانيته ورجوعه إليه . وهو الله سبحانه وتعالى . وفى هذا يقول الشاعر :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

وقد كان الأعرابى البسيط ، الذى يسير فى البادية ، يتتبع مواقع القطر ، ويسوق الغنم ، أعقل حين سئل عن سر إيمانه بالله ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والأقدام تدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!!

ولذلك فإن الله سبحانه يخاطب العقول . . ولكن ما الذى يجدى مع رءوس خاوية . . مع من هم كالأنعام ، بل أضل سبيلا ؟!!

﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (١) .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الكهف : ١٠٤ .

شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ
كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ
مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿ **ومن الناس** ﴾ يعنى فريق من الناس ، ﴿ **من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله** ﴾ . وما كان ﴿ **من دون الله** ﴾ فليس مستحقا لأن يكون ندا لله فى أى شىء فكيف يكون ما هو دون الشىء نظيره ؟!! ولله المثل الأعلى . . إلا أن هناك طائفة من الناس ، وهم من أشدهم ظلما وإثما وبغيا ، قد اتخذوا من دون الله أندادا . . يعنى نظراء ساووهم بالله ـ سبحانه وتعالى وأشركوهم معه ـ سبحانه وتعالى ـ إنهم أشركوا مع الله مَنْ دونه . . . ومادون الله يمكن أن يكون ملكا أو نبيا . . أو صالحا أو وليا . . كما يمكن أن يكون طاغوتا أوظالما . . أو شجرا . . أو مطرا . . أو نارا . . أو طيرا ، أو حيوانا . . . أو حجرا . . أو وثنا ، أوقبرا . . وكل هذا ﴿ **من دون الله** ﴾ وكل قد ساووه مع الله فى الحب الذى لا يصلح أن يكون إلاّ لله .

فإن كانت مساواتهم بالله فى الحب للأنبياء والصالحين ، فليس الممنوع هنا هو أصل الحب ، ولكن كونهم جعلوا حبهم لهم مساويا لحبهم لله ـ عز وجل ـ حتى صيروهم أنداداً لله ـ سبحانه وتعالى . فإن كان الحال كذلك فى حب الأنبياء والصالحين ، فكيف بحب غير هؤلاء من الظلمة والفسقة والطواغيت ؟

وقد سأل ابن مسعود رسول الله ـ ﷺ ـ : أى الذنب أعظم عند الله؟ فقال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . (١) ولذلك فقد عقب الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبينا سبيل المؤمنين فى نهج المحبة ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ فهم لا يشركون به أحدا فى الحب ولافى الخوف ، ولا فى الرجاء ولا فى الإنابة ، ولا فى الرغبة ولا فى الرهبة ، ولا فى الدعاء . . لأنهم يقدرونه حق قدره ويعلمون أنه هو سبحانه المستحق للحب لذاته وحده . وحب من سواه متفرع من حبه سبحانه .

---

(١) جاء فى الصحيحين عن ابن مسعودانظر البخارى كتاب التفسير قوله تعالى ﴿ **فلا تجعلوا لله أندادًا . .** ﴾ .

فكيف نسوى فى الحب بين الخالق والمخلوق ؟ وبين المعطى والآخذ ؟ بين القوى القادر، والضعيف الهازل ؟ بين الغنى أبدا والفقير أبدا .

إذا علمت ذلك ، تبين لك أن كثيرا من الناس قد تعلق بغير الله ، والتعلق بغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ باطل ،فهو المستحق لها وحده ، إنه وحده هو الذى غذانا بنعمته . وغطانا بفضله ، وكل حب فإنما يأتى بعد حب الله ومتفرع منه ، كما أن كل عطاء إنما يأتى متفرعا من عطاء الله سبحانه . فلا يصح أن يتخذ الخلق أنداداً من دون الله ، يحبونهم كحب الله أو أشد حبا ، حتى ولو كانوا أحب خلق الله إلى الله .

والذين ظلموا هم الذين تعدوا الحق إلى الباطل ، والهدى والرشد إلى الغى والضلال ، هؤلاء الذين لم تقدر قلوبهم على التعلق بالمحبوب الأعظم وحده ، فوقعوا فى « شرك المحبة» متخذين من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . لو رأى هؤلاء أنفسهم حين يرون العذاب وأن القوة لله جميعا ما كفروا به من قبل .

فالله سبحانه هو المقصود من كل وجه ، وليس بين المخلوقات ـ مهما كان شأنه ـ من يجوز له أن يكون ندًّا لله فى أى شىء . . . سبحانه له القوة جميعا .

هؤلاء كانوا يدعون دعاوى مختلفة ـ وكلها باطلة . . يقولون : نحن نعبد الملائكة فتتبرأ منهم الملائكة ، وكانوا يعبدون الجن ، فتتبرأ منهم الجن ، وكانوا يقدمون أوامر ملوكهم وكبرائهم على أوامر الله وأحكامه ، فتتبرأ منهم كبراؤهم ، وهم فضلوا طاعة أخلائهم وأحبائهم فى الدنيا على طاعة الله ، فوجدوا أن الأمر كما تصوره هذه الآية الكريمة : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين**﴾(١) .

لقد تقطعت بهم الأسباب والأحساب والأنساب ، ولم يبق إلا العذاب ، وتمنوا الكرة ولكن . . هيهات هيهات، فليس لهم اليوم إلا الحسرات . وما هم بخارجين من النار.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

---

(١) الزخرف : ٦٧ .

لما بين ـ سبحانه وتعالى ـ فيما سبق من الآيات أنه الخالق وحده ، ولا ينازعه منازع فيما خلق ، وأنه المستقل بالخلق ، أخذ يعلن حكمته ويبين أنه المتكفل بأرزاق خلقه ، المدبر لأمورهم ، القاضى فى حاضرهم ومستقبلهم ، وأن لهم بفضله ومنّه أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا ، وأن عليهم أن يخلصوا عملهم لوجه الله ، فلا يجعلوا للشيطان عليهم ولاية ، ويحرضهم سبحانه على أن يجتنبوا كل وسوسة منه ، وأن يتبعوا كل ما أمروا به من الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وينفر سبحانه من الشيطان ، فيقول ﴿ **إنه عدو مضل مبين** ﴾ تحذيرا لابن آدم من شره . وقال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾(١) . قال تعالى : ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾(٢) .

نعم . . فكل معصية لله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما هى خطوة للشيطان ، يقتفى أثرها ابن آدم ، فطوبى للتائبين بعد سيرهم على تلك الخطوات المظلمة . أما الشقاء فلهؤلاء الذين لايزالون منغمسين حتى يوسدوا القبور ، والشيطان يأمرهم بالسوء والفحشاء . . فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه حين يصبح على أبواب المعصية ، لعله يتذكر أن الشيطان هو الذى يأمر بالفحشاء ، لعله أن يحذره ، فيستعيذ بالله منه ، وهو سبحانه مجيره إن أخلص فى فزعه إليه سبحانه واستعانته به .

وعلى المؤمنين كذلك أن يحذروا الشيطان أن يوسوس لهم ، فيقولوا على الله مالايعلمون .

ومثل ذلك ما يقع فيه الناس من شطط . . وعدم احتراز من القول على الله بما ليس لهم به علم ولا هدى ولا كتاب منير ، مما لا يجوز . . وعلينا أن نتمسك بنص الآية أو الحديث وخاصة حين يكون الأمر متعلقا بالله وصفاته وأسمائه .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ
ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

---

(١) فاطر : ٦ .

(٢) الكهف : ٥٠ .

إن الذين يقتفون خطى الشياطين ، هم فى عمى عن الحق ، لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يفقهون .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

لما كان الله طيبا ويحب كل طيب ، ولا يقبل إلا الطّيب ، فقد دعا سبحانه عباده لما يحب ويرضى . دعاهم لأكل الطيبات ، ثم بين لهم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الأرزاق ، وأرزاقه طيبة ، فعبادتكم إياه واستقامتكم على أمره : هى دليل إنابتكم إليه ، والشكر يصدر ممن يعترف لله بالألوهية والوحدانية ، وأولئك إياه يعبدون . . والذين يعبدونه ، أولئك الذين قدروا نعمته .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، ـ فقال : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ (١) ـ وقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ . .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ، يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك »(٢) .

وبعدما أحل الله لنا الطيبات أخذ يبين لنا ما حرم علينا من الخبائث . . التى فى اجتنابها منفعتنا ، وسلامة صحتنا . . . قال سبحانه :

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

والله أعلم بمصلحة عباده . . وهذه المحرمات معروفة لنا . . . فالحلال من الطعام : ما أحل الله ، والحرام : ما حرم الله . . وليس لنا فى ذلك قول . وهذه

---

(١) المؤمنون : ٥١ .

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب .

المحرمات لايباح للمسلم منها شىء إلاّ مضطرا ، ويستثنى من الميتة . . ميتتان : السمك والجراد ، ومن الدم دمان : الكبد والطحال .

إن الله غفور لمن اضطر ، وهو رحيم ، اقتضت رحمته بعبده أن أباح له - عند الاضطرار - أن يأكل مما حرم عليه فى غير وقت الاضطرار . ﴿ فمن اضطر ﴾ أى أكره على ذلك بغير اختياره . وعلى ذلك فالأكل عند الاضطرار : عزيمة ، لا رخصة ، فلصاحبها التقى الذى أقدم عليها أجر طاعة لنص من نصوص القرآن ، ولا يحل له أن يترك نفسه يموت جوعا . قال ابن كثير : « وقال وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار . وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة . قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراس رفيق الغزالى فى الاشتغال : وهذا هو الصحيح عندنا كالإفطار للمريض ونحو ذلك » .⁽¹⁾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا ۙ
أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾

إن الذين كتموا ما أنزل الله من الكتاب ، إنما هم اليهود والنصارى لعنهم الله ، فقد كتموا صفات محمد - ﷺ - ، وإخبار الحق به فى التوراة والإنجيل خوفا على الدنيا التى فى أيديهم . فكأنهم أكلوا فى بطونهم ناراً وهم لا يدرون .

أولئك الذين زين لهم الشيطان أعمالهم - حتى غفلوا عن الحساب والآخرة - فلايكلمهم الله يوم القيامة . . ولا حتى يعاتبهم ، لأنهم لا وزن لهم عنده . . ولايزكيهم ولا يطهرهم من رجس ما فعلوه ، لأنهم ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ . . . فما الذى دعاهم للصبر على النار ؟ . على شدتها . . وما الذى دفعهم للإقامة على المعاصى التى يعلمون أن لا عقوبة لهم عليها

---

(١) ابن كثير ، ١ / ٢٠٦ .

إلا العذاب الأليم ؟ ذلك أن الله أنزل الكتاب بالحق والبيان للناس فكتموه واختلفوا فيه على علم ، فاستحقوا بذلك النكال والعذاب الأليم .

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

آية شاملة . . جامعة لمعانى الإيمان ، والعبادات ، والتوحيد ، والأخلاق . . جعلت لطلاب المحبة فى الله وأهل البذل فيه : علامات يهتدون بها ، فتحقق لهم وبهم العبودية الحقة لله ، يخرجون المال وهم محبون له راغبون فيه ـ بغير مَنٍّ ولا أذى ـ للفقراء والمساكين وذوى القربى ، واليتامى وابن السبيل ، وفى عتق الرقاب المؤمنة . وكل طريق يرجى به وفيه وجه الله . وما كان للإسلام استهانوا من أجله التضحيات ، واستصغروا فيها كل بذل .

فليس البر أن نولى وجوهنا قبل المشرق أو المغرب ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، وإنما حقيقة البر فى : الإيمان بالله وتوحيده توحيدا خالصا ، ينتهى بنا إلى إرضاء الله سبحانه بطاعته وامتثال أوامره واتباع شرعه . وقد سبق(١) بيان معنى : ذوى القربى واليتامى ، والمساكين .

أما ﴿ ابن السبيل ﴾ فهو المسافر المجتاز ، الذى قد فرغت نفقة سفره ، فيعطى مايوصله لمكان إقامته . كما يدخل فى ذلك الضيف الذى ينزل بالمسلمين .(٢) ونحن نتوسع فنقول : إن من أبناء السبيل فى عصرنا هذا اللاجئ السياسى المضطهد ، لجهاده فى سبيل عودة العزة للإسلام، وبذلك يصبح هذا النوع فى درجة المجاهدين ، وعلى المسلمين حفظ كرامته إن هو لجأ إليهم ، وفى ذلك عزة للإسلام والمسلمين .

أما ﴿ السائلين ﴾ فهم الذين يسألون الناس ، ويتعرضون للطلب منهم ، فإن كان

---

(١) انظر كتابنا هذا عند تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق » الآية : ٨٣ .

(٢) وانظر ابن كثير ، ١ / ٢٠٨ .

غير قادر على الكسب ، فحقه المال ، وإن كان قادرا فحقه قول معروف ، وهو الرد الحسن الجميل ، والحث على الاكتساب وترك المسألة ، ويكون ذلك باللين .

﴿ **وفى الرقاب** ﴾ يعنى فى عتق الرقاب ، ومنهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه بعدما كاتبوا سادتهم على مبلغ من المال يعتقونهم عليه ، فنراهم يعملون ويتكسبون من أجل الحصول على المال الذى يدفعونه ثمنا لحريتهم من الرق . . فعلى المسلمين مساعدتهم فى ذلك .

وهذا الباب من أبواب البذل فى الإسلام ، قد أغلق منذ زمن لعدم وجود الرقيق .

وبعد أن عدد الله سبحانه أبواب العمل ببذل المال تطوعا على حبه والرغبة فيه ، قال : ﴿ **وأقام الصلاة** ﴾ وإقامتها تأديتها على يقظة نفس ، ووثوب قلب ، وإشراق روح، وطهر جوارح فى صلاة تصل صاحبها بحبال المودة والصلة بالله ، والحضور الواعى ، لما يتلو من قرآن وما يذكر من تسابيح .

وبعد الأمر بإقام الصلاة مسبوقاً ، ببيان أبواب البر الستة ، يبين الله لنا أن أبواب النفقة السابقة إنما كانت لأرباب الفضل والسعة والبر ، الذين يتقربون إلى الله تعالى بالعطاء ـ بعد الفريضة ـ لكل محتاج يصل إلى علمهم . أما الزكاة فتؤدى لبيت مال المسلمين ، الذى يقوم أيضا بسد حوائجهم ، فإن قصرت الزكاة فى ميزانية الدولة المسلمة أخذ من مال الصدقة ما يسد حاجة المحتاج ، وحاجة الجهاد ، وحاجة المصالح العامة . . وتصبح صدقة التطوع هنا برًّا يحبه الله ، ويحفظه لأهله .

والزكاة حق لله ، ودين يؤدى : ليس تفضلا من معطيه ، وإن كان له بها أجر عظيم. لكونها طاعة لله ، وحسن صنيع فيما استخلف فيه العبد . . وتفصيل ذلك فى سورة التوبة ، إلاأننا نجمل فنقول : إن الزكاة أمر مفروض ، وإن البر ـ بعد الزكاة ـ أمر مرغَّب فيه ومندوب إليه لاكتساب محبة الله سبحانه ، والفوز برضوانه .

والصادقون مع الخلق ، المخلصون فى السر والعلن ، هم الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق .

أما من خان عهد الله وضيّعه فهو لأمانات الناس وعهودهم أضيع وأضيع . . لذلك فقد جاء الله سبحانه بالموفين بالعهد فى تعداد أهل البر .

وكذلك الصابرون فى المرض ، وعلى شدة العيش وقسوته ، والجهد المبذول فى سبيله ، وحين نزول المصائب ، وحين الدعوة للقتال والجهاد فى سبيل الله ، والدعوة لدينه . .

وقاموا بما أمروا به وعاشوا الأمر والقيام بصدق قلب وإخلاص قول ، وانطوت نفوسهم على أنوار قلوبهم ، فعاشوا يخافون الله ويتقونه ، فأمّنهم مما خافوا ، وزادهم من فضله ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، وناداهم ﴿ **يا عبادى** ﴾ (١) فنسبهم إليه ، فهم السعداء لا يشقون ، ولا يشقى جليسهم . . إنهم الموفون بعهد الله .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

والقصاص فى القتلى المسلمين : ويكون بقتل القاتل إذا كان متعمدا .

وإذا قبل أهل المقتول الدية ، وعفوا عن الدم والقتل ، فعلى من عليه الدية حسن الأداء .

وقد كانت العرب تقول « القتل أنفى للقتل » فجاءت عبارة القرآن ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ بالأبلغ والأفصح ، والأوجز ، وفى القصاص حياة حيث يهاب من يريد القتل أن يقتل « فيترك القتل » .

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

وقبل نزول آيات المواريث ، كان من يرث ، هما الوالدين فقط ، ويوصى لمن شاء من بقية ذويه ، فلما نزلت آيات المواريث ، كان للوالدين ما فرض الله لهما ، كما للأبناء والأزواج ، والأقرب فالأقرب ، وأصبحت الوصية مقصورة على من لا يرث ، ولاتكون إلّا فى الثلث من المال فقط .

---

(١) فى قوله تعالى ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ الآية : ٦٨ من سورة الزخرف .

إذن فوجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين : منسوخ بالإجماع ، بل منهى عنه بالحديث الشريف « إن الله أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث »⁽¹⁾ .

فالميراث مفروض من عند الله لأصحاب الفروض والعصبات .

أما الأقارب الذين لا ميراث لهم ، فتجوز لهم الوصية من الثلث استئناسا بآية الوصية وشمولها .

والوصية مشروعة ، قل المال أو كثر ، لقوله تعالى : ﴿ إن ترك خيرا ﴾ فجعلها مطلقة ، دون تحديد أو تعريف . .

وللمورث أن يوصى ، وله ألّا يوصى ، فإن أوصى فله أجر ، وإلا فما عليه ذنب . فقد ثبت أن سعداً قال قلت : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ . قال : « لا » . قلت : فالشطر. قال : لا . « قال : فالثلث » . قال : الثلث ، والثلث كثير ، أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس⁽²⁾ .

والذين يبدلون فى الوصية المتروكة ، فالإثم عليهم ، لا على من ورث ، وللميت أجره على ما وصى ، والله سبحانه « هو السميع العليم » بما حملت النفوس ، وحفظت القلوب .

ولا يحل تبديل الوصية لرؤية الأحسن أو الأصلح . .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ
فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ
خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

بعد أحكام القصاص والوصية ، تأتى أحكام الصوم تكليفا وإلزاما للذين هم بربهم يؤمنون . ويعود النداء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ بمعنى يأيها الذين آمنوا بى ، وصدقوا برسولى وكتبى ، وأخلصوا عبوديتهم لى ، إنى قد كتبت عليكم الصيام كما كتبته على الذين من قبلكم ، وافترضته عليهم .

---

(١) رواه الترمذى ، كتاب الوصايا ، باب « ما جاء لا وصية لوارث » وقال : حسن صحيح .
(٢) رواه البخارى ـ واللفظ له ـ كتاب باب « فضل النفقة على الأهل . . . » إلخ .

وإن كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد كتب الصيام علينا : فلم يكتبه إجهادا للمؤمنين، ولكن تنقية للقلوب ، وتزكية للأرواح ، وتخليصا للنفوس من ضلالها وما يعلق بها وقربة وطاعة لملك الملوك .

والصيام هو الإمساك ، أو الامتناع : لغة ، وشرعا هو العبادة المقصود بها وجه الله تعالى بالامتناع عن الطعام والشراب والنكاح ، من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وبه تتربى الإرادة فى الإنسان حين يوقن بقدرته على الإمساك عن شهواته .

والجماعة المسلمة فى حاجة إلى ذوى الإرادة : لترتقى فوق حاجة النفس بالصبر والاحتمال .

ولما كان المنع عن المباح محرمًا نصف اليوم ، ومتاحًا فى النصف الآخر ، ولما كان الصيام مشروعًا لشهر واحد من العام ، وليس فى كل الشهور ، كان ذلك تعويدا للنفس على سهولة التلقى عن الله بروح الامتثال لأمره ونهيه ، وليس فى ذلك أدنى مشقة على الذين يتلقون الأمر من الله ، بثبات العبيد ، الذين يعيشون يقينهم بالله الرءوف الرحيم ، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها ، ولا يكلف نفسًا إلا وهو بها رءوف رحيم .

وبذلك يتلقى المؤمنون أوامر الله فى الصيام وغير الصيام ، بالرضا والحب ، والقبول، فيعيشون الصوم تفكرًا فى ملكوت الله وعظمته ، ورقة فى المشاعر والحس وشفافية فى النفس ، وإشراقًا فى الروح ، ومددًا يصلها بحضرة الحق سبحانه . فيعيش رقيق الوجدان والشعور ، محلقا فى عالم الذاكرين ، الذين لا يشغلهم عنه شهوة بطن ولا فرج .

والصوم رياضة بدنية وروحية ، تصح بها الأبدان والأرواح ، وتتربى النفس، وتزكو القلوب ، فتنشأ مواجيد الأرواح المسبحة . ألا يحاكى الصائم من قبل بزوغ الفجر إلى غروب الشمس حياة الملائكة بروحه المسبحة ، السابحة فى بحار الحكمة ، يغالب رغباته ونزعاته ، حتى صار رقيقا شفافا كأنه ملك يمشى على الأرض بين الناس؟!

أما فضل الصوم وثوابه ، فإنما هو من علم الله سبحانه ، فالصوم نصف الصبر ، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .

والأيام المعدودات المقصودة فى هذه الآية : إنما هى ثلاثة أيام من كل شهر ، وقد كان ذلك قبل فرض الصيام فى شهر رمضان ، حيث كان صيام ثلاثة أيام من كل شهر مكتوبا على الأمم من قبلنا ، قال بذلك معاذ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعطاء ، وقتادة، والضحاك ، وقيل غير ذلك عن الحسن البصرى حيث قال : « لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا : شهراً كاملا(١) » .

و ﴿ **أياماً معدودات** ﴾ عددًا معلومًا ، وقال أيضًا بذلك : السدى ، وقد كان الصيام قبل النسخ ـ الذى سوف نبينه إن شاء الله ـ يعنى الامتناع عن الطعام والشراب والنساء، من بعد صلاة العشاء إلى مثلها .

أما قوله تعالى ﴿ **فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ يعنى من شق عليه الصيام لعارض سفر أو مرض فأفطر ، فليقض ما فاته من أيام معدودة ، حين ترفع عنه المشقة بزوال عارض المرض أو السفر .

﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ .

يعنى من أطاق الصيام(٢) فلم يصم ، فعليه فدية : طعام مسكين عن كل يوم أفطر إفطارًا وسحورًا مشبعيْن فيه، حيث كان الأمر بالخيار ، من شاء صام ومن شاء أفطر ، وأطعم مسكينًا فأجزأ ذلك عنه ، وكان ذلك قبل النسخ (٣) .

﴿ **فمن تطوع خيرا فهو خير له** ﴾ يعنى من أطعم أكثر من مسكين فهو خير .

﴿ **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ حيث جعل الصيام بالخيار ، ثم ندب إليه ، لأنه تمام الخير حتى وإن أطعم المفطر فدية ، فلو أنه علم ثواب الصائمين لصام معهم ، ولم يبتغ عن الصوم بديلاً .

وظل الحكم كذلك تدريبًا للمسلمين على تعود الصيام حتى نزل قول الله تعالى :

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ

---

(١) انظر ابن كثير، ١/ ٢١٣ـ٢١٥ .

(٢) أى استطاعه ولكن بمشقة وصعوبة كالشيخ الهرم ومن فى مثل حاله من الضعف .

(٣) انظر فى نسخ هذا الحكم وعدم ذلك . . تفسير القرطبى ٢/ ٢٨٦ .

عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

نسخت هذه الآية : حكم الخيار فى الصوم ، وأثبتت صيام شهر رمضان للمقيم الصحيح ، وبقى الإطعام بالفدية لمن لا يستطيع الصوم .

وقد شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصيام فى شهر رمضان ، وخصه بذلك ، لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن ، فصار فوق كل الأشهر وجعله علما عليها وفيها .

ومما رفع شأن شهر رمضان كذلك أنه كان شهر مراجعة المنهج بكل تفصيلاته ، وبيانه بيانا متكاملا ، فقد كان جبريل ـ عليه السلام ـ يراجع القرآن الكريم مع رسول الله ـ ﷺ ـ مرة كل عام ، فى شهر رمضان . وليس المراد هنا تلاوة القرآن فحسب ، فهذا أمر قد مكن الله تعالى منه نبيه ـ ﷺ ـ ولكن المراد مراجعة القرآن كتابا خاتما مهيمنا على كل الكتب السابقة له ، ناسخا لأحكامها ، متمما لها ، منشئًا لشريعة الإسلام الذى هو دين الله : الذى قال عنه :

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ (١) .

وفى العام الذى انتقل فيه الرسول ـ ﷺ ـ إلى الرفيق الأعلى راجع جبريل ـ عليه السلام ـ القرآن معه مرتين .

وقد ورد فى فضل رمضان أحاديث كثيرة (٢) .

والقرآن كتاب جامع ، مفصل لمنهج حياة الإنسان ، على مر الأجيال والأزمان ، فهو « هدى للناس جميعا » ثم هو « بينات » وعظات ، وحكم ، وأمثال ، وعلوم ، ومعارف ، وحجج ، وآيات قاطعة ، وبراهين ساطعة ، تفرق بين الباطل والحق ، وبين الحرام والحلال ، وبين الشرك والتوحيد ، وبين الظلمات والنور .

---

(١) آل عمران : ٨٥ .

(٢) تراجع فى كتب الحديث لمن أراد التوسع .

وقال ـ ﷺ ـ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غُبِّىَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » (١) .

ومن كان مريضًا أو على سفر من الرجال أو النساء ، أو كانت حائضًا أو نفساء : فصيام عدة من أيام أخر مثل التى أفطر فيها .

. . وذلك لأن الله تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

وهذا دليل على استحباب الأخذ بالأيسر ، وترك العسر موافقة لما يريده الله بنا .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة » (٢) .

إذْ إن الله لم يفرض طاعة ، ولا حرم معصية إلا ليبسر على عباده الحياة بكل مافيها من خير ، فإن تقبلوا أمره ونهيه عن حب وطاعة ورغبة فيه ، أصبح كل أمر لديكم يسيرا لاعسر فيه ، ببركة الطاعة ، والامتثال .

والأصل فى الإسلام هو العمل لوجه الله ، فمهما قل العمل أو كثر ، ومهما أفطر الناس أو صاموا ، فكل ما يطلب منهم إنما هو الإخلاص ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ والله سبحانه حين يجد من عبده عملا فى طاعة ، يرزقه الله تعالى كمال الإحسان وجمال القبول ، وييسر عليه أداء ما فرض ، أو قضاء ما فات ، فيعيش وليس فى قلبه أكبر من الله ، ويجد سعادته فيما هداه الله إليه .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

والله سبحانه حين يسأل أو يبتغى ، فإنما هو أقرب إلينا من حبل الوريد ولذا لم يقل « فقل إنى قريب » إذْ فيما يخص الدعاء بالذات يؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ : أن لا واسطة بينه وبين عباده ، حتى ولو بكلمة « قل » يوحيها إلى رسوله ، فهو المجيب مباشرة ، وبلا واسطة ، ولذا جاءت الإجابة شافية ، مصحوبة بفاء التعقيب والسرعة .

---

(١) البخارى ، كتاب الصوم باب « إذا رأيتم الهلال فصوموا . . إلخ » .

(٢) البخارى كتاب « الإيمان » باب « الدين يسر . . . » .

﴿ فإنى قريب ﴾ منهم، مطلع عليهم، مشرف على أعمالهم، أسمعهم وأراهم، وأشهد ضعفهم ، وأعلم حاجتهم ، ومن استجاب لأمرى منهم استجابة حب وخضوع ، وسعته برحمتى التى وسعت كل شىء ، واستجبت له وأعطيته فوق الاستجابة : المزيد والمزيد . وحين يلجأ أحدهم إلىّ ويفزع بعضهم نحوى : يدعوننى لأعطيهم ، ويسألوننى لأسترهم، فإنى عند ظن عبدى بى ، فليظن بى الخير ، وليوقن بإجابتى ، وليدعنى لأجيبه ، وليسترحمنى لأرحمه ، وليستجرنى لأجيره ، وليسألنى فأعطيه ، وليستهدنى فأهديه ، إنى أنا القريب المجيب .

وللدعاء آداب كثيرة ، نذكر منها مثلاً : ترك الاستعجال ، فعن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، مالم يستعجل .

قيل يا رسول الله ! وما الاستعجال . . ؟

قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أرَ يستجيب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء »(١) .

ومن آدابه أيضًا العزم فى الدعاء ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لى إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شىء أعطاه(٢) » .

ومن آداب الدعاء : أن يختم الداعى بقول « آمين » .

وفى آخر الآية تقرير من الحق تبارك وتعالى ، بأن الذين يدعونه وهم يستجيبون لأمره ونهيه بصدق نية وإخلاص عمل ، مؤمنون به إيمان المستيقن بأن الله يشهده ويسمعه ، فإن الله مستجيب لهم ، وإنه ليرزقهم إيمانًا به يحبه ، ويرضى به عنهم ، فيستجاب لهم، لأنهم على الخير ، وبالخير يسألون الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ لعلهم يرشدون﴾ إشارة لطيفة إلى أن الذين يستجيبون لله ، ويؤمنون به يرشدهم ربهم إلى أفضل الدعاء ، فى أفضل الأوقات ، فى أفضل الأماكن ، على أفضل الحالات ، فيؤهلهم بذلك للاستجابة لهم ، وكما قال عمر بن الخطاب

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب : بيان أنه يستجاب . إلخ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب : العزم بالدعاء .

ـ رضى الله عنه ـ : « إنى لا أحمل هم الإجابة ولكنى أحمل هم الدعاء » . فهو يعلم أن من أرشد إلى الدعاء ، كان أهلاً للاستجابة ، بوعد من الله ، وأول علامات إرادة الخير بالعبد : أن يوفقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للدعاء ، وأول علامات غضب الله على العبد : أن يحرمه الدعاء ، وحلاوة المناجاة .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ
عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ
فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ
ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ
وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

حين فرض الله الصيام ، كان المسلمون يصومون من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فيأكلون من المغرب إلى العشاء ، فإذا نام أحدهم فى ذلك الوقت ، وفاته الطعام أصبح الطعام والشراب محرمًا عليه ، حتى مغرب اليوم التالى ، فهم يأكلون ويشربون ويأتون نساءهم بين المغرب والعشاء ، وهذا هو وقت الإباحة ، وما عدا ذلك فصيام . روى أبو داود فى مسنده قال : « وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح » . فشق ذلك على المسلمين ، ووقع بعضهم فى مخالفات نتيجة ذلك ، منها : ما جاء فى الصحيح من أن عمر بن الخطاب كان عند رسول الله ـ ﷺ ـ فتأخر حتى بعد العشاء ، فلما عاد إلى بيته ، وكانت زوجته قد أخذها النوم فجامعها ظنًا منه أنها تتحيل بالنوم ، حتى لا يأتيها ، ولكنه تأكد فيما بعد أنها كانت قد نامت فعلاً ، فذهب يشكو أمره إلى النبى ـ ﷺ ـ .

وبينما عمر ومن معه من المسلمين ممن عجز عن المواصلة ، يشكون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ والرسول مشفق عليهم ، تنزل القرآن يعالج الأمر برحمة من الله وفضل ، ويرخص لهم فى الطعام والشراب وإتيان النساء من المغرب حتى الفجر (١) ، فقال تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾ والرفث هو مجامعة النساء . وقيل

---

(١) انظر : القرطبى ٢/ ٣١٤ .

مقدماته . ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ يعنى هن سكن لكم ، وأنتم سكن لهن ، قاله ابن عباس . ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ وذلك بإتيانكم النساء أو الأكل بعد العشاء ﴿ **فتاب عليكم وعفا عنكم** ﴾ وفى ذلك عفو من الله ، ورحمة واسعة . ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم** ﴾ من الذرية الصالحة . ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ وفى ذلك إباحة للأكل والشرب بعد إباحة الجماع ، فى أى وقت من الليل شاء الصائم ، كما أن فيه استحباب السحور ، والندب إليه . والمقصود بالخيط الأبيض هو أول ضوء النهار ، حين ينسلخ من الليل ، وهو الخيط الأسود .

ثم يأمر المولى بالإفطار عند غروب الشمس ، ولا يصح التأخير .

وقد شرع الله سبحانه الاعتكاف فى المساجد ، وجعل له آدابًا ، ومنها أنه يحرم على المعتكف مجامعة النساء ، وقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ـ عز وجل ـ ثم اعتكف أزواجه من بعده .

ومن آداب الاعتكاف أنه لو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فليس له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك وليس له أن يقبل امرأته ، ولا أن يضمها إليه ، ولاأن يشتغل بشىء سوى اعتكافه .

ثم نهانا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن أن نقرب حدوده ، فكيف بانتهاكها ؟ . إن الله سبحانه يأمرنا أن نبتعد عن حدوده ، وألا نحوم حولها فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، والتقوى هى أن تدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس .

فنهار الصائم طهر كله ، ما بين ذكر ، وعمل لجمع الرزق ، وتأدية صلاة أو إصلاح فى الأهل وأخوة الإسلام . والصائم يتم صيامه باعتزال كل منكر ، فلا غيبة ولا نميمة ولاحقد ، ولا حسد ولا عقوق للوالدين ، ولا ظلم لضعيف ، ولا كيد لقوى ، ولامودة لفاسق إلا للعظة والتنبيه لأمر الله ، وبذلك يخرج الصائم من شهر الصيام وقد صهرته بوتقته ، فجعلت منه نمطًا فريدًا فى الكمال . وهذا ما يحدث لمن عرف الصيام كما يجب ، وأداه بالكيفية التى يراد بها وجه الله ، فأعانه الله عليه ، وأمده بما يجعله يؤديه بحب وطاقة متدفقة .

وإن للصائم حياة فى الليل إذا أتم صيامه بالنهار تختلف عن غفلة الذين لايدرون عن الصيام ، إلا أن يجوعوا ويعطشوا ، فإذا غربت الشمس انطلقوا إلى شهوة البطن

والفرج ، وهم لا يعون إلا أنهم انفكوا من قيد كان يحجزهم عن شهواتهم . إنهم يصومون صيامًا يسقط عنهم الفرض ، وشتان بين عبادة تسقط ما علينا لله من دين ، وعبادة تفتح بيننا وبين الله أبواب القرب ومعانى العطاء ، من عالم الحب فى الله والعيش فيه . نعم شتان بين عبادة المحب وعبادة المكلف المتململ مما كلف به . . شتان . . شتان بين الصائمين الحاضرين فى حضرة الله ، يذكرونه ويذكرهم ، وبين صائمين متململين بجوعهم وعطشهم ، يطلبون ليلهم ليهيموا فيه على وجوههم فى ملاهى الشهوات .

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا
مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

نزلت هذه الآية فى الرجل يكون عليه لصاحبه حق ولم يكتبه عليه ، وليس عليك فيه برهان ولا بينة ، فيجحد الحق ، فربما يذهب صاحب الحق والذى عليه الحق ليتخاصما إلى الحاكم ، أو القاضى ، فيقضى الحاكم أو القاضى للذى ليس له الحق ، ويهضم الذى له الحق ، فيضيع حقه بحكم القاضى وعلم خصمه . ﴿ وتدلوا بها ﴾ أى تقدموا بعضها إلى الحكام .

وقد ورد فى الصحيحين ، عن أم سلمة : أن رسول الله - ﷺ - قال : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار»⁽¹⁾.

فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، فليس ما يثبت من حق بأمر القاضى حقًا حلالاً ، إلا إذا كان هو فى الأصل كذلك ، والحرام مثله ، والقاضى يقضى برواية البشر وشهادة الشهود ، فويل لمحل الحرام بزور الشهود وبلاغة الحجة ! !

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن
تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ
أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

---

(١) رواه البخارى : كتاب الأحكام ، باب : موعظة الامام للخصوم .

سورة البقرة

عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : سأل الناس رسول الله ـ ﷺ ـ عن الأهلة ، فنزلت هذه الآية ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج** ﴾ يعلمون بها حل دَيْنِهم وعدة نسائهم ، ووقت حجهم .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الأهلة مواقيت ، تفصل بين الأزمان ، ويتبين بها الإنسان أوقات الليل والنهار ، والأيام والأشهر والأعوام ، وبها يتعرف مواقيت العبادة المختلفة ، من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج .

ولما كانت الأشهر والأيام محددة بمواقيت ، تعتمد على الأهلة ، فإن الأهلة ذات منفعة دينية ـ كما بينا ـ ودنيوية .

وقد رأينا فى هذا المشهد المتكرر لسؤال الصحابة للرسول ـ ﷺ ـ عن الأمور التى تتعلق بحياتهم المختلفة عدة مسائل :

منها : حيوية المجتمع المسلم ، وعلاقته الوثيقة برسوله ـ ﷺ ـ ورسالته ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة تمر عليه دون أن يربطها بهذا الدين الذى صار منهج حياتهم .

ومنها أيضًا : تخلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عن كل علم تعلموه وكل خبرة مروا بها فى الجاهلية ، وكأنما هم للوهلة : يولدون وتولد معهم تصورات إسلامية ، وعلوم علوية ، ينسخون بها حياتهم ومعارفهم السابقة ، متحولين إلى حياة الإسلام ومعارفه .

ومنها أيضًا : حرص المجتمع المسلم على تعلم أمور دينه ، كحرصه على طعامه وشرابه وأكثر ، فلم ينتظر المسلمون أن يبلغهم الرسول ـ ﷺ ـ بكل ما يأمر به الله تعالى ، أو ما يتعلق بشئون حياتهم الجديدة ، فينفذونه عن حب وخضوع فقط ، ولكن كانوا يطلبون بأنفسهم أن يفصل فى أمر كذا وأمر كذا حتى تستقيم أحوالهم ، ويهدأ شوقهم ، وتطمئن قلوبهم إلى الحق المنزل من عند الله .

إنهم كانوا يسارعون فى الخير ويسعون إليه ، وفى هذا بيان لمدى تعلقهم بالله سبحانه ، وحبهم له ، وإيمانهم الواثق به جل وعلا ، وكأنما راق لهم أن يكون بينهم وبينه رسول ونبى يوحى إليه من ربه ، وهم يسألون فيجيبهم وهو ـ ﷺ ـ ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ (١) .

---

(١) النجم : ٣ ، ٤ .

سُورَةُ البَقَرَةِ

عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله **﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾** .

وهكذا يبين الله لهم آياته ، فيجيبهم عما سألوا عنه من أمر الأهلة ، فنسخ عادات الجاهلية بأحكام الإسلام فى شتى أمور الحياة ، فلا يجيب السؤال وكفى ، ولكن يعطى المزيد والمزيد . فهو سبحانه بصير بأحوال عباده وحاجاتهم المتكررة لمعرفة أمور الإسلام ، فيعلمهم أن ليس من البر فى شىء تلك التقاليد والخرافات ، إنما البر فى الاعتدال وترك الأمور المريبة فى مظهرها ، وملازمة تقوى الله ومخافته .

وفى حكمة عامة ، لا تزال تتداول بين الألسن **﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾** ، فتصرف النفوس الخبيثة عن كل فعل يؤتى من خلف الظهور ، ويسار فيه من غير الطريق المعروف المشروع ، فيتحايل من أجل الوصول إليه .

وبتقوى الله يكون الفلاح والتوفيق من الله تعالى : فاتقوا الله فى كل أموركم ، وإياكم والابتداع أو التقليد ، لعلكم بذلك تفلحون وتصيبون الحق فى أعمالكم ، فتنالون رضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليكم .

ولقد كان المسلمون الأوائل يسألون عما يجهلون ، ويطيعون فيما يؤمرون ، كانوا يأخذون الأمر من الله فى شتى شئون حياتهم اليومية بروح التسليم والإذعان ، ولذلك نجد الأمر بالقتال يأتى للمسلم وهو يرتل القرآن على سريره ، فيقوم وهو يرفع تمرات إلى فمه فيلقفها ليسرع وينادى حى على الجهاد ، متنسماً روح الجنة عند مواقع النزال ، حتى لنرى أحدهم يقول : « إنى لأجد ريح الجنة عند جبل أحد » .

يقول تعالى :

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ
فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣

فى هذه الآيات يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بقتال الكفار الذين يقاتلونهم ويخرجونهم

من ديارهم ، وقوله ﴿ فى سبيل الله ﴾ تركيز على أمر النية ومشروعية القتال ، فليس القتال إلا من أجل عقيدة الإسلام وإعلاء كلمة الله فى الأرض . وليس فى سبيل الهوى وغاية الشيطان.

قاتلوا يأهل الإسلام ، وأهل سبيل الله ، من صد عن دين الله ، وهاجمكم فى عقر دياركم ، وأخرجكم منها ، وكمم أفواهكم ، ومنعكم من إقامة شريعة الله فى أرضه . وكاد لكم كيدًا ماكرًا ليخرجكم عن دينكم ويصدكم عن سبيل الله . لاترتكبوا ـ خلال ذلك ـ المناهى التى تتعارض مع نيتكم الخالصة .

ومن المناهى : التمثيل بجثث الموتى ، والغلول ، يعنى السرقة من الغنائم ، وقتل الصبيان والشيوخ ، الذين لا رأى لهم ولاقتال فيهم ، والرهبان ، وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، كما قال ذلك ابن عباس ، وعمر بن عبد العزيز ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

ويجاهد فيغزو فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا فى كل مكان على وجه الأرض ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ ليس معناه ، لا تبدءوا بالقتال ، ولكن لا تعتدوا على الذين اجتنبوا قتالكم ، أو التدبير له .

وعلى هذا يجب أن يفهم النهى المذكور .

ويدل على ذلك الجمع بين الآيات والأحاديث الواردة فى مشروعية القتال ، وهى كثيرة ولا يتسع الموضع لذكرها ، وفى الآيات التى نحن بصددها الآن ما يؤيد ذلك .

والأمر بالقتال شديد على بعض النفوس ، وإن يكن محببًا إلى بعضها ، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبين أن ما يقع فيه المسلمون من عدوان على حقوقهم فى الحياة واغتصاب لديارهم وأموالهم ، والكثير من الأذى الذى يحيق بهم : لا يحسمه إلا الجهاد ، فى سبيل الله ، ومقاومة كل من أراد الإسلام والمسلمين بسوء .

بل إن الذى وقع فيه المسلمون اليوم من فتنة فى الدين ، وتخبط فى الأمر ، إنما هو بسبب تركهم لهذه الفريضة ، التى يستقيم بها كل اعوجاج ، فقد صدق الله إذ قال : ﴿ **والفتنة أشد من القتل** ﴾ .

يقول الله تعالى للمقاتلين من المسلمين : حيثما وجدتم الكفار الذين يحاربون الله

ورسوله والمؤمنين ، وأخرجوكم من دياركم وخربوا منازلكم ، وفرغوا منكم أماكن جهادكم وساحات قتالكم ، ليحلوا فيها محلكم ، حق عليكم أن تتبعوهم حيث كانوا فتقتلوهم « وتخرجوهم وتشردوهم ، حتى يتم القضاء عليهم » .

وأى فتنة أعظم من أن تكون العزة للكافرين على المؤمنين ، فيبدلوا دين الله ، ويعطلوا شريعته ، ويبغوا الفساد فى الأرض ، ويصدوا عن سبيل الله ﴿ ويبغونها عوجا﴾ .

ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾ . وقد منع الله سبحانه المسلمين أن يبدءوا الكفار بالقتال عند المسجد الحرام ، فدل ذلك على أنه غير ممنوع فى غيره ، بل هو مشروع ومطلوب .

ولا تبدءوهم بالقتال عند المسجد الحرام ، حتى يكونوا هم البادئين لترتد عليهم فتنتهم عند البيت ويرتدُّوا إن شاء الله على أعقابهم خاسرين .

وقوله تعالى : ﴿ **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

ومن الانتهاء هنا : أن يتركوا القتال ويدخلوا فى الإسلام تائبين إلى الله ، والله غفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ، وقال إننى من المسلمين ، يرشده الله إلى صراط مستقيم ، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب ، فلو ارتكب الكفار أبشع ما يستبشع فى حق الله سبحانه ، ثم عادوا إليه تائبين مستغفرين لغفر الله لهم على ما كان منهم ولايبالى .

ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤

عن ابن عباس وغيره : (١) أنه لما سار رسول الله ـ ﷺ ـ معتمرًا فى سنة ست من الهجرة ، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة ، وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم ، فنزلت فى ذلك هذه الآية﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** ﴾ .

---

(١) ابن كثير ، ١/٢٢٨ .

فالأشهر الحرم : حرام القتال فيها ، ومنهى عنه إلاَّ أن يبدأ غير المسلمين بالقتال فيها ، فعند ذلك يجب عليهم ردّ الاعتداء . وبين أعين المسلمين دائمًا قول الله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ لأن تقوى الله تستوجب نصره ، فهم عباده الموحدون الذين قلوبهم بين يديه ، هو وليهم ومعهم ، وناصرهم ومؤيدهم .

وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

هذه الآية تحث على النفقة فى سبيل الله ، والتهلكة هى نتيجة الإمساك عن الإنفاق ، فالإنسان عندما يمسك عن النفقة على الجهاد فى سبيل نشر الدين ، ومقاتلة المشركين ، ففى هذا هلاك ودمار لحياة المسلمين ، والإحسان هو الدعوة إلى الله ، والبذل فيه بذل النفس ، وبذل المال .

حيث يحب الله تعالى الذين يتقنون أعمالهم كلها ، سواء كان ذلك العمل بذلاً فى سبيل الله ، أو جهادًا أو أمانة على أوامر الله بالفعل أو بالترك .

فالإحسان هو : الإتقان لكل ما يطلب من الإنسان لدنياه أو آخرته بكل صوره الواسعة المتعددة ، حتى يكون بذلاً تارة بالمال ، وأخرى بالنفس أوبالعلم والمعارف فى خدمة الدين وأهله فى سبيل الله ، وكل ذلك إحسان يحب الله أهله ، ويغفر لهم ، ويكفر عنهم ، ويجزل لهم من عطائه وإحسانه ، قال تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾⁽¹⁾ ؟ .

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ
أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ
أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآية الكريمة : أحكام الحج للذين أحصروا ، ومنعوا عن إتمام مناسكه ، وكذلك الأحكام لمن ﴿ **تمتع بالعمرة إلى الحج** ﴾ .

---

(١) الرحمن : ٦٠ .

ثم عقب تعالى على هذه وتلك بقوله ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ أى : لمن خالف ما تبين ، أو ارتكب ما نُهى عنه ، أو قصر فيما أمر به .

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

وهذه الأشهر هى « شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة » .

« فمن فرض فيهن الحج » فأحرم ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾ .

والرفث الجماع ، قال تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ (١) وهو يشمل مقدمات الجماع من الترغيب فيه والدعوة إليه بالكلام والتقبيل والمعانقة والمداعبة .

والفسوق هو : ارتكاب ما نهى الله عنه .

والجدال هو : كل ما يدعو إلى نزاع ، وينتهى إلى مخاصمة أو مكابرة فيما أمر الله ، سواء أكان ذلك فى مناسك الحج أم غيرها .

وذلك لكمال صورة المحرم ، وجعلها فى إطار التقوى واليقظة ، فالمُهِلّ بالإحرام فى شهور الحج إنما هو كميّت راحل عن الدنيا بين يدى مغسله ، فلا يرهب الخلق ولاينصرف إليهم ، بل ينصرف عنهم ليعيش أيام إحرامه فى حضرة الله سبحانه ، يستمع إليه ويدعوه ويستغفره ، ويرجوه ويكبره ويلبيه ، قلبه يستشعر وجود ربه ورقابته على جوارحه من الدقيقة الأولى فى إحرامه .

قال ابن عباس : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون ، فأنزل الله ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ يعنى لا تنسوا فى سفركم هذا الزاد ، وتذكروا سفر الآخرة واحملوا إليه خير زاد ، وهو التقوى ، والتقوى زاد المتقين ، الذين يخافون الله ، ويخافون فيه الناس ، فيعملون دائمًا على مرضاته ومرضاة الناس فيه ، فلا يظلمون أحدًا حتى لا يسألهم الله عنه ، ولا يصح أن يخرج قادر إلى الحج موفرًا لماله

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

معتمدًا على زاد غيره وعطائه ، وذلك أمر يقع فيه بعض أهل الإسلام . والله سبحانه يدعوهم إلى أن يستعملوا ما حباهم الله به من فهم وعلم وعقل ومال فى تقواه ، حتى يكونوا حقًّا من أولى الألباب وذوى الأفهام .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم
مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ
كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

عن ابن عباس ، قال كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فنزلت ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾ أى فى مواسم الحج .

ويجزئ الوقوف فى أى مكان من عرفة ، أما الوقوف عند الصخرات التى وقف عندها حضرة الرسول - ﷺ - فليس حتمًا ولا شرطًا لصحة الوقوف بعرفة ، وإن أمكن فهو حسن . وعلى الحاج فقط أن يصل إلى أى موضع من عرفات فى وقت محدد، وهو مع أو بعد الزوال ، فيصلى الظهر والعصر جمع تقديم ، ويؤجل صلاة المغرب والعشاء ليصليهما فى مزدلفة لا بعرفة، فالحاج يقف بعرفة من وقت الزوال إلى الغروب ، ثم يفيض من عرفات إلى مزدلفة، لصلاة المغرب والعشاء ، ويبيت بها ليصلى الفجر عقب الأذان ، ثم يفيض مع الحجيج إلى منى لرمى جمرة العقبة .

والذكر هنا بمعنى استدامة الحضور بالقلب فى أداء المناسك : حاضرًا فى حضرة الله، فى الصلاة ، وأثناء جمع الحصى ، يتأمل حكمة الأمر ، وجلال وجمال الامتثال ، ويظل مستغرقًا فى حضرة الله بالتكبير والتهليل والتعظيم والدعاء .

إن الإنسان - وخاصة الحاج - حين يتأمل نعمة الله عليه بالتوحيد ، وذلك الاجتباء الإلهى باعتناق الإسلام ، الذى لولاه لعاش الإنسان فى ضلاله القديم ، الذى سبق رسالة نوح بارتداد ذرية آدم عن الإسلام ، وكذلك الضلال الذى عاشه الكثير من ذرية إبراهيم بارتدادهم عن الإسلام ، وتحريفهم له فى صورة اليهودية والنصرانية ،ليعرف نعمة الله تعالى عليه ؛ إذ إن الحق تبارك وتعالى كرم أمة محمد - ﷺ - وأنقذها من الضلال ، ولم يكتبه عليها ، حتى لو ضل منها فريق قام آخر بالحق يذكر ، وله يجاهد،

فرضًا واجبًا عليه، حتى يقوم الدين كما كان بين يدى محمد - ﷺ - وأصحابه رسالة توحيد وعلم ، بدولته الحاكمة بما أنزل الله ، وأمته العابدة النقية من الضلال ، ولعرف كذلك أن الإسلام سيظل بإذن الله تعالى واضحة طرقه وسبله ، خفاقة رايته، عالية حكمته.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

عن عائشة قالت : « كانت قريش ومن دان دينها : يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه - ﷺ - أن يأتى عرفات ، ثم يقف ، ثم يفيض منها . فذلك قوله ﴿ **من حيث أفاض الناس** ﴾ . وبذلك سوى الله سبحانه بين أهل مكة وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ (١) .

وكما أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلاّ بالتقوى ، كذلك لا فضل لقرشى على غيره من العرب ، ولا من الناس إلاّ بالتقوى .

فموقف الجميع : عرفات ، وإفاضتهم جميعًا إلى مزدلفة ، لا تمييز بينهم إلا بالأعمال، ومراقبة الله وحبه وامتثال أمره .

إن الله يربى عباده على شكر النعم ، وليس من نعمة أكبر من الطاعة .

والآن وقد تمت نعمة أداء المناسك والاقتراب من نهايتها برمى جمرة العقبة فى صبيحة يوم العيد ،علينا أن نشكر الله تعالى على توفيقه. ومن أجمل الشكر - لغة وذكرا - الاستغفار ، لأنه مصحوب بتعظيم الله ، والاعتذار عما بدر من تقصير ، وإن لم يلحظه العبد أثناء نسكه ، وذلك عطاءِ من الله سبحانه لكل عباده ، والترغيب فى الاستغفار فى ذلك الوقت إشارة إلى أنه وقت رضا ، وإجابة للعبد من الله الغفور الرحيم .

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .

ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ
وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

كان الحجيج يقفون فى مواسم الحج فى ساحات التجمعات ، كعرفات والمزدلفة ، وكل منهم يذكر مآثر آبائه وأجداده ، فيقول الرجل منهم : كان أبى يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ، كان أبى يقاتل فلا يهزمه أحد ، كان أبى كذا . . . إلخ وليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فنهى الله عن ذلك التباهى ، وقال لهم : ﴿ **فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا** ﴾ . اذكروا الله الذى خلقكم فسواكم ، فرزقكم حسن الفهم والتقدير ، حتى أسلمتم له وجوهكم وقمتم له قانتين ، اذكروه أشد ذكرًا من ذكركم آباءكم ؛ فآباؤكم عباد أمثالكم لايملكون لكم ضرًّا ولا نفعا ، فالأولى بكم حين تفرغون من أداء مناسككم : أن تذكروا الله بدل ذكركم لآبائكم .

وإن الذين تنسيهم الدنيا حياة الآخرة ، ليس لهم فى الآخرة من نصيب وذلك بما نسيها وشغل عنها . أما الذين قالوا ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ ، فأولئك هم الناجون ، بطلبهم النجاة من الله ؛ طلبوا من الكريم حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة ، فأعطاهم فى الدنيا طاعته ، وكل مايعين عليها وسيعطيهم فى الآخرة من النعيم والرضوان ما يستحقون .

۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ
وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

الأيام المعدودات هى : أيام التشريق ، تبدأ بعد الإفاضة من المزدلفة ، فيرمى الحجيج جمرة العقبة ، ثم يقيمون بمنى يومين ، ثم يفيضون إلى مكة فى اليوم الثالث .

ومن الحجيج من يرغب فى الإقامة بمنى حتى اليوم الرابع ، ثم يفيض إلى مكة .

وهذه الأيام يستحب فيها الذكر والعبادة . فهى أيام مباركة لمن تعجل ولمن تأخر . وهى أيام رمى الجمار .

قال ابن عباس : « الأيام المعدودات ، أيام التشريق ، والأيام المعلومات ، أيام العشر ».

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

فى هذه الآيات : صنف آخر من الناس ، يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألدّ الخصام .

ونقول : إن الناس تجاه الله صنفان . . مؤمن بالله مصدق ، يعجبك قوله وعمله ، وهو على ذلك الذى أعجبك منه ، وهو طيب ، يحبه الله ، ثم يحبه رسول الله - ﷺ - وهو كذلك يحب الله ورسوله .

أما الثانى فمنافق ، أمره إلى الله ، لأننا لا نعلم بالتحديد مستور طويته ، ولسنا بأنبياء يعلمنا الله بهم ويدلنا عليهم ، ولكن لنا منهم ما أظهروه، ونكل بواطنهم إلى علم الله ، إلا إذا عطلوا حدوده ، أو جاروا على أهل دينه ، أو أنكروا معلوما من الدين بالضرورة .

وربما يعجبنا قول المنافق ، لأنه صاحب صنعة فى الكلام ، وصاحب لحن بالحجة ، وقدرة على الإقناع ، ولذلك فإن الله تعالى يحذرنا - فى هذه الآيات - من أن نغتر بهم .

وقد تكررت مشاهد المنافقين من هذا اللون فى عصرنا هذا ، غير أن الله تعالى ميزهم بعلامات ، فنحن نعرفهم بها ، وفى الصحيح عن رسول - ﷺ - أنه قال : أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» (١) .

---

(١) رواه البخارى ، كتاب الإيمان باب علاقة المنافق .

إن هؤلاء المنافقين إذا انصرف أحدهم من حديثه ، سعى فى الأرض بالفساد والتخريب .

وعلامات إفسادهم تظهر فى الحرث والنسل ، حيث إن الله سبحانه بسبب إفسادهم يمحق من الحرث بركته ، أو يمنع القطر ويسلط الحشرات والديدان فيهلك الحرث والنسل(١) .

وهؤلاء لا يقبلون نصيحة ، ولا يتقون الله تعالى ، ولا يتواضعون لجنابه ؛ وذلك بما زين لهم الشيطان من سوء عملهم ، وبما تكبروا وتجبروا فى الأرض بغير الحق ، فحسبهم ﴿ جهنم ولبئس المهاد ﴾ .

ومن سمات القرآن : إنه حين يتعرض لمواقف الظالمين نراه يجدد الحياة بعد ذلك ، ويشحذ الهمم وينتشل النفس المكدودة برحمة منه إلى عوالم الحق والخير ، وكما أن أولئك اعوجّوا عن الطريق ، فقد أقبل آخرون عليه يبيعون أرواحهم ابتغاء مرضات الله ، وهم لا يزالون يفعلون ذلك فى جميع أنحاء العالم وعبر مراحل التاريخ ، وحتى تقوم الساعة ، يؤيدون دين الله .

والله رءوف بأولئك الطيبين الأخيار المجاهدين فى سبيله بأموالهم وأنفسهم ، العاملين على رفع راية الإسلام خفاقة فى العالمين .

[illegible]

لذلك يأمرهم الحق قائلا :

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

اللام فى ﴿ وليحكم ﴾ لام الأمر ، أى ليؤمنوا بجميع مافيه ، ﴿ الف
الخارجون عن طاعة مولاهم ، التاركون للحق . وقد تقدم أن هذه الآي
النصارى ، وهو ظاهر من السياق ، ولكن القاعدة الفقهية « أن العبرة بع
لابخصوص السبب » .

نسأل الله أن يعين حكامنا على الحكم بما أنزل الله حتى نعلنها عالية «لاإله

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَ
عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ
لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

والقرآن هو الدليل على أن التوراة والإنجيل من عند الله ، وليس لدى اليهود والنصارى من يشهد للتوراة والإنجيل غيره . فمن لم يؤمن به فقد أهلك نفسه .

فلا تتبع أهواءهم يامحمد ، ولاتمش وراء رغباتهم ، إنهم يريدون هلاكك ، وهلاك أمتك . هم لهم شرائع ومناهج فى كتابهم ، وأنت لك شريعتك ومنهجك فى كتابك . لاتتبع منهج اليهود أو النصارى الذى نُسخ بالقرآن ، ولن يُقبل منهم ، وسيأتون إلى الآخرة خاسرين ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ولكن شاء أن يبلوكم ليجزى من ينجح فى اختباره أجرا عظيما ، ويوم القيامة الذى لاريب فيه آتٍ لامحالة ، وساعتها سيحكم بينكم فيما اختلفتم فيه . والفوز الكبير يومها لمن آمن بكل رسله ، ولم يفرق بينهم ، واحتكَمَ إلى القرآن ، ورضى حكمه . ويوم القيامة : موعدنا جميعا لتنبأ كلّ نفس بما عملت وبما كنا فيه نختلف .

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾

إعادة وتأكيد لقرارات الله السابقة وتأكيد لنهيه بألايتبع أهواء اليهود والنصارى فى الحكم بغير ماأنزل الله .

واحذر يامحمد أن يفتنوك عن بعض أحكام الله أو مقرراته فى قرآنه الحكيم . فإن أعرضوا عنك ولم يسمعوا كلامك ، فاعلم أنما أراداللہ أن يعاقبهم ببعض ذنوبهم .

واعلم يامحمد أن كثيرا من الناس فاسقون ، خارجون عن طاعة مولاهم ، مفارقون للحق ؛ فلا تبتئس عليهم ، ولاتحزن ، فعند الله العاقبة . وجلّ قول الحق ﴿ وماأكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (١) ويقول تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ (٢).

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

---

(١) يوسف ١٠٣ .

(٢) الأنعام ١١٦ .

أى يبتغون ويريدون العدول عن الإسلام ، والحكم بغير القرآن . ولم يقل المولى أفحكم الجاهلية يحبون أو يريدون أو غير ذلك من الألفاظ . وإنما جاء بكلمة يبغون - وهى من البغى والظلم - وراء المنكر يفعلونه وهو حكمهم بالجاهلية لذلك قال : ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ ؟

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم
مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

يحذرنا الله - سبحانه وتعالى - أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء ، فمهما عدلنا فيهم حسب شريعتنا ، فإنهم لايصدقوننا ، ولايأمنون لنا ، اللهم إلا قليلاً منهم ، وهذا القليل من الخطر أن يكون المرجع إليه فى تحمل مستقبل الأمم .

ويُعْلمنا الله أن اليهود والنصارى يتولى بعضهم بعضا . ولكن عندما يكون الأمر للمسلمين فإنه يصعب عليهم أن يكون ولاؤهم للمسلمين صادقا .

ولذلك وجب على المسلمين الحذر والحيطة حتى لا يُخدعوا بالكلمة السهلة المغلفة بالمخادعة ، لأن قلوبهم سليمة على عكس أولئك .

والذين يسارعون فى صحبة الكافرين من اليهود والنصارى وكل أهل الضلال المحاربين لله وللرسول لن يتقبل الله معذرتهم ، عن موالاتهم هؤلاء الضالين ، والمغضوب عليهم .

وها هو ذا الحق - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ ⁽١⁾ وقال تعالى : ﴿ لاتتخذوا بطانة من دونكم ﴾ ⁽٢⁾ .

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ
أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

وهناك فئة من الناس يبادرون إلى موالاة ومودَّة النصارى واليهود ، ويتذرعون فى ذلك بحجج واهية ، منها : أنهم يخافون أن تدور الدوائر على المسلمين يوما ما وبذلك يأمنون شرهم ساعتها ، لأنهم كانوا موالين لدولتهم . إلى غير ذلك مما يستحدث فى

---

(١) آية ٢٨ سورة آل عمران .
(٢) آية ١١٨ سورة آل عمران .

هذه العصور من موالاة لهؤلاء وهؤلاء والصداقة معهم ، على صور مختلفة من تطبيع العلاقات ، وتغليب المصالح ، والتبادل السلعى، بل الفكرى أحيانا . كل ذلك داخل فى عموم لفظ الآية .

والفتح فى الآية الكريمة هو فتح مكة ، وقيل هو القضاء والفصل . أما﴿ أو أمر من عنده﴾ قال السدّى : يعنى ضرب الجزية وفرضها على اليهود والنصارى ، وساعتها يندم الذين والوا اليهود والنصارى على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئا ، ولادفع عنهم محذورا ، بل كان عين المفسدة . فبدلاً من خشيتهم أن تدور الدائرة عليهم من انتصار الكفار على المسلمين ، فسوف تدور عليهم أيضا عندما يُذل الكفار ، وتفرض على اليهود والنصارى الجزية ، فهم فى الحالتين خاسرون ، لأنهم قدّروا واحتملوا طريقا واحدا ولم يقدروا الطرفين ، وهو نفاق وجبن صريحان .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣

يتعجب المؤمنون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى وقالوا : إنهم يقسمون بالله جهد أيمانهم : «إنهم معنا ومن أنصارنا ، فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا محبين للاختلاط والاعتضاد بهم ؟!» (١) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤

تهديد من الله ووعيد بأن الذين آمنوا ثم خانوا الله ، فارتدوا على أدبارهم إلى الكفر ، قد خسروا الدنيا والآخرة ، ولن يضروا الله ولارسوله ولاالمؤمنين شيئا .

وهو سبحانه قادر على أن يستبدل بمن يرتد عن دينه ويخونه قوما آخرين ، لايمنعهم عن عبادة الله شىء ، بل هم خيرٌ منهم ، وأشد منعة وأقوم طريقا . يكون الواحد منهم

---

(١) تفسير الرازى ١٢ / ١٨ .

«متواضعا لأخيه ووليه ، متعززاً على خصمه وعدوه »(١) . كما قال الحق ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(٢).

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على الإتيان بمثل هؤلاء يحبونه ويحبهم ، يرجون عفوه ونصره ، يحاربون أعداءه ، لايخافون إلا الله ، يجاهدون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم فى سبيله . هؤلاء عباد الله الذين لايخافون فى الله لومة لائم ، ولايردهم عن طاعة الله مخلوق على ظهر الأرض . .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾

يبين الله ـ سبحانه تعالى ـ للمؤمنين أن وليهم الله ، ومن كان الله وليه فقد ملك الدنيا والآخرة . ولتعلموا يأهل الإسلام أن الله ولىُّ الذين آمنوا بمحمد وبالكتاب الذى أنزل عليه ، الذين أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وحجوا بيت الله إن استطاعوا ، وصاموا شهرهم . والذين هم على صلة بالله دائمة ، فقلوبهم وضمائرهم ومشاعرهم وكلّ مواجيدهم فى خشوع مستمر بين يدى الله ، يراقبونه فى السر والعلن .

وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

ذلك أن كل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح ومنصور فى الدنيا والآخرة ، ومن بعد عن طريق الله ، فإنه خاسر دنياه وآخرته . وليعلم أن طريق الله هو الصحيح ، وسبحان من لاتخفى عليه خافية فى الأرض أو فى السماء . اللهم اجعلنا من حزب الله المفلح ، و ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧٠.

(٢) الفتح ٢٩ .

شرائع الإسلام المطهرة المحكمة هزوًا ولعبا . والآية نداء للذين آمنوا يحذرهم الله به من كيد الكفار والمنافقين ، الذين يتخذون دين الله ـ أى الإسلام ـ ليهزءوا به ، ويتركوا الالتزام به واتباع أوامره واجتناب نواهيه . هؤلاء منافقون من المسلمين ، وجماعة من الكفار أهل الكتاب ، وكذلك الذين لايؤمنون بأى دين ، وهم فى عصرنا كثيرون ، ومنهم : الذين يحكمون بالطاغوت ويهجرون كتاب الله ، وإن كانوا يتلونه فهم يعطلون أحكامه وتعاليمه . فالعبرة بالاتباع والالتزام بمقتضى شرع الله . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون .

فاتقوا الله أيها الناس ولا تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين حقا بشرع الله وبالدين الإسلامى الحنيف .

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وكذلك من خصال هؤلاء الخاسرين، أنهم إذا سمعوا الأذان داعيا إلى الصلاة، أُظلمت قلوبهم ووجوههم ، وملأهم الغيظ وصاروا يهزءون بالحق وندائه، لعنة الله عليهم .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾

أى قل يامحمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من أهل الكتاب : هل لكم علينا مطعن أو عيب ﴿ **إلا أن آمنا بالله وماأنزل الينا وماأنزل من قبل** ﴾ ؟ وهذا ليس بعيب ولامذمة . هل ترفضون أن تؤمنوا بالله ، وبما أنزل علينا من عنده سبحانه ؟ أَوَ لم ينزل على موسى من قبل وكذلك على عيسى ؟ ! ألم تعلموا ـ وتكتموا الحق الذى تعرفونه ـ بأن الذى أوحى إلى محمد هو الله الواحد الأحد ، الذى أنزل على موسى التوراة وعلى عيسى الإنجيل ؟ إنكم تعلمون ذلك ولكن فى فطرتكم الكذبُ على الله وعلى رسوله ، وأنتم تعلمون أن عيسى عبد الله ورسوله فلم تنكرونه ؟ وتعلمون أن محمداً عبد الله ورسوله فلم تنكرونه ؟ إن يوم القيامة لآت ! ! ويومها سوف تخذلون ، ولن يغنى عنكم ما تمكرون ، وستكونون فى شر مكان ، وأضل طريق ، لاسبيل لكم إلا النار تستغيثون

فيها فلا مغيث لكم ! فلم تنقمون من هذا الدين ؟ أى تنكرونه ، وما الذى تجدون فيه مما يجعلكم تتخذونه هزوا ولعبا ؟

قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠

أى هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله ﴿ من لعنه الله ﴾ أى أبعده من رحمته ﴿ وغضب عليه ﴾ أى غضبا لايرضى بعده أبدا ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ (١) . يقول أهل التفسير : القردة يعنى أصحاب السبت ، أما الخنازير فالمقصود بهم كفار مائدة عيسى . وقيل إن عبدة الطاغوت هم أصحاب العجل ، وقيل الطاغوت الأحبار ، وكل من أطاع أحدا فى معصية الله فقد عبده . ﴿أولئك شرٌّ مكانا ﴾ أى أولئك الملعونون الممسوخون شرٌّ مكانًا ، لأن مكانهم النار ، وأما المؤمنون : فلا شر فى مكانهم(٢) .

وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١

إن من خصال اليهود وطبيعتهم الهابطة فى حضيض الفسق أنهم جاءوا إلى أهل الإسلام وأهل الحق يقولون آمنا ، ويدَّعون التصديق بالله وكتبه ورسله ، ولكنهم كذابون مخادعون ، فهم كما دخلوا على أهل الإيمان مخادعين ، خرجوا وهم على خداعهم ، مصرين على باطلهم وكفرهم بالله وبرسوله ، والله أعلم بما فى صدورهم وبما يكتمون من الحق ، ليظلوا عبَّاداً للدنيا ، يختزنونها ، وهم لايسارعون لخير أبدا . ولكنهم منغمسون فى ظلمات العدوان . لبئس ما كانوا يعملون . فهذه هى صفة المنافقين يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر .

وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٧٣ .

(٢) انظر : القرطبى ٦/ ٢٣٦ .

أى يسارعون إلى اقتراف الآثام ، والذنوب ، والمحارم ، والاعتداء على الناس ، وأكلهم الحرام . لبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يقول ابن عباس : « ما فى القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية » ويقول الضحاك : مافى القرآن آية أخوف عندى منها .

ومعنى الآية : هلا ينهاكم ، أى ألم ينهكم الربانيون ـ أى العلماء أصحاب الولايات عليكم ـ والأحبار وعن كل ماتقترفونه من آثام ومعاصٍ ، من قول الإثم ، والزور وأكلكم الحرام . ؟ لبئس ماكانوا يصنعون . . !

وهنا لفتة كريمة للإمام الرازى فى تفسيره يقول : « والمعنى أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم مانهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصى .

«وذلك يدل على أن تارك النهى عن المنكر بمنزلة مرتكبه ، لأنه تعالى ذمّ الفريقين فى هذه الآية على لفظ واحد .

«بل نقول ـ والكلام مازال للرازى ـ إن ذم تارك النهى عن المنكر أقوى لأنه تعالى قال فى المقْدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ﴿ لبئس ماكانوا يعملون ﴾ . وقال فى العلماء التاركين للنهى عن المنكر ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ والصنع أقوى من العمل، لأن العمل إنما يسمى صناعةإذا صار مستقراً راسخاً متمكناً ، فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ ، وذنب التاركين للنهى عن المنكر ذنبا راسخا . والأمر فى الحقيقة كذلك» .⁽¹⁾

وفى هذا توجيه لنا نحن أمة الإسلام ، التى هى خير أمةٍ أخرجت للناس . ومن مقتضيات الخيرية فى أمة محمد أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر .

فإذا عطلت الأمة على مدى العصور هذا التكليف الربانى : يكون إيذانا بالهلاك ، وبانتشار الشر ، وبانكسار الخير وتنحيته جانبا .

---

(١) تفسير الرازى ١٢ / ٣٩ .

وإذا أصابنا جدْبٌ أو هلاك : فلا نأسى ولانندم على مايصيبنا ، إذ يكون نتيجة ابتعادنا عن قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى الآية : توبيخ وتهديد وإنكار من الله على أهل الكتاب ، الذين لم يقوموا بدورهم الفعّال فى تذكير الناس ، وردّهم إلى الصواب .

وقال ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب علىٌّ بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس : إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ، ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادَوْا فى المعاصى : أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وانهوْا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايقطع رزقا ولا يقرب أجلا »⁽١⁾ .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ
يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ
فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

اشتدت سفاهة اليهود حتى قالوا على الله ما لايليق بمقام كرمه وإحسانه ، فادّعوا أن الله بخيل ـ حاش لله ـ وماذلك إلا لجهلهم بذات الله ، وماهو عليه سبحانه من الكمال ، وبأن من أسمائه وصفاته الكريم المحسن المعطى الوهاب .

واعلم يامحمد أن اليهود لم يكفوا عن كيدهم لك ، وسيبلغ بهم الحقد مداه . لأن النفوس مظلمة آثمة .

إذْ بسبب إكرام الله ـ سبحانه وتعالى ـ لك يامحمد بإنزاله عليك القرآن الكريم ، قد حسدوك على ذلك ، وامتلأت قلوبهم حقدا عليك ، وازدادوا غما وحسدا ، وإنه جزاء حقدهم وحسدهم : ابتليناهم بما صنعوا من الشر ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٧٤ .

نعم . سيظلون إلى يوم القيامة يحقدون ، ولكن الله من ورائهم محيط ، فكلما ازدادوا طغيانا وكفرا وبغيا : سلط الله عليهم أنفسهم بالحقد والبغضاء ، فتتآكل من القسوة قلوبهم ، ومن الظلمة أنفسهم .

وها هو ذا وعد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يتحقق فى كل العصور ، فهم لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله (التوراة) أرسل الله عليهم (بخْتنصر) ، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومى ، ثم المجوس ، ثم المسلمين من بعد ذلك . ومنذ عهد الرسول ـ ﷺ ـ وإلى اليوم ، كلما استقر أمرهم واستقام ، وقويت دولتهم شتتهم الله . وكلما أجمعوا أمرا على حرب المسلمين أطفأها الله . وهم دائما يسعوْن فى إبطال الإسلام . وذلك من أعظم الفساد كما يصف القرطبى .

وها نحن أولاء اليوم فى حاجة ماسَّة إلى تجمع ووحدة المسلمين لمحو هذه الفئة الضالة الكاذبة المنافقة ، عبدة الطاغوت منشئى الربا ، وآكلى السحت ، وتطهير بيت المقدس وذلك بالجهاد ضدهم وبكل ما نملك ؛ حيث إنهم أصل الفساد فى الأرض .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

أى لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ، لأزلنا عنهم المحذور ، وأنلناهم المقصود . ولو أنهم استعملوا عقولهم ، ونظروا فى ماأنزل الله من الحق ، بنفوس طاهرة ، خالية من الحقد والحسد ، لكفر الله عنهم ماارتكبوه من ذنوب فى حق محمد وأتباعه ، وكفر عنهم آثامهم التى حاربوا بها الله ورسوله والمؤمنين .

وفى قول الحق سبحانه ﴿ ولو أنهم ﴾ : مايفيد أنهم لم يكونوا طائعين لله فى نبوة موسى وعيسى ، وأنهم كانوا عند بعثته ـ ﷺ ـ غير مسلمين ، أى غير مؤمنين بما أنزل فى الإسلام الذى هو موجود عندهم فى التوراة والإنجيل .

لذلك يقول الحق ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾من قبل محمد ومن بعده ، لأغدقنا عليهم من نعمنا ، فأكلوا حلالاً طيبا ، ولكانت نعم الله عليهم غامرة ، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، لأننى أنا الله المعطى الكريم الوهاب غير متصف بالبخل والغل كما قالوا . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا .

ثم أخبر الله تعالى أن منهم مقتصدًا كالنجاشى وسلمان وعبد الله بن سلام ، كما يذكر القرطبى . هؤلاء اقتصدوا فلم يقولوا فى عيسى ومحمد إلا مايستحقانه .

والاقتصاد: هو الاعتدال . و﴿ساء مايعملون ﴾ أى ساء صنيعهم هذا وعملهم هذا، من تكذيبهم للرسل ، وأكلهم الربا ، وأكلهم السحت ، وتحريفهم للكتب .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

﴿يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ﴾ من الوحى الذى أتاك به رسولنا جبريل عليه السلام ، وإن لم تفعل فذلك أمر عظيم .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ اختارك وأعدك لتكون أمينَه وصفيه وإمامَ رسله وأنبيائه . فلا تخف يامحمد على نفسك من أعدائك ؛ لأنك بأعيننا .

واعلم : أن الله يعصمك من الناس : ويحفظك من شرورهم .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقدكذب ، والله يقول **﴿ يأيها الرسول بلغ﴾**(١) .

وهذا تأديب للنبى ﷺ وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته . وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، فأبلغ جميع ماأرسله الله به ، وقام به أتم القيام . وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة .

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ

---

(١) رواه البخارى كتاب « التفسير » باب « يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك » .

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

يقول ـ الله تعالى ـ لليهود والنصارى لستم على شىء من دين موسى وعيسى ، ولو كان عندكم من يقين ولو قليل من التوراة والإنجيل ، لعلمتم بأن محمدا عبدُ الله ورسولُه ، لأن ذلك مكتوب عندكم فى التوراة والإنجيل .

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ (١) .

فلا تحزن يامحمد عليهم ، واعلم أن الله على كل شىء قدير .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

الذين آمنوا هم أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله . وهم المسلمون ، وهم الذين آمنوا بكافة رسل الله ، من لدن آدم حتى جاء محمد ـ ﷺ ـ .

والذين هادوا : هم أهل التوراة .

والصابئون : فرقة من النصارى والمجوس ، وقيل من اليهود ومن المجوس .

والنصارى : هم أهل الإنجيل .

كل هذه الفرق إذا أرادوا أن ينجوا من النار : فلا بد لهم من إيمانهم بمحمد ـ ﷺ ـ واتباع شريعته ، والعمل بكتابه وسنته .

ومن مقتضيات اتباع محمد ، والسير على نهجه وسنته وكتابه الذى أنزل عليه : الإيمانُ بالله واليوم الآخر ، وعملُ الصالحات ، لأن ذلك هو مانادى به محمد ـ ﷺ ـ نفسه . ومامحمد إلا رسول جاء ليهدى الناس بأمر ربه ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويرشدهم إلى العمل الصالح .

فإن فعلت هذه الفرق كل ذلك ، فلا خوف عليهم فى مستقبلهم الأخروى ، ولاهم يحزنون على مافاتهم ، من ترك عاداتهم وعقائدهم القديمة .

---

(١) الصف : ٦ .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ
بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

ولقد أخذنا عليهم الميثاق ، وهو ألا يعبدوا إلا الله ومايتصل به ، فلا تأس يامحمد على القوم الكافرين ، ولاتحزن ، فإنا قد أعذرنا إليهم ، وبعثنا لهم الرسل ، وأخذنا عليهم المواثيق ، فنقضوا هذه العهود ، وساروا حسب أهوائهم ، وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه ، وما خالفهم ردّوه .

وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟
وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

أى وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ماصنعوا ، فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا . إن هؤلاء الأغبياء قد ظنوا أن إمهال الله لهم ، وتركه إياهم دون عقاب على أفعالهم ، ينجيهم من غضب الله ، كما ظنوا أنه لايقع من الله عزّ وجل اختبار لهم ، وابتلاء بالشدائد ، لأنهم مغترون أصلاً عندما قالوا ﴿نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه﴾⁽¹⁾ . ولذلك : عموا وصموا ، ونقضوا المواثيق والعهود ، ثم تابوا إلى الله ، ثم عموا وصموا مرة أخرى ، و الله تعالى ﴿ بصير بما يعملون ﴾ أى مطلع عليهم وعليم بهم وسيجازيهم ؛ فهو يمهل ولايهمل .

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ
وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ
لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

---

(١) آية ١٨ سورة المائدة .

فى قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين . . . ﴾ حكم واضح بتكفير الذين قالوا إن الله هو المسيح ، والذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة أى واحد من هؤلاء الثلاثة .

والتثليث عندهم يتكون من أن الابن إله ، والأب إله ، وروح القدس إله .

ويرد عليهم سبحانه : قائلا ﴿ ومامن إلٰه إلا إله واحد ﴾ أى : إن الإله لايتكاثر ولايتعدد ، بل هو وحده لاشريك له . وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير فى المهد ﴿ إنى عبد الله ﴾ ولم يقل إنى أنا الله ولا ابن الله .

﴿وإن لم ينتهوا﴾ عن هذه الأكاذيب وهذه الأقوال ليمسّنهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة .

ويوبخهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى نهاية الآيات فيقول : ﴿ أفلا يتوبون ﴾ أفلا يسألون ربهم ستر ذنوبهم ، ويستغفرونه ، ويعودون إليه ؟ . إنه هو الغفور الرحيم .

مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ
صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥

أى له أسوة أمثالة من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ، ورسول من رسله الكرام ، وأمه مؤمنةبه مصدّقة له . وكانا يحتاجان إلى التغذيةبالطعام وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين . وليس المسيح ابن مريم إلا رسولاً شاء الله سبحانه أن يجعله آية للناس فحملت به أمه مريم الصديقة بغير زواج ، ليكون آية إعجاز مماثلة لآية خلق آدم من غير أبوين ، وليضرب به المثل أمام بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعبدون المادة ، ولايجعلون للروحانيات نصيبا فى تفسيرهم للأشياء . فكل شىء عندهم مادى ، يقيسونه بمقاييس مادية بحتة ، ولايؤمنون بالمعجزة أو الإعجاز . فضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ المثل الأعلى فى اختلاف الأسباب والمقاييس ، فى آية خلق عيسى عليه السلام من غير أب . وكيف يكون المخلوق المحدث المربوب ربا؟ فالمربوب لايكون ربًا أبدا . والرب منزه عن الطعام والشراب والجوارح ، ولا نقيسه بمقاييس بشرية ناقصة ، وهو مهيمن على الكون كله ، ليس كمثله شىء .

وقيل عن مريم إنها صديقة : لكثرة اعتقادها وتصديقها لكلام ربها وآياته ، وتصديقها بكلام ولدها نفسه الذى نطق وهو على كتفها .

انظر يامحمد كيف يبتعد أهل الكتاب عن الحق بعد أن بينا لهم فى الكتاب كل شىء.

قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ـ منكرا على من عبد غيره تعالى ـ قل لهم أتعبدون من دون الله ما لايملك لكم ضرا ولا نفعا ؟! أى لايستطيع دفع الضر عنكم ولايستطيع جلب النفع ؟ !

إن الله هوالسميع لأقوالكم والعليم بعبادتكم هذه الأشياء التى لاتنفع ولاتضر .

قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ
قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧

يأمر الله عبده محمدا ـ ﷺ ـ أن يقول لليهود والنصارى : يأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ، أى لاتجاوزوا الحد فى اتباع الحق .

والحقيقة أن الغلو فى الدين نوعان كما يقول الرازى : « غلو حق ، وهو أن يبالغ فى تقريره وتأكيده ، وغلو باطل ، وهو أن يتكلف فى تقرير الشبه ، وإخفاء الدلائل »(١).

وقد غالى اليهود فى ذلك فرموْا مريم بالزنا فى عيسى .

أما النصارى فقد ادّعوا فى عيسى الألوهية . « وماذاك إلا لا قتدائهم بمن ضل قديما، وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال ، إلى طريق الغواية والضلال(٢) » .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ
مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨

يبين الحق أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود وعلى

---

(١) تفسير الرازى ١٢/ ٦٣ .   (٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٨٢ .

عيسى بن مريم ، بسبب عصيانهم لله ، واعتدائهم على خلقه . فبنو إسرائيل لم يتعظوا ولم يخضعوا لتعاليم الله حتى جاءهم داود عليه السلام ، وناداهم إلى الله ليتوبوا ، ولكنهم لم يتوبوا ولم يسمعوا فلعنوا على لسانه .

وكذلك جاء عيسى بن مريم رسولاً لهم ، فلم يستمعوا ولم يطيعوا ، ولعنوا كذلك على لسانه ، بل استغرقتهم المعاصى ، وكان ينصح بعضهم فى الصباح ، فإذا جاء المساء اجتمع من وُعِظ وذُكِّر بالله وكتبه ورسله مع العصاة الطغاة المرتكبين للإثم ، الظالمين لأنفسهم وغيرهم ، وعاقروا المعاصى معا فى غير حياء .

كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

أى كانوا يبحثون عن المنكر ويفعلونه ولايتناهون عنه ، ويعلمون المعروف ويتجنبونه ولايأمرون بعضهم بعضا به . فبئس العمل عملهم ، وبئس الصنيع صنيعهم .

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

إن اليهود يلذّ لهم أن يتوادوا مع الذين كفروا ، وكذلك مع المنافقين والعصاة .
فهؤلاء سخط الله عليهم وأضلهم بما ظلموا أنفسهم وبما فعلوا ، ولكن لايشعرون ، ولهم عذاب أليم يوم القيامة .

وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

يعنى لو أنهم آمنوا بالله وبمحمد ـ ﷺ ـ وماأنزل عليه من كتاب ، لما صاحبوا الكافرين ، وما والوهم ، لأن الله ينهى عن ذلك ، ولكن كثيرا منهم ـ كما يخبر الحق ـ خارج عن طاعة الله ورسوله مخالف لتعاليم ربه ـ سبحانه وتعالى ـ.

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢

لتجدن يامحمد أنت وأمتك أشدَّ الناس بغضًا لكم وعداوةً : اليهود والمشركين .

والسبب فى ذلك : كبر وجحود للحق تربوا عليه ، فقست قلوبهم فهى كالحجارة ، بل هى أشد قسوة ، فهم لايفقهون الحق .

وبين صفحات التاريخ مايد ينهم ، ويسود صحائفهم .

وإنى لأعجب فى هذه الأيام من ممالآت المسلمين وتراجعهم عن القتال والجهاد لاسترداد بيت المقدس وفلسطين .

وقد نسب الله البغض والعداوة فى الآية لليهود بالذات وعلى وجه الخصوص ، لأنهم مفطورون على ذلك .

والنصارى فى الآية هم الذين جاء عليهم القرآن والإسلام ، وقالوا إنا نصارى بحق ، أى أنصار المسيح عيسى بن مريم ، الذى على منهاجه نسير ، وبتعاليمه نمشى ، وبما فيها نؤمن أنك يامحمد آتٍ لامحالة ، وها أنت ذا اليوم أمامنا مبعوث من عند الله نؤمن بك وبقرآنك .

وماذاك إلا لما فى قلوب هؤلاء القوم من الرقة والرأفة لما يوجد فيهم من القسيسين وهم علماؤهم ، والرهبان وهم العبّاد .

من هؤلاء وهؤلاء أقوام بالجملة لايستكبرون عن عبادة الله والإذعان لمحمد ، والإيمان بالقرآن ، لأن محمداً مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم لايستكبرون بل يظهرون تلك البشائر الموجودة عندهم فى توراتهم وإنجيلهم .

وسر إسلام هؤلاء النصارى أن قساوستهم قرءوا وفهموا وصدقوا بأن محمداً رسولُ الله فأسلموا . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾⁽¹⁾ .

وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ
ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣

---

(١) آل عمران ٨٥

﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ أى مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ـ ﷺ ـ يقولون ﴿ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، أى : اكتبنا مع الذين يشهدون لمحمد أنه قد بلغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد فى الله حق جهاده .

وهاهم أولاء أصحاب النجاشى وأنصاره تفيض أعينهم من الدمع عند سماعهم القرآن من النبى أو من جعفر بن أبى طالب .

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾

وهؤلاء الذين كانت عيونهم تفيض من الدمع قد أسلموا ، فالذين يدخلون فى الإسلام من النصارى تلك صفاتهم ، يقولون فى خشوع قلب وتجرد ذات : ربنا آمنا بك وبرسلك من لدن آدم حتى إبراهيم فموسى فعيسى ، وتوّجنا مااعتقدناه من الحق بدخولنا الإسلام مصدقين بأن محمدا ـ ﷺ ـ خاتم رسلك وأنبيائك ، فارزقنا الإيمان وآتنا الحجة ، ويسّر لنا الطريق إليك ، ووضحه سهلاً نستقر فى أنواره وحقائقه مع رسولك الذى أرسلت ، فاجعلنا ياربنا من الأبرار الأخيار ، وأدخلنا مع القوم الصالحين فى رحمتك .

فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

هؤلاء القوم أثابهم الله بما قالوا وصدقوا ، وجعلهم من أصحاب النفس المطمئنة الراضية ، وأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، وتلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار. وقوله : ﴿ فأثابهم ﴾ أى فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

هذه فئة الأشقياء ، وهى عكس الفئة الأولى قلوبهم صماء وقاسية كالحجارة ، بل

أشد قسوة ، فهم لايعرفون تفكيرا ولاتدبرا ولانظرا ، فجحدوا بآيات الله وخالفوها ، وهؤلاء : هم أهل النار . وأصحابها الداخلون فيها .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾

أى : من الطعام والشراب واللباس والنساء الأزواج . يقول لاتسيروا بغير سنة المسلمين ، فالذى حرم عليكم بوحى أو بسنة : هو فقط ماحُرم عليكم ، وليس لكم أن تريدوا غيره ، أو تزيدوا عليه أو تنقصوا منه ؛ إذْ ليس من حق العبد أن يضيف إلى ماقرر الله من فروض وسنن ، أو ينقص منها ، وليس له أن يغير فى الكتاب والسنة أو يحذف منها ، فوجوب الالتزام بها فى الكتاب والسنة فرض لازم ، وكذلك كل ماأحل الله للناس من رزق فهو طعام وشراب هنيء .

وقد ذهب بعض الأئمة ، منهم الإمام أحمد بن حنبل ، إلى أن من حرم مأكلا أو مشربا أو ملبسا أو شيئا من الأشياء : فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين .

﴿ ولا تعتدوا﴾ معناها : لاتبالغوا كثيرا فى التحريم على أنفسكم ، وفى التضييق لطيبات الله عليكم .

وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

أى زيدوا وكلوا مما أحله الله لكم ، ولاتحرموا حلالاً ولاتضيقوا على أنفسكم ، واتقوا الله فى جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، وأطيعوا نبيه ، واتركوا مخالفته وعصيانه .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

لغو العبد فى الأيمان أن يحلف بالله من غير قصد أن يفعل ثم لايفعل ، أو ألا يفعل

ثم يفعل ، ولايلتزم بالدقة فيما حلف له وفيه : لايحاسب الله عليه مع التحذير من الوقوع فيه .

لكن عندما تعقد الأيمان ، أى يكون اليمين مصحوبا بنية وإصرار ثم يحنث فيه ، أى يقع فيه ، فذلك فيه الكفارة .

والكفارة هنا إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أى عتقها ، فإذا عجزالعبد عن أداء إحدى الكفارات السابقة ، فيصوم ثلاثة أيام .

والأولى والأصلح والأصوب لدينكم ودنياكم أن تحفظوا أيمانكم ، ولاتحنثوا فيها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ
فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾

نداء من العزيز الحكيم الرءوف الرحيم للذين آمنوا ، يبين لهم أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان : ليجتنبوه .

ولما كانت الخمر هى أمّ الكبائر ، والخمر هى رأس الإثم ، والأنصاب والأزلام رموز للشر والإثم ، فقد سماها الله ـ سبحانه وتعالى ـ رجس من عمل الشيطان ، وأمرنا باجتناب كل ذلك الباطل ، وجعل اجتنابه سببا فى نجاح المؤمنين .

وقد حفلت السنة بأحاديث كثيرة واردة فى بيان تحريم الخمر ، ليس هذا مجال التطويل بها .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن
ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

يريد الشيطان بهذه المحرمات أن يفتن بينكم ، ويوقعكم فى الخصام والكره والعداوة بسببها ، ويريد أن يصدكم عن ذكر الله ، لأن هذه الأشياء تنسى الإنسان ذكر الله تماما ، والصلاة ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ ؟ .

والأمر الطبيعى للمسلمين أن يجيبوا ربهم سمعاً وطاعة .

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ
ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾

فى هذا أمر بالطاعة وتهديد عظيم لمن خالف هذه الأوامر وأعرض فيها عن حكم الله .

ومعناها : إن توليتم ، فالحجة قد أقيمت عليكم ، والرسول قد بلغكم ومرجعكم إلىَّ .

لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعاشوا فى الحلال الذى أمروا به فى مطعمهم وملبسهم ومشربهم ، وسرهم وعلنهم ، وتحروا كل مافى كتاب الله ، وسنة رسوله ، فاتبعوه فى يقظة قلب ، وصدق ضمير ، وحب للحق . هؤلاء هم الذين أحسنوا الفهم والعمل . والله يحب المحسنين .

و (إذا) فى الآية الكريمة للمستقبل لا للماضى . والمقصود من تكرار التقوى فى الآية هو التأكيد والمبالغة فى الحث على الإيمان والتقوى .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن
يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾

هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلى الله به عباده فى إحرامهم ، حتى لوشاءوا لتناولوه بأيديهم ، فنهاهم الله أن يقربوه . إن الله ـ سبحانه تعالى ـ يربى أمة محمد ـ ﷺ ـ على خشيته فى السر والعلن ، فمن التزم وأطاع أوامره ، واجتنب نواهيه : صدق فيه وعليه قول رب العزة ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرةٌ وأجر كبير** ﴾ (١) . أما من اعتدى بعد ذلك وخالف ﴿ **فله عذاب أليم** ﴾ .

---

(١) الملك ١٢ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ
مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ
ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

هذا تحريمٌ منه ـ سبحانه تعالى ـ لقتل الصيد فى حالة إحرامكم أيها المؤمنون ، ونهىٌ عن تعاطى هذا الصيد فى حالة الإحرام .

يقول ابن كثير : « وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ماتولد منه ومن غيره، فأماغير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعية يجوز للمحرم قتلها ، والجمهورعلى تحريم قتلها أيضا ، ولايستثنى من ذلك إلا ماثبت فى الصحيحين» ⁽¹⁾ .

ومن فعل ذلك بعد تحريمه فإن الله سبحانه تعالى ﴿ عزيز ذو انتقام ﴾ إن الحجة قد جاءتكم ، وعليه بعد ذلك الكفارة أيضا .

إنها تربية وإرشاد للذين آمنوا وعملـوا الصالحات ، إلى الأصلح . عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « خمس مـن الدواب كلهن فاسق يقتلن فى الحرم ، الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » ⁽²⁾ .

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ
مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

يقرر الله ـ سبحانه تعالى ـ أن للمحرم والمحل أن يأكل من صيد البحر ، ميتا وحيًّا ، فما صيد منه : فهو حلال للمحرم والمحل والمسافر والمقيم .

وأما صيد البر : فمحرم حتى تحلوا إن كنتم محرمين ، ولغير المحرمين حلال فى كل الأوقات مادام قد استوفى كل شروطه المشروعة .

---

(1) تفسير ابن كثير ٢/ ٩٨ .

(2) رواه البخارى كتاب « جزاء الصيد » باب « مايقتل المحرم من الدواب » . وكذا رواه : الإمام مسلم فى صحيحه ، والترمذى والنسائى فى سننهما .

۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ
ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ٩٧ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٩٨ مَّا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ٩٩

أى : خلق الله الكعبة قياما للناس ، أى صلاحاً ومعاشا ، يأمنون فيها ، ويقومون بشرائعها .

﴿ والشهر الحرام ﴾ اسم جنس، والمراد الأشهر الحرم الأربعة وهى : رجب وذوالقعدة وذو الحجة والمحرم . فكان العرب لايطلبون فيها دما ، ولا يقتلون فيها عدوا، ولايتوقعون فيها ثأرا .

﴿ والهدى ﴾هو مايهدى إلى الكعبة ويذبح هناك ، ويفرق لحمه ويوزع على فقراء الحرم .

وكل ذلك أى : الكعبة ، واحترامكم للأشهر الحرم ، وإقامتكم الهدى والقلائد ، كل ذلك ، دليل على عظمة هذا البيت ، وغاية تشريفه .

و«لما ذكر الله تعالى أنواع رحمته بعباده ، ذكر بعده أنه شديد العقاب ، لأن الإيمان لايتم إلا بالرجاء والخوف . . . ثم ذكر عقيبه مايدل على الرحمة وهو كونه غفورا رحيما ، وذلك يدل على أن جانب الرحمة أغلب »(١).

﴿ ماعلى الرسول إلا البلاغ ﴾ يعنى أن الرسول - ﷺ - مكلف فقط بالتبليغ ، والله يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور .

قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى
ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠٠

اعلموا أن الله اختار لكم خير رسله ، واختار لكم هذا الدين وارتضاه لكم شريعة ومنهاجا ، فلا تعجبكم كثرة الخبيث من متاع الدنيا ، فالعبرة بالكيف لا بالكم ،

---

(١) انظر تفسير الرازى ١٢/ ١٠٢ .

والقليل من الحلال خير من الكثير وهو حرام ، فاحذروا أن تجمعوا من الدنيا بغير شرع الله ، فالدنيا تغرى وتهلك ، والمؤمن يعرفها بصحبته لكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -. ﴿فاتقوا الله ياأولى الألباب﴾ أى ياذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ، لعلكم تفلحون فى الدنيا والآخرة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

نداء من الله للذين آمنوا بألايسألوا عن شىء لم يخبر الحق عنه من أخبار الغيب ، فالغيب لله ، يبرز منه ماشاء بما يشاء ، ويستر منه ماشاء بما يشاء ، وهو الستار ، فما أظهره هو الخير ، وماستره فى ستره خير لانعلمه .

وفى « هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لافائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها . وفى الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «دعونى ماتركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . . .(١)» .

ولهذا يقول الحق مخبرا :

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فيأيها الناس أنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ، فاذكروا نعمة اختيار الله لكم ، وإحسانه إليكم ، واعلموا أن اليهود والنصارى من قبلكم قد سألوا هذه المسائل المنهى عنها ، فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بسببها كافرين . فاحذروا أن تكونوا كما كانوا ، فتوبوا يتب الله عليكم ، ويجعلكم صالحين .

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

---

(١) رواه البخارى كتاب « الاعتصام » باب « الاقتداء بسنن رسول الله - ﷺ - ».

(البحيرة) هى البهيمة التى يمنع درُّها فلا يحلبها أحدٌ من الناس ، وهو قول سعيد ابن المسيب .

(والسائبة) كانوا يسيبونها لآلهتهم لايحمل عليها شىء ، ولاينتفعون بها حق منفعتها .

أما (الوصيلة) فهى إذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم . وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . فالوصيلة بمعنى الموصولة ، كأنها وصلت بغيرها .

أما (الحام) فهو الفحل ، وهو نوع من ذكر البقر ، كان إذا انقضى ضرابه⁽¹⁾ جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه .

والمعنى مجملا : أن الحيوانات مخلوقة لمنافع المكلفين ، وتركها وإهمالها يقتضى فوات منفعةٍ على مالكهـا من غير أن يحصل فى مقابلتها فائدة . والبهيمة إذا أعتقت وتركت لم تقدر على رعاية مصالح نفسها فوقعت فى أنواع من المحنة أشد وأشق مما كانت فيها حال ما كانت مملوكة .⁽²⁾ .

أى إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يشرع لكم مثل هذه الأفعال التى تفعلونها .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

فهؤلاء الناس إذا دعوا إلى شرع الله وحكمه وتكاليفه قالوا : يكفينا ماجبلنا عليه من طباع وما وجدنا عليه الآباء والأجدادمن الطرائق والمسالك .

فكيف تتبعون آباءكم وأجدادكم أيها الناس ؟ هل تتبعون الجهل بعينه ؟ والظلام نفسه ؟ أو أنكم لاتفهمون حقا ؟ !

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

---

(١) أى : نكاحه : انظر « لسان العرب ـ مادة ضرب » .

(٢) انظر فى ذلك تفسير الرازى ١٢/ ١١٠ .

سُورَةُ المَائِدَةِ

ينادى الحق سبحانه الذين آمنوا بأن يقوموا على أنفسهم بالتربية والإرشاد ، وتعلم كتاب الله ، وسنة رسوله ، فإن كملت معارفهم بالدين ، فعليهم بعد ذلك أن يدعوا غيرهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن استمعوا لهم فذلك فضل الله عليهم وعلى من دعوهم . وإن لم يستجيبوا فقد ثبت لهم أجرهم **﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾**⁽¹⁾ ـ **﴿ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ﴾**⁽²⁾ .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ سيعطى الذين أقاموا من أنفسهم دعاة إليه ، مذكرين لشرعه ، أجرهم على أنهم بلغوا فقط ، وليس على أنهم قد استجيب لهم ، لأن الهادى هو الله ، **﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾**⁽³⁾ .

فالاستجابة لله ومن الله فقط ، ولو شاء ربك لآمَنَ مَنْ فى الأرض كلهم جميعاً .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ
ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ
ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا
ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ
فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

يأيها الذين آمنوا : اعلموا أنه إذا كان أحدكم فى سفر وأراد أن يوصى بشىء ، فعليه أن يختار للإشهاد على وصيته ، اثنين عدلين من الأقارب ، فإن لم يجد : فمن غير الأقارب .

---

(١) الآيتان ٢١ , ٢٢ من سورة الغاشية . (٢) آية ٨١ سورة النمل .

(٣) آية ١٧ سورة الكهف .

فإذا مات الموصى : فليؤد هذان الشاهدان شهادتهما بما أوصاهما به ، ويكون ذلك عقب الصلاة : التى يجتمع عليها الناس ، ويحلفان بمثل هذه الصيغة « نقسم بالله العظيم ، لانستبدل بيمينه تعالى عوضًا ، ولو كان فيه نفع لنا أو لأحد أقاربنا ، ولانخفى الشهادة التى أمرنا الله تعالى بأدائها صحيحة ، إنا إذا أخفينا الشهادة ، أو قلنا غير الحق : نكون من الظالمين ، المستحقين لعذاب الله .

هذا . . وإذا ظهر أن الشاهدين قد كذبا فى شهادتهما ، أو أخفيا شيئا : فإن اثنين من أقرب المستحقين للتركة ، يقومان مقام الشاهدين الأولين ـ بعد الصلاة كذلك ـ ليظهرا كذبهما .

حيث يحلفان بالله إن الشاهدين قد كذبا ، وأن يميننا أولى بالقبول من يمينهما ، ولم نتجاوز الحق فى أيماننا ، ولم نتهمهما زورا ، وإلا كنا من الظالمين .

وهذا التشريع : هو أقرب الطرق التى تؤدى الشهادة على وجهها ؛ فتحفظ الحقوق .

واتقوا الله وراقبوه فى وصاياكم وفى شهاداتكم وفى كل أحوالكم ، واسمعوا لشرع الله تعالى وأطيعوه ، وتذكروا اليوم الآخر دائما ، فإن الله لايهدى القوم الفاسقين .

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم . فاذكر يامحمد أنت وأمتك يوم يجمع الله رسله وأنبياءه فيسألهم بماذا أجابتكم الخلائق ، فتقول الرسل والأنبياء فى أدب وخشوع ، وتواضع لله ، ﴿لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى

فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ
تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

يذكر تعالى ما امتن بـه على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ، مما أجراه على يديه من المعجزات . فاذكر كذلك يامحمد إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، إذ جئتَ خلقة مخالفة لطبيعة الخلق ومألوف العادة ـ من غير أب ـ بنفخة من روح القدس وهو جبريل . وجئتَ تكلم الناس وأنت طفل فى المهد، وبرأتَ أمك بكلماتك المقدسة وأنت مولود لساعتها ، وذلك على خلاف العادة والمألوف بين الناس ، وجئتَ تدعو الناس مولودا إلى توحيد الله وبأنك عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وأقدرتك أن تنفخ فى الطين فيكون طيرا ، والأكمه والأبرص دعوتنى فشفيتهم بإذنى ، تثبيتاً لك وتكريما ، وأخرجتَ الموتى من قبورهم أحياءً بإذنى وقدرتى، حتى يعلم المبطلون أنك بعينى رسولاً ونبيا وعبداً مكرما . وكففت عنك أذى بنى إسرائيل ، ونجيتك من خبثهم وحقدهم ، إذ جئتهم بالبينات ، فلم يرتدعوا ، ولم ينزلوا على الحق ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين وبفضلى ألهمتُ الحواريين فآمنوا بك واتبعوك ونصروك .

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا
مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

هذه الآية : تعبر عن قصة المائدة ، وبسببها سميت السورة بالمائدة . وأنزل الله آيةً باهرة وحجة قاطعة ، وهى المائدة على عيسى ، حينما طلب الحواريون ، وهم أوائل التلاميذ لعيسى عليه السلام ، فقد سألوه أن يسأل ربه أن يُنزِّل عليهم مائدة من السماء، عليها طعام ، فقال لهم عيسى خافوا من الله ، أى اتقوه إن كنتم صادقين .

قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ
عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

وهذا دليل على قلة تفكيرهم وقصر نظرهم فالذى رفع السموات بغير عمد ، وبسط الأرضين ، وشق فيها البحار ، وأخرج منها نباتا مختلفا ألوانه ، قادر على طلبهم .

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا
وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن
يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

رفع عيسى عليه السلام يديه إلى السماء وطلب من ربه ماسأله الحواريون .

والمقصود بكلمة ﴿ عيدا ﴾ فى الآية : أنه يريد أن يتخذ من هذا اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا يعظمه هو ومن بعده من الحواريين ، وقيل : إنه أراد أن يكون هذا اليوم عظة له ولمن بعده ، ودليلاً على قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ وإجابته لنبيه .

﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ بعيسى وبقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإن الله يتوعده بعذاب شديد يوم القيامة .

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ
اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ
تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا
مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ
عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لعيسى عليه السلام ، يوم القيامة : أأنت ياعيسى قلت للناس إنك وأمك إلهين ، وناديتما ليعبدكما الناس ؟ فيرد عيسى : ياربّ سبحانك إن كنتُ قلتُ ذلك فأنت رب الكون كله ، تعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، أنت

علام الغيوب . وماقلت لهم إلا ما أمرتنى به من عبادتك وحدك بأن الله ربى وربكم أيضا ، وأنا عبد الله ورسولُه ، وكنتُ أشهد على عملهم حين كنتُ بينهم فقط ، وهم عبادك ، إن شئت عذبتهم ، وذلك عدل منك فيهم ، وإن شئت صفحت عنهم وذلك فضل منك وإحسان .

وهذه الآية : فيها التوبيخ والتقريع للنصارى يوم القيامة ، وتهديد الله لهم على رءوس الأشهاد .

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

المراد باليوم فى هذه الآية هو يوم القيامة . والمعنى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم يوم القيامة .

يقول الرازى « اعلم أنه لما أخبر الله أن صدق الصادقين فى الدنيا ينفعهم فى القيامة ، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب » (١) . وهذا الثواب هو جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . وهذا هو الفوز العظيم الذى لا أعظم منه ولاأحسن ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ (٢) وجل قوله ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ (٣) .

وفى ختام السورة : يصدر العدل الكبير المتعالى قراراً بأن يوم القيامة ينتفع الصادقون بصدقهم ، ولهم فيه رضوان من الله ، وهو أكبر جزاء للصدق ، وسوف تنطفئ ساعتها شعلة الكافرين ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ المتصرف القادر على جميع ملكه ، وتحت قهره وقدرته ومشيئته . فلا نظير ولاوزير ولامعين ولا والد ولا ولد ولاصاحبة ولارب غيرك يارب . ﴿سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ .

---

(١) تفسير الرازى ١٢/١٣٨ .

(٢) آية ٦١ سورة الصافات .

(٣) آية ٢٦ سورة المطففين .

(٦) سورة الأنعام مكية

إلا الآيات ٢٠ و٢٣ و٩١ و٩٣ و١١٤ و١٤١ و١٥١ و١٥٢
و١٥٣ فمدنية وآياتها ١٦٥ نزلت بعد الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)

يمدح الله تعالى ذاته الكريمة ، ويحمد لها على خلقه السموات والأرض قرارًا لعباده ، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده فى ليلهم ونهارهم ، أى : أبعْد ذلك يكفرون به ويجعلون له شريكًا وعدلاً ويتخذون له صاحبة وولدا ؟ والعدل هنا هو المثل .

أى : تجعلون له مثلاً وندا وعدلا ؟!! سبحان الله العظيم . سبحانك اللهم وبحمدك أنت متنزه عن أى شىء وعن أى صاحبة وعن أى ولد . تعاليت يارب عن المثل والند والشريك علوا كبيرًا . .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

ونحن جميعًا نعلم أن أصل خلقتنا آدم الذى خلق من طين . والأجل الأول فى الآية هو الموت ، أما الأجل الثانى فهو الآخرة . فيجب أن نحذر ما بعد الموت من سؤال ثم مصير إلى الجنة أو النار ، كما لا ينبغى أن نتشكك أو نشكك فى ذلك أو فى شىء من ذلك . ﴿ تمترون ﴾ يعنى تشكون فى أمر الساعة .

وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من سر وجهر ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾ (١) .

---

(١) غافر : ١٩ .

ويعلم جميع أعمالكم سواء كانت خيرًا أو شرًا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ﴾ (١) .

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾

يقول الله تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين أنهم كلما أتتهم دلالة على وحدانية الله وصدق رسله الكرام ، فإنهم يعرضون عنها ، فلا ينظرون إليها ، ولا يبالون بها . والإعراض عن الحق : استهزاء ، وتلك صفة من صفات المشركين المكذبين المعاندين، الذين فضحتهم الآيات ، وكشفت عن نواياهم ومكنون قلوبهم .

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

هذا تهديد من الله سبحانه وتعالى ، ووعيد شديد منه على تكذيبهم بالحق .

ولابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، ثم يعذبون بسبب ذلك عذابًا أليمًا .

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

إننا قد أهلكنا أممًا قبلهم بسبب ذنوبهم ، وبسبب سيئاتهم التى اقترفوها واجترحوها، وجعلنا سيرتهم أحاديث بين الناس ، وأنشأنا جيلاً آخر ، لكى نختبرهم، فعملوا مثل صنيعهم ، فأهلكناهم كما أهلكنا الأولين ، وهذه عاقبة من يمكن فى الأرض فلا يتبع هدى الله ، ولا يشكر نعمه، ثم بعد ذلك يفسد فى الأرض ، وجل قوله ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ﴾ (٢) .

﴿ مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ أى من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود . ﴿ مدرارا ﴾ أى شيئًا بعد شىء .

فاحذروا أيها الناس أن تقعوا فى مثل هذا الصنيع الذى هلك أهله بسببه .

وإلا يستبدل بكم قومًا غيركم ﴿ يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٢) الانعام : ٤٤ .

يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (١) .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧

يخبر الله تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ، فيقول لو أنزلنا عليك كتابًا يا محمد من السماء ، وعاينوه ولمسوه بأيديهم ، وأصبح عيانًا بيانًا أمامهم ، ما آمنوا ، ولأصروا على مكابرتهم ، وقالوا فى غطرسة وكبر وجهل : إنْ هذا إلا سحر مبين ، فعليهم لعنة الله .

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨

إمعانًا فى مكابرتهم ، وجحودًا وإنكارًا منهم للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ـ ، إذ أرادوا أن يكون مع الرسول ملكٌ ، ليكون معه نذيرًا ، وهذا تعجيز منهم لمهمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعدم تصديق أنه من عند الله ، مع أنه لو أنزل عليهم ملك فى هذه الحال التى هم عليها ، لهلكوا فى العذاب المهين ، وجل قول الحق ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾ (٢) .

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ٩

إننا لو أردنا أن نرسل إلى الناس رسولاً ملكًا لكان على هيئة رجل ،ليمكنهم مخاطبته، والانتفاع بالأخذ عنه . ثم إننا لو فعلنا ذلك ، لالتبس عليهم الأمر ، كما هم تختلط عليهم الأمور مع أنفسهم فى قبول رسالة الرجل البشرى ، وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠

---

(١) المائدة : ٥٤ . وارجع إلى تفسيرها فى سورة المائدة .

(٢) الحجر : ٨ .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يواسى نبيه ، ويخفف عنه من عنت الكافرين المنكرين ، ويسليه فى تكذيب من كذبه من قومه ، ويعده بالنصر له وللمؤمنين به ، وأن النصر للنبى لا محالة ، والدائرة السوء على المكذبين . والعاقبة الحسنى للمتقين .

قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

أى فكروا فى أنفسكم ، وانظروا عاقبة المكذبين . ألم تسبقكم أمم كذبت كما تكذبون ، وتعالت عن الحق وضلت وأضلت ؟ . أين الذين كذبوا نوحًا ؟ أين النمرود ؟ أين عاد ؟ وثمود ؟ وفرعون ؟ والظالمون ؟ .

انظروا أيها المكذبون ما أحلّ الله بالقرون الماضية ، الذين عاندوا رسلهم ، وما آتاهم من العذاب والنكال ، والعقوبة فى الدنيا ، وما ينتظرهم فى الآخرة من عذاب مهين ، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

قل يا محمد للناس كافة : ﴿ لمن ما فى السموات والأرض ﴾ ؟ فإن لم يجيبوك ، فقل لهم : إنها لله ، الذى خلقكم من تراب ، ثم صوركم فى أحسن تصوير ، وبث فيكم العقول والأفهام ، ثم كلفكم بمعرفته ، فمنكم من آمن به ، ومنكم من كفر ، وسوف يجمعكم ليوم القيامة لا ريب فيه ، فالذين خسروا أنفسهم بعدم إيمانهم ، ستقتلهم الحسرة على ما فاتهم من واجب الإيمان بالله ، ولن يجدوا لهم أولياء يدفعون أو يدافعون عنهم .

وكتب على نفسه الرحمة أى وعد بها فضلاً منه وكرمًا فلذلك أمهل « وذكْر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده »⁽¹⁾ .

۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

---

(١) تفسير القرطبى ٦/ ٣٩٥ .

أى كل دابة فى السموات والأرض ، الجميع عبادك وخلقك ، وإن من شىء إلا يسبح بحمدك وتحت تصرفك وتدبيرك ، لا إله إلا أنت .

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

لا أتخذ إلهًا ولا وليا إلا الله سبحانه ، ولا شريك له ، فإنه خالق الأرض والسماء ومنسقهما ومبدعهما . أما قوله تعالى ﴿ وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم ﴾ أى وهو الرزاق لغيره ولا يرزقه أحد دون حاجة إليهم .

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

يعنى عذاب يوم القيامة . قال ابن عباس (أخاف) هنا بمعنى أعلم .

مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

أى : من يصرف عنه العذاب ﴿ فقد رحمه ﴾ ، بمعنى قوله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ (١) الفوز بدخول الجنة والحصول على جزاء الأعمال الصالحة .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

سبحان الله ! هو الفعال لما يريد : يمرضك ويشفيك ، يغنيك ويفقرك ، يمنحك القوة البدنية ويختبرك بسلبك إياها ، كل ذلك ؛ لتعلم أنه لا إله هو وحده لا شريك له . نعم . . الفعال لما يريد ، القابض الباسط ، المانع المعطى ، فلم تعبد أيها الإنسان غيره ؟ ولِمَ تخاف سواه ؟! ! وكيف لا تقيم حكمه ؟

إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الضر والنفع المتصرفُ فى خلقه حسبما يريد ولا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

وأخرج البخارى فى صحيحه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ) [1] .

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

كل الرقاب قد خضعت لله سبحانه ، وعنت له الوجوه ، لأنه هو الحى القيوم الدائم ، وتضاءلت أمام قدرته كل الخلائق ، لأنه هو خالق السموات والأرض ، حكيم فى جميع أفعاله ، خبير بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطى إلا من يستحق ، ولا يمنع إلا عمن لايستحق .

قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ
وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

أليس الله الذى خلق الخلق ، فسوى أفهامهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، هو المستحق وحده للعبودية والاحتكام إليه ؟ . . بلى . فمن أولى بالشهادة عليهم منه سبحانه ؟ فإن خالفوه وعصوا أمره : فمن أولى بعقابهم ؟ إنه الله ، ولكن عدله اقتضى أن يُنزل عليهم قرآنًا ، أوحى به إلى نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأنذرهم به : أن من أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، لأن الله سبحانه وتعالى هو العادل والعليم . وقوله سبحانه ﴿ وأوحى إلىّ هذا القرآن ﴾ هو مقول القول فى الآية لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أى قل يا محمد إنه قد أوحى إلى هذا القرآن وأيدنى به ربى لأنذركم به ومن بلغ .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

---

(١) كتاب الدعوات باب الدعاء بعد الصلاة .

إن الله سبحانه وتعالى يخبر عن أهل الكتاب أنهم يعرفون ويعلمون هذا القرآن جيدًا كمعرفتهم لأبنائهم ، وذلك بما عندهم من رصيد الأخبار الموجودة فى كتبهم ، والأنباء عن الرسل المتقدمة ، والأنبياء التى جاءتهم وجاءت لأمم قبلهم ، لذلك : أخبر أنهم قد خسروا كل الخسارة ، وخسروا أنفسهم بسبب إنكارهم هذا .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

إن الظالم المفترى بكذبه على الله ليس أحد أفظع منه قبحًا وضلالاً وظلمًا . والله تبارك وتعالى قضى بأن الظالمين لا يفلحون ، مهما ظنوا أنهم انتصروا بامتلاكهم بعض متاع الدنيا ، ومن ذلك البعض : الحكم بغير ما أنزل الله ، وزخرف الدنيا المكتسب من حرام ، وكل كسب حرمه الله فهو فى النار .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾

فى يوم القيامة يسأل الحق تبارك وتعالى الذين أشركوا بالله ، فعبدوا الأصنام ، أو اعتقدوا أن فى يد البشرية أن تتدخل فيما يضر وينفع بغير مشيئة الله تبارك وتعالى - وذلك شرك - سوف يُسأل هؤلاء المشركون عن الأصنام والأنداد الذين أشركوهم فى الحاكمية لله سبحانه وتعالى ونحّوا الله جانبًا فى كل أمور حياتهم ، وفى كل أمور دنياهم .

والمقصود من هذا الكلام هو التقريع والتبكيت لا السؤال .

ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

توبيخ وتقريع لهم كذلك ، لأنهم سوف يتنصلون من الإجابة رغم كذبهم ، ورغم فعلهم الحقير ، وشركهم بالله سبحانه ، واتخاذهم الحاكمية لغير الله فى الدنيا ، ولتخليهم عن ربوبية الله وحده . لكن هذا اليوم هو يوم تزيغ فيه الأبصار ، ولا ينفع الشركاء شركاؤهم ، فهم كاذبون فى الدنيا وفى الآخرة .

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

إن فى ذلك لعبرة لمن يتوهم أنه يستطيع أن يدلس على الله ، ويفترى عليه جحودًا وظلمًا .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟
كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

وإذا جاءوك يا محمد لا يستمعون إليك أملاً فى التفقه ، ولكن ليجادلوك ، ويماروا فى الحق ، ليدفعوا عن أنفسهم أنهم مجرمون آثمون لكفرهم بك وبما أنزل عليك من عند الله . وقد جعلنا على قلوبهم أكنّة ـ أى : أغطية ـ من ظلمة كثيفة ، وبها لا يستطيعون أن يفقهوا ما يُلقى إليهم ، ففى آذانهم وقر ، أى صم عن السماع النافع .

وبالرغم من ذلك جاءوا يجادلونك يا محمد ، أى يحاجونك ويناظرونك فى الحق بالباطل ، ويقولون : إن هذا القرآن من أساطير الأولين المنقولة عنهم .

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

إنهم يجمعون بين الفعلين القبيحين ، فهم يردون الناس عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويبتعدون بأنفسهم عنه ، وعن اتباع الحق ، وتصديق الرسول ، والانقياد للقرآن ، وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم ، ولا يعود وباله إلا عليهم وهم لا يشعرون .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من أهوال بأعينهم . إنهم لا تلين قلوبهم ولا تصحو ضمائرهم ، إلا عندما يرون العذاب . إنهم لما شاهدوا النار ، ووجدوا أنهم مواقعوها ، ورأوْا بأعينهم تلك الأغلال والسلاسل والأهوال العظام ، تمنوا ساعتها أن يُردوا إلى الدار الدنيا ، ليعملوا العمل الصالح ، ويكونوا من المؤمنين .

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾

إنهم ماطلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة فى الإيمان ، بل خوفًا من العذاب الذى

عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولو ردّوا لعادوا لما كانوا عليه من كفر وفسوق . وفى هذا دليل من الله سبحانه وتعالى على مدى فجرهم ، وعنادهم له ، وخروجهم عن طوعه وأمره ، ومروقهم عن الحق .

وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

ظلمة كفرهم قتلت جوهر الإبصار عندهم ، فصاروا ينظرون ولكن لا يبصرون ، وقلوبهم قد طبع عليها فى الوقت نفسه ، لا يستطيعون أن يفقهوا بها ، ولا أن يدخل الإيمان فيها . إنهم لا يظنونها إلا حياة واحدة ، فقالوا ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

إنهم لو وُقِفوا بين يدى الله وسئلوا : أليس هذا الذى تشهدونه وترونه بحق ؟ لقالوا : بلى إنه حق يا ربنا . فلما شهدوا على أنفسهم ، وتناقض قولهم وفعلهم فى الدنيا ، قال لهم سبحانه وتعالى ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أى بسبب كفركم فى الدنيا .

« وفى هذا تقرير وتوبيخ »⁽¹⁾ .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

لما تعالوْا على أمره فلم يطيعوه ، أخذتهم الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها ، فاستغرقتهم فتنتها ، فعبدوا ذهبها وزخرفها ، وأنفقوا ليلهم ونهارهم فى جمعها .

ولما كانت الساعة تأتى بغتة ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾⁽²⁾ .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٦/ ٤١١ .

(٢) المؤمنون : ١٠١ .

فإن كل إنسان ساعتها يندم على ما فرط فى جنب الله ، وما قد فاته من فعل الصالحات . . !!

حينئذ ﴿ **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ (١) وصاروا يحملون أوزارهم على ظهورهم ، وهى صورة قبيحة لمنظرهم أمام الله يوم القيامة . وكأن الكافر يوم القيامة دابة تحمل عليه أوزاره التى فعلها فى الدنيا .

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

أى إنها غالبها كذلك . والذين اتقوا كان لهم تدبير وحكمة ، خرجوا بها من الدنيا سعداء . ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ يأهل اللهو والجهل والغرور ؟ ياليتكم تعقلون . !!

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ
أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه ، لا تحزن يا محمد فإنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال أبو جهل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ .

إذ يلوح الشيطان لهم بالدنيا فيغرقهم فى ظلماتها فيجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسله ، لعدم قدرتهم على استيعاب ما حمل الرسول من حق ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وحرصًا منهم ـ كذلك على دنياهم أن تُسلب منهم بنبوتك . ورسول الله لايطلب دنيا ، ولكن الله اختاره واجتباه ليكون نورًا يهدى إلى صراط

---

(١) يس : ٥٢ ، ٥٣ .

مستقيم، لكنهم فى الآخرة سنذيقهم عذابًا مهينًا ، فهم قد كذبوا رسلاً قبلك يا محمد ، وهؤلاء الرسل قد صبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله .

يقول الإمام الرازى رضى الله عنه : « اعلم أنه تعالى أزال الحزن عن قلب رسوله . . . بأن بيّن أن تكذيبه يجرى مجرى تكذيب الله تعالى . . . ثم بين أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل هذه المعاملة ، وأن أولئك الأنبياء صبروا على تكذيبهم وإيذائهم حتى أتاهم النصر والفتح والظفر ، فأنت أولى بالتزام هذه الطريقة ، لأنك مبعوث إلى جميع العاملين . فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا . »⁽¹⁾ .

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

« . . . تلك سنتنا يا محمد ، فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم، وكنت ترغب فى إتيانهم بآية . . إذن ، فإن استطعتَ فابتغ لك نفقًا فى الأرض، أو سلمًا فى السماء فأتهم بآية . إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية ، إذْ ليس الذى ينقصهم هو الآية التى تدلهم على الحق فيما تقول . . ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ⁽²⁾» .

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

إنما يستجيب لك يا محمد الذين قدروا الله ، ووعوا أمره ، فتفتحت لذكره قلوبهم قبل أسماعهم . أولئك هم الأحياء ، أما الموتى فيبعثهم الله على صورتهم القبيحة المحرومة من رحمة الله ، وهؤلاء هم الذين ماتوا على الكفر أعاذنا الله منهم .

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

---

(١) انظر تفسير الرازى ١٢/٢٠٦ .

(٢) انظر ظلال القرآن سيد قطب جـ ٢/١٠٧٨ طبع دار الشروق .

إنه سبحانه وتعالى قادر على إنزال ما يطلبون ، ولكن حكمته تقتضى تأخير ذلك ، لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ، كما فهمنا من الآية السابقة ، ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة ، ولكنها رحمة منه أن يمهل ولكنه لا يهمل .

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

« يقول مجاهد ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ أى : أصناف مصنّفة تعرف بأسمائها ، وقال قتادة : الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة . وقال السدى : أى خلق أمثالكم »⁽¹⁾ .

إن الله سبحانه وتعالى رغم كثرة هذه المخلوقات : لا ينسى واحدًا منها سبحانه هو القائل ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** ﴾⁽²⁾ .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

أى مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم ، كمثل أصم لا يسمع ، أبكم لا يتكلم ، وهو مع هذا فى ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ؟! إن الله تعالى هو المتصرف فى خلقه بما يشاء . من شاء الله أضله بقديم علمه وعدله ، والذين نور قلوبهم إنما كان ذلك عطاءً منه سبحانه لهم ، جزاء صدقهم ، فأنعم عليهم ، وجعلهم على صراط مستقيم ، ولهم عنده مغفرة ورضوان . إنهم أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأتباع كتاب الله ، وذلك هو الصراط المستقيم .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾

قل يا محمد لهؤلاء الذى يجادلون : أترجعون إلى غير الله إن أتاكم عذاب الله فى

---

(1) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٣١ .

(2) هود : ٦ .

الدنيا، أو أتاكم العذاب يوم القيامة ؛ لكى يدفع عنكم هذا العذاب وهذا الضر الذى يقع بكم ؟!!

يقول الحق سبحانه إجابةً على هذا السؤال الاستنكارى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

أى إنكم فى وقت الضرورة سوف لا تدعون أحدًا إلا الله ، وستنسون ساعتها أصنامكم وشركاءكم وآلهتكم التى كنتم تدعونها من دون الله .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وقد أخذهم الله بعذاب شديد ، فأذاقهم بأساء الفقر والمرض والحرمان . الحرمان من فهم حقيقة الإنسان ، لكنهم عندما يصرون على إنكار الله ولا يتضرعون إلى الله ليكشف عنهم ظلمة الجحود والكفر ، فإن الله يأخذهم بهذه البأساء والضراء .

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وفى ذلك : نفى التضرع منهم ، والتقدير : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا .

وذكر كلمة (لولا) يفيد : أنه ما كان لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم، وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم والله أعلم (١) .

« والقلب الذى لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة، ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة التى تنبه القلوب الحية للتلقى والاستجابة»(٢) .

إن الشدة ابتلاء من الله للعبد .

فالإنسان المؤمن يتلقى هذه الشدائد بإيمان عميق ، بعيد عن سطحية التدين المنقوص ، الذى يجعل صاحبه يهرع ويجزع ويتألم . هذا إن لم ييأس ويقنط من رحمة الله ، والعياذ بالله .

---

(١) تفسير الرازى ١٢/ ٢٢٥ .

(٢) ظلال القرآن جـ ٢/ ١٠٨٩ .

فمفهوم الشدة والابتلاء فى القرآن الكريم هو مفهوم إيمانى عميق ، لا يفهمه ولايتلقاه إلا من فى قلبه مضغة حية من الإيمان ، تستجيب لرغبات الله وتعلم أن كل شىء من عنده .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾

هؤلاء القوم قد أعرضوا عن الله ، وجعلوه وراءهم ظهريًا ، فكان هذا اللون من العذاب ، وهو فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، استدراجًا لهم ، وإملاءً منه سبحانه ، حتى يفرحوا بهذا الرزق ، وهذا النعيم الذى لا ينتهى ، سواء أكانت أموالاً أم أولادًا أم أرزاقًا أخرى وقد فرحوا . . ثم أخذنا هذه الأشياء بغتة على غفلة ، فإذا هم مبلسون أى يائسون من كل خير .

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يخافون من إقبال الدنيا عليهم ، لأنها تلهى وتغر، خشية أن تؤخذ منهم بغتة ، فيقعوا على ما وقعوا فيه نادمين ، وخشية أن تلهيهم عن ذكر الله ، لأن الإنسان عادة يستغنى عن القوة القادرة إذا رأى نفسه فى نعيم محيط به . ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى** ﴾ ويقول الحق بعدها مباشرة ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ وهذا تذكير بأن كل شىء لا محالة زائل ، وأن النهاية فى الرجوع إلى الله بالأعمال الصالحة .

فيجب أن يشكر الإنسان دائمًا ربه ، وأن يقتنع بكل ما يأتيه من رزق ، ولا يلهث وراء الدنيا لهثًا ، فإن الأرزاق تأتى بمقادير ، فلنطلب الدنيا بعزة وإيمان لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾

يقول الإمام القرطبى : « الدابر : الآخر ، يقال دبر القوم يدبرهم دبرًا إذا كان آخرهم فى المجىء . . . والمعنى هنا قطع خَلْفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية . قال قطرب : يعنى أنهم استئصلوا وأهلكوا (١) » .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٦/ ٤٢٧ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

إن الإيمان نعمة ، واكتساب الأفهام نعمة ، وحب الله نعمة ، والتفقه فى الدين نعمة ، وارتجاف القلب من ذكر الله نعمة ، والقلب الحى النابض المتلهف دائمًا على ذكر الله نعمة . ماذا تفعلون إن سلب الله منكم هذه النعم ، وختم على قلوبكم ؟ هل ستجدون غير الله يعوضكم من هذه النعم التى فيكم : نعمة الحياة ، ونعمة الوجود ، فبغير الإبصار والسمع والقلب هل يحيا الإنسان ؟!! .

إنه بغير تلك النعم يصير فى الأموات ، الذين ليس لهم فى عالم الآخرة كذلك إلا الهلاك . فلينظر أصحاب العقول والقلوب كيف نبين الآيات ، لأن الله خلق الخلق وخلق فيه ما يدل عليه من آيات خلقه وإبداعه ، وكلها شاهدة على أنه الخالق المبدع المصور . فكيف تعبدون من دونه ، وكل ما دونه باطل ؟ فانصفوا أنفسكم ، ولاتعرضوا عن الحق ، وتصدوا الناس عن اتباعه !!

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾

ماذا سيكون حالكم عندما يبغتكم الموت على حين غفلة منكم ، فتنقلون من زخرفكم فى الدنيا وإثمكم ، إلى عذاب أليم ، وهل نهلك إلا القوم الظالمين ؟!!

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

إن أنبياءنا يبشرون عباد الله المؤمنين بالخيرات ، وينذرون الكافرين بالنقمات والعقوبات . إنهم يأتون بالبشرى بالجنة وبرضوان من الله أكبر لمن قالوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بقلب تعرف على ربه فأحبه وأطاعه ، وامتثل لأوامره ، ولم يشرك معه أحدًا فى حبه لذاته سبحانه ، ولكنه خصه بتوحيد القلب له ، فهو فى ضميره الفعالُ لما يريد، المحيى المميت ، هذا العبد مع الذين أنعم الله عليهم ، فلا يخاف ولا

يحزن ، وهو آمن يوم الفزع الأكبر . إنه فى عباد الله المخلصين ، الذين عاشوا فى الدنيا ذاكرين لله دائمًا، خاشعين له ، يخافونه ويخافون سوء الحساب . هؤلاء القوم لا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾

أولئك الذين فى غطرسة وجهل كذبوا بآيات الله : لهم فى الآخرة غضب من الله ، يدخلون به النار فى انكسار وذلة ، فقد هتكوا فى الدنيا ستر الطاعة بانتهاك حرمات الله ، فينالهم العذاب بما كانوا يفسقون .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

قل يا محمد للكافرين : أنا عبد الله ورسوله ، لا ملك لى فى الأرض ، ولا خزائن لى فيها ، ولا أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله عز وجل ، وأنا كذلك لست بملك ، أى إننى : بشر ، رسول ، عبد الله، يُوحى إلىّ من ربى ، بأمره أبلغكم إياه . فيه نفعكم فى الدنيا والآخرة ، والذى أبلغكم إياه إنما هو الحق من ربكم ، وليس لى فيه مصلحة ، ولا أستطيع أن أحذف أو أضيف . إن هو إلا وحى يوحى إلىّ ، أنزله إلىّ ربى ، وأنا أمين عليه وعلى تبليغه ، قل هل يستوى الأعمى مع البصير ، فى قدراته الحركية ؟ .

ليس الذين يفرقون بين الحق والباطل فيهجرون الباطل ، ويتمسكون بالحق ، يتساوون مع الذين لا يبصرون ، ولا يفقهون ، ولا يفرقون بين الظلمات والنور ، والحق والباطل . أفلا تتفكرون .

وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

فأنذر يا محمد بهذا القرآن الذين هم من خشية ربهم مشفقون .

أنذرهم يا محمد لعلهم يعملون بهذا القرآن فى هذه الدار عملاً ينجيهم به الله سبحانه وتعالى من خزى الآخرة .

وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

يا محمد إن الذين جاءوك يقولون لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله ، هؤلاء سلموا بما جئت به وهم خلصاؤك ، فقراء وأغنياء . لا تُؤْثِر عليهم كبار القوم ، فأَكْرَمُ القوم عند الله أتقاهم ، والله يرفع بالإيمان لا بجاه الدنيا ، والذين أعرضوا عنك يا محمد من قومك ما عليك من حسابهم ، إنْ حسابهم إلا على الله .

والله يزن الناس بموازين الإيمان . وتقوى الله وخشيته ، وحاش لله يا محمد أن تكون نصيرًا للظالمين ، إنْ فعلت ذلك . فلا تذهب نفسك على أهل الدنيا حسرات ، لعل الله يرشدهم للحق ، وتطيب نفسك ، لكن الله لن يجعلك أبدًا لهم أو معهم ، ولقد سبقت لك منا الحسنى والعصمة والفوز العظيم .

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

يا محمد إذا قال لك الكبراء فى الدنيا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم وأعطاهم نعمًا كثيرة من بيننا وكانوا خدمًا لنا وعبيدًا ، فهذا الذى يقولون يدل على جهلهم ، إذْ إن الله يمُنُّ على من يشاء من عباده ، ولو عقلوا ما قالوا ذلك ، كما قال قوم نوح لنوح : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ (١) وكقوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا ﴾ (٢) والجواب فى قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثًا ورئيا ﴾ (٣) .

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾

---

(١) هود : ٢٧ . (٢) مريم : ٧٣ . (٣) مريم : ٧٤ .

يا محمد إن الذين صدَّقوا بك ، ولم يجادلوك فى الحق لما جاءهم ، بل آمنوا بآياتنا : هؤلاء خلصاء عقيدة الإسلام يذودون عنها بالروح والمال والولد والزوج ، يعيشون فى شوق دائم إلى ما أنزل الله إليك ، قل لهم يا محمد : مادمتم قد ارتديتم أردية لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله ، فاعلموا أنكم إذا جهلتم أو أذنبتم أو وقعتم فى سهو أو نسيان، فاعلموا أن الله قد خصكم برحمة من عنده إذْ فتح لكم باب التوبة ، وهو الغفور الرحيم، يغفر لكم الذنوب ، ويقبل منكم التوبة ، ما دمتم قد عزمتم على ألا تعودوا ، وأصلحتم العمل. ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ فأكرمهم يا محمد ، وردّ عليهم السلام ، وبشرهم بهذه البشريات الكبيرة العظيمة ، وبهذه الرحمة التى أوجبها رب العزة على نفسه ، كرمًا منه وإحسانًا وامتنانًا .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

يبين النبى - صلى الله عليه وسلم - بما أوحى إليه من ربه لأمته ما غمض عليها فى معرفة الطريق إلى الله ، وآياتُ الله فى كونه شاهدة على قدرته ورحمته وقهره ، فمن شرح الله صدره للإسلام وللإيمان فتعرف على صراط الله فاتبعه ، فقد نجا وأصبح من المنعم عليهم . وأما من ضلّ عن الحق ولم يستبن ولم يخلص إلى طريق الله وإلى الصراط المستقيم ، فقد ضلَّ ضلالاً بعيدًا .

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قل لهم يا محمد : إن الله قد عصمك بنهيه عن اتباع طريق الشيطان . والشيطان لا ولن يستطيع أن ينفذ إلى مجالسته - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يجرؤ أن يقترب منه .

وقل لهم يا محمد كذلك : إنى على نور وبصيرة من الله ، لا أتبع طريقكم ولاأهواءكم ، ولو اتبعت ذلك لخسرت الدنيا والآخرة ، وما أنا مأمور بذلك ، وحاش لله أن أفعل ذلك .

قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو خير من يفصل فى القضايا ، وخير الفاصلين فى الحكم بين عباده ، فقل لهم يا محمد : إننى على بينةٍ من ربى ، وما عندى من العذاب الذى تستعجلونه إنما يرجع إلى الله ، إن شاء عجله لكم فى الدنيا ، وإن شاء أجله وأنظركم ، لما له فى ذلك من قدرة وحكمة لا يعلمها إلا هو .

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

دلت هذه الآية على أنه لو كان إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم .

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده يعلم ما هو ظاهر وما هو غائب مستور ، وما من ورقة إلا وهى معلومة مكانًا وزمانًا وأجلاً ، والجنَّة يعلم مستقرها ، ومتى تُستنبت ، أو حتى يؤكل ثمرها ، وكل شىء عنده بمقدار ، وكل مفاتيح الغيب هى له ، سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ويروى أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ⁽¹⁾: ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ ⁽²⁾.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

خلق الله الإنسان بفطرة بشرية ، من خصائص احتياجاتها أن تنام بالليل وتبعث

---

(١) ابن كثير : ٢ / ١٣٧ .

(٢) لقمان / ٣٤ .

بالنهار ، بحركة مدركة واعية فى تحصيل ما كتب الله لها من رزق تحصله بجهد رزقها الله به ، وقضاه لها بفهم وإدراك .

والإنسان مسئول عما يكتسب فى نهاره وليله ، وقد بين الله للإنسان مسار الحلال فى ليله ونهاره ، والفطن من يسأل نفسه عند النوم عما حصله من الخير أو من الشر ، فإن كان خيرًا شكر الله ، وإن كان شرًا تاب واستغفر .

والإنسان ينام فى حراسة الملك المكلف بنومه وبعثه ، والله - سبحانه وتعالى - يبعث العبد من نومه لتحصيل رزقه فى النهار . ومن فضل الله على المسلمين أن يختموا يومهم بصلاة قبل أن يناموا ، ثم يفتتحوا يومهم بصلاة الصبح حين يبعثهم من نومهم . وهاتان الصلاتان هما صلاة العشاء وصلاة الفجر . فالمؤمن ينام على صلة بربه ، ويبعث من نومه على صلة بربه .

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

وهناك ملائكة حفظة يحصون عمله نهارًا ، ويحفظونه فى نومه ، والأعمال عنده بالنيات ، فليحذر المؤمن غضبه ، وليحرص على مرضاته فى ظلمات الليل ووضوح النهار ، حتى إذا رجعنا إليه يكون لنا شرف الطاعة والنجاة من المعصية . فالله هو القاهر بقوته لكل الخلق ، فيجب علينا أن نخافه - سبحانه وتعالى - عن حب وعن علم منا أنه القادر ذو البطش الشديد على من عصاه ، والرءوف الرحيم لمن خاف قهره وغضبه وسلطانه .

وجل قول الحق ﴿ وإن عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ (١) وجل قوله ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد ﴾(٢) .

أما قوله تعالى ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ أى إن هؤلاء الملائكة الحفظة الكرام لا يفرطون فى

---

(١) الانفطار : ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٢) ق : ١٧-١٨ .

حفظ روح المتوفى بل يحمونها ويحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن يشاء الله .

ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

يردّ الله سبحانه بقدرته الخلائق كلهم إليه يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله ، وجل قول الحق ﴿ قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ (١) .

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾

إن الله سبحانه وتعالى يمتن على عباده فى أنه ينجى المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر عندما تقع بهم الشدائد . والعبد كلما استغرقته مصائب الدنيا وابتلاءاتها من ضيق ذات يد ، أو أزمة مرض ، أو مصيبة فى ذات نفسه أو ولده ، هل يجد غير الله يستنجد به ؟ وهو فى مصيبته كالغريق ينظر شماله ويمينه وفوقه وتحته فلا يجد غير الله فينصرف إليه حتى عن نفسه ، فينادى ربه بكل جارحة فيه : ربى ليس لى سواك ، ويجد ربه غفورًا رحيمًا كريمًا . لهذا يقول الحق :

قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

فأنتم يا عبادى تعلمون أننى أنا الله العزيز الحكيم الفعال القادر ، بفضلى أنجيكم من أى شدائد تحيط بكم ، ولكنكم ترتدون على أعقابكم عند زوال الشدة ، فتكفرون بنعمى ، وتخافون غيرى ، فتشركون بى ، وذلك لجهلكم أننى الفعّال الضار النافع . ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾ (٢) فلو أنصفتم أنفسكم ما خشيتم سواى وما شكرتم غيرى ، وما أشركتم بى أحدًا .

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

---

(١) الواقعة : ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) العلق : ٦ ، ٧ .

قل يا محمد إن الله الذى نجاكم من ظلمات البر والبحر ، ثم عصيتم أمره ، هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا لا تدرون من أى مكان يأتى ، من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم ، أو يجعلكم شيعًا ـ أى جماعات متفرقة مختلفة متقاتلة متناحرة ـ فيهلك بعضكم بعضا ، وتصبحون فرقًا متحاسدة ومتفرقة ومتباغضة ، ويذيق كل فريق بأس الآخر ، بكراهية حاقدة .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سألت ربى ثلاثا : فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة ، سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسفه : فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق : فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها »⁽¹⁾ .

والحق سبحانه وتعالى يصرف آياته فى الأرض وفى السماء وفى أنفسكم ، لعلكم تفقهون حقيقة وجودكم ، وضعفكم ، وعظمة الخالق ، الذى خلق فسوّى ، وجعل لكم عقلاً يدرك ، ونفسًا تفقه ، لعلكم تشكرون نعمته بما فقهتم .

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ
غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

إن قريشًا قد كذبت بهذا الكتاب الذى هو هدى ورحمة للمؤمنين ، فقل لهم يا محمد لست موكلاً بكم ، إنما عليّ البلاغ ، وما أنا إلا نذير ، ولن أستطيع أن أحصى عليكم أعمالكم ، فمن أطاع فقد أطاع الله ، ومن عصى فقد عصى الله . ولهذا قال ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أى لكل شيء نهاية ، وعندها سوف تعلمون أن الله حق ، والآخرة حق ، وتؤجرون فيها على ما قدمتم فى الدنيا . ولكن عند ذلك لا يستطيع عبد أن يغير ما سبق . فأهل التقوى والطاعة فى عفو الله ، وأهل المعصية فى غضب الله وشقاء مقيم .

---

(١) رواه مسلم كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة . . الخ .

كل ذلك سيعلمه المكذبون ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[1] .

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا ﴾ ويكذبون بها فلا تقعد معهم . وهذا الخطاب موجّه لكل الأمة المسلمة ، لأن حضرة المخاطب وهو رسولها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهو وليها ، بعث ليبلغ هذا الذكر وهذا القرآن إلى أمته ، على أكمل وجه وبكل أمانة . وعلى الأمة أفرادًا وجماعات أن يقوموا على كتاب الله وسنة نبيه . دونما تغيير أو تشويه أو تبديل . ويجب على المسلم أن يفارق مجلس هؤلاء الظالمين إذا أصروا على إثمهم ، ولم يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، باتباع الإسلام ، فلا يجوز استمرار مودتهم ، والجلوس إليهم . إنهم رجس وظلم عظيم .

﴿ وقد نَزَّلَ عليكم فى الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾[2] .

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ
أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ
كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ
حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠

يا محمد : اترك الذين نظروا إلى دين الله بما لا يليق ، فاتخذوا هذا الدين هزوا ، وذلك من جهلهم وغرورهم بالدنيا ، واترك هؤلاء حتى يأتوك صاغرين أو يهلكوا بكفرهم ، وقل إن الله يأخذ النفس فيحاسبها ويعاقبها ويسألها ، فإما إلى الجنة بما عقلت وتدبرت أمرها فأطاعت الله ، وإما أعرضت عن طريق الله فهلكت ولن تجد من دون الله منقذًا ولا شفيعًا . ولا يستر العبدَ غير الله فاحذروا أن تفضحوا بمعاصيكم ، وتعيشوا بلا مُعلّم ينقذكم فى الدنيا من ذلك الضلال الذى استغرقكم وبلا شفيع يوم القيامة لكم حين تُبسل ـ أى تفضح ـ ويعلن عن جرائمها ، وأولئك ليس لهم إلا

---

(١) الشعراء : ٨٨ـ٨٩ .

(٢) النساء : ١٤٠ .

شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . فأعرض عنهم يا محمد ، وأمهلهم قليلاً، فإنهم لا محالةَ صائرون إلىّ .

أما قوله ﴿ **وإن تعدل** ﴾ يقول ابن كثير⁽¹⁾ : « أى ولو بذَلَتْ كلَّ مبذول ما قُبل منها». وذلك يوم القيامة .

﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهبا ولو افتدى به** ﴾ .⁽²⁾ اللهم إنا نسألك الجنةَ وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل . اللهم إنا نسألك ـ يارب ـ رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار .

قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى
ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

إن الذين لم يستمعوا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استمعوا لشياطين الإنس والجن ، فارتدوا على أعقابهم وانكفئوا على وجوهم ، كأنهم لا يسمعون ولا يبصرون ، وقد رانت على قلوبهم ظلمة الجهل ، وغشاوة الضلال ، فدعوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر ، ولشدة كفرهم فى غير حياء . ولكن الذين اتبعوا محمدًا فأسلموا لله وجوههم وقلوبهم قالوا لهم : لا ، كيف نرتد على أعقابنا إلى الضلالة وقد هدانا الله ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . فكيف نستمع لكم وقد أضلكم الشيطان ، واستهوتكم شياطينه ، فاخسئوا إنكم ومن اتبعكم الهالكون . إن هدى الله وإرشاد نبيه ذلك هو الهدى ، وأمرنا فأطعنا ، وأسلمنا وجوهنا لله ربّ العالمين .

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

أى وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال . وأولئك الذين أسلموا وجوههم استطاعوا أن يقيموا الصلاة إقامة سليمة ، منصرفين فيها عن كل ما حولهم من مشاغل الدنيا ، فتصوروا أنهم بين يديه فعاشوها صلاة صلةٍ ومحبةٍ فى الله .

---

(1) ابن كثير : ٢ / ١٤٤ .

(2) آل عمران : ٩١ .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ
قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ
ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق السموات والأرض بالحق ، أى بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما ، وقد أقام ملكه الظاهر والباطن ، فأبرز منه ما أبرز ، وستر منه ما ستر ليدل على أنه الواحد القهار البر الرحمن ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . يقول للشيء كن فيكون ، ويوم النشور ينادى كل الكون لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . وله وحده سر الكون وبها يقوم وبها ينتهى عليه . بحكمته أقام الوجود ، وهو صاحب البعث والنشور ، وهو الحكيم الخبير .

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ
يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى
وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ .

خاصم إبراهيم أباه فى الله ولله ، وتعجب الأبُ من قولٍ لم يسمع مثله فى قومه وفى حياته ، فقد كانوا عبّاد أصنام ، وعباد بشر ، وادّعى حاكمهم النمرود أنه إله ، وجعل اللهُ سبحانه إبراهيم بعينه ، ولفت عقله وبصره إلى آياته فى ملكوت السموات والأرض ، ليكون توحيده بيقين وعلى يقين . فلما جاء الليل رأى إبراهيم نجمًا فقال هذا ربى ، فلما أفل ـ أى غاب ـ قال : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . أى إننى لا أحب ربًّا يغيب ، فإن الرب

دائم لا يختفى ولا يغيب . ﴿ فلما رأى القمر بازغًا ﴾ ـ أى ظاهرًا فى السماء ـ ﴿ **قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين** ﴾ .

وكأنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول لربه : إنى بحاجة إليك يا من بعثت بتلك الآيات فى سمائك . إنى أحسّ أن خلْف ذلك الكون إلها أكبر . فلما رأى الشمس بازغة قال لعلّ ذلك هو أكبر ممن سبقه من الكوكب والقمر ، فلما أفلت الشمس قال ليس كل ما رأيت هو مطلبى . إنى أبحث عن الخالق . وقال لقومه ﴿ **إنى برىء مما تشركون** ﴾ . إنى وجهت وجهى للذى لا أراه ولكنى أحسّ أنه أكبر من كل شىء . رأيت أنه فاطر السموات والأرض حنيفًا ـ أى صاحب شرف كبير ـ ليس له من يماثله ، لابد أن يكون كذلك . وهذا ما أتصوره ، ويحكى لى قلبى عنه : أنه خالق الكون كله بسمائه وأرضه ، إننى أحسُّه ينادينى . إنه هو مصدر الطهر والعقل والقدرة . إننى موجهٌ قلبى وعقلى وكلى إليه . وما أنا من المشركين ، ولن أشرك به شيئًا .

يقول ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه السلام كان فى هذا المقام مناظرًا لقومه ، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام .

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

أخذ قوم إبراهيم فى جداله بحجج باطلة ، فقال لهم فى ثبات ويقين : ﴿ **أتحاجونى فى الله وقد هدانِ** ﴾ . أى تجادلوننى فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصرنى بالحق .

إنه واحد قهار رازق : هدانى إليه ، وعرفنى عليه . فإن شئتم النجاة فاتركوا الأوثان والأصنام ، واشهدوا له بربوبيته ، وخافوه إن كنتم مؤمنين .

وكيف أخاف ما أشركتم ؟ إنه أمر عجيب !!! أن تتصوروا أننى أخاف أصنامكم من الحجارة والطين ، وأنتم لا تخافون ربّ السموات والأرض ، والظاهر والباطن . وعجائب قدرته المستورة والمتطورة شاهدة على وجوده . ﴿ **فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾ ؟!! الذين نظروا فى آيات الخالق فاعتبروا بها وآمنوا به ، أم الذين استعبدهم الشيطان ، فعبدوا حجارة وخشبًا ؟!! إن أهل الأمان والسكينة والفلاح عند لقاء الله : هم الذين آمنوا بالله وبرسوله ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم ـ والظلم هو الشرك ـ .

﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾(١) ـ فهداهم الله إليه ، فصدقوا رسوله ، وعملوا بما أنزل فى كتبه ، فكانوا مهتدين ، فرزقوا الأمن والفلاح ، أما آياتنا وحجتنا التى آتيناها إبراهيم فهى انتصاره على النمرود ، ونجاته من النار ، وتعمير البيت الحرام بأمر الله . إن ربك حكيم عليم .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ
ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

يمن الله على إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه وهب له إسحاق بعد أن طعن فى السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد ، ومن بعد إسحاق يعقوب . أى أن هذا الولد سيكبر

---

(١) لقمان : ١٣ .

ويرزق بيعقوب . فيعقوب حفيد لإبراهيم . ومن قبل إبراهيم هدينا نوحا ووهبنا له ذرية صالحة أيضًا ، ومن هذه الذرية الصالحة داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكلهم محسنون هم وبقية الذرية الصالحة زكريا ويحيي وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط ، نسل طاهر من نسل طاهر ، اخترناهم وفضلناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ يا محمد ، وقل للمعاندين المكذبين إنى لاأسألكم على إبلاغى لكم هذا القرآن أجرًا . إن الأجر على الله ولا أريد منكم شيئًا . وما هذا القرآن إلا ذكرى لمن يريد التذكر ، وهدى لمن يريد الهداية ، والرجوع إلى النور بعد الظلمة ، والرشاد بعد الغى ، والإيمان بعد الكفر .

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ
ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ
وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

أى وما عظموا الله حق تعظيمه ، إذ كذبوا رسله إليهم . هكذا يخبر الله سبحانه وتعالى عن اليهود وعن كل من لم يتقبل دعوة الله بصدق . وكأن الله سبحانه يقرر فى هذه الآية أن من كذّب رسوله فقد كذبه سبحانه وتعالى . ولو قدروا الله لأكرموا رسوله . فيكفيهم نقيصة وعارًا أنهم لم يفقهوا كيف يستقبلون من جاءهم بالحق مبشرًا ونذيرًا ، ونبيًّا من الصالحين ، وسراجًا منيرًا ، فحملوا بذلك عارًا وإثمًا مبينًا .

ويا محمد قل لهم ولجميع اليهود المنكرين ، الذين يجعلون كتاب موسى قراطيس أى يجعلون جملتها قراطيس أى قطعا يكتبونها من الكتاب الأصلى الذى بأيديهم ، ويحرفون منها ما يحرفون ، ويخفون كثيرًا مما جاء فيها حسب أهوائهم : من الذى أنزل هذا الكتاب على موسى ؟

وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ
وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

يعنى القرآن . يشهد هذا القرآن يا محمد بأن الله سبحانه قد أرسلك بالحق ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل ليهتدى بهما بنو إسرائيل ، ويشهد كذلك بصحة ما نزل من الكتب، ويعطى الخلق - كل الخلق - أسودهم وأبيضهم ما يحتاجون إليه زادًا علميًّا يعرفون به ما بقى صحيحًا سليمًا من الكتب السابقة ، وسيجدون فيه كُلّ ما يحتاجون إليه فى معاشهم ومعادهم حتى تقوم الساعة ، وسيكون الحساب والجزاء فى الآخرة عليه وبه . فهو الكتاب الخاتم والفائزون بنوره ومعارفه هم الذين على صلاتهم يحافظون . والمقصود بـ (أم القرى) فى الآية مكة ، ومن حولها أى كل العالمين ، وذلك كقوله **﴿قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا﴾** (١) - **﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ﴾** (٢) .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، وذكر منهن . . وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » (٣) .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ
مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا
أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ
الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شركاء أو ولدًا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله . وأفجر من كذب : الذين يكذبون على الله ، ويقولون إن

---

(١) الأعراف : ١٥٨ . (٢) الفرقان : ١ .

(٣) رواه البخارى كتاب التيمم باب قوله تعالى ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ إلخ - واللفظ له - ومسلم فى صحيحه ، والنسائى فى سننه عن جابر بن عبد الله .

الله أوحى إليهم ، والعبد عندما يتلبس به فجوره يدّعى على الله كذباً ، وذلك أكبر الذنب ، وأبشع الكفر. وهؤلاء الظالمون عندما تنتهى آجالهم فى الدنيا ، ويدخلون فى غمرات الموت ، يتمنَّون أن يُهلكوا ، ويتحولوا إلى عدم ليس له من أثر ، وقد شهدوا الحقيقة .

والحاكم الذى ظلم ، والخائن الذى بغى ، والمستبد الذى طغى ، زالت دولهم ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، وانصرف الجاه والسلطان ، وطاغوت الحكم . إنهم مكشوفة عوراتهم . إنهم أذلاَّء ، والملائكة تلعنهم . إنهم فى عرصات الجحيم يعيشون ، فأين شركاؤهم ؟ إنهم فى النار ، والملائكة قائلة لهم : ﴿**أخرجوا أنفسكم اليوم**﴾ ، فكم افتريتم على الله غير الحق ، وكنتم بعباد الله تستهزئون ، فعيشوا الخزى والعار بما عاديتم الله ورسوله والمؤمنين ، فذلك ما قدمتم﴿ **وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾. وهكذا يقال لهم يوم معادهم ، وجل قوله ﴿ **وعرضوا على ربك صفًّا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة**﴾⁽¹⁾ لقد تركتم نعيم الدنيا وزخرفها وراء ظهوركم .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « يقول ابن آدم : مالى مالى (قال) وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت⁽²⁾» .

وها هو ذا يوم القيامة لا يجدون شيئًا غير منادٍ من قبل الحق الذى عنت له الوجوه يقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

إن الذى بعث فى الحبة الجافة حياتها من ماء الأرض وطينها وبما أنزل من السماء فأحيا الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة : هو الله . فكيف تكذبون وتضللون ؟

---

(١) الكهف : ٤٨ .

(٢) رواه : مسلم كتاب الزهد والرقائق حديث رقم ٣ ـ واللفظ له ـ وكذا رواه : الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى فى سننهما .

هو الذى يبعثكم من أرحام أمهاتكم وكذلك يريكم كيف يسوى الحبّ فى رحم الأرض ثم ينبته فيستوى على سوقه ، أبعد ذلك تكفرون به وتشركون ؟

إنكم إن أنصفتم أنفسكم لا تكذبوا . فإن الشرك ظلم عظيم . فعظموا ربكم ووحدوه وتفكروا فى آياته كى تهتدوا ولا تضلوا فوق ضلالكم . وهو بقدرته خالق الضياء والظلام ، فتفكروا كيف ينسلخ الليل من النهار ؟ وماذا لو كان ليلاً دائمًا أو نهارًا دائمًا ؟ فاذكروا آلاء الله لعلكم تتقون .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

أى أن الله جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر . وقوله ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى قد بيناها ووضحناها لقوم يعرفون الحق ويتجنبون الباطل . إنها آيات لو تدبرها الإنسان لعاش يحاسب نفسه ثم يرشدها لطاعة القادر الخالق العزيز الحكيم . إن الله فصّل لنا الآيات لنعتبر ، ونعمل على بعث اليقظة فى القلوب ، لعلها تخشع فتلين فتتقى الله فترعى أمره . ولا يفعل ذلك إلا قوم يتبعون الحق بعد أن علموه .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

النفس الواحدة أى آدم عليه السلام . يقول الحق ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء ﴾ (١) . أما مستقر : فمعناها الأرحام ، كما يقول ابن مسعود ، والمستودع : معناه الأصلاب ، وهو رأى ابن عباس ومجاهد وعطاء وآخرين كما أوردها ابن كثير .

والله تعالى أعلم .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ

---

(١) النساء : ١ .

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ انظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى
ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

سبحانه وتعالى أخرج من الأرض نباتات شتى ، كلها يسقى بماءٍ واحد ، حلوه ومره ، ثم يختلف طعمًا وثمنًا وقيمة . كل مختص بمادة غذائية يحتاجها الجسد . سبحان المبدع الخالق و ﴿ متراكبًا ﴾ أى يركب بعضه بعضا كالسنابل ونحوها .

﴿ قنوان دانية ﴾ : قنوان : جمع قنو ، وهى عذوق الرطب . دانية : أى قريبة من المتناول . والمقصود بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض ، كما يورده ابن كثير . فتفكروا فى قدرة الخالق العظيم . إن فى كل ذلك دلالاتٍ كبيرة على كمال قدرة الحق سبحانه وحكمته .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

ردٌّ على المشركين الذين أشركوا مع الله غيره فى عبادته ، مثل الجن ، فجعلوهم شركاء له فى العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم .

﴿وخلقهم ﴾ أى وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره ؟! ومعنى خرقوا فى الآية أى اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا . ﴿ سبحانه ﴾ أى تقدس وتنزه وتعاظم .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومبدعهما ومنشئهما على غير مثال سبق .

فكيف يكون لله ولد وصاحبة وشريك ومساعد ومكافئ وهو خالق كل الأشياء ، وعليم بها ؟

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

إنه هو الله الواحد الفرد الصمد ، ليس له من يماثله ، عليٌّ كبيرٌ متعال ، عظيم لا يُدرَك ، قادر لا يعجزه شيء ، وهو يعجز كلَّ شيء ، وهو وحده المستحق للعبادة ، فاعبدوه مخلصين له الدين ، تفلحوا وتفوزوا فوزًا عظيمًا . واعلموا أن الأبصار لا تدركه ولكنه هو سبحانه يدرك كلّ شيء ، وهو يدرك الأبصار ، ويعلم حركتها ، وما أبصرته ، وما كفت عن إبصاره ، وهو لطيف خبير ، عفوٌّ لمن تاب إليه وعليه .

قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قد جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحقائق واضحة ، ليخرج بها الناس من ظلمات جهلهم إلى نور المعرفة وتوحيد الله .

والبصائر هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، ودلّ عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . أما قوله : ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ فهى نظير قوله تعالى ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها ﴾ (١) لذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ ومن عمى فعليها ﴾ أى إنما يعود وباله على نفسه جزاء عماه الذى افتعله ، وجزاء إغراقه لقلبه فى اللهو والفجور حتى طبع الله عليه .

هذه هى آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ التى توضح أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، والتى يفسر بها مواطن جهالة الجاهلين الذين يقولون يا محمد إنك قد دارست أهل الكتاب الذين سبقوك ، وقارأتهم وتعلمت منهم أخبار الأمم السابقة .

نوضحها لقوم يريدون أن يتعلموا الحق ويعلموه فيتبعوه ، ويريدون أن يعرفوا الباطل فيجتنبوه . فالله ـ سبحانه وتعالى ـ متصرف بحكمته كيف يشاء فى هداية قوم وإضلال آخرين . وهى نظير قوله تعالى ﴿ يضل به كثيرًا ويهدى به كثيرًا ﴾ (٢) .

---

(١) الإسراء : ١٥ .   (٢) البقرة : ٢٦ .

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

اجتنب طريقهم مع بيانك لهم الحق الذى أنت عليه ، وقل اللهم قد بلغت ، حتى لا تكون لهم حجة يوم القيامة . ولو شاء الله سبحانه لهداهم ، فلا يقع فى كونه إلا ما أراد .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

نهى الله سبحانه عن سبّ آلهة المشركين حتى لا تقع مفسدة فيسبوا الله ويهجوه ، لشدة جهلهم بالله عزّ وجلّ .

يقول قتادة كما يذكر ابن كثير « كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم ، فأنزل الله ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ » .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ
وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

قد أجهدوا أنفسهم تمامًا ، وأقسموا وحلفوا بأيمان مؤكدة صريحة ﴿ لئن جاءتهم ﴾ معجزة خارقة فسوف يصدقونها ، فقل لهم يا محمد ردّاً على هذا الزعم وعلى هذا السؤال الذى يسألونه من باب التعنت والكفر ، لا من باب الاسترشاد والهدى مثلاً : إنما مرجع هذه المعجزات والخوارق إلى الله أيها الناس . فهو إن شاء أتاكم بها وإن شاء تركـكم .

وهى نظير قوله تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ (١) .

أما قوله ﴿ وما يشعركم ﴾ فالخطاب هنا للمشركين ، وقيل إن الخطاب هنا للمؤمنين ، والمعنى : وما يدريكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون .

---

(١) الإسراء : ٥٩ .

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

يجعل الله تعالى قلوب المشركين فى ضلال متقلبة مع أبصارهم لما جحدوا بما أنزل الله ، فلم يثبت الله قلوبهم على شىء ، ولم يستقروا على الإيمان ، فأحال الله بينهم وبين أن يؤمنوا حتى ولو جاءتهم كل آية .

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

هؤلاء القوم لا يؤمنون حتى ولو كلمتهم الملائكة قائلة لهم إنه الحق ، أو قام الموتى من قبورهم وقالوا لهم : إن هذا النبى وما جاء به حق ، إلا أن يشاء الله أن يؤمنوا ؛ وذلك لأن كثرتهم تجهل الحقيقة ، فما عليك منهم إلا البلاغ .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

لكل نبى عدو من الشياطين ، من الجن والإنس ، وهم الذين لا تخشع قلوبهم لذكر الله ، ولا يخافونه سبحانه ، فيوحى بعضهم لبعض بكل زخرف القول والفعل ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم يفترون ، فسوف يعلمون أن ما افتروه باطل ، وأنهم به مهلكون . . حيث لا تخضع للباطل إلا قلوب ﴿**الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ ، الذين لهم فى نار جهنم ـ بما اقترفوه من باطل ـ عذاب مهين .

فليقترفوا ما يقترفون ، وليكتسبوا من ذنوبهم ما يكتسبون ، وليعملوا ما هم عاملون ، وليفعلوا ما هم فاعلون . . !!

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قل لهؤلاء المشركين يا محمد الذين يعبدون غير الله ، أفغير الله أرتضيه حكماً بينى وبينكم وهو أحكم الحاكمين ؟ والقرآن الكريم فيه كل شىء ؟ ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (١) . مع أن الذين آتيناهم الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أى بما عندهم من بشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، وأخبار سابقة فى كتبهم أن هناك نبيًا فى آخر الزمان اسمه محمد ، ﴿ فلاتكونن من الممترين ﴾ .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس مبدلاً لكلماته ، ولا أحد يعقب على حكمه ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهو السميع العليم . يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : « وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق ، وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذى يتلبس به ، ومن هذا الحق الذى يحتويه . وما يزالون ـ من أجل علمهم بهذا كله ـ يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب ، حربًا لا تهدأ . وأشد هذه الحرب وأنكاها ، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ، إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر ، وجعل غير الله حكمًا ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود » (٢) .

ثم يخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن حال أكثر أهل الأرض من البشر أنه الضلال . وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم فى ظنون كاذبة وحسبان باطل . فهؤلاء كلهم فى ضلال مبين ، وفى ظن . فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالفريقين : من يضل عن سبيله ، ومن هو ميسر للإيمان ومستعد له ، وكل ميسر لما خلق له .

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

(٢) تفسير ظلال القرآن سيد قطب ٣/ ١١٩٤ .

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟
مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ
كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

منحة وإباحة من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسم الله . ومفهوم المخالفة هنا أنه لا يباح أكل ما لم يذكر اسم الله عليه . كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النُّصب وغيره ، وكما يفعله من يفعله من الناس الآن .

وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟
يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (١) . وهؤلاء ممن يقترفون الإثم ، سواء أكان ظاهرًا أم خفيًّا ، سيجزيهم عليه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .

وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

يقول ابن كثير : « استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلمًا ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة (٢) » .

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى
ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

---

(١) الأعراف : ٣٣ .

(٢) لمزيد من المعرفة تراجع فى كتب الفقه وكتب تفسير الأحكام .

يضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لكافة الخلق أنه : لا يستوى الأعمى والبصير ، إذْ هل يستوى العبد الذى كان ميتًا ـ أى فى الضلالة ـ وكان حائرًا بعيدًا عن الإيمان مع نفسه بعد أن أحياه الله ـ أى أحيا قلبه بنور الإيمان ـ ثم وفقه ، وشرح صدره للإسلام ، ولاتباع رسله ؟

يقول الإمام الشهيد سيد قطب : « إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية التى لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب ، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة فى الوجود كله . . . أما الإيمان فهو اتصال ، واستمداد ، واستجابة ، فهو حياة . . . إن الصلة بالله ، والصلة فى الله ، لتصل الفرد الفانى بالأزل القديم والأبد الخالد . . . وإن الإنسان الذى يجد فى قلبه هذا النور تتكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه فى العمل والحركة ، تكشفًا عجيبًا . . إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان »⁽¹⁾ .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

إن فى كل قرية أو مدينة أعيانًا كبراء أغنياء ، أو كبارًا حاكمين ، ومن هؤلاء مجرمون يفسدون ، وينهبون الأموال ، ويخربون البيوت ، ويعذبون البشر ، ولا يخافون الله ، ولا يعتقدون بالحساب ولا بالقيامة .

وإذا جاءتهم آية أو معجزة خارقة ، قالوا لن نؤمن . وهذا القول منهم دليل جهلهم بالله ، وهل يختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسالته إلا الأخيار المتقون ؟

إن الله سبحانه وتعالى يعلم من المتقون ومن المستحقون لفضل الله وعطائه ، ومن الأمناء على رسالته ، إن هؤلاء المتمردين على الله ، المفترين على اختياره ، سيصيبهم عذاب شديد ، وسوف يحقرون ويعذبون ، وينفون من عالم المؤمنين الذين قالوا : ربنا

---

(١) ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٠ـ١٢٠١ .

الله ، إنهم بجهلهم هذا يتدخلون فى قدر الله وشئونه ، ويريدون بذلك أن يعلموا الله كيف ينشر رسالته ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ (١) .

والصغار فى الآية هو الذلة الدائمة نتيجة استكبارهم عن عبادة الله .

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ
صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ
ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد خيرًا لعبده شرح صدره له ، ونور فكره ، وزين قلبه لتلقى الخير لما أمر الله ، حتى يكون فى أهل الإسلام والإيمان مثلاً يحتذى به . أما الضالون عن نداء الله وطريقه ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يضلهم ، ويجعل صدرهم فى ضيق ، ويعيشون فى حرج معاصيهم وكفرهم بالله وأوامره ، ويكون مثلهم كإنسان صعد فى أجواء السماء ، فعاش فى أجواء سامة قاتلة ، فتقل نسبة التنفس عنده ، فيعلو وينخفض صدره وقلبه . وتزداد ضرباته ، فتدور عليه الدائرة ، فلا يستطيع التنفس والحياة .

والرجس فى الآية كل ما لا فائدة فيه ولا خير .

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ
ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

وصراطه المستقيم : فيما أوحى به من الحق لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم . والذين يؤمنون ، ﴿ لهم دار السلام ﴾ ، أى لهم الجنة لا يتخلل حياتها كدر ـ قد أنعم الله بها عليهم. وهكذا كان وليهم فى الدنيا ؛ فلما انتقلوا لدار السؤال كان وليهم كذلك .

---

(١) الزخرف : ٣١ ـ ٣٢ .

فأنعم برضوان من الله بما كانوا يعملون ، و ﴿ وليهم ﴾ أى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم . كما يقول ابن كثير .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم
مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ
مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

اذكر يا محمد ، فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ، يوم يحشرهم الله جميعًا ، يعنى الجن وأولياءهم من الإنس ، الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ، فيقال لهم : يا معشر الجن إنكم قد أضللتم كثيرًا من الإنس. فيقول أولياء الجن من الإنس: إنه كان بعضنا يستمتع ببعض، قال الحسن وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس⁽¹⁾.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قال قتادة فى تفسير هذه الآية « إنما يولى الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أينما كان وحيثما كان . والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان . ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى » ⁽²⁾.

ويولى الله بعض الظالمين بعضا فى النار ، يعنى يتبع بعضهم بعضا ، وجل قوله تعالى ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نُقيض له شيطانًا فهو له قرين** ﴾ ⁽³⁾ أى ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس . .

كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم لبعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

---

(١)، (٢) ابن كثير : ٢/ ١٧٦ .

(٣) الزخرف : ٣٦ .

نداء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرع به كافرى الجن والإنس يوم القيامة ، حيث يسألهم ، وهو أعلم : ألم يأتكم رسل منكم يبلغونكم رسالاته ؟ وهذا استفهام تقرير . ومتفق عليه أن الرسل من الإنس فقط ، ولكن أرسلوا للإنس وللجن معًا ، والذين أسلموا من الجن لهم أجرهم ، والرسل من الإنس هم الحجة عليهم ، والله أعلم . **﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾** أى أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك . **﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾** أى فرطوا فى حياتهم الدنيا لما اغتروا به من زخرفها وزينتها . ومرجع الخلق جميعًا من الإنس والجن إليه سبحانه .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا ، وإنه قد أقام الحجة على كل البشر ، وأرسل إليهم الرسل ، وأقام عليهم البراهين **﴿ لئلاَّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾**⁽¹⁾ .

ولكل إنسان درجة فى الجنة أو النار ، لأن الله سبحانه وتعالى يدخل من يدخل الجنة برحمته . أما أعمالهم فهى التى تحدد لهم أماكنهم .

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

إن ربك يامحمد هو الغنى عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، وهو مع ذلك رحيم بهم . إن يشأ سبحانه يذهبكم ، ويأت بخلق جديد يحبهم ويحبونه . وجل قوله تعالى : **﴿ وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾**⁽²⁾ وقوله **﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز﴾**⁽³⁾ .

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

---

(١) النساء : ١٦٥ .
(٢) محمد : ٣٨ .
(٣) إبراهيم : ١٩ ـ ٢٠ .

إن الذى توعدون به سيأتى لا محالة ، لأنه ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد﴾ (١) .

وأنتم لا تُعجزون الله ، ولا تُثنونه عن أى مشيئة له ، بل هو القادر على إعادتكم وخلقكم مرة أخرى ، وهو أهون عليه .

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ
لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتى ومنهجى . .

فسوف نرى العاقبة لمن ؟ أتكون لى أم لكم ؟ وقد أنجز الله وعده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، فإنه تعالى مكنه فى البلاد ، وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب (٢).

وكل ذلك فى حياته . وجل قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ (٣) .

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ
بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفرا ، وجعلوا لله شركاء وجزءا من خلقه ، وهو خالق كل شىء سبحانه وتعالى .

---

(١) ق : ٢٩ . (٢) انظر ابن كثير : ٢ / ١٧٨ .
(٣) غافر : ٥١ــ٥٢ .

إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثًا ، أو كان لهم ثمر جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا ، تعالى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو رب كل شيء ، ومليكه وخالقه ، وله الملك وكل شيء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه . . وذرأ أى خلق ، و (الحرث) أى الزرع والثمار و (نصيبًا) أى قسمًا . . وهذه سخافة من سخافات تصرفاتهم التى كانوا يعتقدونها فى الجاهلية . وما أكثر الأفعال التى تشابهها فى هذه الأيام وإن اختلف الموضوع ، ولكنه يأخذ أشكالاً أخرى من الوثنية والكفر والشرك ، والعياذ بالله .

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

وكما زين لهم الشيطان أن يجعلوا للأوثان نصيبًا ويدّعوا أنهم يجعلون لله مثله ، فكذلك زين لهم الشيطان ، وزين لهم الشركاء قتل أولادهم خوفًا من العيلة والفقر ، ووأد البنات خشية العار . وادّعوا أنهم يتقربون إلى الأصنام لتقربهم من الله .

وكل ذلك كان من تزيين الشيطان لهم ، فدعهم يا محمد ، واجتنبهم وما هم فيه ، فسيحكم الله بينك وبينهم ، وسوف يبين الله لهم سوء صنيعهم وشركهم .

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ
حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا
كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

هذه الآية نظير قوله تعالى :

﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالاً قل آ لله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ (١) .

إن الكفار يدّعون على الله الكذب ، ويحلون ويحرمون فى أنعامهم نتيجة ما فى

---

(١) يونس : ٥٩ .

نفوسهم من مرض ، وما فى فهمهم من نقص ، وما فى تقديرهم من أخطاء . فهم يتخذون لأنفسهم صفة الحق فى التصرف فيما يملكون بهواهم لا بأمر الله سبحانه وتعالى .

وسوف يجازيهم الله سبحانه وتعالى على هذا الافتراء .

وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

ادّعَوْا : أن ما فى بطون أنعامهم هى حق خالص لأبنائهم من الذكور ، ومحرم على الإناث ، وذلك نوع من أنواع الجور والظلم للمرأة فى عصر الجاهلية قبل الإسلام . وذلك كذب على الله ، وافتراء ، وسيجزيهم الله بما يصفون من باطل شر الجزاء وأقساه . إنه حكيم عليم .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

الذين فعلوا هذه الأفاعيل خسروا فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم فى أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم . وأما فى الآخرة : فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم . . عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : « إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام » ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم ﴾ إلخ (١) .

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

---

(١) انظر ابن كثير : ٢ / ١٨١ .

يبين تعالى أنه الخالق لكل شىء من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزءوها فجعلوا منها حراما وحلالا . إن الله سبحانه وتعالى أنعم على الإنسان بإيجاده وإيجاد ما يستعمله فى معاشه ، من زروع تحصد ، وكروم وأشجار تؤكل ، وجنات من نخيل وأعناب وزيتون ورمان ، وفواكه كثيرة متقاربة صورة وطعومًا أو متباعدة ، غير أنها سائغة ومطلوبة . منها خاص بالصيف ، ومنها خاص بالشتاء . والحق - سبحانه وتعالى - يطلب من خلقه أن يأكلوا من هذه النعم الكثيرة ثم يعطوا الفقراء حقهم المعلوم منها يوم الحصاد فتقع البركة والإثمار الكثير .

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

يحذرنا الله من الشيطان وغروره . حيث يأمرنا بالبخل فنبخل ، ونعطل الزكاة والصدقة وفعل الخير . . إن الشيطان كان للإنسان عدوًا مبينًا .

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ
أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ
ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا قد حرموا من الأنعام . ويبين الله أصناف الأنعام ، وأنه تعالى لم يحرم شيئًا من ذلك ، ولا شيئًا من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبنى آدم أكلاً وركوبًا وحمولة وحلبًا ، وغير ذلك من وجوه المنافع . وفى هاتين الآيتين يعدد الله سبحانه وتعالى أصناف الأنعام ، ثم يقرر حِلّها ، ثم يسفه الذين ادعوا كذبًا بالتحريم فيقول ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه

وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك . وهذه الآيات رد عليهم فى قولهم ﴿ ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ ﴿ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين﴾ . . أى أخبرونى عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه ؟

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً
أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ
فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥)

يقرر الحق سبحانه وتعالى أن ما حرم برأى البشر فى الجاهلية لا عبرة فيه ، حيث لاعبرة فى التحريم إلا بما يحرمه الله تعالى فيما يوحيه إلى رسول الله ﷺ من كتاب أو سنة .

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ
ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦)

يقرر الله سبحانه وتعالى أنه قد حرم على اليهود هذه الأشياء جزاء بغيهم .

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

فإن كذبوك يا محمد ، وكذبوا فعلك وقولك ، فقل إن ربى ذو رحمة واسعة ، وسعت كل شىء ، وهذا ترغيب لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة ، واتباع رسوله . أما قوله ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ فهو ترهيب لهم من عصيانهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب فى القرآن .

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ

كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ
عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

بهذه الشبهة ضل من ضل من آبائهم وأقرانهم ، لأنهم تمسكوا بحجج داحضة باطلة غير مستقيمة ، لأنها لو كانت صحيحة لما ذاقوا وبال أمرهم ، ولما دارت عليهم الدائرة، وذاقوا ألم الانتقام . وإن كنتم على حق أتستطيعون أن تظهروه لنا أو تبينوه ؟ لكنكم لاتتبعون حقيقة أبدًا . إنكم لا تتبعون إلا وَهْما وخيالاً واعتقادًا غير صحيح ، وما أنتم إلا كذابون تدعون على الله الكذب فيما ادعيتموه .

قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

أى له الحكمة التامة والحجة البالغة فى هداية من هدى وإضلال من ضل ﴿ **فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ . سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب . . لا قدرة فوق قدرتك، ولا مشيئة فوق مشيئتك ، ولا اختيار فوق اختيارك .

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ
مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

فإن كانت لديكم حجة أيها المشركون ، فأتوا بها ، وهاتوا شهداءكم الذين يشهدون لكم ، ولن تجدوهم ، فأنتم وهم على غير هدى . وإن شهدوا يامحمد بغير ما أنزلنا إليك فلاتشهد ظلمهم وبغيهم ، إنهم أصحاب أهواء وضلال . إنهم الذين كذبوا بآياتنا ومعهم الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ومن صفات هؤلاء الضالين أنهم لا يؤمنون بالآخرة ﴿ **وهم بربهم يعدلون** ﴾ أى يشركون بالله ربًا ويجعلون له عدلاً ، أى مثلاً وظلا، وذلك مستحيل ، فاتركهم فى غيهم وجهلهم .

۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ

وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ
إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

قل يا محمد للذين يتبدون الطاغوت ويجتنبون حاكمية الله : تعالوا لأقرأ لكم وأعلمكم ما حرم الله عليكم وما طلب منكم ، وهى هذه المذكورة .

قال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ » .

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ
سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

يقرر الله تعالى أن الإسلام دينه وصراطه المستقيم . ويأمرنا باتباعه ، ويحذرنا من الطرق المتفرقة .

وطريق الله واحد ، وسبل الشيطان متعددة . وقد وصى الله عباده بالاستقامة على ما أمر به الله سبحانه وتعالى ، واجتناب ما نهى عنه ، فالناجون : هم الذين تواصوا بالحق ، فكانوا على صراط الله المستقيم .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

بعد أن أخبر الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم بقوله ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ﴾ جاء يمدح التوراة ، ويمدح الرسول الذى بُعث بها ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ ، وهذا ما نجده دائماً فى القرآن الكريم من مقارنة الحق سبحانه وتعالى بين

القرآن والتوراة . أى أننا آتينا موسى هذه التوراة تامة كاملة جامعة لما يحتاج إليه فى شريعته ، كى يحكم بها بين قومه بالحق ، وهى هدى ورحمة ﴿ **على الذى أحسن** ﴾ يقول ابن كثير أى جزاء على إحسانه فى العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله تعالى ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ .

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

ثم يرجع الحق سبحانه وتعالى إلى القرآن الكريم فيقول : وهذا هو كتاب الله أنزلناه على خير وصف وهو البركة لمن يتبعه فى الدنيا والآخرة . وهذه دعوة إلى اتباع القرآن ، فيرغب سبحانه عباده فى كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ
لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ
جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

إن قال أهل الجاهلية من العرب لك يا محمد إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، أى على اليهود ثم على النصارى ، وكانت لغتهم العبرية ولم نكن نفهمها ، فكنا عن دراسة كتبهم غافلين ، فاعلم أنهم يكذبون عليك ، وما فى قلوبهم ليس هو الذى على ألسنتهم ، وكانوا يقولون لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، وها هو ذا القرآن عربى بليغ وواضح ، وهدى ورحمة ، فمن أعرض عنه بعد ذلك ، ولم يسلم لما جاء من الله فأولئك هم الضالون .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ
يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا
خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

يتوعد الله الكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله . إن الذين تعالوا على الله ولم يؤمنوا به ، ماذا يريدون ؟ وماذا ينتظرون ؟ هل يريدون أن يروا الساعة وقد جاء أشراطها ؟ هل يريدون أن تأتى آيات الله ويحضروا العذاب ويشهدوا النار ؟ إن كل ذلك واقع عندما تأتى بعض آيات الله ، ويومها ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ .

فلينتظروا فالله رقيب عليهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقول ابن كثير : « نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى . . . ويقول ابن عباس : إن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتفرقوا ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أنزل الله عليه هذه الآية . . . والظاهر : أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق »⁽¹⁾ .

يقول الشهيد سيد قطب : « إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس من هؤلاء كلهم فى شىء . إن دينه هو الإسلام ، وشريعته هى التى فى كتاب الله ، ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز . وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ، ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأى شريعة ، أو أى وضع أو أى نظام . . إسلامى . . وشىء آخر . . !!!

إن الإسلام إسلام فحسب ، والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب ، والنظام الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى الإسلامى إسلامى فحسب ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس فى شىء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان⁽²⁾» .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٦ .

(٢) ظلال القرآن تفسير سورة الأنعام ص١٢٣٩ سيد قطب .

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ
لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠

هذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى ، وهى قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ .

الذين يعملون الخير ، ويتقون الله ، وينفقون أموالهم فى سبيل الله ، لهم من إحسان الله سبحانه وتعالى وعطائه الحسنة وزيادة . والحسنة هى الجنة ، والزيادة أن يضاعف لهم ما أنفقوا فى سبيل الله . فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف مضاعفة ، والله يعطى عن غنى لا يعقبه فقر . فهو الغنى المالك على الإطلاق ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، والذين بخلوا بما عندهم فلم ينفقوا فى سبيل الله لاستحواذ الشيطان عليهم وإيهامهم بالفقر ، هؤلاء يعيشون فقراء على الحقيقة ولو ملكوا الدنيا ، والبخل والإيمان لا يجتمعان فى قلب رجل ، وليس للبخيل عند الله مقام ، فهو ذميم فى الدنيا ، مطرود فى الآخرة ، ولا يجتمع الإيمان والبخل فى قلب رجل .

قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢
لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ
وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤

يقول تعالى آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

يقول الإمام الشهيد سيد قطب ـ رضى الله عنه ـ : « فى ختام السورة . . . تجىء التسبيحة الندية الرخية فى إيقاع حبيب إلى النفس قريب ، وفى تقرير كذلك حاسم فاصل، ويتكرر الإيقاع الموحى فى كل آية : « قل » . . « قل » . . « قل » . . ويلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى ، لمسات دقيقة عميقة فى مكان التوحيد ، توحيد

الصراط والملة ، توحيد المتجه والحركة ، توحيد الإله والرب ، توحيد العبودية والعبادة . . مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته »(١) .

يا محمد قل الحمد لله حمدًا يليق بجلال عطائه وعظمته ، لقد هداك إلى صراط مستقيم وجعلك على دين أبيك إبراهيم ، ثم أكمل هذا الدين على يديك ، وختم بك النبيين المرسلين ، وجعل شريعتك متممة لكل أحكام الله وتشريعاته حتى تنتهى هذه الدنيا ، وتقوم الساعة ، ثم أعطاك الوسيلة والشفاعة ، ومع مقام إبراهيم وقربه من الله فأنت أكمل من أرسل من الأنبياء والمرسلين ، أعطيت الشفاعة وأكرم ما تدعو به أمتك أن تقول : « أصبحنا على ملة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » وهذا الدعاء كان يقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أصبح .

وقل لهم يا محمد : إن صلاتك لله ، وكذلك نسكك ، من صيام وحج وصلاة وذبح وإحسان بالمال الطيب والكلمة الطيبة ، وكذلك حياتك التى ليس فيها عبادة لغير الله ، كل ذلك لله رب العالمين لا شريك له ، شاهدًا أنه هو الله الواحد ، وأن محمدًا هو عبده ورسوله . . . أخافه ولا أخاف أحدًا سواه ، وأنا محمد بن عبد الله على دين أبى إبراهيم ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . . . وقد قال الإمام أحمد عن على ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا كبّر استفتح ثم قال : **﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ ﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾** .

وقل لهم يا محمد أغير الله أطلب ربا سواه ، وهو رب كل شىء وربى ، ويحفظ ويدبر ؟ فكيف لا أتوكل عليه ، وهو رب العالمين ورب الأشياء كلها ؟ كيف لا أنيب إليه وهو مالك الملك ؟ ، يقول ابن كثير : « فى هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التى قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا فى القرآن كقوله تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا له : **﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾**(٢) وقوله **﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾**(٣) وقوله **﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾**(٤) .

---

(١) انظر ظلال القرآن ٣ / ١٢٤٠ .

(٢) الفاتحة : ٥ .

(٣) هود : ١٢٣

(٤) الملك : ٢٩ .

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

هو الله سبحانه وتعالى جعلكم خلفاء فى الأرض لكم رسالة فيها ، تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأزمانًا بعد أزمان وخلقًا بعد خلق ، وسلفًا بعد سلف . ورسالة الإنسان فى الأرض معروفة وواضحة ، إن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان فى الأرض خليفة ، هو ظل له فى الأرض ، يحكم بمنهج رسله الذين أرسلهم الله إليه ، ويحكمون بشريعة الله التى ارتضاها لعباده ، ولقد رفع الله سبحانه وتعالى بعض الناس وفاوت بينهم فى الأرزاق والأخلاق ؛ لحكم وعلل يعلمها الحق سبحانه وتعالى . كما فاوت فى الأخلاق والأشكال والمناظر والألوان والدرجات ، وله الحكمة فى ذلك أيضًا ، كقوله تعالى : ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريًا**﴾ (١) والله سبحانه وتعالى : القادر المحيي المميت خلقكم أيها الناس ، وجعلكم قادرين على تعمير الأرض بالإنشاء والزرع والتجارة والصناعة . ولم تفلح أمة إلا بالعمل والإيمان . والإيمان وحده لا يكفى ولا ينفع ، لكن العمل مقرونًا بالإيمان هو فى النهاية مجموع لتعمير الإنسان فى الأرض والكون ، وهو تأدية للرسالة على أكمل وجه ، فالأمة الكسولة لا تتقدم . . والأفراد العاطلون لا يتقدمون ، فاليد العاملة هى يد يحبها الله ورسوله بشرط أن تكون يدًا عاملة ، لها صاحبٌ قلبه مطمئن إلى الله ، وراض بقضائه ، يؤدى شعائره ، ويؤدى نسكه ، وينطلق فى الأرض يبتغى الرزق، ويسعى فى الأرض إصلاحًا وتعميرًا ، بدلاً من الإفساد .

كما جعلكم الله سبحانه وتعالى طبقات ودرجات بعضها فوق بعض مركزًا ومالاً وصناعة وعلمًا ، ومعارف ، فذاك غفير ، وآخر وزير ، وذاك ملك ، وآخر أمير ، وذاك حاكم وذاك محكوم ، والكل بالنسبة له سبحانه عبيد مسئولون محاسبون . . أكرمهم عند الله أتقاهم . فالمقياس هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح . .

والله سبحانه وتعالى على ما قدمت أيديهم من عدل يجزى به ، ومن جور يحاسب

---

(١) الزخرف : ٣٢ .

عليه ، وسبحانه سريع العقاب . إن شاء الله عجل به فى الدنيا لعل العبد يتذكر فيتوب ، وذلك منه سبحانه وتعالى إحسان ، وإنه لغفور رحيم لمن راجع نفسه فحاسبها .

إنه بهذه النفس التوابة النادمة المستغفرة لغفور رحيم . سبحانه وتعالى عما يصف المشركون .

هذا هو قرآننا ، وهذا هو هدى الله لعباده المؤمنين ، الذى منحهم أعظم منحة فى تاريخ الإنسانية ، وهو الكتاب المبارك « وهذه بلا شك واحدة من بركاته الكثيرة » (١) .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سيد قطب ٣/ ١٢٤٢ .

(٧) سُورَةُ الأعرَاف مكيَّة
إلا من آية ١٦٣ إلى غاية آية ١٧٠ فمدنية
وآياتها ٢٠٦ نزلت بعد ص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾

سبق وبينا فى سورة البقرة معنى ما قاله المفسرون فى الحروف التى افتتحت بها السور.

كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

وهذا الكتاب المبين الذى أنزل إليك من ربك إنذار للناس المؤمنين خاصة ، ينتفعون به ، ويتفقهون فى مقاصده وحكمه ، يتبعون أوامره ، ويجتنبون نواهيه. فلا تتحرج أن تبلغه للناس يامحمد. وهذه الآية فيها تصبير للرسول ﷺ ومواساة له .

ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

الخطاب من الله لكل العالم وذلك بقوله تعالى : ﴿ اتبعوا ﴾ ، أى اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه . ثم ينهاكم سبحانه أن تتبعوا غير طريق محمد ﷺ ، فهو أمين الله فى الأرض ، يبلغ كتابه سبحانه وتعالى، ويفسره لأتباعه بالسنة المطهرة . فالكتاب والسنة هما مصدرا التشريع فى الأرض . . أما قوله تعالى: ﴿قليلا ما تذكرون﴾ فهى نظير قوله تعالى ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ (١)

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾

---

(١) يوسف : ١٠٣ .

لقد كذبت قرى كثيرة رسلنا، فماذا كان مصيرهم ؟ أهلكناهم - أى أهل هذه القرى - بما ظلموا وكذبوا رسلهم وخالفوهم، ولم نهلكهم إلا بعد أن أنظرناهم وبعثنا إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ومذكرين، ولكنهم أصروا على كفرهم ، فجاءهم بأسنا - أى قدرتنا - فباءوا بغضب من الله ، فأورثهم الله خزى الدنيا وذل الآخرة ، فى نار يصلونها وبئس المصير.

والبيات المقصود به الليل، والقيلولة هى الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو .

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

عندما وقع عليهم العذاب ، وشاهدوا قدرة الله ، قالوا إنا كنا ظالمين ، وهو اعتراف بباطلهم وظلمهم حين لا ينفع الندم .

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ
وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

يسأل الله - سبحانه وتعالى - الخلائق يوم القيامة عما أجابوا به رسله فيما أرسلهم به، كما يسأل رسله أيضا عن إبلاغ رسالاته. وقال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون⁽¹⁾ . ثم يحاسبون ، فإما الجنة بما صدقوا ، وإما النار لتكذيبهم لرسل الله، سبحانه وتعالى .

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يزن الله أعمال العبد بالحق ، وهو الحق العدل ، فمن غلبت أعمالُه سيئاتِه فقد فاز ، ومن ثقلت فى الميزان سيئاتُه ، وخفت حسناته ، فقد أُدين لله. والله الحكم العدل ، ولا يظلم الناس شيئًا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ؛ لأن الدنيا غرتهم ، ففتنوا بها ، فضلَّ سعيهم ، وخابت مقاصدهم ، وجاءوا يوم القيامة خزايا، ليس لهم شىء، ولكن عليهم ، فأهلكتهم أنفسهم بما ظلموا وكانوا يعتدون .

---

(١) ابن كثير ٢ / ٢٠١ .

«والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضًا ، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقلبها يوم القيامة أجسامًا . وقيل : يوزن كتاب الأعمال ، وقيل : يوزن صاحب العمل . فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها»(١) .

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

مكن الله للإنسان فى الأرض ، فجعل له فيها معايش ، أقامها الإنسان بفضل الله عليه لما منحه من الفهم ، والقدرة على العمل ، والتحصيل ، وبما منحه من صحة فى بدنه ، وقدرة فى فهمه . ولولا ذلك لكان كالدواب يأكل ويشرب ولا يتدبر أمره . ولو أحسن الإنسان إلى نفسه وتدبر وتفقه فى نعم الله عليه لكان خيرًا له ، ولكن الشيطان زيَّن له فقلَّ شكرُه لله .

و﴿معايش﴾ أى مكاسب وأسبابًا تكون سببًا فى تحصيل الرزق والمعاش .

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

يمتن الله على أبناء آدم بأنه خلقهم ، ثم صورهم ، وجعلهم فى أحسن تقويم . ثم أمر الملائكة أن تسجد لهذا البشر الجديد ، ولهذا الخلق الجديد ، فسمعوا كلهم وأطاعوا عدا إبليس اللعين لم يكن يسمع ، ولم يكن مطيعا ، ولم يكن من الساجدين .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى للَّعين إبليس ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لاتسجد لآدم إذ أمرتك؟ فاحتج اللعين بأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين . وفى ظن إبليس أن النار أشرف من الطين ، وذلك لجهله .

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

بعد تمرد إبليس وعصيانه بعدم سجوده لآدم ، قال الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٢ .

اللعين فاهبط منها ـ أى من الجنة ـ إنها ليست بدارك . إنها لم تكن للمتكبرين على أمرى . إنها مأوى للطائعين الممتثلين لأوامر الله ، وهم المسلمون لأمرى ، السامعون لنهيى . إنها محرمة على كل متكبر جبار يتعالى على أن يكون عبدًا متواضعًا لما يأمر به الله سبحانه وتعالى، أو ينهى عنه . فاخرج إنك من الصاغرين ، أى الحقيرين الذليلين ، وأسرع اللعين فسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبقيه حيًّا فلا يهلكه حتى يوم القيامة . ولما كان قدرًا قديمًا فى علمه ـ سبحانه ـ فقد استجاب له ، فجعله طريق غواية وإفساد وإهلاك لمن عصاه سبحانه من ذرية آدم .

فالجنة للمتقين بكرمه وعفوه سبحانه لمن أطاعه ، والنار لمن أعرض عن ذكره وعصاه، فيقول للَّعين إبليس ﴿ إنك من المنظرين ﴾ .

أى من الممهلين إلى يوم البعث والحساب . لك ألا تموت فيها ، وليس ذلك من باب التكريم ، ولكن لحكمة يعلمها تعالى .

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

أى بما ابتليتنى سوف أحسِّن لهم القبيح ، وأقبح لهم الحسن ، أرغبهم فى المعصية ، أبغضهم فى الطاعة ، أصدهم عن صراطك المستقيم ، أجعلهم بغوايتى يتخبطون فى المعاصى ، حتى أهلكهم بها . سأجمِّل لهم الدنيا فيظنونها النعيم وهى خيال باطل، سأظل حتى يوم البعث أجمل لهم طريق النار ، وأبغضهم فى طريق الجنة ، ويجهل أشقيائهم يظنوننى ناصحًا أمينًا . فويل لمن أطاع الشيطان .

يقول ابن كثير فى تفسير ﴿ من بين أيديهم ﴾ أى أشككهم فى آخرتهم ، ﴿ومن خلفهم﴾ أى أرغبهم فى دنياهم .

﴿ وعن أيمانهم ﴾ أى أشبه عليهم أمر دينهم .

﴿ وعن شمائلهم﴾ أى أشهى لهم المعاصى(١) .

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

قرر سبحانه إخراج إبليس من رحمته ومن اتبعه من أولاد آدم .

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٢٠٤ .

و﴿مذءومًا مدحورًا﴾ أى حقيرًا صغيرًا قبيحًا .

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

أباح الله تعالى لآدم وزوجته حواء الجنة ، يتمتعان فيها ، ويأكلان منها ومن جميع ثمارها إلا شجرة واحدة ـ كما تقدم فى تفسير ذلك فى سورة البقرة ـ لكن الشيطان لم يتركهما وشأنهما ، فقد حقد عليهما وحسدهما ، ومشى ساعيًا بينهما بالمكر والخديعة ليسلبهما هذه النعم والخيرات .

فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

أخذ الشيطان يوسوس لهما ليأكلا من هذه الشجرة التى نهاهما الله عنها .

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

وما يزال الشيطان يوسوس لآدم وزوجته وهو يحلف لهما بالله أنه ناصح لهما ، مخلص معهما ، حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله .

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾

نجح الشيطان فى إغراء آدم وزوجه حتى أكلا من هذه الشجرة المحرمة ، وبدت لهما سوءاتهما بعد الوقوع فى هذه المعصية .

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

بدأ آدم فى الأسف والندم ، واعترف بأنهما ظلما أنفسهما ، وإن لم يصفح الله ـ

سبحانه وتعالى ـ عنهما ويغفر لهما فسيكونان من الخاسرين الهالكين هو وزوجه . «ويقول الضحاك بن مزاحم فى قوله ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه » (١).

قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ
فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

وقد أعلمهم الله سبحانه وتعالى كذلك أن لهم فى الأرض مستقرا ومتاعًا إلى حين ـ أى إلى أن ينتهى أجلهما الذى قدر لهما فى الدنيا بالموت ، وقيل : إلى قيام الساعة (٢).

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

ألهم الله تعالى بنى آدم أن يصنعوا لأنفسهم ثيابًا ، يسترون بها عوراتهم .

ثم يقول ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ وقد اختلف المفسرون فى معناه . فمنهم من يقول : إنه هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة ، ويقول آخرون : هو الإيمان . ويقول ابن عباس : هو العمل الصالح . وعنه أيضًا : أنه السمت الحسن فى الوجه . . ومنهم من يقول : هو خشية الله . وكل هذه المعانى تصب فى معين واحد .

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا
ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله ، مبينا لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء ، والتسبب فى هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه . فيابنى آدم إن آمنتم بالله ورسوله فاحذروا وسوسة الشيطان ، إنه عدو لكم حاقد عليكم حتى قيام الساعة . وجل قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ (٣).

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٦ .

(٢) انظر : القرطبى ١ / ٣٢١ .

(٣) الكهف : ٥٠ .

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

احتجوا على أن ما فعلوه ليس قبيحًا لأن آباءهم كانوا كذلك يفعلون ، فكيف تكون قبيحة وآباؤنا وأجدادنا يفعلونها ؟ هذا هو قولهم .

فقل لهم يا محمد إن الله لا يأمر إلا بالحق لأنه هو الحق . والحق هو طريق الله ، وطريق الله لا يتخلله باطل ، ولا يدعو إلا إلى صراط مستقيم ، فبعد ذلك تسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته !

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ
ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

القسط هو العدل والحق . فالذين يقيمون العدل فى الناس هم الذين يستطيعون أن يتجهوا بقلوبهم ووجوههم معا إلى الله تعالى ، وهم الذين يقدرون مكانة المسجد ، وقداسة مسئوليته ، وهم أصحاب القلوب الصادقة فى محبتها لله، وبذلك يلهمها الحق، وينطقها بما يرضيه ، سواء كانت فى بيت الله تدعوه ، وتتضرع إليه ، أو فى أى مكان آخر . وهى التى دائما تتصور وتتذكر رجعتها إلى الله بالعبادة ، أو عند نهاية هذه الحياة .

والإنسان بين فريقين : فريق هداه الله ، فهو صاحب الطاعة ، المستغرق فى توحيده لله ، وموعده الجنة . وفريق قد استغرقتهم الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فموعدهم النار .

أمر الله تعالى بثلاثة أشياء فى هذه الآية . أولا : أمر بالقسط ، والقسط هنا هو العدل والاستقامة ، وما القسط إلا شهادة أن لا إله إلا الله . ثانيًا : أمر بالصلاة .

والأمر الثالث : وهو أن ندعوه مخلصين له الدين . والدعوة له ـ سبحانه وتعالى ـ وإليه هى جزء من أعمال الصلاة أيضا ، لأن الصلاة فى معناها الأصلى الدعاء .

سُورَةُ الأَعْرَافِ

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١

خطاب لكل العالمين ، يشمل كل مسجد للصلاة فى أى بقعة من العالم .

ويقول ابن كثير⁽¹⁾ : إن العرب رجالاً ونساء كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، فأمرهم ـ سبحانه وتعالى ـ بالزينة ، والزينة هنا معناها اللباس، وهو ما يوارى السوأة .

وهكذا جاء الإسلام وحرم همجية الجاهليين ، وأقام حضارته بمساواة وعدل ، فحدد للمرأة لباسها ، وللرجل لباسه ، وأصبحت عورة المرأة كل بدنها إلا الوجه والكفين، وعورة الرجل ما فوق الركبتين إلى ما فوق السرة ، وأباح الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل أكل حلال ، وكل لباس حلال ، فى حدود ما بُيِّن فى كتابه وفى سنة رسوله ـ ﷺ ـ التى هى شارحة للكتاب .

ويقول ابن عباس كما يذكر الإمام القرطبى فى مسألته : أحل الله فى هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة ⁽²⁾ .

قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢

القاعدة : أن كل شىء حلال إلا ما حرم الله . فكل طيبات الله ـ سبحانه وتعالى ـ مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا وإن شاركهم فيها الكفار حبا فى الدنيا . لكنها خالصة وخاصة بهم يوم القيامة ، لا يشاركهم فيها أحد من المشركين أو الكفار، لأن الجنة محرمة على الكافرين .

قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣

أحل الله تعالى كل شىء ، ثم استثنى القليل القليل فحرمه . ومن أكبر ذلك الزنى ، والخمر ، والميسر ، والسرقة ، وأكل الخنزير ، والقتل بغير حق ، وعقوق الوالدين ،

---

(1) انظر ابن كثير : ٢/ ٢١٠ .

(2) القرطبى : ٧/ ١٩١ .

والإفساد بين الناس ، والتكبر على أهل الصلاح ، وإيذاء الجار ، والتجسس عليه ، ولعب الميسر ، وأكل الربا إلخ ، وأن يبغى الإنسان على أخيه الإنسان ، بغير حق ، والشرك بالله أكبر الذنوب ، والمشرك بالله هالك لا محالة ، وأن يقول الإنسان ما لا يعلم، أو يظن بالله غير الحق ، والخروج على جماعة المسلمين . كل هذه فواحش وآثام حرمها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده المخلصين .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

وكما أن للأفراد آجالاً فلكل أمة من الأمم أجل . والأمة معناها الجيل أو القرن . ويطول أجل الأمم بالعدل ، ومخافة الله ، واتباع دينه، وتنفيذ شرعه . ويقصر بما اكتسبت من إثم وضلال .

وإذا انتهى الأجل لا يستأخرون ساعة عن أجلهم المحدود ولا يستقدمون كذلك .

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

يأيها الناس ستأتيكم رسل وأنبياء يدعونكم إلى الله وإلى عبادته وتوحيده، وسيقصون عليكم الحرام والحلال بآيات منزلة عليهم من عندى فمن اتقانى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أما من لا يتقى الله ولا يخافه فله جزاؤه . لذلك يقول الحق :

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

هؤلاء المستكبرون عن عبادة الله ـ سبحانه وتعالى والمكذبون بآياته ، ماكثون فى جهنم مكثا مخلدا .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

ليس أظلم ولا أطغى من عبد يفترى على ربه وخالقه ورازقه الكذب . إن هؤلاء المكذبين بالرسل وبالكتب هم المكذبون بالله . أولئك سيحاسبون على ذلك من الله، وإذا حضرهم الموت ، وجاءتهم رسل ربهم ليقبضوا أرواحهم قالوا لهم : فيم كنتم ؟ وأين الذين دعوتموهم من دون الله وهم خلق أمثالكم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا ؟ قالوا وهم فى سكرات الموت ﴿ضلوا عنا﴾ ، أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ـ كما يقول الإمام ابن كثير ـ وقد اعترفوا ساعتها وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

قَالَ ادْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِى النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ
لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

يقول الله العزيز الحكيم لهؤلاء الذين كفروا به وبرسوله ، ولكل من عصاه وكفر بأوامره بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى : ادخلوا أيها الكافرون فى أمم ومع أمم سبقتكم قد ضلت ضلالكم ، وأشركت بالله كما أشركتم ، وأبت إلا أن تكفر بما أنزل الله على رسله .

وعندما يجتمعون فيها تقول أخراهم لأولاهم ـ أى أخراهم دخولاً وهم الأتباع لأولاهم دخولاً وهم المتبوعون ـ الذين أضلوهم عن سواء السبيل مشيرين إليهم : ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار﴾ . أى ضعِّف عليهم العقوبة لأنهم فى الجرم أكبر منا، ولأنهم هم الذين وجهونا إلى هذه الوجهة ، فعصيناك ، وخالفنا أمرك ، وكذبنا بك وبرسولك . فيقول الحق سبحانه وتعالى : لكل صنف منكم ضعف ولكن لا تعلمون .

ولكن الموقف لا ينتهى فى هذه الحال إذ يرد المتبوعون على الأتباع قائلين لهم :

وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقولون لهم ما كان لكم علينا من فضل ، لقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وأنتم سواء . وهذه الحال نظير قوله تعالى كما أخبر الحق عنه فى ساعة المحشر ﴿ولو ترى إذ

الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » (١) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ
مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

إن الذين استمعوا لآيات الله فاستكبروا وتعالوا على سماعها ، وأبوا أن يعوا معانيها وأوامرها ، هؤلاء لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا لأرواحهم عند موتهم ، ولكن تساق إلى السعير وإلى النار ، لتسأل وتحاسب ، وتظل فى العذاب ، والجنة محرمة عليهم .

ولنتصور هل من الممكن أن ينفذ الجمل من ثقب الإبرة ؟! هذا مستحيل . فكذلك دخولهم الجنة مستحيل . فإذا دخل الجمل من ثقب الإبرة ، دخل هؤلاء الجنة . كذلك يجزى الله ـ سبحانه وتعالى ـ المجرمين ، الذين أبوا أن يوحدوه ، ويصدقوا برسوله .

هؤلاء المكذبون ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ أى : فُرُش . ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ أى اللحف . وكذلك يجزى الله الظالمين .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾

انتهى المشهد السابق برعبه وقسوته وضغطه على النفوس ، وجاءت تلك الآية تربط على القلوب الندية ، بتوحيدها لله ، وعملها للصالحات ، من توحيد لله ، وصلاة ، وكل سائر العبادات التى كلف بها الإنسان المسلم ، الذى أسلم وجهه لله ، ثم أطاع رسوله ﷺ ، فتلقى الأوامر بنداوة نفس ، واطمئنان قلب . والله رحيم بعباده الذين آمنوا ، وصدقوا رسله . لا يكلف إلا على قدر طاقة الإنسان وبقدر ما يستطيع أن

---

(١) سبأ : ٣١ .

يحتمل من التكاليف الشرعية ، من تبتل واستغراق فى العبادات ، ليشعر الإنسان بمعية الله ـ سبحانه وتعالى ـ معه . وهؤلاء أصحاب المعية الإلهية هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى
هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن
تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

نزع الله ما فى قلوب أهل الجنة مما كان يقع بين الخلق فى الدنيا ، من حقد أو حسد ، وأدخلوا الجنة تجرى من تحتها الأنهار . ساعتها قال أصحاب الجنة : الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وقد أخذنا كل ما كنا نتمناه فى الدنيا ، ولم يكن عملنا فى الدنيا يجازيه ، ولكن فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤتيه من يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم . ويقولون ساعتها أيضا : الحمد لله الذى جعلنا وألهمنا الاستجابة لرسل ربنا لما جاءتنا ، ففزنا بذلك النعيم . وتحييهم الملائكة : ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ
رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

أهل الجنة فى الجنة قد كشف عن عالمهم الحجاب ، فشاهدوا أهل النار فى عرصاتها ، فقالوا لهم : إننا فى نعيم مقيم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل أنتم فيما وعدتم به من الحق فى عذاب مقيم ؟ فقالوا ـ أى أصحاب النار ـ مجيبين على سؤال أهل الجنة : نعم قد وجدنا ما لم نصدقه فى الدنيا . وجدنا نارًا وعذابًا مقيما . فأذن مؤذن بينهم يعلن فى أذانه : أن لعنة الله على الكافرين بما ظلموا .

هذه اللعنة على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة لكى لا يتبعها أحد . وهؤلاء هم الكافرون بلقاء الله ، وبالآخرة ،

وبالبعث . جاحدون لكل ما أنزل الله على رسله بالحق .

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

هذا الحجاب الذى ضربه الله بين النار والجنة هو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذى ذكر فى موضع آخر من القرآن **﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾** (١) **﴿وعلى الأعراف رجال﴾** أى على أعراف السور (وهى أعلى شىء فيه) .

و يقول ابن كثير : «واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم » (٢) .

أما قوله تعالى : **﴿ يعرفون كلا بسيماهم ﴾** أى يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه .

۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

إن أصحاب الأعراف ينظرون إلى أهل النار ويعرفونهم بسيماهم ـ أى بسواد وجوههم ـ وسرعان ما يتعوذون بالله أن يجعلهم معهم ، ويرفعون أكفهم إلى الله قائلين : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

هذا تقريع أهل الأعراف لرجال من أئمة المشركين وقادتهم ، يعرفهم أهل الأعراف بسيماهم ، ويقولون لهم **﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾** ـ أى كثرتكم ـ فلا تنفعكم هذه الكثرة ولا جموعكم التى كانت فى الدنيا من عذاب الله ، بل تذوقون اليوم ما تذوقون من أشد أنواع النكال والعذاب . ثم يقولون لهم أيضا **﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم ﴾** إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء فى الدنيا أنه لا ينالهم الله فى الآخرة برحمة .

---

(١) الحديد : ١٣ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢١٦ .

وفى هذا درس عظيم لمن يستهزئ بعباده ، ويستهزئ بالمؤمنين الضعفاء الفقراء ، وينظر إليهم نظرة حقد واستعلاء وتكبر . فعسى أن يكون هذا الفقير المؤمن المتواضع خيرًا عند الله من هذا المتعنت الغنى الكافر .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا
وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ
هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

ونادى أهل النار أهل الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو نعم الله التى أفاضها عليكم . فأُجيبوا من أهل الجنة : أن الله حرمهما على الكافرين . فتستغرقهم النار فى عرصاتهم ، لأنهم كانوا بأمر الله ونهيه كافرين

وفى الآية : دلالة على أن سقى الماء من أعظم القربات . وقد غفر الله ذنوب الذى سقى الكلب . فكيف بمن يسقى واحدًا من المؤمنين ، موحدًا بالله وأنجاه من عطشه؟

وفيها أن أصحاب النار يستذلون يوم القيامة عندما يرفض طلبهم بشربة الماء التى طلبوها من أهل الجنة ، لأن الله حرمها عليهم ، فقد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وغرتهم الحياة الدنيا وزخرفها ، ونسوا أوامر الله فلم ينفذوها ، ولم ينتهوا عما نهوا عنه .

فاليوم يعاملهم الله سبحانه وتعالى معاملتهم له فى الدنيا ، ينساهم كما نسوا لقاءه . وجل قوله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى* قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ (١)

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

---

(١) آيات ١٢٤ : ١٢٦ طه

فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر الله تعالى « عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم ، وبالكتاب الذى جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين . (١) » . لقد أنزل ـ سبحانه وتعالى ـ القرآن العظيم، وفصل فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان فى الدنيا، فى كل عصور الدنيا حتى قيام الساعة.

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أى ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار . «والنظر ههنا بمعنى الانتظار والتوقع ، فإن قيل : كيف يتوقعون وينتظرون مع جحدهم له وإنكارهم ؟ قلنا : لعل فيهم أقوامًا تشككوا وتوقفوا، فلهذا السبب انتظروه . وأيضا إنهم وإن كانوا جاحدين، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محالة » (٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ يوم يأتى تأويله ﴾ يريد يوم القيامة . إن الكفار سيرون يوم القيامة عاقبة أمرهم ، وأنهم خسروا كل شىء بعدم تصديقهم لله لما بعث إليهم الرسل والأنبياء . ويوم القيامة يعلمون أن كل ما جاء من عند الله على أيدى الرسل ، وعلى لسان سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ـ ﷺ ـ كان هو الحق . ويقولون ياليتنا صدقنا برسل ربنا ، إنهم جاءوا بالحق وقد كنا ظالمين . وعندها لا ينفع الندم ، فيبتغون فى هذه الساعات شفعاء يخلصونهم ويشفعون لهم عند ربهم مما هم فيه ، ولات حين مناص ، فإنهم ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بدخولهم النار ، وذهب عنهم ما كانوا يتخذونه من دون الله، فلا يشفعون لهم ساعتها ولا ينصرونهم ، ولا يقدرون أن يشفعوا لهم .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

إن الله العزيز الحكيم خالق السموات والأرض ، وهو الحكيم الخبير، وهو الذى استوى على عرش قدرته وحكمه ، بعد أن سوّى السموات والأرض فى ستة أيام ، ويغشى الليل النهار ـ أى يجعله كالغشاء ـ أى يذهب ظلام الليل بضياء النهار ،

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٢١٩ .

(٢) انظر تفسير الرازى : ١٤ / ٩٥ .

وضياء النهار بظلام الليل ، وكل من الليل والنهار يطلب الآخر طلبًا حثيثا ـ أى سريعًا لا يتأخر عنه ـ كل منهما يطلب الآخر دائما من غير فتور . سبحانه له الخلق والأمر ـ أى له الملك والتصرف فى خلقه كيف يشاء .

ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم ، فاشكروا ما أنعم الله به عليكم ابتداء من الوالدين ، ثم بالصحة والحياة والرزق ، عندما أصبحتم مسئولين عن أنفسكم . فرزقكم القدرة على العمل والكسب . فادعوه مخلصين له الدين ، وثقوا فى أنكم إن أحسنتم فى عبوديتكم له ، أحسن إليكم بالتوفيق والسداد فى الأمر ، واحذروا أن تعتدوا على أمر من أوامره وعلى خلقه بغير حق ، إنه لا يحب المعتدين . وقوله تعالى : ﴿ تضرعًا ﴾ أى تذللاً واستكانة له سبحانه ﴿وخفية﴾ بقنوت قلب ، وخشوع واعتقاد بوحدانيته وربوبيته ، لا جهارا أو نفاقًا . ثم ينهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن الفساد فى الأرض ، والإفساد فيها ، طالبًا أن ندعوه خوفا من عذابه ، وطمعا فى ثوابه . لأن رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ قريبة من المحسنين ، الذين يتبعون أوامره . وجل قوله : ﴿ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون﴾ (١) .

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

سبحانه الله القادر وبقدرته ﴿ يرسل الرياح بشرًا ﴾ أى مبشرة للخلق بأن رحمة الله وفضله ستسوق الرياح بالأرزاق ، فتحمل المطر بإذن الله إلى الأرض الميتة ـ غير المنبتة ـ

---

(١) الأعراف : ١٥٦ .

فتنبت بقدرته ـ بأسباب يجريها على أيدى العباد ، من بذر الحب فى الأرض بعد حرثها وإصلاحها للزراعة وذلك الخير ، اجتباءً وعطاءً على صلاحهم ومعرفتهم ، أو ابتلاء ليكون عطاؤه فى الآخرة لمن شكر وأحسن فى تصريف النعم ويكون عقابه لمن أنكر المعروف الذى ساقه إليه الله ، فبدل أن يشكر النعمة عصى بها الله سبحانه وتعالى . .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب مثلاً أنه كما يحيى هذه الأرض الميتة بالماء والخصب والنماء ، كذلك يحيى الأجساد بعد أن تصبح رميماً ـ ترابًا ـ يوم القيامة .

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إن البلد الطيب ـ أى الأرض الطيبة ـ يخرج نباتها سريعًا حسنا مستساغًا .

إن الله سبحانه وتعالى ينمى زراعة هذه البلدة ، ويزيد صلاح أهلها ، فيجعلهم طيبين . ويصلح لهم أرض قريتهم ومزروعاتها ، فيجرى لها المطر ، ويثمر شجرها ، وينبت أرضها .

أما البلد الذى خبثت جماعته ، وضل أهله عند عبادة الله وتوحيده ، فهؤلاء يصبح ما تسوقه الأرض لهم من خير نقمة لا نعمة .

إن النعمة لا تتم إلا بطاعة الله ، والعبرة ليست بكثرة الكسب من الأرض ، أو بأعمال أخرى ، ولكنها بطاعة الله فى الكسب ، وفى إنفاقه ، وفى إدخاره . وكذلك ـ سبحانه وتعالى ـ يصرف الآيات لقوم يشكرون . فالشكر لله أصل كل نعمة .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة ومايتعلق بذلك ومايتصل به ، وفرغ منه ، تعود بنا السورة فى سياقها إلى القصص عن جماعة الأنبياء ، ابتداءً بنوح ـ عليه السلام ـ ، لأنه أول من أُرسِلَ نبيًّا ورسولا بعد آدم عليه السلام .

فلما أرسل الله نوحًا ـ عليه السلام ـ قال لهم **﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾** فرد عليه الكبراء والسادة من قومه ، الذين يملكون زمام الأمور قائلين : **﴿ إنا لنراك فى ضلالٍ مبين ﴾** ، لأنك تدعونا إلى ترك عبادة هذه الأصنام ، التى وجدنا عليها أباءنا ، فرد عليهم قائلا : **﴿ يا قوم ليس بى ضلالة ﴾** ولست بمختل **﴿ ولكنى رسول من رب العالمين ﴾** هدانى ربى وما أنا بضال .

وقد جئت **﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ﴾** وأقول لكم ما لاتعلمون .

هكذا كان نوح مع قومه الذين كذبوه واتهموه بالضلال ، وأصروا على عدم تصديقه .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قال نوح لقومه : لا تعجبوا من هذا ، فإننى رجل منكم، وإرسال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرجل منكم رسولا إليكم لطف منه ورحمة بكم وإحسان لكم **﴿ لينذركم ولتتقوا ﴾** غضب الله ونقمته **﴿ ولعلكم ترحمون ﴾** . لكنهم تمادوا وكذبوا وخالفوا وعصوا . وما آمن معه منهم إلا قليل .

﴿ فأنجيناه ﴾ أى أنجيناه من الغرق هو والذين اتبعوه وركبوا معه السفينة فقط **﴿ وأغرقنا ﴾** الباقين **﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾** وعاندوه .

﴿ إنهم كانوا قوما عمين ﴾ لا يبصرون الحق ولايهتدون إليه .

وبذلك نقول إن أمة الإسلام من لدن آدم ـ عليه السلام ـ لم تتعدد، ولكنهم أمة واحدة ، عاشت فى حجر نوح بعد السفينة ، فجاء إبراهيم فنادى الشاردين ، فنجى الذين لبّوا وأسلموا من جديد وجوههم لله رب العالمين .

يقول ابن كثير: « وهذه سنة الله فى عباده فى الدنيا والآخرة : أن العاقبة فيها للمتقين، والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجّى نوحًا وأصحابه المؤمنين »(١) .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)
قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبۡتُمۡ
أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ
جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ
ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٦٩) قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدۡ وَقَعَ
عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ
أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ (٧٢)

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا ، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا . وعاد هى إحدى قبائل العرب موطنها بالأحقاف ، ما بين اليمن وحضرموت . وكان لهم أصنام يعبدونها . وكان هود نبى الله من أشرفهم نسبا ، وأعلاهم منزلة . يعرفونه كبيرا فى قومه . إذ عرف بمكارم الأخلاق ، وجليل المحامد والخصال ، أرسله الله إليهم ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، فنادى فيهم ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ تعبدونه ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ قالوا : ﴿ **إنا لنراك فى سفاهة** ﴾ أى فى ضلالة . فأجابهم فى أدب الأنبياء ، وكمال المخبتين ﴿ **ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول** ﴾ مبعوث من رب العالمين ، رب كل الخلق ، الذى بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو الذى يرزقكم الفهم والعقل فأحسنوا النظر والفهم فيما أنتم عليه ، ولما أدعوكم له .

ولكنهم لم يهتدوا ، وزادت مقاومتهم له ـ عليه السلام ـ وقال لهم : ﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ أي أنه يقول لهم : لا تعجبوا أن الله

بعث إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم عذابه ولقاءه ، بل احمدوا الله واشكروه على نعمه الكثيرة : أن جعلكم من ذرية نوح . ﴿ وزادكم فى الخلق بسطة ﴾ - أى زاد طول أجسامكم على نظرائكم من أبناء جنسكم - واذكروا يا قوم نعم الله الكثيرة ومننه عليكم لعلكم تفلحون .

لكنهم أعلنوا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ، فقالوا له ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ ؟ وكأنهم يقرون إقرارًا واضحًا ظاهرًا أن الله وحده لا يكفى لأن نعبده ، وأنه لابد أن يكون مع الله إله آخر ، ولابد أن نعبد ونشرك مع الله آلهة أخرى . فازدادوا إثمًا على إثم وقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

وهنا أنذرهم هود وقال لهم : قد وقع عليكم غضب من ربكم العلى القدير الكبير، وسترون عاقبة الظالمين . والرجس معناه السخط والغضب ، فهأنتم أولاء أيها القوم تبادلوننى الحجة ، وتحاجوننى فى هذه الأصنام ، التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهى أحجار لا تضر ولا تنفع ﴿فانتظروا﴾ عذاب الله ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ تهديد من الله - سبحانه وتعالى - لهؤلاء القوم . لذلك يقول الحق : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ .

والمتتبع لقصة هود فى القرآن الكريم وقومه يرى أن عذابهم كان الريح التى أرسلها الله عليهم ، وهى الريح العقيم ، التى وصفها الله فى القرآن بقوله ﴿ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ (١) .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن
سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ

---

(١) الذاريات : ٤٢ .

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟
إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟
يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

يخبر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه قد أرسل إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ، فقال لهم مثل ما قال نوح وهود : ﴿ اعبدوا الله ﴾ ثم قال : وهذه آيات قد جاءتكم بينة من ربكم، أى حجة من الله عليكم ، لأنهم قد طلبوا منه علامة على أنه رسول من عند الله فطلبوا منه أن تخرج لهم من صخرة صماء يختارونها بأنفسهم ناقة . ظانين أنه لا يقدر على ذلك، ولا يستطيع تنفيذ ذلك . افتراء منهم وكذبا وإفكا وتعجيزا . فما كان من صالح إلا أنه أخذ عليهم المواثيق والعهود والشروط ، إذا جاءهم بهذه الناقة فماذا يكون حالهم ؟ أيؤمنون بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ويعبدونه وحده ؟ فأعطوه على ذلك العهود والمواثيق . وقام صالح ـ عليه السلام ـ ودعا ربه ، وتضرع إليه . فما كان إلا أن تحركت الصخرة ، ثم تمخضت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها . كما طلب القوم أن تكون ناقة عشراء . وخرجت الناقة ومعها ابنها أو وليدها بعد ما وضعته بينهم . وكانوا من بجاحتهم يشربون لبنها ، ويحتلبونها ، ويملئون أوعيتهم . فقال لهم صالح : هذه آية الله ﴿فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء ﴾ . فلما اشتد تكذيبهم، أرادوا أن يقتلوا هذه الناقة ، ليستأثروا بالماء الذى تشرب منه . واتفقوا على قتلها . فعقروا الناقة وقتلوها .

فلما علم بذلك صالح ـ عليه السلام ـ ، جاء إليهم وبكى، ودعا عليهم ﴿فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ أى صرعى لا أرواح فيهم . ولم يفلت منهم أحد صغيرا كان أو كبيرا. ذكرًا كان أو أنثى . ولم يبق منهم غير صالح ومن اتبعه رضوان الله عليهم .

ويقول القرطبى (١): « كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم؛ كما فى قصة ثمود فى سورة هود. . . فأخذتهم الصيحة». ﴿ فأصبحوا فى دارهم ﴾ أى فى بلادهم ﴿جاثمين﴾ أى لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم. وذلك من شدة الهول والعذاب. وأصل الجثوم هذا يكون للأرنب.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

هذه هى القصة الرابعة التى تتكلم عن الأنبياء وفعل أقوامهم معهم.

يقول ابن كثير والقرطبى: إن لوطا هذا هو ابن أخى إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ، واسمه لوط بن هارون بن آزر.

ويذكر أنه آمن مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهاجر معه إلى الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

ولكن سدوم كانت أمة باغية، وهى أول من عزف عن شرع الله فى زواج الرجال والنساء، وقد مارسوا فاحشة اللواط وهو إتيان الذكور دون الإناث. وذلك أمر مخالف لسنة العمران، واستقامة البشرية. قال لهم نبيهم: ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾. الإسراف هنا بمعنى الجهل. لأنه استعمال للشيء فى غير مقصده ومحله.

ولكنهم لم يرتدعوا عن غيهم. بل ماكان جوابهم للوط إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، وقالوا: ﴿ أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ وذلك عهد الظالمين دائما، يقولونه على سبيل السخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش. وقد قدر الله للوط ومن اتبعه النجاة من غم المعصية. غير أن امرأته كانت من ثمود، فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، وكانت تتفق مع هؤلاء القوم الفاعلين للفاحشة بإشارات بينها وبينهم.

---

(١) القرطبى: ٧/ ٢٤٢.

فلما جاءهم العذاب أصابها ما أصابهم ، وبقيت معهم ، وأمطر الله عليهم حجارة مسنونة ، هلاكًا لهم على فعلهم هذا . . ويقول الإمام القرطبى :

«سرى لوط بأهله كما وصف الله ﴿ بقطع من الليل ﴾ ، ثم أمر جبريل ـ عليه السلام ـ فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ، ثم جعل عاليها سافلها ، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل» (١).

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ
بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ
وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ
ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾
قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ

---

(١) تفسير القرطبى : ٧/ ٢٤٧ .

جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

هذه هى القصة الخامسة فى سياق هذه السورة عن الأنبياء فيقول الحق : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ كما قال فى القصص الأربعة السابقة والتقدير « وأرسلنا إلى قوم مدين أخاهم شعيبا » . والأخوة هنا كما يقول الإمام الرازى : «أخوة فى النسب ولم تكن أخوة فى الدين» .

ومدين اسم بلد وقطر، وقيل اسم قبيلة ، وقيل هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ . وشعيب كان واحدًا منهم ، يذكر المفسرون أنه ينتهى بنسبه إلى سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وكان يقال له خطيب الأنبياء لبلاغته ، وقوة بيانه ، وحسن رده على قومه الذين كانوا أهل كفر بالله ، وأهل بخس للمكيال والميزان. ﴿ بينة ﴾ أى بيان ، وهو مجىء شعيب بالرسالة . والواضح أن رسالة شعيب كانت رسالة جامعة . فكما تدعو إلى التوحيد ، تدعو كذلك إلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى .

ونأخذ من ذلك أن رسالة الأنبياء من لدن آدم كانت عقيدة وشريعة . غير أن اكتمال الشريعة كلية كان على يدى خاتم الرسل محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ . ونلحظ جزئية التشريع فى الرسالات السابقة فى قول شعيب ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ . ثم يدعوهم إلى عدم الفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، لأن الأنبياء الذين سبقوه قد أصلحوا ، ثم لما طال الأجل بعد موتهم عادت الناس إلى الإفساد فى الأرض ، فأمرهم سيدنا شعيب ـ عليه السلام ـ ألا يطففوا فى المكيال والميزان ، أى ألا يحتالوا فى النقصان منهما .

وقوم شعيب كانوا مشهورين بهذه العادة الدنيئة .

والظاهر أن قوم شعيب كانوا يتعقبون المؤمنين ، وكانوا يصدون الناس عن الإيمان بالله ، ولا يريدون الإصلاح ، بل يصرون على هذا الصّد عن الإيمان بالله ، وعما جاء به شعيب ـ عليه السلام ـ من الخير والتوحيد .

إذْ يقول الحق لهم : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ حيث إنهم كانوا يوعدون من آمن بالله ورسوله بالعذاب والحرب بكل صراط ـ أى بكل طريق ـ . وقد كشف الله ـ سبحانه

وتعالى ـ على لسان سيدنا شعيب أنهم يودون أن يكون الطريق إلى الله المؤدى إلى طاعته طريقًا أعوج مائلاً ، فيقول تعالى لهم : لا تفعلوا ذلك أيها القوم ، خصوصًا أنكم كنتم مستضعفين فى الأرض ، لقلة عددكم فكثركم الله ، وزاد من أعدادكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ، وانظروا إلى حال الأمم السابقة عليكم الذين كانوا يفعلون فعلكم ، كيف كانت عاقبتهم ؟

ثم دعاهم إلى الالتجاء إلى الله وحكمه عندما قال لهم : إن كنتم قد اختلفتم علىّ ، فهناك طائفة منكم آمنت بما أرسلت به ، وطائفة أخرى لم تؤمن ، فاصبروا ـ أى انتظروا ـ حتى يفصل الله بيننا وبين قومنا وهو خير الحاكمين ، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

فما كان جواب المستكبرين عليه من قومه ، وزعماء الشرك ، ورءوس الضلال والكفر إلا أن قالوا : ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا** ﴾ أى من أرضنا التى نسكنها ، إن لم تعودوا فى ملتنا ـ أى فى ديننا ـ وما نحن عليه من اعتقاد . فقال شعيب لهم ﴿ **أولو كنا كارهين** ﴾ لهذا الاتباع ، وكارهين للدخول معكم فى ملتكم ، أتجبروننا عليه؟ إننا إن فعلنا ذلك فإنما نفترى على الله ، نشرك به ، ونجعل له أندادًا ، ونكذب عليه . كل ذلك إن عدنا فى ملتكم بعد أن وهبنا الله أعظم منحة فى البشرية ، وهى الالتجاء إليه ، والعبودية له وحده . لا يحق لنا أن نعود فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . ﴿ **وسع ربنا كل شىء علمًا** ﴾ .

فاحكم يا رب بيننا وبين هؤلاء القوم ، واجعل النصر لنا عليهم . فأنت خير الحاكمن الفاتحين العادلين . وهذا الدعاء هو عين من عيون الحق . ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ أى خير الحاكمين ، فإنه العادل الذى لايجور أبدًا . لكن القوم أصروا على كفرهم وقالوا لبقية قومهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذن لخاسرون** ﴾ وكذلك جثم الشيطان عليهم بظلمات كثيفة . فأخذتهم رجفة شديدة ، وأهلكهم الله برياح عاصفة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين على هيئة هياكل صماء ، عبرة لمن يأتى بعدهم . وكذلك يفعل الله بالظالمين .

وأصبحوا ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ أى كأن لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ، لما أصابتهم النقم والمصائب .

وتولى عنهم شعيب ـ أى تركهم ومعه جماعة المؤمنين ـ هو يقول : يا قوم ما لى ذنب

﴿لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم﴾ ، ولذلك فإنى غير آسف عليكم .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ
يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾

إن البأساء هى ما يصيب القوم من أمراض وأسقام . أما الضراء فهى ما يصيب القوم من فقر وعوز .

وما يفعل الله ذلك إلا اختبارًا منه سبحانه وتعالى لهذه الأمم التى يُرسل إليها الرسل . لعلهم يتضرعون ويخشعون ويبتهلون ولا ينسون الله .

ولما عرّفنا الله تعالى أحوال هؤلاء الأنبياء ، وأحوال ما جرى على أممهم ، كان من الجائز أن يظن أنه تعالى ما أنزل عذاب الاستئصال ـ أى الخزى والدمار والهلكة ـ إلا فى زمن هؤلاء الأنبياء فقط .

فبين ـ فى هذه الآية ـ أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم ، وبين العلة التى بها يفعل ذلك ﴿ لعلهم يضرعون ﴾⁽¹⁾. والتضرع هو الخضوع والانقياد لله ، سبحانه وتعالى.

ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ
وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ ، أى حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض إلى صحة ، ومن عسر إلى يسر، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك ، ﴿حتى عفوا ﴾ أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم⁽²⁾ ومع هذا لم يزدهم كل ذلك إلا طغيانا وكفرا ، ولم ينيبوا إلى الله سبحانه ويشكروه شأن من يؤمن بالله ، عز وجل .

فكان رد المولى سبحانه وتعالى عليهم أن أخذهم بالعقوبة بغتة على عدم استعداد منهم .

وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾

---

(١) تفسير الرازى : ١٤ / ١٨٣ . (٢) انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٣ .

ولو أن الخلق من أهل القرى والبلدان آمنوا بالله ، وأرجعوا كل فعل إليه ، وعرفوا أنه الخالق والرازق والمنعم والمتفضل ، وعبدوه وفق هذه المعرفة به سبحانه ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، أى لجعلنا أرزاقهم واسعة عريضة غير محدودة . فيصبحون فى نعمة من الله وفضل . ولكن كما كذبوا رسل الله ، وكفروا بالله أخذناهم بما كانوا يكسبون ، من الإثم ، وتكذيب الرسل ، ومعصية الله ، سبحانه وتعالى .

ثم قال تعالى مخوفا ومحذراً من مخالفة أوامره :

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

وأهل القرى ، أى القرى الكافرة . وبأسنا ، أى عذابنا . وبياتًا . أى ليلاً . . أوأمن الناس أن يأتيهم بأس الله وشدته وعذابه وهم فى قراهم نائمون ، أو لاهون فى غرورهم وانصرافهم عن أمر الله ورسله ؟!

أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

أى أوأمن أهل القرى أن يأتيهم العذاب بغتة فى وقت الضحى حال شغلهم ولهوهم عن الله ؟إن الله قادر أن يهلكهم فى ذلك الوقت أيضًا ، بل وفى كل وقت وحين .

أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

ومكر الله فى الآية ، أى بأسه وعذابه ونقمته وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ، ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن »(١).

إنهم إن كانوا قد أمنوا مكر الله فهم خاسرون ؛ لأن المؤمن لا ينسى الله أبدًا ، ولا ينسى نقمه وعذابه ، وأنه فى كل الحالات مبتلى .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

إننا لو نشاء . . ومشيئتنا هى الغالبة . . لأصبناهم بذنوبهم ، وأهلكناهم بكفرهم ، ونطبع على قلوبهم بالكفر والهلاك فى عرصات جهنم ، فيدخلون النار لا

---

(١) تفسيرابن كثير : ٢ / ٢٣٤ .

يسمعون إلا حثيثها ، ولا يشهدون إلا دخانها وظلمتها . إنهم كانوا كافرين أفلم يهتدوا إلى معرفة ذلك ؟!

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

لما قص الحق على نبيه محمد ﷺ تلك القصص تسلية له، وذكر أنه تعالى قد قدم لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله وتسلياته عليهم. من أنبائها أي من أخبار أهلها حينما ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ ، أي الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به.

بين سبحانه أنهم ما كانوا ليؤمنوا ـ بعد هلاكهم ـ لو أنه ـ عز وجل ـ أحياهم ، وذلك كفرا منهم وعنادا. هذه هي أخبارهم يا محمد وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أي مثل طبعه تعالى على قلوب هؤلاء المذكورين يطبع على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ (١) .

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول ابن كثير « أي ما وجدنا لأكثر الأمم الماضية من عهد ، ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة والامتثال والعهد الذي أخذ عليهم في الأصلاب ، أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله إلها غيره بلا دليل ولا حجة » (٢) .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

يذكر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه أرسل موسى ـ عليه السلام ـ بآيات من ربه ، ورغم كل ذلك ما كان من فرعون وقومه إلا أن كذبوا بالآيات الواضحة الظاهرة؛ وبدل أن يسلموا لموسى ويؤمنوا كفروا بالله ، وحاربوا موسى ، فنكل الله بهم ، ونجى موسى ومن ومعه .

---

(١) انظر تفسير القرطبي : ٧/ ٢٥٥ . (٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٥ .

سُورَةُ الأَعْرَافِ

يقول الرازى : « اعلم أن هذه هى القصة السادسة من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة . وذكر فى هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر فى سائر القصص ، لأن معجزات موسى كانت أقوى من سائر معجزات الأنبياء ، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام »⁽¹⁾ .

وقوله تعالى ﴿ فظلموا بها ﴾ أى كفروا بها ولم يصدقوا .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾
قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ
فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾
وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ
نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

هذه مناظرة رائعة أوردها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بين موسى وفرعون ، مليئة بالحجج والبراهين الحسية والمعنوية ، التى تدحض حجج فرعون وسحرته .

إذ قال موسى لفرعون : ﴿ إنى رسول من رب العالمين ﴾ ورب العالمين هورب كل شىء ومليكه ، لا يقول إلا الحق ، وأنا رسول من عند هذا الحق . فأنا لا أقول إلا الحق . لأن رسول الله دائما لا يقول إلا الحق . ﴿ حقيق علىَّ ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ .

وإنى قد جئتكم ببية ـ أى بحجج قاطعة ـ وهبنى الله إياها دليلا على صدقى فيما جئتكم به ، وأطلق معى بنى إسرائيل وخلّهم ليتخلصوا من قهرك وعذابك وطغيانك ،

---

(١) انظر الرازى : ١٤ / ١٨٩ .

ليتوبوا إلى ربهم ، ويرجعوا إلى عبادته وحده ، فإنهم من سلالة نبى كريم هو إسرائيل ، وهو : «يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن » . فرفض فرعون طلبه وقال له : لست بمصدق لك ، وسوف لا أعطيك بنى إسرائيل ، وإن كانت معك حجج أو بينات أظهرها لنا ، وأرنا إياها إن كنت صادقًا فيما تزعم وتدعى . فألقى موسى عصاه آية ، وإذا بالعصا ﴿ **ثعبان مبين** ﴾ أى عظيم وواضح . ثم نزع موسى يده من جيبه ﴿**فإذا هى بيضاء للناظرين** ﴾ شديدة البياض شديدة النور . يذكر القرطبى أن ابن عباس قال : كان ليده نور ساطع يضىء ما بين السماء والأرض .

وقيل كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تلوح فإذا ردها عادت إلى مثل سائر بدنه(١) .

وهذا هو معنى قوله فى آية أخرى ﴿ **بيضاء من غير سوء** ﴾ (٢)أى من غير مرض أو برص .

﴿ **قال الملأ من قوم فرعون** ﴾ والملأ : هم الجمهور والسادة وعلية القوم. قالوا : ﴿**إن هذا**﴾ سحر وإن موسى ﴿ **لساحر عليم** ﴾ بالسحر ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم**﴾ بسحره .

فقال فرعون ردا عليهم ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾؟ أى أشيروا علىّ .

﴿ **قالوا أرجه** ﴾ أى أخره أو احبسه ، وابعث فى كل الأقاليم و ﴿ **المدائن** ﴾ التى هى كلها تحت ملكك وتصرفك ابعثهم ﴿ **حاشرين** ﴾ أى من يحشرون لك السحرة من جميع البلاد ويجمعونهم . وقد كان السحر فى زمن فرعون غالبًا وكثيرًا .

وأقنعوا الجمهور والعامة أن موسى فعلا ساحر لا ينفع معه إلا السحر المبين . وجمعوا كبار السحرة المشهورين فى السحر من جميع أطراف البلاد ، وحضروا بين يدى فرعون .

وقالوا له : ﴿ **إن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين** ﴾ فأجابهم فرعون بقوله: نعم، وليس الأجر فقط ،ولكن ستكونون من المقربين إلىّ والمحظوظين برضاى ،وستغرقكم نعمى وعطاياى . وبعد ذلك تبدأ حلبة الصراع وتبدأ الجولة بين الحق والباطل فى تلك الآيات الخالدة :

---

(١) انظر تفسير القرطبى : ٧/ ٢٥٧ .

(٢) طه : ٢٢ .

سُورَةُ الأَعْرَافِ

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ
أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام ، حين تقدموا أمام الجمع الكبير من الناس بحضور فرعون وقالوا لموسى : يا موسى إما أن تبدأ بسحرك وإما أن نبدأ نحن . فقال لهم موسى : ألقوا أنتم ﴿ فلما ألقوا ﴾ ما بأيديهم من سحر ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ «أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال » (١)، أدهش الجميع حتى ظنوا أنهم قد انتصروا على موسى ، أو كادوا ينتصرون .

وأوحى الله إلى موسى أن يلقى عصاه . فألقى موسى عصاه فإذا بها حية، أى ثعبان، تسعى ، وتلقف ـ أى تبتلع ـ كل ماصنع السحرة .

وكان لذلك وقع كبير سرى فى نفوس السحرة ، وعلموا بأن هذه آية من الله وليست من صنع موسى . لأنهم سحرة ماهرون يعرفون السحر فلا يمكن أن يكون ما فعله موسى سحرا أبدا . فلابد أن يكون موسى نبيا موحى إليه من عند الله رب العالمين الذى بعثه رسولاً نبيًا أمينا على الحق .

وتغلب الحق على الباطل ، وانتصر موسى وسجد السحرة كلهم لله رب العالمين ، و﴿قالوا آمنا﴾ برب موسى وهارون رب العالمين وكفروا بفرعون ، وضربوا بزينته وملكه وطغيانه عرض الحائط .

وهنا وفى ثورة عارمة وطغيان بارز :

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٧ .

مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون السحرة عندما آمنوا . أنكر فرعون على السحرة الذين جمعهم من كل المدائن والأطراف ، أنهم سجدوا لله رب العالمين ، وآمنوا بموسى وبسحره ، ورماهم بالخداع والمكر والخيانة ، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا ليخرجوا أهل هذه البلاد منها . ليستولوا على مصر. وهددهم قائلا : ﴿فسوف تعلمون﴾ ما أنا فاعل بكم .

ثم فصل تهديده ، زيادة فى تخويفهم ، قائلا : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أى سوف أقطع يدكم اليمنى ورجلكم اليسرى ، أو يدكم اليسرى ورجلكم اليمنى . ﴿ ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ على جذوع النخل . ويقول ابن كثير على لسان ابن عباس : وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف هو فرعون . لكن هؤلاء القوم كانوا مصممين على رجوعهم إلى الله ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أى إننا قد تحققنا من رجوعنا إليه ، وإنك مهما فعلت بنا من عذاب فهو أهون علينا من عذاب يوم القيامة .

ثم رفعوا أيديهم إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يلهمهم الصبر على دينه ، والثبات على الوحدانية والعقيدة الراسخة . لذلك يقول الحق فى موضع آخر على لسان هؤلاء القوم : **﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرما فإن لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا ﴾** (١) .

يقول ابن كثير : كانوا فى أول النهار سحرة ، فصاروا فى آخره شهداء بررة (٢) .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ

---

(١) طه : ٧٢ ـ ٧٥ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٨ .

مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ
مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه ، وما أضمروه لموسى وقومه من الأذى والبغضاء . ففى تحريض وتزلف ونفاق وتزيين للباطل ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ له أتترك موسى ومن آمن به ليفسدوا فى الأرض . . ؟

فأجابهم فرعون بأنه سيقتل قوم موسى ويذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انتقامًا منهم ، وقهرًا لهم ، وسنكون دائمًا فوقهم قاهرين لهم .

ولكن موسى اتجه إلى قومه وقال لهم : ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ واعلموا أن ﴿الأرض لله﴾ ليس يملكها أحد ، والله هو العدل﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ والأمر فى ذلك له وحده ، وقد وعد أن يورثها لعباده الصالحين ﴿ والعاقبة ﴾ دائمًا بالنصر ﴿للمتقين ﴾ من عباده . وقال قوم موسى له لقد ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ .

قال موسى ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ ،وهذا تحضيض لهم على أن يعزموا على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

لقد أخذ الله آل فرعون بشدة ، وابتلاهم بسنى القحط بسبب قلة الزروع ونقص فى ثمرات الأرض ، ونقص فى المال . لعلهم يعتبرون ، ويتذكرون نعم الله التى لم يشكروها . ولكنهم كانوا لا يعتبرون . فإذا أحسن الله إليهم بالحسنات ﴿قالوا لنا هذه﴾ ولم يشكروا الله .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ يقولوا يا موسى لقد أوذينا بك وبمن معك ،تشاؤما به ، وتطيرا يحصيه المولى تعالى عليهم ؛ ولكنهم بجهلهم لا يعلمون الحق .

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

وفى صلف وعتو وتمرد وعناد للحق وإصرار على الباطل ، قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ لن نتبعك ، ولن نؤمن بك مهما فعلت ووعظت وذكرت .

فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم عذابه بأن ابتلاهم بالطوفان ليغرقهم ، والجراد يعذبهم بهجومه عليهم ، وبالقمل والضفادع .

وبعد ذلك أرسل الله عليهم الدم ، فسال النيل عليهم دما .

تلك آيات مفصلات أرسلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأوردها لبنى اليهود الذين خالفوا موسى ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين .

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن
كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا
مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا
ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ
وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

الرجز هنا هو اسم من أسماء العذاب وهؤلاء القوم لما عتوا وتمردوا على موسى وعلى ربه ، رغم ما جاءهم من ابتلاءات بالآيات التى ذكرت واحدة بعد الأخرى ، انتقم المولى ـ عز وجل ـ منهم بإغراقهم فى اليم ، وهو البحر ، بسبب تكذيبهم بآيات الله ، ثم مكَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأورث قوم موسى الذين كانوا مستضعفين فى الأرض ، وهم بنو إسرائيل ، أورثهم مشارق الأرض ومغاربها .

وحقا قوله تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (١) .

وهكذا يفعل الله دائمًا بالظالمين مثل فعله بفرعون وقومه !

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ
يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ
مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ
فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

ونجّى الله موسى ومن معه من بنى إسرائيل من الغرق فى البحر ، فلما خرجوا من البحر وساروا فى الأرض اليابسة ، وجدوا قوما يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى : اجعل لنا أصناما نعبدها مثلهم . فقال لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ . إن الذين تريدون مثله باطل ، وهؤلاء القوم باطل ما هم فيه من عمل ، وباطل كل ما يعملون

وهكذا تنتكس بنو إسرائيل دائما ، وتهبط من علياء ما يدعوهم إليه موسى بطلبهم . ثم يذكرهم الله تعالى بنعمه التى أسبغها عليهم . . من إنقاذهم من ذل فرعون وأسره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، والحال التى وصلوا إليها من السعادة والعزة وأنه فضلهم على العالمين . قائلا :

وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾

أى كيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غير الله ؟!!

۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ
لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ
ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

---

(١) القصص : ٥ ، ٦ .

قد وعد الله موسى بالمناجاة واللقاء على جبل الطور . فصام موسى ثلاثين يومًا شكرًا لله . فكلفه الله أن يتمها أربعين يوما .

ثم استخلف موسى على قومه أخاه هارون ، وذهب لميقات ربه ـ أى لموعد ربه المضروب ـ وقال لأخيه : اخلفنى فى قومى ، وأصلح بينهم ، ولا تتبع طريق المفسدين الضالين منهم .

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى
وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ
إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

وذهب موسى طاعة لربه إلى الميقات المحدد ، وإلى المكان الموعود بلقاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وكلمه الله العزيز الحكيم ، ولما سمع موسى ربه سأله أن ينظر إليه، فقال : يا ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ .

فأجابه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله : ﴿لن ترانى ولكن ﴾ يا موسى ﴿انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ﴾ وظل على حاله ﴿ فسوف ترانى ﴾ . وتجلى نور الله على الجبل، ولم يطق الجبل جلال التجلى ، فصار دكا ، أى ترابا . أما موسى فخر صعقًا أى أغمى عليه ، وتاه عن نفسه ، ولكن الله برحمته أفاقه . فقال موسى : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ بأنه لايراك أحد ، بل وبقدرتك وعفوك .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن
مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

اصطفيتك ـ أى اخترتك على خلقى من الناس ، وجعلتك رسولاً لى إليهم تبلغهم رسالتى وكلامى ـ فخذ ما آمنتك عليه من الحق ، وبلغهم إياه ، وكن من عبادى الشاكرين ، أى على ذلك ، ولاتطلب مالا طاقة لك به .

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

كتب الله تعالى لموسى فى هذه الألواح مواعظ وأحكاما، مفصلة مبينة للحلال والحرام.

فخذها يا موسى بعزم وقوة ، وإرادة على الطاعة، وأمر أهلك وقومك أن يعملوا بالأوامر، ويتركوا المعاصى ، وإن خالفتم: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أى سأعاقبكم.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

يخبر تعالى أنه سيصرف الذين يتكبرون على أمر الله وعلى رسل الله عن الاعتبار بآياته، وفهم الحجج والأدلة الدالة على عظمته تعالى وشريعته وأحكامه . أى كما استكبروا بغير حق ، أذلهم الله بالجهل. وهم الذين يتكبرون فى الأرض بغير حق ، وكلما رأوا آية لله ، دالة على وجوده أنكروها .

وعندما يدعون للحق يعرضون عنه ، ويتخذون سبيلا وطريقًا غير طريقه ، وذلك لأنهم كذبوا بآيات الله ، وأعرضوا عنها ، وكانوا من الغافلين عن أمر الله ونهيه . وهؤلاء ضاعت منهم الدنيا . وهم فى الآخرة أيضًا خاسرون . لأنهم ظنوا أن متاع الدنيا هو الحياة . فخسروا دنياهم وآخرتهم .

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ
لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل الذى اتخذه السامرى لهم من حلى القبط ، إذ لما كان موسى فى لقاء ربه وصى أخاه هارون بالقيام بأمر الأمة حتى يعود . ولكنَّ بنى إسرائيل اتخذوا عجلاً جسدًا من ذهب قبط مصر

وعبدوه. لذلك ينكر الله عليهم جهلهم وضلالهم، وذهولهم عن خالق السموات والأرض، بقوله: ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا﴾ ولا يرشدهم إلى خير ؟! ﴿ ولما سقط فى أيديهم﴾ أى ندموا على مافعلوا، لجئوا إلى الله عز وجل، بعد عودة موسى من الميقات اعترافا منهم بذنبهم، وإقرارا بخطئهم الفادح، وشركهم الصريح. ولذلك يقول الحق:

وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ
لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

تعبيرا عن ندمهم وحسرتهم.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ
رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ
ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

ولما رجع موسى من مناجاة ربه تعالى إلى قومه فى غضب شديد عليهم، قال لهم: بئس ما فعلتم من بعدى فى عبادة العجل. وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه. قال هارون: يا ابن أمى: إن القوم من بعدك عصونى، ولم يطيعوا أمرى، فلا تعاقبنى بفعلهم وتشمتهم بى. فقال موسى: رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا رحمتك وأنت خير الراحمين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

يقرر تعالى غضبه على الذين اتخذوا العجل، ويسجل عليهم الذل فى الدينا والآخرة، وذلك جزاء المفترين والمفسدين فى الأرض. وأما الذين تابوا وعادوا إلى الله

تائبين نادمين ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ من بعد ذلك غفور رحيم .

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

وعندما ذهب الغضب عن موسى وسكن ، أخذ الألواح التى ألقاها وقد نسخت فيها التوراة ، وهى كتاب الله إلى بنى إسرائيل ، وفيها الهدى والحق الذى تسير به أمةبنى إسرائيل ، إنْ أطاعوا موسى واهتدوا بهداه .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرر هنا أنها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، أى يخافون .

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ
شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ
بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾
۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ
أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

كان الله تعالى قد أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا ، وطاعة من موسى لربه اختارهم ، وذهب لمناجاة ربه وهم ينتظرون رجوعه إليهم . فلما عاد إليهم ، قالوا له أرنا الله بغير حائل بيننا وبينه . فأخذتهم الرجفة وكأنهم قد ماتوا . فاستعطف موسى ربه وقال له : ياربى لو كنت أهلكتهم من قبل أن آتيك بهم كان ذلك أرحم بى ، وأنت أعرف سبحانك بصلف بنى إسرائيل ، أوَ تهلكنا يا رب ﴿بما فعل السفهاء منا﴾ ؟ إنك أنت الفعال لما تريد . وقد ابتليتهم بما فعلوا ، ولكنهم سيدّعون أننى الذى أمتهم ، وأنت سبحانك أعرف بهم منى ، فلا تؤاخذنى بفعل السفهاء منا .

إنها ﴿فتنتك يا رب﴾ ، ﴿ تضل بها من تشاء وتهدى﴾ بها ﴿من تشاء﴾ ، وأنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . ﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة﴾

إنا تبنا ورجعنا وأنبنا إليك . ثم يقول تعالى : إننى أفعل ما أشاء ، وأحكم بما أشاء ، ولى التصرف والحكمة والعدل فى كل ذلك ، ورحمتى قد عمَّت وشملت كلَّ شىء .

هذه الرحمة سيكتبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للذين يتقون ويخافون مقامه ، و يفعلون الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بكل آية ينزلها الحق .

وهذه صفات أمة محمد ﷺ ، وأيضًا من صفات هؤلاء المتقين الذين تشملهم رحمة الله وعنايته :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ
ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ
أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

يقول ابن كثير «وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء . بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم »(١) .

وهذا النبى موجود وصفه عندهم فى التوراة والإنجيل ويعرفه علماؤهم جيدا .

وهو يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم كل طيب ، ويحرم عليهم كل خبيث .

وكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع فى البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين .

وهناك أشياء مستحدثة تعد من باب الخبائث . كجميع أنواع المخدرات والدخان مثل السجائر وغيرها من سائر الأنواع الحديثة . فهى بهذا النص حرام حرام حرام، لقوله ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾وقد أثبت العلماء المحدثون الذين، هم أدرى بمدى خبث هذه الأشياء ، أن هذه الأنواع كلها بما فيها الدخان والسجائر حرام ، لأنها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥١ .

خبيثة ، تضر بالجسم . والرسول ـ ﷺ ـ يقول : « لا ضرر ولا ضرار » (١) .

كما يرفع عنهم الأغلال والقيود التى كانت مفروضة عليهم .

وذلك لأن الأمم التى سبقت عصر محمد ـ ﷺ ـ قد ضُيِّق عليها ، فوسع الله على أمة محمد ـ ﷺ ـ أمورها .

يقول ابن كثير « ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : **﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾** » (٢) .

وهكذا يخبر الحق سبحانه وتعالى عن الذين يؤمنون بمحمد ـ ﷺ ـ ويساندونه ويعزرونه ـ أى يعظمونه ويوقرونه ، **﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾** أى القرآن والوحى ، أنهم هم المفلحون فى الدنيا والآخرة .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨

« هذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى » (٣) .

أما الملائكة فقد علموا بذلك وصدقوه . فقل لهم يا محمد : إن الله هو الذى أرسلنى إليكم جميعا ، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة . والله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض ، واعلموا أنه لا إله إلا هو فاعبدوه ، وأنه يحيى ويميت ، ويبعث بعد الموت للحساب ، فآمنوا بالله ورسوله محمد ـ ﷺ ـ النبى الأمى ـ الذى يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ، فاتبعوه ، أى اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ، تكونوا على الحق والصراط المستقيم ، ولعلكم بذلك تهتدون إلى ما يحب الله ، فتكسبون رضاه .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب الأحكام ، باب من بنى فى حقه ما يضر بجاره عن عبادة بن الصامت ، وفى الزوائد : فى حديث عبادة هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع لأن اسحق بن الوليد ـ قال الترمذى وابن عدى ـ لم يدرك عبادة بن الصامت ، و ـ قال البخارى ـ لم يلق عبادة . كما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة من طرق أخرى عن ابن عباس ، ورمز السيوطى فى الجامع الصغير له بالصحيح .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٥٤ .

وقد ورد فى حديث رسول الله ـ ﷺ ـ ما يثبت أنه رسول من رب العالمين إلى كل الناس «قال ـ ﷺ ـ أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة »(١).

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »(٢).

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقرر تعالى أن من اليهود جماعة كانوا يدعون للحق ، ويهتدون به قبل بعثة محمد ـ ﷺ ـ ، فلما جاء محمد آمنوا به ، فأصبحوا من المسلمين . هذه الطائفة تشير إليهم آية أخرى من كتاب الله ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ﴾(٣).

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ
أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ
كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

قسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنى إسرائيل إلى اثنتى عشرة جماعة ، على عدد أبناء يعقوب ، لأنهم كانوا اثنى عشر ، وأصبح لكل جماعة من الاثنتى عشرة أسباط ـ أى

---

(١) رواه : البخارى فى كتاب التيمم باب . قول الله تعالى «فلم يجدوا ماءً . . »

(٢) كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا . . والخ . (٣) آل عمران : ١١٣ .

جماعات ـ كبيرهم أمير عليهم ـ أى أصبحوا اثنتى عشرة أمة . لها رئيس ومعاونون له، يقومون على أمر معايشهم ، وقطعناهم فى الآية ـ أى صيرناهم وجعلناهم قطعًا ، أى فرقا، وقد قالت هذه الجماعات الاثنتا عشرة لموسى : نريد ماءً عذبًا نستقى منه ، ونسقى منه أنعامنا . فأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى قائلاً : اضرب يا موسى ذلك الحجر . فضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد هذه الجماعات .

وجعل لكل عين من الاثنتى عشرة علامة لأصحابها . وأتم الله عليهم النعمة ، فظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وقال لهم : كلوا من ذلك الرزق الطيب.

وبدل أن يشكروا لله نعمته ظلموا أنفسهم بمعصيتهم الله .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟
حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

بعد أن أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هؤلاء الأسباط بهذه النعم السالفة، يخبر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ: أنهم لم يشكروا هذه النعمة ، فيذكر أنه إذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية، وكلوا من خيراتها حيث شئتم ، ﴿قولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم﴾ خطاياكم وسنزيد المحسنين منكم، بدل فريق منهم ، وهم ظالمون لأنفسهم ، هذه الأقوال ، وفعلوا بعكسها ، فأرسل الله عليهم رجزًا من السماء ـ أى عذابًا أليمًا ـ بسبب ظلمهم هذا . وقد تقدم تفسير هذه الآيات فى سورة البقرة وإن اختلف موضوع السياق.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ
ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى واسألهم عن القرية ـ أى عن أهل القرية ـ لأنها كانت مستقرا لهم ، كقوله تعالى : ﴿ **واسأل القرية التى كنا فيها** ﴾ ـ أى اسأل أهل القرية ـ والمعنى : أى يا محمد اسأل اليهود الذين هم جيران لك عن أخبار المتقدمين من أسلافهم . والسؤال هنا للتقرير والتوبيخ ، اسألهم عن أمر أهل القرية التى كانت بقرب البحر ، وحرم الله عليهم الصيد يوم السبت ، ولكنهم احتالوا وصنعوا آبارا فى البحر تحت الماء وحبسوا فيها الأسماك الجمعة ، فلما جاء السبت لم توجد أسماك فى البحر إلا القليل ، ولما انتهى يوم السبت وجاء يوم الأحد أخذوا الأسماك التى حبسوها فى الأحواض ، احتيالاً على أمر الله ، ولكن الله رقيب عتيد ، ففاجأتهم نقمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على فعلهم هذا ، واحتيالهم فى مخالفة أوامر الله . وقوله تعالى ﴿ **إذ يعدون فى السبت** ﴾ معناه يعدون فى تعظيم هذا اليوم ، أى يصيدون الحيتان فى يوم السبت وقد نهوا عن ذلك . أما قوله تعالى : ﴿ **شرعًا** ﴾ أى ظاهرة على الماء كثيرة ، ويقال حيتان شرع أى رافعة رءوسها . يقول الإمام الرازى « وذلك يدل على أن من أطاع الله تعالى خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة ، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن » (١).

وكانت هناك منهم جماعات صالحة ، تجنبت عملهم ، وحرمت ما حرم الله ، واعتزلتهم وما يفعلون . فوعظوهم ، وسألوهم عن سوء عملهم . فكانوا على حق ، لأن اعتزال المنكر لا يكفى من الصالحين ، فلابد من الجهاد بالكلمة وباليد ، وإن عجز الإنسان عن الجهاد باليد والمال ، اعتزل أهل الباطل . فالصمت وحده لا يكفى . لذلك كانت مسألة الذين اعتزلوا ونصحوا واجبة . وفى تلك الحالة ، يكون الاعتكاف عن أهل الباطل مع المقاطعة ، حتى يكون الإعلان عن أن هذا حق وهذا باطل .. وقد وفينا هذا الموضوع حقه فى سورة البقرة لمن شاء أن يرجع إليه .

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

---

(١) تفسير الرازى : ١٥ / ٣٧ .

لما لم ينته المبطلون عن باطلهم أهلكهم الله، ونجا الذين كانوا صالحين منهم. سواء من اعتزلهم فى صنعهم، وهم أعلى مقامًا وإيمانا، أو من سكت ولم يفعل ولم ينه، كما بينا.

وهكذا دائما، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ مع عباده الذين يعيشون يقظة الطاعة ويجتنبون المعصية .

فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

أى لما تمادى هؤلاء المجرمون فى معصية الله سخط الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم، وطردهم من رحمته ، ونزل بهم من مرتبة البشر إلى حضيض ما خلق ، فجعلهم قردة خاسئين ، أى ذليلين حقيرين مهانين .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

أذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأعلم أن يظل اليهود حتى يوم القيامة يسلط عليهم من يسومونهم سوء العذاب ، أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم ؛ فهم اليوم إن ظنوا أن لهم دولة لكنهم لن يطمئنوا إلى استقرار هذه الدولة ، لأنها لها أصحابًا سلبت منهم ، وهم لن يتركوا حقهم فى أرضهم . فسيظل اليهود فى رعب وقلق ، وستعود الأرض التى اغتصبوها من المسلمين إلى أصحابها ، ويعود اليهود إلى شتاتهم وضياعهم ، وذلك كائن إن شاء الله. إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وخالف شرعه ، وإنه لغفور رحيم، أى لمن تاب إليه وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً لتبقى النفوس بين الخوف والرجاء .

وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

﴿وقطعناهم فى الأرض أمما﴾ أى فرقناهم فى البلاد طوائف وفرقا ، والمراد بهذا المعنى

هو تشتيت أمرهم، وعدم جمع كلمة لهم. ﴿ منهم الصالحون ﴾ المراد بهم المؤمنون بمحمد ـ ﷺ ـ. وقيل المراد بهم القوم الذين كانوا فى زمن موسى ـ عليه السلام ـ. لأنه كان فيهم أمة يهدون بالحق، أى فيهم الصالح وغير ذلك. ومنهم قوم دون ذلك أى أقل من ذلك، وهذه مراتب فى كيفية تفريقهم فى البلاد، وقد اختبرهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بالحسنات وبالسيئات «أى بالرخاء وبالشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء»⁽¹⁾ لعلهم يرجعون.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ
لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

« فخلف من بعد الصالحين منهم ـ الذين تقدم ذكرهم ـ خلفٌ »⁽²⁾ أى: أولاد.

أما قوله تعالى: ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة. وهؤلاء الخلف جاءوا ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى يبيعون الحق بالتافه من الدنيا ودناءتها، ويستغنون بذلك عن نشر الحق وإقامته، واتباع المعروف. وهذا تحقير لأمر الدنيا وما فيها من ملهيات ومغريات لأنها عرض زائل يأكل منها البر والفاجر. فهؤلاء الخلف يأخذون الأدنى من العمل، ويقيمون دائماً مع الباطل، ويقولون فى غطرسة الباطل: سيغفر لنا، ويظلون يحاربون الحق، وينسون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، وقد درسوا هذا الكتاب. ألم يعلموا أن الدار الآخرة آتية، وهى خير للذين يتقون؟ ألم يعلموا أن العقلاء هم الذين ينظرون للعاقبة؟ ولكن اليهود والعياذ بالله لا ينظرون إلا للدنيا، فهى دارهم وستهلكهم بأعمالهم.

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى:

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر

---

(1) تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٦٠. (2) تفسير الرازى: ١٥ / ٤٣.

من أحسن عملاً ﴾ (١) . والذين يمسكون بالكتاب - أي بالتوراة - أي بالعمل بها .

« فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير بفعل ذلك » (٢) .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

و﴿ نتقنا ﴾ معناه رفعنا ، وهذا عذاب الله لهذه الفئة . فكأنه ، أي الجبل ، لارتفاعه بدا كأنه سحابة تظلل فوق اليهود الذين راجعوا موسى بالباطل ، وأصبح الجبل فوق رءوسهم وكأنه سيقع عليهم . فقال لهم ربهم وهم في ذلك الحرج ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أي بجد ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . ولكنهم بعد ما وعدوا بالاستقامة والتوبة نكثوا عهودهم ، وكانوا في ضلالهم القديم .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

بعد ذكر قصة موسى - عليه السلام - وقومه يخبر الحق أنه استخرج ذرية البشر من أصلابهم - شاهدين على أنفسهم أن الله - سبحانه وتعالى - هو ربهم ، وأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له . وقال الملائكة : نحن شهدنا على ابن آدم وعلى بني آدم كلهم حتى لا يقولوا يوم القيامة - بحجة واهية - ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ .

وبذلك يخبرنا الحق - سبحانه وتعالى - أننا قد شهدنا على أنفسنا أن الله واحد لا شريك له ، وهو ربنا ، وشهدت علينا الملائكة ، لكي لا نقول يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو نتذرع بحجة أخرى واهية ونقول : إنما أشركنا لأن آباءنا كانوا مشركين ، فقلدناهم في ذلك الشرك .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

---

(١) الكهف : ٣٠ .

(٢) تفسير القرطبي : ٤ / ٣١٣ .

هو رجل أتاه الله العلم والمعرفة ، ثم أغواه الشيطان عن علمه ومعرفته ، فضل السبيل ، وانكفأ على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، وقد انسلخ ممن أنعم الله عليهم من علم ومعارف ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، فقد استحوذ الشيطان عليه ، فتخلى عن هذه المهمة ، وتناسى هذه المسئولية ، وصار يضل الناس عن دين موسى ، ﴿فكان من الغاوين﴾ أى من الهالكين الحائرين البائرين .

ولعل العلماء يتعظون . فيتوبون عن مجاملة الحكام . إذْ إنه لو استمر فى إخلاصه لله لرفعه تعالى إلى المنازل العالية .

لذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

ولهذا فقد أورد ابن كثير أكثر من رواية فى معجزة هذا الرجل وتقربه إلى الله وكيف انسلخ من رحمة الله (١) .

وقوله : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أى « لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها ، ولكنه مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من أولى البصائر والنهى (٢) » .

فمثل هذا الذى انسلخ من الإيمان ، ومن رحمة الله ، مثل الكلب سواء . فالكلب إن زجرته أو تركته فهو فى الحالتين يلهث ، ويندلع لسانه على صدره ، فصار هذا الرجل مثل هذا الكلب فى ضلاله واستمراره فى هذا الكفر ، وهذا الضلال ، وهذا الانسلاخ ، لأنه لم ينتفع بالدعوة إلى الإيمان وعدم الدعاء ، ولا انتفع بالموعظة ، ولا بترك هذه الموعظة .

وهكذا دائماً حال الكافرين المنافقين الضالين الضعفاء ، الفارغة قلوبهم من الإيمان والهدى . فيجب أن يكون لعلمائنا فى ذلك موعظة ، فيفارقوا مجاملة الحاكمين لأنها مهلكة .

---

(١) لمزيد المعرفة انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٥ . (٢) المرجع السابق .

إذ إن كل من كذب بآيات الله ، أو أعرض عنها ، أو جامل فيها وبها حاكمًا ظالمًا ، فقد ساء مثلا ، وأصبح من الغاوين . فيأيها العلماء لا تبيعوا الآخرة بالدنيا ، وقولوا للحكام الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله : توبوا إلى الله يتوب الله عليكم ، ويدخلكم مدخلاً كريمًا ، ولا تبيعوا آخرتكم بدنياكم ، لذلك يختم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الآية بهذا التذكير المفزع ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ أى قل هذا القصص ، وهذه العبرة لعلماء بنى إسرائيل لعلهم يتفكرون فى رحمة الله وعقابه .

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

حقا فقد ساء مثلاً هذا الرجل ، وأصبح من الغاوين ، وكل من يتبعه فى فعله هذا أو يقلده أو يضل بعد أن هداه الله .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

إن الهدى هدى الله ، فالله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم ، ومن يأب أن يهتدى إلى دعوة الله فى قرآنه وسنة نبيه فقد خسر خسرانًا مبينًا .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

ولقد ذرأنا ـ أى جعلنا من خلقنا خلقًا هم حطب جهنم ـ هيأناهم لها ، وجعلناهم يعملون بعمل أهل النار ، لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ سبق فى علمه عندما أراد أن يخلقهم ما هم عاملون ، فكان هذا عنده فى الكتاب قبل خلقه السموات والأرض .

وقد ورد فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ـ ﷺ ـ . كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء (١).

وفى الصحيحين ثم « يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه

---

(١) كتاب : القدر ، باب : حجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ .

وأجله وعمله وشقى أو سعيد»⁽¹⁾ . فهؤلاء الذين جعلهم الله أهلاً للنار لم ينتفعوا بشىء من الجوارح التى خلقها الله لهم ، التى هى سبب للهداية فهم﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾⁽²⁾.

فهؤلاء لا يهتدون بنبى ، ولا يؤمنون بالبعث والنشور ، ولا يتدبرون القول ، فهم كالأنعام بهائم بشرية ، لا تفرق بين الحلال والحرام ، لا تعقل الدين ولا تصدق فى اتباع الأنبياء ، هم حطب جهنم وإن كانوا ملوكًا أو رؤساء ، فهم الظالمون لأنفسهم ، الكافرون بالله ، عليهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

إن أسماء الله الحسنى هى أجل الأسماء وأعظمها ، عالية فى معانيها ، جليلة فى مقاصدها .

أجملت أجمل معانى الوجود ، وفصلت مقاصد العزيز الحميد ، الله الواحد ، المجيد ، الله العظيم المجيب القادر ، فادعوه بأسمائه . فعلى قدر إيمانكم به ، وتسليمكم له ، تكون الإجابة . وأسماؤه ـ سبحانه هى أجل وأحسن وأعظم الأسماء . من دعاه بها وهو صادق فى عبوديته له استجاب الله له . .

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ـﷺـ أنه قال : « ما أصاب أحدًا قط هَمٌّ ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك . ماض فى حكمك . عدل فى قضائك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه ، وأبدل مكانه فرحا . فقيل : يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها»⁽³⁾.

---

(1) البخارى . . كتاب : بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة . ومسلم . . كتاب القدر ، باب : كيفية الخلق الآدمى . إلخ . (2) البقرة : ١٨ .

(3) رواه أحمد بن حنبل فى مسنده عن عبد الله بن مسعود .

أما قوله تعالى : ﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ أى اتركوا وانصرفوا عن الذين يلحدون ويشركون فى أسمائه . لأنهم كانوا قد اشتقوا كلمة اللات من الله ، والعزى من العزيز ، فهم يشركون فى أسمائه ، وقد خسروا الدنيا ، وسيجزون فى الآخرة بعذاب أليم، ولن يجدوا لهم من النار مخرجا ، وهم الهالكون .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

وممن خلقنا أمة صدقوا فى إيمانهم بالله ، وفى تصديقهم لمحمد ـ ﷺ ـ ، فهم يهدون لدين الله على بصيرة بحسن اتباعهم لسيد الرسل ، وخاتم النبين محمد ـ ﷺ ـ . وهم سواء فى فهمهم وتنفيذهم لأوامر الكتاب ونواهيه ، وللسنة كذلك ، وقد حازوا رضوان الله ومغفرته ، فهم قائمون بالحق قولا وعملا، يقولونه ويدعون إليه ، ولا يكفون عنه ، ﴿ وبه يعدلون﴾ أى يعملون ويقضون. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة »(١).

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

أما الذين كذبوا محمدًا ـ ﷺ ـ ، وحاربوا الحق الذى نزل عليه ، فسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ،أى نفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش والنعيم فى الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء ، وأنهم قد حازوا الدنيا كلها بحذافيرها . وجل قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (٢). لأنهم عمى القلوب وهذا العمى فى القلب قد ضلل الطريق أمامهم ، فأنكروا الحق وحاربوه ، وقاوموا الأنبياء والدعا المذكرين بالحق ، والداعين إلى الصراط المستقيم . وقال الله لرسوله ـ ﷺ ـ : ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ لمن عصانى ، وحاد عن طريق الحق، وحارب العدل والنور

---

(١) رواه : البخارى كتاب الاعتصام ، باب « قول النبى ـ ﷺ ـ : لا تزال طائفة . . إلخ ، ومسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الإيمان باب « نزول عيسى ابن مريم . . . إلخ » . وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) الأنعام : ٤٤ .

والعلم ، فلهم الويل بما كسبت أيديهم وبما كانوا به مفسدين ، ﴿وأملى لهم﴾ أى أطول لهم ماهم فيه ، وأعطيهم وأمهلهم . إن كيدى أقوى وأشد .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

إن محمدا صاحبهم الذى عاش بينهم ، والذى لقبوه بالصادق الأمين ، هو رسول من عند الله . ولما جاءته الرسالة ، ودعاهم لترك عبادة الأصنام ، والتخلص من الباطل ، قالوا عنه إنه مجنون . ولكن الله يدافع عنه ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ أى ظاهر يبين الحق ، ويدعو للتخلص من الباطل ، ويدعو إلى صراط مستقيم .

لذلك ينبههم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لأن يجلسوا مع أنفسهم مثنى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ، ثم أن يتفكروا فى هذا الذى جاءهم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا، فإنهم إن فعلوا ذلك دون تعصب أو عناد ، بان لهم وظهر أنه رسول الله حقا وصدقا .

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿ألم ينظروا ﴾ويفكروا ﴿فى ملكوت السموات والأرض﴾ ؟ إنهم إن فعلوا ذلك ربما يؤمنون بالخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ، المدبر لهذا الكون العظيم . أو لم يروا من يُحمل منهم إلى المقابر كل يوم ؟ وقد أخبرهم محمد بأنهم مسئولون . وبعد هذا البلاغ المبين ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾؟ فبأى تخويف وتحذير وترهيب يؤمنون به بعد ذلك ؟ إنهم حقا لفى ضلال قديم .

مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الهادى . ومن يضلله سبحانه فلا هادى له . بل يذرهم فى طغيانهم يعمهون . سيظلون فى كبر على الحق حتى تنتهى آجالهم . وعندها سيجدون أنفسهم فى طغيانهم يعمهون فى نار حامية ، لا تبقى منهم ولا تذر ، لواحة للبشر ، كلما هلكوا فيها يعودون ، ثم هم فى العذاب مقيمون . وجل قوله تعالى:

﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا﴾(١) .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ
اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

ويسألونك يا محمد عن الساعة كأنك تعلم موعدها ، فقل لهم : إن علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . والذى يبين تجليتها وإظهارها وحده هو الله . أما الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه فهم دائمًا فى اطمئنان لموعدها ، وإن لم يعلموها ، لأنهم يصدقون بها فقط . وقوله تعالى ﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾ أى أن علم موعدها ثقل على أهل السموات والأرض - أى صعب على أهل السموات والأرض - ولا يمكن أن يعلمها إلا الله : ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام﴾ (٢) .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قل لهم يا محمد : إنك لا تملك لنفسك إلا ما قدر الله لك نفعا وضرا ، وأنت بما شاء الله لك راض ومحتسب ذلك عند الله . وقل لهم كذلك : إنك لا تعلم الغيب ، لأن الغيب من شأن الله فلا ملك يعلمه ولا نبى ، فالخير يأتينى بعلم الله وأنا راض به . ﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ . وهذا أمر من الله - سبحانه وتعالى - إلى محمد أن يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر البشرية فى قرآن يتلى أنه نفسه خاتم المرسلين ، وسيد المرسلين ، والشفيع يوم القيامة لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا . وسبحان من لا تنفعه عبادة ، ولا تضره معصية . والنفع والضرر من الله . وفى بعض الحديث : « اعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » (٣). ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما

---

(١) المائدة : ٤١ . (٢) لقمان : ٣٤ .

(٣) رواه الترمذى كتاب صفة القيامة ، وقال : حديث صحيح . ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عباس .

كتب الله لنا هو مولانا﴾. فقل يا محمد لو كنت أعلم أشياء عن الغيب لأكثرت من عمل الصالحات.

ولو كنت أعلم متى أموت أيضًا لأكثرت من عمل الصالحات.

۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

هو الذى خلقكم بعظمته وقدرته المنزهة من نفس واحدة، وهى آدم - عليه السلام -، ثم خلق منها زوجها حواء، وذلك ليسكن إليها، وجل قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾(١).

وجل قوله أيضًا: ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ (٢). ﴿ فلما تغشاها ﴾ أى وطِئَها وجامعها، حملت بالجنين الأول. ومعنى ﴿خفيفًا﴾ يقصد به أول الحمل، الذى لا تجد المرأة له أى ألم، إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة. كما أخبرنا بها الحق فى مواضع أخرى. فمرت حواء بأشهر الحمل التسعة لحين ميلاد ذلك الحمل، ودعت الله هى وآدم يا رب إن أتيتنا ابنا صالحًا ذكرا كان أو أنثى لنكونن من الشاكرين لك فضلك علينا. ورزقت حواء بابن صالح، أى: سوى الخِلْقة.

ومن العجيب أن الله جعل بنى آدم ذرية سوية الخِلْقة، وهم يجعلون لله شركاء فى الخَلْق.

والمقصود فى الآية: جنس بنى آدم، أى المشركون من ذرية آدم، ولذلك قال سبحانه: ﴿ فتعالى الله عما يشركون﴾ ولم يقل «عما يشركان».

---

(١) الحجرات: ١٣. (٢) النساء: ١.

أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ
صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ
فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ
أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ
ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ
يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ
أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ
وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

« هذه الآية من أقوى الدلائل على أن المقصود بقوله تعالى ﴿ فتعالى الله عما يشركون﴾هو الرد على عبدة الأوثان . . . والمقصود من هذه الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للألوهية » (١).

ويقول ابن كثير : « هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ، ، ولا تنتصر لعابديها ، بل هى جماد لا تتحرك ، ولا تسمع ، ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم »(٢) .

إن هذه الأصنام الذين تدعونها من دون الله عباد أمثالكم . وسميت الأوثانَ عبادًا : لأنها مملوكة لله مسخرة . وجل قوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ (٣)، أى بحمد الله وهو الخالق . أتعبدون شيئًا مخلوقا وتتركون الخالق ؟ وليس فى الخلق من يستطيع أن ينصر أحدا بغير الله . حتى أنفسهم لا يستطيعون نصرها إلا بإذن الله القوى

---

(١) انظر تفسير الرازى : ١٥ / ٩٠ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٦ .

(٣) الإسراء : ٤٤ :

العزيز القادر ، الذى يملك كل شىء ، وهو الغنى عن كل شىء . فما بال أصنام صماء من أحجار جماد خلقها الله يعبدها البشر عبادة جاهلين ؟ إن هذه الأحجار والتماثيل صنعتها يد بشر . فكيف بهذا البشر يعبدهابعد ما يسويها بيديه ؟ . إنه الجهل الأسود . إن هذه الأصنام لو دعيت إلى الهدى لا تجيب ، لأنها حجارة صماء ، فكيف تعبدونها وهى لا تسمع ولا تتكلم ، ولا تفعل ، ويفعل بها ناحتها ما يشاء ، حسب قدرته العاجزة ؟ عجبًا أن تكون هذه الأحجار معبودة . وسواء عليها إن تدعوها أو لا تدعوها فهى حجارة كما ترونها ، يقول الحق لنبيه : قل لهم يا محمد ألهذه الأصنام أرجل يمشون بها ؟ أفلا تعقلون ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أفلا تعتبرون ؟. أم لهم أعين يبصرون بها ؟أفلا تبصرون ؟ . قل لهم يا محمد : ﴿ **قل ادعوا شركاءكم**﴾ أى استنصروا بها على هل يستجيبون لكم ؟ . ﴿ **إن وليى الله** ﴾ أى الله حسبى وكافينى ، وعليه توكلى ، وإليه ألجأ وأنيب ، وهو وليى فى الدنيا والآخرة ﴿ **إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم** ﴾ (١) .

إن هذه الآلهة المزعومة التى تعبدونها من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا حتى نصر أنفسهم ، وإن دعوتموهم ليلاً ونهارًا فلا يسمعونكم ولا يرونكم، وتراها تنظر إليك ولكنها نظرات جماد غير عاقل . فكيف تُعبد من دون الله ؟ وحقا فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ! !

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

يا محمد إنك عبد الله المختار المجتبى ، فليس لك إلا العفو طريقا ، والمعروف سبيلا. فطوبى لمن صار على هداك ، وامتثل خطاك . خذ العفو وأعرض عن الجاهلين، وأمر بالمعروف والإحسان ، فهو طريقك . أما الجاهلون فهم زرع فى أرض سبخ ، فأصلح الأرض من تحتهم لعلهم يرون آيات الله وقدرته فى إحسانك إليهم فيهتدون ، والجهل مرض فارحم يا محمد مرضاهم بالمسح على قلوبهم بما أنزل الله إليك، فأنت رحمة للعالمين .

---

(١) هود : ٥٦ .

وقد وردت أقوال عدة فى معنى ﴿ العفو ﴾ (١). « ويذكر القرطبى أيضا أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ خذ العفو ﴾ قال ـ عليه السلام ـ كيف يا رب والغضب » فنزلت : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نـزغ فاستعذ بالله ﴾ أى عندما يوسوس عليـك الشيطان الوحى والتنزيل ، فاستعذ بالله ، إن الله يسمع لك (٢).

وعندمـا تلجأ إلى الله يا محمد فـأنت بعينه ، تحوطك رعـايته وحفظه ، إنه سبحـانه السميع العليم لكل خلقه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

إن الذين يخافون الله ويتبعونه بقلوب خاشعة مبصرة إذا مسهم الشيطان ـ أى وسوس إليهم وزين لهم ما بين أيديهم من زينة الحياة الدنيا ـ ﴿ تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

وأسباب التذكر عند المؤمنين كثيرة ، الصلاة لله تذكر ، والحج لله تذكر ، والصوم لله تذكر ، ذكر الله بالله تذكر .

والمتقون هم أهل الخوف من الله ، يتصورون على الدوام لقاءه وسؤال الملكين والوحدة فى قبورهم ، وبذلك هم على حذر دائم من الشيطان . فإذا مسهم بوسوسته ، طغى نور الإيمان على وسوسـة الشيطان فيطرد من مجالـس الصالحين وخلواتهم بالله . وذلـك من إنعام الله وفضله عليهم ، وبدل أن يغويهم فبإيمانهم يتذكرون .

﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ إخبار من الله عن المتقين من عباده ، الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما نهى عنه الله ـ سبحانه وتعالى ـ أى إذا هم قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

أما المقصود من ﴿ وإخوانهم يمدونهم فى الغى ﴾ الجن الذين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يسأمون عن ذلك ، بل يمدونهم بكل أسباب الغواية والضلال ، لأن الشياطين لا تضعف ولا تفتر ولا تمل من فعل المعاصى . وجل قوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ أنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ (٣).

---

(١) للتوسع ومزيد المعرفة انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٧ .

(٢) انـظر : تفسير القرطبى : ٤ / ٣٤٧

(٣) مريم : ٨٣ .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

يقول الإمام الرازى (١): بين تعالى فى هذه الآية نوعا من أنواع الإغواء والإضلال، وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة، ومعجزات مخصوصة، على سبيل التعنت كقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]. ثم أعاد أنه عليه ـ الصلاة والسلام ـ ما كان يأتيهم، فعند ذلك قالوا ﴿لولا اجتبيتها﴾ والمعنى لولا تقولتها وافتعلتها، وجئت بها من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون ﴿ما هذا إلا إفك مفترى﴾(٢).

وإن لم تأتهم يا محمد بمعجزة سخروا منك، وتهكموا بك، وقالوا لو اشتريتها ـ أى أنك تختلق لنا من عندك أقوالا وأفعالا ـ وصاروا يتهكمون ويسخرون من الحق الذى أنزل على محمد. وكلما زود الله نبيه بالآيات والمعجزات لم يزدادوا إلا بغيا وطغيانا على الحق. والرسول حق، وما ينزل الله عليه هو الحق. ولكن الكافرين لا يعقلون، وهم فى صمم دائم عن الحق. والرسول فى نور ربه منصرف عنهم وعن ضلالهم، يقول الحق: ﴿وهو يهدى السبيل﴾.

اعلموا أيها الناس أنها ﴿بصائر﴾ أى حقائق من ربكم، ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

خطاب للمؤمنين، يأمرهم المولى فيه أن يتدبروا القرآن عند سماعه، ولن يكون ذلك إلا بالتدبر والسماع والتفكر فى المعنى وحسن الإنصات. يقول الحق: ﴿لعلكم ترحمون﴾ يقرن الله سبحانه وتعالى الرحمة مع سماع القرآن، والإنصات له، والتدبر فيه، وإن

---

(١) الفخر الرازى : ١٥ / ١٠٦ .

(٢) سبأ : ٤٣ .

رحمة الله قريب للمحسنين ، الذين يستمعون للحق وبه يعملون ، لأن كفار قريش كانوا يتعمدون التشويش على قارئى القرآن ، فكانوا يقولون ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ . واملأ نفسك يا محمد أنت والمؤمنون بذكر الله ، وأشبعوا قلوبكم وجوارحكم وكل حواسكم ونبضاتكم بذكر الله . ﴿ تضرعا وخيفة ﴾ تضرعا إلى الله فى دعائه ، وتذللا بين يديه فى انكسار لذاته ، وفى إعظام لذاته ، وفى انكسار بين يديه للنفس والقلب والجوارح ، واستغراق مع الله فى خضوع ، وامتثال لكل أمر منه افعله بقلبك ، بسرك وبعلنك ، وبحبك وصدقك فى عبوديتك له ، إنه هو الله الذى يجب أن نتضرع إليه ونخاف منه .

أما قوله تعالى ﴿ودون الجهر ﴾ أى دون الرفع فى القول أى أسمع نفسك فقط . كما قال الله ــ سبحانه وتعالى ـ فى موضع آخر ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ أى بين الجهر والسر . ويقول الإمام القرطبى فى ذلك : « ودل هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع» . والغدو والآصال مصدران ، الغدو جمع غدوة وهو النهار. أما الآصال فهى وقت الأصيل ـ أى العشيات ودخول الليل ـ أى كن فى صورة العاقل العابد الذى يذوب قلبه تحرقا وشوقا إلى الله ، فى كل وقت ، وفى كل حين ، صباحا ومساء. واحذر الغفلة عن الله ، أو عن أمره ، فهى القاتلة . عش يقظًا فى حضرته ، وأبعد نفسك عن الجهال ، واستر عن الجهال حالك ، فالحسد للمتقين الله أقوى من الحسد للمالكين الدنيا . فامتلاك الدنيا سهل ، أما الآخرة وامتلاكها إنما بحب من الله لعباده ، وحب من العباد لربهم، وهذا مقام دونه الأرواح والأموال والأولاد والأزواج ، ودونه الدنيا كلها. إنه مقام كريم عند رب كريم . إنما الدنيا متاع ، أما الآخرة فهى دار القرار . فاحذر أيها العبد المسكين الفقير إلى الله ، وإن امتلكت الدنيا كلها ، أن تغفل عنه سبحانه . فما أشقاهم إن ملكوها وهم عن الحق غافلون .

اعلم أيها العبد المؤمن أن الملائكة فى ملكوت ربهم الأعلى فى سمواته وأرضه يسبحون ربهم بالليل والنهار فى كل آن وله يسجدون .

وأما أبناء آدم فهم على أمر ونهى حتى نفخة الصور ، نعم هم فى جهاد على إبليس، فطوبى لمن غلب الشيطان فأطاع ربه ـ سبحانه وتعالى ـ ، حتى قبضت روحه . وهو يقول بطاعة ممتدة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد عبده ورسوله ، فيبعث مع

الساجدين والشهداء ، ويحشر مع النبيين والصديقين ، لأنه عاش محبا عاشقا لذات الله ، فيصحو بذكره ، وينام بذكره ، ويتوب إليه فى كل وقت وفى كل حين ، وإن غفل عنه وسها سجد معتذرا راجيا من الله المحسن المتفضل حسن الوقوف ، وحسن الركوع ، وحسن السجود ، وحسن النجاة ، والتبتل والخضوع والانكسار لرب كريم حليم غفور تواب ، يمحو الذنوب بدمعات حب فيه . سبحانه . وباستغفار قلب ساجد أغرقته دموعه شوقا للقاء الحق ساجدًا عابدا مستغفرا عن لحظات غفلها وعاشها مع زوج أو ولد أو مال يجمعه . فيا غفار الذنوب توبتى بين يديك ، وغفلتى فى سجودى وصحوى ونومى بين يديك . لا أدعو أحدا سواك ، ولا أرجو ربا إلا أنت . يا غفار يا رحمن يا رحيم . .

سُورَةُ الأَنفَالِ

(٨) سُورة الأنفال مدنيّة
إلا من آية ٣٠ إلى غاية آية ٣٦ فمكيّة
وآياتها ٧٥ نزلت بعد البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

السائلون هم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المقاتلين معه فى غزوة بدر . والأنفال : هى ما غنمه المقاتلون المسلمون من أعدائهم الكفار . والتساؤل : هل من غنم من الكفار غنيمة تكون له ـ أى من نصيبه ـ أو يُجمع كل ما غُنم بعد الحرب فينضم إلى الغنائم وتوزع على أصحاب الأنصبة بالتسوية ؟

كان ذلك الحديث يدور بين المؤمنين المقاتلين وبين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله سبحانه ﴿ الأنفال لله والرسول ﴾ . ولما أصبحت كذلك قرر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقسمها على المسلمين المقاتلين ، وهى غير الغنائم التى لرسول الله خُمُسُها . وإذا حضرت المؤمنات القتال فلهنَّ نصيبهنَّ .

ثم يقول الحق ﴿ فاتقوا الله ﴾ أى خافوا الله . ومن مقومات ذلك الخوف أن تصلحوا ذات بينكم . يقول ابن كثير : « أى اتقوا الله فى أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه . ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أى فى القسمة بينكم على ما أراده الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف »(١) .

إن قضية إصلاح ذات البين تحتاج إلى وقفات كثيرة من البشر ، حيث إنها : مناط الود ، وعناق المرحمة ، وانتشار الإسلام .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٥ .

سُورَةُ الأَنفَالِ

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ
زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ
وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

هؤلاء هم عباد الله ، الذين ترتعد أبدانهم رعدة تتخلل القلوب عند سماعهم ذكر الله فتخيفهم ، وتذكرهم بأمر الله ونهيه .

عن ابن عباس : « المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى بأنهم ليسوا بمؤمنين » (١) .

ولكن المؤمنين فى أكثر أوقاتهم إذا استمعوا لآيات الله تتلى عليهم وقع فى قلوبهم خوف تخللته رعدة حانية تذكرهم بالله وجنته وناره ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا ـ أى تصديقًا ـ وفى هذا دلاله على أن الإيمان قابل للنقص أو الزيادة . هؤلاء المؤمنون يجدون حلاوة الصلة بالله ، وجلال الحضور بين يديه ، فتهون الدنيا فى قلوبهم ، فيتوكلون على الله فى ثقة وحب . هؤلاء هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ، ومنازل فى الجنة يرتقون فيها ، ويتمتعون بمختلف نعمها .

وكثيرًا ما نجد القرآن يصف هؤلاء المؤمنين بالخوف والوجل لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لرب العزة . من ذلك قوله ﴿ وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ (٢) وقوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨٥ .
(٢) الحج : ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) الزمر : ٢٣ .
(٤) المائدة : ٨٣ .

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥

والمعنى امض لأمرك فى الغنائم ونفّل من شئت وإن كرهوا ، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئًا قال : يبقى أكثر الناس بغير شىء .

أى : نفل من شئت من الغنائم وإن كرهوا ذلك ، كما أخرجك ربك من مكة وهم كارهون لترك أموالهم وديارهم (١) .

حيث إن الأمر : عبادة وطاعة .

يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦

هم ﴿ يجادلونك ﴾ يا محمد ﴿ فى الحق ﴾ أى القتال . لأنهم يعلمون جيدًا أنك لاتأمر بباطل ، ولا بإذن نفسك ، وهذا هو معنى ﴿ بعد ما تبين ﴾ . وقيل إن معناها : «بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالعير أو بأهل مكة » (٢) . فهم يكرهون تنفيذ أمرك ، ويكرهون لقاء العدو ، وكأن الموت جُسد أمامهم فيرونه رأى العين ، أو أنهم يعلمون ذلك .

وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧
لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨

وهذا إنكار من الله على هذا الفريق الذى يكره لقاء العدو . ومن مظاهر كرههم لقاء العدو، أنهم يودون أن يقابلوا الطائفة التى ليس لها قوة أو عتاد أو سلاح ، وهى غير ذات الشوكة . وهذا جبن فى حد ذاته ، لكن الله ، يريد أن يظهر الإسلام ويعليه على

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٧/ ٣٦٧، ٣٦٨ .

(٢) انظر تفسير القرطبى جـ ٧/ ص ٣٦٩ .

سائر الأديان ، كما قال ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ (١) . ﴿ بكلماته ﴾ أى بأمره . ويريد الحق أن يستأصل فئة الكفر من الدنيا ، ﴿ ليحق الحق ﴾ أى الإسلام ، ويعدمَ الكفر، حتى ولو كره ذلك المجرمون .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ
مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

الاستغاثة هى طلب العون والنصر .

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القبلة ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » . فمازال يهتف بربه ، مادًّا يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم . . . ﴾ فأمده الله بالملائكة (٢) .

ثم التقى الفريقان ، المؤمنون والكافرون ، ونصر الله المؤمنين ، وقتل يومئذ سبعون من المشركين ، وأُسر كذلك سبعون ، واستشهد من المسلمين ثلاثة عشر مسلما . والحمد لله فقتلاهم فى النار ، أما شهداؤنا ففى جنات ونَهَر ، بين فراديس الجنان ، وفى خدمتهم الحور العين والولدان المخلدون . وقوله تعالى : ﴿ مردفين ﴾ أى تابعين لاحقين معاونين معينين .

وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامَه إياكم إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم (٣) . ومع

---

(١) التوبة : ٣٣ .

(٢) كتاب : « الجهاد والسير » باب : « الإمداد بالملائكة » .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص ٢٩٠ .

ذلك نبّه الحق سبحانه وتعالى على أن النصر من عنده هو لا من الملائكة ، « فلولا نصر الله لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة »⁽١⁾.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ
وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ
يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

فى هذه الآيات : يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانًا أمّنهم به من خوفهم الذى حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم » ⁽٢⁾ .

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح » ⁽٣⁾ .

فيأهل الإيمان والتسليم : ألم تنظروا إلى ما أنعم الله به عليكم إذ أصابكم بالنعاس ليلة اللقاء أمنًا منه وتطمينًا لقلوبكم وأنزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان .

ثم يأمر الله الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا على الحق لينتصروا على أعداء الله ، فتكون لهم الكرامة عند الله والفوز برضوانه تعالى . وهو من عنده سيلقى فى قلوب الأعداء الرعب والفزع الشديد ، فلا يجدون لهم من ملجأ إلا أن يتخبطوا فى خبل هزيمتهم ، فاضربوا أيها المسلمون كل بنان ـ أى أطرافهم ـ واقطعوها وافلقوا رءوسهم ، لأنهم تركوا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ / ص ٣٧١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص ٢٩١ .

(٣) المرجع السابق .

أوامر الله ، وخالفوا الرسول ، وتركوا الشرع ، وجعلوا أنفسهم فى جانب المعصية والكفر، والرسول فى جانب الله والإيمان به والدعوة له ، وذلك جزاء المفسدين ، المحاربين لله ورسوله، فليس لهم إلا خزى فى الدنيا وعذاب فى الآخرة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يأيها المؤمنون بمحمد وما أنزل عليه من الحق ، تحصنوا بالله عندما تجدون الذين كفروا قد تجمعوا وتحزبوا ليكونوا عليكم يدًا واحدة . واعلموا أن النصر من عند الله ، فلا بسبب كثرتهم ينتصرون ، ولا بسبب قلتكم تنهزمون ، ولكن الله ينصر الذين آمنوا بإيمانهم ، ويهزم الكافرين بكبرهم على الله ، وحربهم له سبحانه وتعالى ، ومخالفتهم للرسول وللجماعة المؤمنين . ﴿ **فلا تولوهم الأدبار** ﴾ أى لا تفروا من أمامهم معطين لهم ظهوركم ، بل استقبلوهم بشجاعة وثبات ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . فالنصر بكم ، ولكن يلزمه الجهاد والثبات والعمل المستمر الدءوب ، ويكون ذلك لوجه الله ، لا لدنيا يصيبها ، ولا لمجد ينتظره ، ولكن المقصد هو الله . وإياكم أن تولوهم الأدبار، والفرار .

وقوله ﴿ **إلا متحرفًا لقتال** ﴾ أى « يفر بين يدى قرنه ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه » (١) . أما قوله ﴿ **أو متحيزًا إلى فئة** ﴾ فهو ضمن استثناء الآية للذين نهوا عن أن يفروا من أمام العدو ، فيخرج من هذا الحكم هاتان الفئتان ﴿ **إلا متحرفًا لقتال** ﴾ و ﴿ **متحيزًا إلى فئة** ﴾ ، أى فرّ من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك » (٢) .

ومن يفعل ـ من غير هاتين الفئتين ـ غير ذلك ، أى يفرّ من أمام العدو ﴿ **فقد باء بغضب من الله** ﴾ ، أى استحق غضب الله وسخطه ، ومقامه جهنم وبئس المصير .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص٢٩٣ .

(٢) المرجع السابق .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

اعلموا أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال ، وأن النصر به والهزيمة به .

وروى أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتلت كذا . فعلت كذا . فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ، فنزلت الآية إعلامًا بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده (١) .

فالأصل فى الفعل لله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يبتلى المؤمنين أو يختبرهم ، ثم ينظر برحمته أيّ العباد يخشاه ويحذر غضبه ، والسعادة والرضا لمن يخشاه . والله سبحانه وتعالى يلقى فى قلوب الكافرين الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا . والكيد فى الآية يعنى المكر.

إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول الله تعالى مخاطبًا الكفار : إن تستفتحوا أو تطلبوا الفتح والنصر فقد جاءكم الفتح ،ولكنه للمسلمين عليكم . وقد ظهر وانكشف لكم الحق ، وإن تنتهوا ـ أى عن الكفر ـ فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل هذه الأقوال ، ومحاربة محمد وقتاله ، نعد مرةً أخرى إلى نصر المؤمنين ، ولن تغنى عنكم فئتكم الكثيرة . لكن ما هى أقوالهم التى كانوا يستفتحون بها أى يطلبون بها الفتح ؟ قالوا : اللهم أقطعنا للرحم وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه . وقال النضر بن الحارث : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ وهو ممن قتل ببدر .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ٧/ ص ٣٨٤ .

كل هذا إذا كان الخطاب للكافرين فى الآية . أما إذا كان الخطاب للمؤمنين ، فيكون التأويل كما يلى : إن تستنصروا وتطلبوا النصر والفتح فقد جاءكم الفتح والنصر ، «وإن تنتهوا أى عن مثل مافعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم »(١) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

نداء من الله للمؤمنين بأن يطيعوا الله والرسول ، ففى ذلك سعادتهم ونجاحهم وتوفيقهم للخير والفلاح والفوز على من يعاديهم من الكفار والمنافقين ﴿ **ولا تولّوا** ﴾ أى ولا تعرضوا . وقال عنه ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول هى من طاعة الله ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ (٢) . فاحذروا أن تتولوا عن رسولكم وأنتم تسمعون نداءه .

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

أى لا تكونوا مثل المنافقين واليهود والمشركين الذين سمعوا فأعرضوا وضلوا ، فخسروا الدنيا والآخرة . فإنهم يظهرون السماع والاستجابة ولكنهم عند التنفيذ كفروا . وشبههم الله بالأنعام لأنهم صم عن سماع الحق بكم عن الفهم ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾ من الأنعام ، لأن الدواب على الأقل مخلوقة لله مطيعة له فيما خلقها له .

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

لقد سبق فى علم الله الأزلى أنه لو أسمعهم وفتح قلوبهم للفهم والوعى والبصيرة ، للنظر والتأمل ؛ ما حصل منهم ـ رغم ذلك ـ خير ، لأنه ليس فيهم خير يرجى نفعه .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ / ص ٣٨٦ .

(٢) النساء : ٨٠ .

هذا خطاب للمؤمنين المصدقين وتكليف لهم بأن يجيبوا لما يصلحهم . أما قوله ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ أى فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضًا إلا بإذنه ومشيئته ، فيحول الله ـ أى يمنع ـ بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان .

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » . قال فقلنا يا رسول الله : آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها كيف يشاء (١) .

وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾

« يحذر الله تعالى عباده المؤمنين فتنة ـ أى اختبارًا ومحنة ـ يعم بها المسىء وغيره . لايخصُّ بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب بل يعمها » .

وعن ابن عباس « أمر الله المؤمنين ألا يُقرُّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب » (٢) .

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾

نزلت هذه الآية فى المهاجرين ـ كما يذكر المفسرون ـ تصف حالهم قبل الهجرة ، حيث كانوا : قليلين فكثرهم ، ومستضعفين فقواهم ، وقوّى شوكتهم ، وفقراء فرزقهم الطيبات .

وكانوا عرضة للخطف من قبل المشركين والمجوس ، فآواهم الله إلى نعمة الإسلام والإيمان وهكذا . . جعلهم الله ملوكًا فى الأرض بدخولهم هذا الدين .

---

(١) رواه : الترمذى ، كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب . . إلخ ، قال أبو عيسى : وفى الباب : عن النواس بن سمعان وأم سلمة وعبد الله بن عمرو وعائشة ، وهذا حديث حسن .
ثم قال : وحديث أبى سفيان عن أنس « أى المذكور » أصح .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص ٢٩٨ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

وخيانة الله والرسول تكون بمعصية الله ومخالفة رسوله . وإذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتِهم .

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

واعلموا أيها المسلمون أن المال فتنة ـ أى اختبار ـ والولد فتنة ، والزوج فتنة ، كل ذلك أعطاكموه الله سبحانه وتعالى ليعلم أتشكرونه عليه وتطيعونه فيه ، أم تتلهون به فيشغلكم عن الله وذكره ، واتباع أوامره . وجل قوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ (١) ـ وجل قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم** ﴾ (٢) ـ أيها المسلمون اعلموا أن ثواب الله هو الباقى ، وعطاءه هو المستمر ، وهما خير لكم من عرض الدنيا الزائل ، حتى ولو كانت أولادًا أو أموالاً .

كما ثبت فى الصحيح أيضًا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (٣) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

إن المؤمنين الذين صدقوا بالله وكتبه ورسوله واليوم الآخر ، فخافوا حساب الله وعقابه ، فاجتنبوا ما يغضبه ، وفعلوا ما يرضيه حسب أوامره ونواهيه ، وأقاموا الصلاة ، وأخرجوا الزكاة ، واعتكفوا عن الحرام ، واستظلوا بالحلال ، فاستغرقتهم محبة الله ، واتخذوا من سنة رسول الله مدرسة تعدهم لفهم كتاب الله فهمًا يؤهلهم ليكونوا عباد الله الصالحين ، وقيادات الإسلام المصلحين ، ليعيدوا دولته ، ويؤسسوا أمته على كتاب الله .

---

(١) المنافقون : ٩ . (٢) التغابن : ١٤ .

(٣) رواه : البخارى ، واللفظ له ، كتاب الإيمان باب « حب الرسول من الإيمان » .
ورواه : مسلم والنسائى وابن ماجة والدارمى ، عن أنس .

أين عزة الإسلام فينا إن لم يكن هؤلاء الرجال ؟ أين دولته ؟ أين حكمه ؟ أين خلافته الرشيدة ؟ ومتى يجعل الله لنا فرقانًا - أى نجاةً - لنعلم الحق من الباطل ، فنستقيم على الحق ، ونهجر الباطل ، فتعود لنا ريادة العالم من جديد ؟

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

إن الكفار فى مكة لما أجمعوا على قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك فى دار الندوة ، أخبر الله رسولَه عن طريق جبريل - عليه السلام - بأنهم سيجتمعون على قتله ، وبلّغه أمرَ الله له بالهجرة . وقصة الهجرة معروفة فى السيرة (١) من خروجه ليلاً وبقاء سيدنا على - رضى الله عنه - نائمًا فى فراش سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ومعنى ﴿ ليثبتوك ﴾ : ليحبسوك . أما المكر من الله فهو معناه جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

إخبار عن كفار قريش الذين كانوا يزعمون قدرتهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، حتى إن القرآن تحداهم فى ذلك ولو بإتيانهم آية واحدة ولكنهم عجزوا . ويذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث الذى كان يخرج إلى الحيرة فى تجارة ، فاشترى أحاديث كليلة ودمنة وكسرى وقيصر وزعم أنه يستطيع أن يأتى بأخبار مثل الأخبار التى يوردها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خصوصًا الماضية منها .

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً
مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

فى كبر وتبجح يخاطبون الحق - سبحانه وتعالى - اللهم إن كان هذا القرآن حقًّا فعلاً

---

(١) ذكرها ابن كثير فى تفسيره كاملةً لمن أراد الرجوع إليها جـ ٢/ ص ٣٠٢ .

ومن عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، وهذا « من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ومما عيبوا به . وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه . ولكنهم استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة » ⁽¹⁾ كقول القرآن ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾⁽²⁾ - و - ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ ⁽³⁾ .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قضت رحمته ألا يعذبهم وأنت يا محمد بين أظهرهم ، ولكن يؤخرهم ليوم عظيم شديد على من أنكر رسالتك ، وضل عن الطريق الحق الذى أمرك أن تدعو إليه .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

يخبر الله تعالى أنهم أهلٌ للعذاب مستحقون له ، ولكن لم يحدث ذلك التعذيب بفضل بركة وجود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهم ، وكيف لا يقع بهم العذاب وهم يصدون عن المسجد الحرام أهلَه الذين أتوا إليه يصلون ويطوفون به ؟ لذلك يقول الحق عنهم إنهم ليسوا أهل هذا البيت الطاهر ، إنما أهله هم النبى وأصحابه المؤمنون المتقون . هؤلاء حقًّا هم أولياؤه ، وجل قوله : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾⁽⁴⁾ـ وجل قوله ﴿ وصد عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ ⁽⁵⁾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ـ ٣٠٤ .

(٢) المعارج : ١ .

(٣) الشعراء : ١٨٧ .

(٤) التـوبة : ١٧ ـ ١٨ .

(٥) البقـرة : ٢١٧ .

سُورَةُ الأَنفَال

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

كانت قريش تطوف بالبيت الحرام عرايا يصفقون ويصفرون . معتقدين أن ذلك هو العبادة الصحيحة . والمكاء فى اللغة : الصفير . أما التصدية فهى التصفيق .

ويعلق الإمام القرطبى قائلاً : على أن هذا « رد على الجهال من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون ويصعقون . وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء ويتشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت » (١) .

وفى كلام الإمام القرطبى السابق غنى عن الحديث والخوض فى هذا الموضوع الذى شاع حديثًا تحت مسميات « الحضرة » و « الزفّة » و « المولد » و « الذِّكْر » معتقدين أنها قربات إلى الله ، وأنهم بذلك وصلوا الله وارتقوا إلى مراتب الصوفية العليا ، ومنازل السعداء . والحقيقة أنهم أقرب إلى الشرك منهم إلى الإيمان . فما حظهم من ذلك إلا بضع تخاليع متراقصة ، ومجهودات جوفاء . لو وضعوها فى إنتاج ، أو كسب رزق ، أو قضاء المصالح ، لكانت عند الله خيرًا من عمرهم الذى ينفقونه هباءً منثورًا . والمصيبة أنهم يسمون أنفسهم المتصوفة (٢) .

إن الإيمان الحق هو حسن الظن بالله ، الذى يجعل الإنسان يرتقى بإيمانه إلى مشارف إلٰهية مشرقة . وهى استشراف ربّانى يصل المرء به إلى أعلى مراتب التكليف الإلٰهى . وهى نقاء سريرة ، وصفاء قلب ، يجعلان صاحبهما حبيبًا إلى الله وإلى رسوله . وما بين صفاء القلب وحب الله مراحل متعددة من التكاليف المصحوبة بشتى الاختبارات والابتلاءات ، بها يترقى مرة ويهبط مرة ، لكنه دائما فى صعود إلى منتهى إيمانى راق ، لا إلى هاوية مفرطة سحيقة . إن رقصات المؤمن الحقيقى يوقعها فى أرق لقاء مع الله عندما يدخل صلاته . هى فى خطوات يتكسب بها عيشه بدلاً من أن يسأل الناس أعطوه أو

---

(١) تفسير القرطبى ، ٧ / ٤٠٠ .

(٢) يقسم لى أحد الأبناء الموثوق فيهم أنه جاءت إليه دعوة من إحدى الطرق الصوفية تدعوه للحضور ، ومكتوب على بطاقة الدعوة « يتشرف . . فلان بدعوتكم إلى حضور الاحتفال بمولد سيدى محمد أبو الفضل قطب دائرة الوجود ، من عمت بركته كل مولود ، ومعكم البيارق والطبل والسيوف » .

منعوه ، بل هى فى أعظم سير له عندما يقصد المسجد يريد الجماعة . أما أنغامه فهى خلاصة الارتياح النفسى ، بدلاً من الذى يرجى من وراء الأنغام الشيطانية العابثة . هو إحساس غامر بعظمة المولى وقدرته ، وتكفله بعمره وحياته ، وليست أنغام المؤمن تَلْهِيَات إبليسية ، يختلط فيها الماجنون بالصعاليك الذين لاهم لهم إلا ملء البطون ، وإتيان الفواحش . . ذلك هو الإيمان الحق من وجهة نظر استشرافية مؤمنة شعارها ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر الحق : أن هذه الأموال التى ينفقونها فى محاربة الدعوة ستكون عليهم حسرة وندمًا ، لأن الله متم نوره ولو كره الكافرون ، فيميز الله ساعتها المؤمن من الكافر ، السعيد من الشقى . وساعتها أيضًا يجمع الله كلَّ الخبيث بعضه فوق بعض ويجعله متراكمًا ، ويدخله جميعًا جهنم . أولئك هم الخاسرون الدنيا فى والآخرة .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

فتح الباب أمام الذين كفروا كى ينتهوا عن ضلالهم عن الحق وعن الطريق المستقيم، فإن اهتدوا ودخلوا الإسلام ، ورجعوا إلى طريق الطاعة والإنابة ، غفر الله لهم ما قد سلف .

وإن لم ينتهوا ويعودوا ويستمروا على ما هم فيه ، فإنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة ،

كما فى قريش يوم بدر ، وغيرها من الأمم . وإن أصروا على بغيهم فقاتلوهم ، ففى عدم قتالهم فتنة للناس . فإن انتهوا نتيجة إصراركم على الحق ، فإن الله بصير بهم وبما يعملون ، ومجازيهم به . واجعلوا نيتكم أنكم تريدون بصلاحهم وجه الله حتى يبارك فى قتالكم . واعلموا أن الله بما تعملون بصير . وإن تولوا عنكم ولم يسمعوا لكم ، ويستجيبوا لما فيه صلاحُهم ، فتأكدوا أن الله هو مولاكم . ومن كان الله مولاه فالنصر حليفه لا محالة ، حتى ولو هزم فى الدنيا لبعض الوقت ، فهو بعقيدته وبالثبات عليها منتصر . لأن النصر الحقيقى هو أن تكون مع الله ، وذلك هو النصر الحق .

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ
وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ
عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

الغنائم هى مكاسب الحرب للفريق الغالب ، وقد قسم الله غنائم الحرب بين المسلمين عندما تكون لهم الغلبة . وقد كان يوم فرق الله بين الحق والباطل يوم بدر . يوم التقى الفريقان فى السابع عشر من رمضان .

إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ
وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ
مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يمن الله على عباده المجاهدين ، الذين رأوا جمع الكفار وكثرة عددهم وعدتهم وقلة عددهم هم وعدتهم ، ويذكرهم بفضله عليهم وبنصره ، إذ كان كل فريق بجانب من وادى الجبل ، إذ أنتم بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وهم بالجانب الأقصى ، وبضائع الفريق الآخر وركبهم أسفل منهم ناحية البحر . ويذكرهم أنه بفضله لم يجعلهم يحددون أو يضربون موعدًا . ولو كان تمّ ذلك لبلغكم كثرة عددهم فتشيع فى صفوفكم

الفوضى، ويعم الرعب ، وينتشر الفزع ، وشاع فى نفوسكم أنكم لا محالة منهزمون . وجاء النذير والنبى فى عشيرته يدعو الله ويرجوه ، ويشعره الله بالنصر ، وأنه آتٍ لامحالة، وأن النصر لا بكثرة العدة والعتاد والناس ، ولكنّ القلةَ مع الإيمان بالله قوة ضاربة ، لا بأيديها فحسب، لكن بعون الله وحبه واصطفائه كذلك . لذلك كانت آيات الله فى موقعة بدر . فجاءت قريش بخيلها ، والمسلمون بيقينهم ، فكانت الغلبة للمسلمين . وكانت موقعة بدر هى الفاصل التاريخى بين غطرسة الكفر والبعث الإيمانى . وببدر قامت دولة الإسلام فى المدينة . وما النصر إلا من عند الله . والهزيمة لدى أهل الإيمان تمحيص، ولدى الكافرين تأديب وردع ، وسحق للباطل . وهى عند المؤمنين عزة وهيبة وثبات ، وتجديد للعمل والنشاط لمعاودة الجهاد وذلك ﴿ ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ﴾ ليؤمن المؤمن على حق ، وليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه . ويؤمن من آمن على ذلك .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ
وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

لقد صور الله المشركين فى عين أهل الإيمان قلة ، ولو تركهم ورؤيتهم لهم كثيرين لفشلوا ، ولعم الخوف والفزع بين النفوس والصفوف . فكان المسلمون بعون الله كثرة فى أعين أنفسهم، والكفار فى أعين المسلمين قلة قليلة . فكانت جرأة المسلمين على القتال قوية ثابتة متأكدة من النصر . فكان الفوز للمسلمين والهزيمة للكفار . فالسلاح آية ظاهرة ، والإيمان قوة باطنة . وقوة الإيمان أقوى من قوة السلاح ، لذلك يقول الحق :

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ
ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

رؤية متبادلة : رؤية المسلمين للكفار وهم (أى الكفار) قلة ، وهذا دفع وشحذ للقتال دونها فزع أو استكانة أو يأس . ورؤية الكفار للمسلمين وهم (أى المسلمين) قلة، حتى يستهين الكفار بأمر المعركة ، فيخدعوا حتى أن أبا جهل قال فى ذلك اليوم : إنها هم أكلة جزور .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم
بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

نداء من الله القوى المتين لعباده الذين آمنوا أن يثبتوا عند لقاء فئة من الأعداء . ثم يأمرهم بألا ينشغلوا عن ذكر الله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(١) فيجب أن يكثروا الذكر ، وأن يستمروا فيه ، وحسن التوكل على الله . ولعل الفلاح يأتيكم بحسن الثقة فى الله ، وصدق التوكل عليه ، ثم يوصى ويأمر المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله ، وأن يترابطوا ثم يحذر المؤمنين من التنازع والاختلاف ، لكى لا يأتى الفشل وتذهب القوة والنصرة . كما يأمرهم بالصبر ، وهو أمر محمود فى كل المواطن خصوصًا الحروب .

ثم يحذر المؤمنين - مرة أخرى - من أن يكون خروجهم للقتال رياءً ومفاخرة .

وتخص الآية وتذم أباجهل وأصحابه الذى قال : « إن كنّا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة ، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة ، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَردَ بدرًا فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان . . . حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد »(٢) .

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

أغرى الشيطان أولياءه الكفار أنه معهم ، يحارب معهم ، وأنهم على حق فى قتالهم ، لأنهم يحاربون على دين آبائهم ، وقال لهم ﴿ إنى جار لكم ﴾ سأقاتل معكم حتى

---

(١) الرعد : ٢٨ .

(٢) تفسير القرطبى جـ٨ / ص ٢٥ .

تنتصروا . ولكن الله أمدّ رسوله والذين معه بعونه . فأرسل جبريل والملائكة يقاتلون عن المؤمنين . ففر الشيطان هاربًا من المشركين وقال لهم ﴿ إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ . ونكص على عقبيه - أى أدبر مسرعًا - وقيل إن إبليس خاف أن يكون يوم بدر هو اليوم الذى أُنظر إليه .

إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن
يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قال المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى ضعيفو الإيمان حديثو العهد بالإسلام ، الشاكّون وهم دون المنافقين ، قال هؤلاء وهؤلاء عند الخروج إلى القتال : ﴿ غرّ هؤلاء دينهم ﴾ مشيرين إلى جماعة المسلمين . أو أن المقصود من هذه الفئة هم الكفار الذين قالوا ذلك عندما رأوا عدد المسلمين صغيرًا وقوتهم ضعيفة فظنوا أنهم سيهزمونهم . وهذا من جهلهم ولكنّ المؤمنين كانوا متوكلين على الله واثقين بصدق نبيهم ، فثبتهم الله وانتصروا .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ
وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

إن منظر توفى الملائكة للكفار يوم بدر لمنظر عظيم فظيع منكر ، إذ يضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم قائلين لهم : ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ فشوهت وجوههم وظهورهم وأدبارهم ، فيعودون كما كانوا فيهلكون مرة أخرى غير منقطعين ، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم ، لأن الله ليس بظلام للعبيد ، أى لا يظلم أحدًا من خلقه ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ
وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ
وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

إن الذين يكذبون اليوم بما أنزل على محمد متساوون فى الكفر بآل فرعون وبالذين من قبلهم من الكفار من قوم لوط وهود وشعيب ، ومن يماثلهم من الظالمين حتى قيام الساعة . فعذبهم الله بسبب ذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب . هذا العقاب لم يكن الله مجريه عليهم بدون سبب ، ولكن بسبب تغييرهم وتبديلهم نعمة الله ، وهذا من تمام نعمة الله وعدله وقسطه ، وهو أحكم الحاكمين ، لا يغير نعمة على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه هو .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ
فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً
فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

أشر من يدب على وجه الأرض هم الذين كفروا بنعمة الله الذين لا يؤمنون .

هؤلاء من صفاتهم نقض العهود ، ولا يخافون سوء العقاب على هذا العهد وتلك المواثيق . والمراد بهؤلاء القوم هم بنو قريظة وبنو النضير ، وهذا هو دأب اليهود الدائم ، وعلى المسلمين أن يحذروا من عدوهم ، لأن فتنة العصر قد اجتاحت ساحتنا . فنكل بهم يا محمد عند ظفرك بهم فى حرب ، وأسرهم لعلهم يتذكرون بوعدك إياهم ، ولا ينقضون العهود . وإن خفت الخيانة من هؤلاء القوم بالعهود فاطرح إليهم عهدهم فى وجههم إنهم منبوذون . ومعنى ﴿ على سواء ﴾ أى على مهل « أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أى تستوى أنت وهم فى ذلك » (١) فإن الله لا يحب الخائنين، حتى ولو كان على الكفار أنفسهم .

---

(١) ابن كثير جـ ٢/ ص ٣٢٠ .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

لا تحسبن من أفلت من الكفار يوم بدر أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم تحت سلطاتنا وقدرتنا فلا يعجزوننا ، إذ العبرة بالنهاية ، والنهاية بأيدينا .

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وأعد لهم يا محمد أنت وأمتك من عدة القتال ما ترهبهم بها ، فنظم جيشك ، وجهز سلاحه على أقوى ما تستطيع من السلاح والرجال وكل ما يساعد على التقدم والتفوق فى كل مجالات الحياة .

بل إن من واجبنا اليوم امتلاك الذرة والنوويات وكل ما أحدثه العلم من عدة السلاح : صواريخ موجهة . قنابل ذرية . أقمار صناعية . كل علوم الحرب يجب أن نملكها ونصنعها لنصون بها عشرتنا بالله ثم بما أمرنا الله به .

واعلموا أيها المسلمون أنه مهما أنفقتم من جهدكم ووقتكم فى الجهاد فإنه يرد إليكم ، ويوفّ إليكم على أكمل وجه .

إنه قرار بالتكليف بإعداد العدة كما هى فى عصرنا الحديث ، من ذرة ومشتقاتها . ذلك واجبنا اليوم ، لنكون أمة الإسلام كما أرادها الله سبحانه وتعالى ، ولنخرج من الذلة والهوان الذى نحن فيه ، ونملك أمرنا ، ونعيد سيادتنا فى الأرض ، ونقيم خلافتنا . فنعيد للإنسان كرامته ، وللعالم سكينته ، ونوقف غطرسة الإنسان المتمرد على أمر الله .

وعندما نخلص النية لله ، ونعد العدة لحرب عدوه ، يبعث سبحانه الرهبة والخوف فى قلوب أعداء الإسلام .

۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بالحرب والاستعداد الكلى لها فى الآية السابقة ، وكلف

المسلمين بالاستعداد الكامل بعدة القتال قال سبحانه : ﴿ وإن جنحوا للسلم﴾ أى مالوا إلى السلام والمصالحة .

وبذلك يكون الأصل هو الاستعداد للحرب ، وإعداد عدته على أكمل وجه ، وبذلك يجب على المسلمين أن يتفقهوا ويدرسوا شئون الحرب والجهاد لعامة الأمة وخاصتها مع وجود الجيوش الحديثة المتخصصة . كما يجب عدم إعفاء أى فئة من الشعوب الإسلامية من التدريب على الدروس فى شئون الحرب ، فى مراحل التعليم ، ثم يكون التخصص والدراسات العليا فى فنون الحرب للجيوش النظامية . هذا ما يأمر به الإسلام ويجعله واجبًا حكميًّا .

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ إذا تأكد المسلمون من صدق عدوهم فى طلب المسالمة ، والنزول على أمر الله . وهذا هو الدليل على صدق النية . ويجب على النبى أو الأمير أن يفاوض فى أمر المسالمة دون إجبار أو إرغام على اعتناق الإسلام . ولكن يترك لهم الخيار بين الجزية أو الإسلام . والجزية هى تساوى ما يدفعه المسلمون من الزكاة .

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ
وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ
بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾

واعلم يا محمد أن الكفار لا يستطيعون أن يخدعوك أو يخدعوا من ينوب عنك من حكام المسلمين الملتزمين بسنتك وبكتاب الله . فالله مؤيدك بنصره ومن سار مسيرتك من المؤمنين . ولن يستطيع غير الله أن يؤلف بين المؤمنين ، فقد منّ الله عليهم بأن ألف بين قلوبهم ، وجعلهم أتباعك ، مؤيدين بنصره . ولن تستطيع أن تؤلف بينهم يا محمد حتى ولو كلفك ذلك ما فى الأرض جميعًا . ولكن الله هو الذى يربط على قلوبهم . وجل قوله سبحانه : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾

أى كافيك وناصرك ومؤيدك على العدو هو الله سبحانه وتعالى ، الذى ألف بين قلوب المؤمنين ، وألّفهم إليك ، وتجمعوا حولك .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ
يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ
قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن
مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ
ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

فيا محمد حرض المؤمنين على القتال ـ وابعث فيهم روح الجهاد والمثابرة ، وقتال أعداء الله . فإن كنتم قلة فالنصر من عند الله .

ثم يشرح الله لنبيه ولخلفائه من بعده أن الانتصار ليس بكثرة العدد ولكن بما وقر فى القلب من الصدق ، والإخلاص والاندفاع للقتال مع اليقين بالجنة لشهداء المعركة . والله يهب المؤمنين قوة من لدنه . فالمائة المؤمنة تغلب ألفا من الذين كفروا ، والمائة الصابرة تغلب مائتين ، والألف تغلب ألفين .

هذا عطاء ما فوقه عطاء . إنه إكرام الحق للمجاهدين . إنه سبحانه **﴿ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلون وعدا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ﴾**(١) .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَـٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ

---

(١) التوبة : ١١١ .

أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

نزلت هذه الآيات عقب انتصار المسلمين فى موقعة بدر . ونحن نعلم قصة مشاورة النبى صاحبيه أبا بكر وعمر فى أمر الأسرى . فكان رأى أبى بكر الفداء ، ورأى عمر القتل . ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مال إلى رأى أبى بكر . ونزلت الآيات معارضة لأخذ الفداء .

وبعد العفو أباح الله الانتفاع بمال الفداء حيث قال : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيبًا﴾ .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ
خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ
فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

هذا منتهى الرحمة من الله سبحانه . « قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافًا جازمًا ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إنْ تكلّم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنًا ، وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرًا . . . وقد بين الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحقيقة فقال : ﴿وإن يريدوا خيانتك ﴾ أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرًا فقد خانوا الله من قبل بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك ، وإن كان هذا القول منهم خيرًا ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرًا مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم » (١) .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن
وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ٨/ ص ٥٥ .

عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

قسَّم الله المؤمنين إلى أصناف : مهاجرين خرجوا من ديارهم ، وجاهدوا بأموالهم وانتصروا لدين الله وإقامته وإظهاره . وأنصار وهم أهل المدينة فى ذلك الوقت الذين فتحوا قلوبهم قبل دورهم ومتاعهم لإخوانهم المهاجرين ، تجمعهم أخوة فى الإيمان ، ومحبة فى الله ، وانتصروا لله وللرسول بروحهم وأموالهم . فهؤلاء وهؤلاء بعضهم أولياء بعض من أجل ذلك آخى حبيب الله بينهما . وجل قول الحق : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾ (١) .

وهناك صنف ثالث من المؤمنين : هم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل آثروا البقاء فى ديارهم .

ومن عدل الإسلام وعظمته أنه يأمر جماعة المسلمين أن ينصروا هذه الفئة إن طلبت النصرة يومًا ما إلا فى حالة واحدة وهى حالة طلبهم النصر « على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته » (٢) .

أما الكفار فبعضهم أولياء بعض .

وقد حذر الله المؤمنين من موالاة المشركين وهددهم إن لم يجانبوهم ، فستقع الفتنة فى الناس ، ويختلط الفاسد بالمؤمن ، والعاصى بالمسلم ، وينتشر الفساد بين الناس .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟
وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

هذا توثيق لأخوة المهاجرين والأنصار ومن استن بسنتهم ، وحذا حذوهم إلى يوم الدين . فياليت المسلمين يتعظون بكتاب ربهم ، وسنة رسولهم ، لعلّ عزتهم تعود ، وسيادتهم تسود . !!

---

(١) التوبة : ١١٧ .

(٢) تفسير القرطبى جـ٨ / ص ٥٧ .

(٩) سُورَةُ التَّوبَةِ مَدَنيّة
الا الآيتين الأخيرتين فمكيتان
وآياتها ١٢٩ نزلت بعد المائدة

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾

أنزل الله هذه الآيات الكريمة : يعلن فيها نقض عهد الذين نكثوا عهودهم ، وأن لهم أربعة أشهر يدبرون فيها أمرهم ، ويرحلون خلالها إلى حيث شاءوا ، وبعد ذلك يقاتلون أينما وجدوا .

ولذلك لم يبسمل فى أولها كعادة كل السور ، جريًا على عادة العرب الذين كانوا - كما يقول الإمام القرطبى - إذا نقض أحد الطرفين المتعاهدين عهدًا أو أرادوا ذلك أرسلوا إليهم كتابًا ولم يكتبوا فيه « البسملة »⁽¹⁾ .

وفور نزول هذه الآيات : ألحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بن أبى طالب بأبى بكر - رضى الله عنهما - فى موسم الحج ، ليقرأ على المشركين هذه البراءة منهم . فإن تابوا وآمنوا فهو خير لهم ، وإن تولّوا فليعلموا أنهم غير معجزى الله . ثم يعلن الحق أن هؤلاء الكافرين لم ولن يكونوا معجزين الله سبحانه وتعالى ، فهو القوى العزيز القادر على كل شيء . وأنذر يا محمد هؤلاء الكفار إن لم يرجعوا إلى الله ويؤمنوا بعذاب أليم وخزى دائم ؛ لذلك يؤكد الله هذا المعنى فى الآيات التالية أيضًا قائلاً :

وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٨/ ٦١ وما بعدها .

وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

المعنى أن الله برىء من المشركين إلا المعاهدين فى مدة عهدهم ، الذين لم ينقضوا المسلمين شيئًا ، الذين ثبتوا على العهد ، فأمهلوا هؤلاء إلى مدتهم . ومعنى ﴿ لم يظاهروا﴾ لم يعاونوا . فهؤلاء أبقوهم إلى مدتهم وإن فاقت أربعة الأشهر . و ﴿ الحج الأكبر ﴾ هو يوم النحر لأنه أعظم المناسك ، ولذلك « حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ أى الموفين بعهدهم » ⁽¹⁾ .

إن الله سبحانه وتعالى يحب لعباده الخير والإسلام . فها هو ذا سبحانه يحرض على ذلك المؤمنين بأن يعينوا التائب الموفى بعهده حتى يبلغ مأمنه أى مكان إقامته وأمنه ، وذلك لأن الكافرين قوم لا يعلمون ، فالإسلام بالخيار لا بالجبر ويجب على المسلمين أن يبينوا للناس معالم الإسلام ثم على الناس أن يختاروا ، وما على الرسول إلا البلاغ .

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟
سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

إذا انتهت الأشهر الأربعة التى ضربها الله لهم موعدا لرجوعهم عن النكث ومخالفة العهد ولتصريف أمورهم فيها ، فقد تم العهد وأصبح للمؤمنين أن يطلبوا منهم : إما إسلامهم وإما الأسر أو القتل أينما وجدوا . وللمسلمين أن يترصدوا لهم أينما كانوا إلا أن يتوبوا ، فإن تابوا وأعلنوا إسلامهم وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعند ذلك يصبحون إخوانكم فى الدين ، لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وعندها تُخلّى سبيلُهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٥ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . . فإذا قالوها : عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (١) .

من هنا كان أمرُ الله لنا ألا نكتفى بمجرد ملاقاتهم فقط لنقتلهم ، بل أمرنا بالترصد لهم والتخفى والخدعة والإتيان بهم من كل مكان يختبئون فيه ، وهذا أدعى للإنهاء عليهم وأقوى لمحاربتهم . عن على بن أبى طالب قال : بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأربعة أسياف : سيف فى المشركين من العرب قال تعالى : **﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾** . (٢) والسيف الثانى هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : **﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عند يد وهم صاغرون ﴾** . (٣) والسيف الثالث قتال المنافقين فى قوله **﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾** . (٤) والسيف الرابع قتال الباغين فى قوله **﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ﴾** (٥) ، (٦) .

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

إذا طلب الأمن والأمان أحد المشركين الذين أمرك الله بقتالهم : فعليك يا محمد أن تجيبه إلى طلبه حتى يعود إلى الإسلام والقرآن . وهذا هو معنى **﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾** . فهم ، أى المشركون الطالبون الأمان ، فى حال مستمرة من الأمان إلى أن يهتدوا . كل ذلك ليعلموا دين الله وسماحةَ الإسلام . ثم بعد ذلك بين الحق سبحانه حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف أينما ثقفوا ، فقال تعالى :

---

(١) رواه : البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .
(٢) التوبة : ٥ . (٣) التوبة : ٢٩ . (٤) التحريم : ٩ .
(٥) الحجرات : ٩ . (٦) ابن كثير ٢/٣٣٦ .

كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

يبلغنا الحق أن نفى بالعهد ماداموا يفون بعهدهم . يقول القرطبى قال ابن زيد : «فلم يستقيموا فضرب لهم أجلاً أربعة أشهر . فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب » (١) .

كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ
وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

إنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد وهم لو تمكنوا من المسلمين وعلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة (٢) .

و ﴿ إلا ﴾ يعنى قرابة ، وقيل : عهدا ، والذمة : العهد . وأكثرهم فاسقون لغلظة قلوبهم .

ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي
دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً أى « اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة » (٣) . ومعروف أن الباء تدخل على المتروك . ولجهلهم أيضًا صدوا عن

---

(١) تفسير القرطبى جـ٨ ص ٧٨ .

(٢ ، ٣) ابن كثير جـ ٢ ص٣٣٨ .

سبيل الله ودعوا إلى غيره . إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى المؤمنين عهدًا ولا يخافون ميثاقًا لله ولا لعباده ، إنهم أهل عدوان على الحق وأهله .

أما الذين نكثوا أيمانهم من بعد إعلانهم الإسلام وازدادوا فجورًا فطعنوا فى الدين وعابوه وحاربوه ، فيقتل أئمةُ الكفر منهم إنهم منافقون لا أيمان لهم حتى ينتهوا .

فيا أمة الإسلام : طهروا صفوفكم منهم إنهم مجرمون لا أمان لهم لعلهم ينتهون بالهلاك أو بتوبة صادقة تصلح مسيرتهم فتجعلهم معكم على صراط مستقيم . وأئمة الكفر فى الآية : أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف ومن على شاكلتهم .

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قاتلوا المشركين أيها المسلمون فتنالوا شرف تعذيب الله لهم بأيديكم ، ولتنال تلك الأيادى المجاهدة شرف البذل والجهاد فى سبيل الله ، وإن الله مخزيهم وهازمهم بكم وناصركم عليهم ، وسبحانه وتعالى يشفى صدور قوم مؤمنين يحبهم ويحبونه ، وإنه سبحانه لمذهب غيظ قلوبكم وبفضله يذيقكم حلاوة الإيمان به ويتوب عليكم وهو بفضله يتوب على من يشاء من عباده .

يقول ابن كثير : « هذا .. تحضيض وتهييج وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة »(١) .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص٣٣٩ .

هذه الآية نظير قوله تعالى ﴿ الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (١) ونظير قوله تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (٢) .

و ﴿ وليجة ﴾ أى : بطانة ، والمعنى : مودة من دون الله ورسوله .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ
فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ينبه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ما ينبغى للمشركين أن يدخلوا مساجد الله ويعمروها كالمسلمين المخلصين العابدين وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر من أول يوم ، فهؤلاء أعمالهم هباء ، وفى النار هم فيها خالدون . إنما المعمرون مساجدَ الله هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يخشوا إلا الله ، فهؤلاء هم عمار البيت وهؤلاء هم المهتدون .

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ
مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

إن الأجر على العمل يختلف فى الكثرة والقلة ، فليست صلاة الفرض كالنافلة وليس

---

(١) العنكبوت : ١ ـ ٣ .

(٢) آل عمران : ١٤٢ .

الحج تغنى عنه العمرة وكذلك سقاية الحاج وخدمته وخدمة المسجد الحرام لايغنى عن الإسلام وعن توحيد الله سبحانه وتعالى والجهاد فى سبيله . فإن أضيفت إلى العبادات سقاية الحجاج وخدمة المسجد الحرام فمقبولة بإذن الله الذى لا يرد توبة تائب ويتجاوز عن كثير لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وأحسن فى توحيده وأخلص لله عبوديته . هؤلاء هم الذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله وصدقوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاهدوا بكل ما يملكون من أنفس وأموال لإعلاء كلمته وإقرار شرعه والحكم به ، هؤلاء أعظم درجة عند الله ولهم الفوز العظيم بجنات عرضها السموات والأرض جزاءً لهم على حسن العمل وحسن الجهاد وصدق النية وتخلصها من الدنيا ومفاتنها لتكون لله غير مشوبةٍ برياءٍ أو نفاق ، فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا . هؤلاء يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان لهم فيها حقًّا نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدًا . ﴿ **إن الله عنده أجر عظيم** ﴾ لمن خاف مقامه فعمل للقائه فصلح وأصلح .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟
ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا
وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

إن القرابة الحقّة ليست قرابة الدم ، ولكنها قرابة العقيدة ، وجميل أن تجتمع قرابة الدم مع قرابة العقيدة والأخوة فى الله فقامت بالله مباركة زكية لا تخشى الموت ولا تهابه مادام المراد هو الله . والآية خطاب لجميع المؤمنين وهى باقية الحكم إلى يوم القيامة فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين (١) .

---

(١) تفسير القرطبى ٨/ ٩٣ .

وقد خص سبحانه الآباء والإخوة لأنه لا قرابة أقرب منها بالنسبة للإنسان « فنفى الموالاة بينهم» ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان » (١) .

ولله در قول الشاعر:

يقولون لى دار الأحبة قد دنت وأنت كئيبٌ إنّ ذا لعجيبُ
فقلت وما تغنى ديار قريبةٌ إذا لم يكن بين القلوب قريبُ
فكم من بعيد الدار نال مراده وآخر جارُ الجنْب مات كئيب

هذه هى المودّة الحقيقية مودة الإيمان والحب فى الله ، وليس هناك من هو أحب إلى المؤمن من الله ورسوله **﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾** (٢) .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) (٣) .

وهكذا من يرض بالشرك فهو مشرك .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

هنا يذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بيوم حنين ، حين أعجبتهم كثرتهم وظنّوا أنهم بها ينصرون ولكنهم هزموا لأن النصر من عند الله ، والقتال سبب ظاهر أما النصر فهو أمر

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ٩٤ . (٢) المجادلة : ٢٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ورواه مسلم كتاب « الإيمان » باب « وجوب محبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ » .

يستره الله لأمر عنده ، والكثرة لا تفيد إذا صحبها الزهو والغرور وانصرفت عن رجائها لله وحبها له ، لذلك ، فقد هزمتم يوم حنين وأنتم كثرة ولولا فضلُ الله ورحمته وإنزاله السكينةَ عليكم وإنزاله جنودًا للحق لم تروْهم لهلكتم ، ليعلمهم درسًا لا ينسى أن النصر من عنده وحده فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

وكانت وقعة حنين هذه بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان للهجرة بعد تفرغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فتح مكة وهدوء الأمور وإطلاق أهلها ، فجمعت له قبيلة هوازن جيشًا كثيفًا ليقاتلوه ، فخرج إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من المقاتلين مهاجرين وأنصارًا والتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين . . . (١) .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ بعد الهزيمة نصر الله نبيه وأسلمت هوازن وقام الرسول فقسم الغنائم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ
بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن
شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾

الآية تنهى عن أن يقترب المشركون من المسجد الحرام لأنهم نجس والدخول كان منهيًا عنه سنة عشر للهجرة . ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أى مالاً أو فقرًا أو انقطاع معاش فسوف يغنيكم الله من فضله . ذلك لأن المشركين الذين منعوا دخولَ المسجد الحرام كانوا يجلبون الأطعمة وأنواع التجارة المختلفة ، فوسوس الشيطان إلى المسلمين بأن قالوا : من أين نعيش وكيف ؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله الواسع سبحانه هو المغنى . أما أن يدخلوا المسجد الحرام بعد ذلك فهذا أمر نهى الله عنه .

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

---

(١) القصة كاملة أوردها ابن كثير جـ ٢ ـ ص ٣٤٣ وانظرها بتوسع ـ فى كتب السيرة .

وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟
ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

وكما أمرهم أن يقاتلوا الكفار المشركين ، أمرهم أن يقاتلوا الذين أوتوا الكتاب من الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق حتى يعطوا الجزية عن قهر وهم مذلولون حقيرون مهانون . يقول ابن كثير : « فلهذا لايجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين » .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ
ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ
قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟
إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يقرر المولى أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، ولكنهم يتخذون عزيرًا ابنًا لله لأنه كتب التوراة لما فقدت بعد موت موسى عليه السلام فادعوا أنه ابن الله ، ولانعلم كيف كتبها ؟ هل كان يحفظها ؟ أو هل كانت عنده أصول ؟ الله أعلم . ولازالت اليهود تقدس عزيرا ويسمونه عزره . وكذلك ادعت النصارى أن المسيح ابن الله ، وبذلك يكون التقارب بين اليهود والنصارى فى قول الباطل ، لأن مورد معارفهم واحد وهو الافتراء والكذب على الله . وقوله ﴿ **يضاهئون** ﴾ أى يشابهون . وقد ردّ الله عليهم فأخزاهم ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون** ﴾(١) .

---

(١) المائدة : ٧٥ .

إن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم اليهود ورهبانهم النصارى أربابًا من دون الله ، واتبعوهم فى كل ما حللوه لأنفسهم وما حرموه ، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ، تعالى الله وتقدست صفاته إنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . هكذا أمروا ولكنهم خالفوا .

إن مرادهم هم واليهود إطفاء نور الله وحصار دينه ، لكن الله يأبى أن يُطفأ نورُه حتى لو كرهوا ذلك ، وإن الله سبحانه وتعالى متم نوره بقيام الإسلام وقيام دولته وعودة خلافته ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله .

يقول الهادى البشير ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزًا ويذل ذليلاً عزًّا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر » (١) .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ
ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ
ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾
يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ
هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

هاتان الآياتان نزلتا فى الأحبار وهم رجال الدين اليهود ، وفى الرهبان والقساوسة : رجال الدين فى المسيحية .

ويبين الله هنا أن رهبان النصارى وأحبار اليهود فى خصائص طباعهم وغرائزهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويكنزون الذهب والفضة ويضنون بها على غيرهم ويحرصون على كنزها وإكثارها ويمتنعون عن إنفاقها فى سبيل الله ، كما أن هؤلاء الرهبان والأحبار والقساوسة يصدون عن سبيل الله وعن الإسلام وهم يعلمون من كتبهم أنه

---

(١) الحديث عن تميم الدارى ورواه : الشيخان ، والإمام أحمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير . والحاكم فى المستدرك ، وسعيد بن منصور فى سننه .

الحق وأن محمدًا رسولُ الله وخاتم أنبيائه ، ولكنهم أنكروا ليظلوا مالكين متاع الدنيا ينكرون الحق ويدعون إلى الباطل ويستمرئون فى ظلماته . فجزاؤهم فى الآخرة ويوم القيامة أن يتحقق قول الله سبحانه فيهم ﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ وتمر عليهم خزنة النار قائلين لهم ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

وحقًا قوله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ (١) وحقًا قوله ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى ﴾ (٢) .

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦

أربعة أشهر حرم ، ثلاثة منها متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثم رجب .

هنا عاد الحق مرة أخرى للحديث عن أهل الشرك والكفر وعن تحريفهم فى نظام الأشهر القمرية التى ارتضاها الله سبحانه وتعالى مواقيت لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فهذه مواقيت الله لا البشر ، فمن حاد عنها حاد عن نظام الله فى التوقيت لأنه نظام مرتبط بنظام الخلق كونًا وبشرًا وحياة ونشورا ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم بمخالفة أمر الله ، لأنه بطاعته تسعدون وتأمنون وتسودون . وفى غير الأشهر الحرم لكم أن تقاتلوا المشركين كافة بغير استثناء حتى يرجعوا للحق الذى فيه حياتهم ونجاتهم . لذلك فقد «خصّ الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر ، ونهى عن الظلم فيها تشريفًا لها ، وإن كان منهيًا عنه فى كل الزمان » . (٣) ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ .

---

(١) النحل : ٩٦ .

(٢) الأعلى : ١٦ ، ١٧ .

(٣) القرطبى جـ٨ ص١٣٥ .

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا
وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ
سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

النسىء هو تأخير الشىء عن موعده ، وهو التغيير والتبديل فى نظام وترتيب الأشهر الحرم والإتيان بها فى غير مواقيتها من السنة القمرية . مثلاً تبديل شهر مكان شهر حيث كانوا يحتاجون إلى القتال فى المحرم مثلاً ، ولأن المحرم محرمٌ فيه القتل كما أمر الله فيقاتلون فيه رغم ذلك ثم يحرمون شهر صفر وهذا نسيء . وأيضًا هو الإتيان بالحج فى غير موعده المشروع . فالتغيير والتبديل فى نظام المناسك حرام وكفر ، والله سبحانه وتعالى يهدى إلى الحق . والله لا يهدى القوم الكافرين لأنهم يحلون النسيء عامًا ويحرمونه عامًا ويبدلون ويغيرون الشهر مكان الشهر حتى تبقى الشهور أربعة كما قال الله ، وكأنهم يظنون أنهم يضحكون على خالق السموات والأرض ، لذلك فقد فضح الله سرائرهم فقال ﴿ ليواطئو ﴾ أى ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة التى ذكرها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

مالكم ؟ ما اسم استفهام معناه التقرير والتوبيخ . والمعنى : أى شىء يمنعكم عن تلبية الجهاد ؟

يقول ابن كثير «هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر » (١) . والمعنى أنكم تتكاسلون وتميلون إلى الدعة والراحة والاستكانة عن الجهاد والحرب . ويقول القرطبى

---

(١) ابن كثير : ٢ / ٣٥٧ .

«عاتبهم الله على إيثار الراحة فى الدنيا على الراحة فى الآخرة إذ لا تُنال راحة الآخرة إلا بنصب الدنيا (١)» .

إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

تهديد شديد ووعيد لهؤلاء الذين رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، والذين نسوا أن أعظم الزاد جهاد فى سبيل الله يشترى به العبد الآخرة .

وفى عصرنا هذا أصبح المسلمون لاوزن لهم ، إلى أن يعودوا للجهاد يمارسون فيه وبه الحياة . وياليت المسلمين اليوم يعقلون ذلك فيدرسوا القرآن ثم السنّة من جديد ، كى يعلموا أن عزّة الإنسان المسلم وكرامته متوقفة على أن يبذل نفسه وماله وجاهه فى سبيل الله ، فينال الخلود فى الدنيا تاريخًا ومجدًا وسمعةً حسنة ، وفى الآخرة مغفرة من الله ورضوانًا وجنات عرضها السموات والأرض . والعبد المسلم عندما يوثق حياته بالجهاد فقد اشترى من الله جنة ورضوانًا ، وبالجهاد والشهادة ينتصر الإنسان المسلم على شهواته الدنيا ويرقى إلى معالى المعرفة بالله فيعيش فى الدنيا سيدًا وله فى الآخرة مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن المسلمين لو عادوا إلى الجهاد يقاتلون فى سبيل الله يدعون إليه بصدق نية فى مرابطة ومثابرة لا يخشون فى الله لومة لائم ولا يخشون الدنيا ، فمعية الله لهم نصر مبين وليعلموا أن العزة فى البذل فى سبيل الله بذلاً نفسيًا وماليًا وبالولد والزوج . فالجهاد فى بدايته عزيمة وخاتمته نصر وفوز مبين ، فهل يعود للمسلمين رشدهم فيرتدوا حلل الجهاد ويبايعوا الله بيعة رجل واحد ؟ لعل الله ينعم عليهم فيخرجهم من ذلك الذل المخيم عليهم بسبب احتكامهم إلى غير ما أنزل الله ؟ اللهم ارزقنا حب الجهاد وألبسنا حلله ، حتى تعود إلينا عزتنا ، فنسود العالم من جديد ، وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ

---

(١) القرطبى جـ ٨/ ١٤١ .

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

إن لم تعينوا نبيكم وتنفروا معه فى غزوة تبوك لقتال الروم فالله كفيل به ينصره كما نصره فى مواطن كثيرة وأظهره على عدوه بالنصرة والغلبة . فقد نصره فى غار ثور ليلة الهجرة . فنصره الله منفردًا ونصره أحد اثنين هو وصاحبه وأيده بجنود لم تروها من الملائكة ، ليتم أمرُ الله وتكون كلمته وحكمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله « عزيز فى انتقامه حكيم فى أقواله وأفعاله » .

ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾

أمر من الله أن ينفروا للجهاد عامة شبابًا وشيوخًا مشاغيل وغير مشاغيل من له عيال ومن ليس له ، صاحب الضيعة ومن لا ضيعة له رجالاً وفرسانًا شجعانًا وجبناء .⁽¹⁾ والمعنى أنهم أمروا جميعًا سواء أخفت حركاتهم أم ثقلت . وتلك دعوة عامة للجهاد فى كل الحالات بالنفس والمال ، وذلك من ورائه خير كثير لا يعلمه إلا الله .

لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

مازال الحق يوبخهم فى استكانتهم وركونهم إلى الراحة واستنامتهم عن الجهاد ، فيبين لهم مدى جبنهم وتكالبهم على أتفه الأشياء التى لو دعوا إليها لولوا إليها ورغبوا فيها و﴿لو كان عرضا﴾ أى : منافع الدنيا التافهة ، والمعنى : نفع أو غنيمة قريبة ، أو دعوا إلى سفر قصير مقصود غير شاق لو دعوا إلى ذلك أو ذاك لاتبعوك يا محمد ، ولكن بعدت عليهم الشقة أى مشقة السفر . وساعتها يحلفون لك بأغلظ الأيمان أنهم لو

---

(١) أورد الإمام القرطبى عشرة أقوال لمعنى خفافا وثقالا ذكرنا منها بعضها ـ راجع القرطبى جـ٨ ص١٥٠ .

استطاعوا الخروج معك لخرجوا ، ولكن يقولون عندنا قصور فى الظهر والمال . ولكنهم بكذبهم هذا ونفاقهم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون .

إن القاعدة فى الإسلام عندما ينادى الإمام وهو خليفة المسلمين للحرب يستجيب له الكل عدا أصحاب الأعذار ، وقد كان الأولون من الصحابة يجاهدون بالنفس والمال . ألم يجهز عثمانُ بنُ عفانَ جيشَ العسرة كله من ماله الخاص يرجو بذلك رضا الله لا يطلب به دنيا ؟!!

والمسلمون يجب أن يكونوا دائمًا على استعداد للحرب والجهاد ، وهو ما يعرف فى زماننا هذا بالتجنيد العام الإجبارى . فالإسلام غائب ويجب أن يعود بأمة حاكمة بما أنزل الله وخلافة رشيدة فى قولها وفعلها . ولن تعتدل الموازين فى الأرض إلا بقيام دولة القرآن مسيطرةً على العالم كله . والمؤمن الحق هو الذى يخرج للجهاد لا يبغى دنيا يصيبها ، ولكن يرجو رضوان الله وحسن المقام فى الآخرة اللذين هما نيته وقصده ولو بذلت فى سبيل ذلك النفوس والأموال والجاه . أما الذين يساوون بين الدنيا والآخرة إنما يهلكون أنفسهم .

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

لقد عفا الله عنك ياسيدى يا رسول الله لم أذنت لهم فى الخروج معك للقتال بغير نية صادقة وعزيمة قوية على الجهاد ؟ وقيل إن العتاب على الإذن لهم بأن يتخلفوا عن الجهاد لاعتلالهم بأعذار . فلم أذنت لهم يا رسول الله وأنت حبيبى ومصطفاى ورسولى إليهم لا أتركك بدون وحيٍ قرآنى ينزل عليك فلم تنتظر وحيًا أو قولاً فصلاً ؟ ورغم ذلك لقد عفوت عنك يا محمد .

لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ
أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ

وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

إن الذين يستأذنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر القعود عن الجهاد والتخلف عن الحرب والخروج مع المسلمين إنما هم ضعاف النفوس وضعاف الإيمان . هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الذين شكت أفئدتهم فى صحة ما أنزل الله إليك وعليك ، وما يزالون على الطريق مترددين بين قعودهم وتقدمهم وبين جهادهم وتخلفهم ، فهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء حيارى .

ولو كان الإيمان قد خالط قلوب المنافقين لتنشطوا للخروج معك ليجاهدوا مع رسول الله والمؤمنين ، ولكن الله سبحانه يعلم ما فى قلوبهم من النفاق وضعف الإيمان ، ولكن الله كره الخروج لهم معك فحبسهم عنك وخذلهم وقعدوا مع القاعدين عن الجهاد. وثبّطهم أى أخرهم . ولذلك يبين الحق بعدها سبب بغضه الخروج لهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويوضح حكمته من ذلك وسبحانه هو العليم ، فيبين أنهم لو خرجوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما زادوا المسلمين إلا فسادًا وتخلفًا ونشروا بينهم النميمة والإيقاع بينهم ، إذْ يريدون أن يبعثوا الفتنة بين صفوف المؤمنين ويقلبوا الأمور عن مرادها الصحيح حتى يحولوا بين المؤمنين ونصر الله ، ولكن الله مظهر للحق ورافع راياته ولو كرهوا ذلك .

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ
وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

إن من هؤلاء المنافقين من يقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ائذن لى حتى لا

أقع فى الفتنة فى الخروج معك بسبب الجوارى الجميلات من بنات الروم ، وهو عذر غير مقبول مردّه إلى النفاق ، لكنهم سقطوا فى الفتنة فعلاً ورسبوا فيها بسبب تخلفهم هذا وأقوالهم هذه . إن المنافقين ليصابون بغم شديد وسوء وحزن عندما ينصر الله أهل الحق ويؤيد رسوله . وعندما تقع بالمؤمنين هزيمة اختبارًا وتمحيصًا من الله يفرحون بذلك ، ويقولون قد أخذنا أمرنا من قبل أى احتطنا وأخذنا حذرنا ولم نخرج معهم ولم نقتحم صفوفهم الأولى حتى لا يقع فينا القتل ، ولكن الله حرمهم الشهادة فى سبيله . هم يعتقدون فى مفهومهم أن التخلف عن الجهاد أنجاهم من القتل والفقد عند الهزيمة ، لكنهم جهلوا قيمة الجهاد والشهادة عند الله ، فهم نظروا تحت أقدامهم وقاسوا الأمور الإيمانية بنتائجها الدنيوية الظاهرة ونسوا حظهم من الآخرة . بلى ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ .

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١

إذا كان المنافقون يفرحون أنهم قعدوا عن الجهاد وبذلك قد فاتهم القتل ، وإذا كانت هذه نظرتهم للجهاد أنه نصر أو قتل وفناء ، فإن المؤمنين لا ينظرون إلى الهزيمة والقتل على أنهما فناء ولكنهما بقاء وخلود عند الله دائم : ﴿ **بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ قائلين لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا فى سابق علمه وكتابه ؛ فالنصر حسنى لنا أما القتل فهو أعظم حسنى لنا ، وهى شهادة ، فنحن غير يائسين من أى نتيجة ، فإما النصر أو الشهادة . « والمعنى كل شيء بقضاء وقدر »⁽¹⁾ .

قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢

إن الذين يتربصون بالمؤمنين ويتمنون لهم الشر لا يفلحون ، وإن المؤمنين حين يتربصون إنما يريدون طمس الباطل وإظهار الحق . ولن ينتصر الباطل على الحق أبدًا ،

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ١٥٩ .

وإن وقع أحيانًا فإنما لتمحيص المؤمنين وتقوية عزائمهم ليعاودوا القتال أشد قوةً من المرة الأولى .

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ
وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : مهما أنفق الكافر أو المنافق وتظاهر بالعمل وبالنفقة وأنها لله فالله عليم خبير يعلم سر النفس وجهرها . وإنما يتقبل الله من المتقين الذين يرجون بنفقتهم وجهَ الله والدار الآخرة ويسعون سرًّا وعلنًا لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة المنافقين والضالين والكافرين هى السفلى . والفسق تنطوى تحته كل الصفات الذميمة البغيضة ، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا . والأمر الذى كان سببًا فى أن رفض الله تعالى قبول صدقاتهم أنهم كفروا بالله ورسوله ، وهم يدّعون أنهم قد أسلموا وهم فى ادّعائهم هذا كاذبون ؛ فلو كانوا قد أسلموا ما أقبلوا على الصلاة وهم كسالى مترددون لا خشوع لهم ولا وجود ولا استحضار فى الصلاة ، كأنهم خُشُب مسنّدة . إنهم فى الحقيقة أموات وإن كانوا يتحركون . وإن أنفقوا ارتعدت أيديهم لأنهم لا ينفقون إلا مكرهين فقد غطّى النفاق على بشريتهم فأغرقهم فى الظلمات .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم
مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم يا محمد . ولا تتساءل أنت وأصحابك عن دنياهم فهى زيف . إن الله يريد أن يعذبهم بها فى الآخرة وهما (أى الأموال والأولاد) استدراج وفتنة لهم فيما هم فيه . والآية نظير قوله تعالى ﴿ أيحسبون أنّما نمدهم به من مال وبنين ﴾

نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ (١) ونظير قوله تعالى أيضًا ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ (٢) .

وهؤلاء الكافرون يحلفون بالله كذبًا أنهم من المؤمنين الموحدين معاشر أهل الإيمان ، والحقيقة أنهم قوم يفرقون أى يخافون « أن يُظهروا ما هم عليه فيُقتلوا » ، (٣) فلا تصدقوهم فإنهم أعداء لكم . وهى نظير قوله تعالى ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ (٤) .

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

إنهم أى المنافقين لو يجدون حصنًا يحتمون فيه أو مغارات بعيدة فى الجبال أو مدّخلاً (أى نفقًا) داخل الأرض لأسرعوا إلى كل هذه الأماكن يدارون أنفسهم فيها منكم ، «أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبة وودّوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عزّ ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سُرّ المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين» . (٥) و ﴿ يجمحون ﴾ أى يسرعون .

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا
ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

إن من المنافقين يا محمد من يعترض على فعلك فى الصدقات . إنهم إن كان لهم منها نصيب رضوا . ولكنهم لعدم قناعتهم فى نفوسهم يعارضون عملك فى الصدقات لأنهم يريدون أن تميزهم على غيرهم . وحاش لله أن يفعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا الحق والعدل والخير بما أمره الله سبحانه وتعالى . فما عليك يا محمد

---

(١) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) طه : ١٣١ .

(٣) القرطبى جـ٨ ص ١٦٤ .

(٤) المنافقون : ١ .

(٥) ابن كثير جـ٢ ص٣٦٣ .

من ضعاف الإيمان الذين إذا أعطوا رضوا وإن مُنِعوا غضبوا وضلوا عن الحق الذى أنت عليه . ولو أنهم رضوا بقسمة رسول الله لهم وأخذوا حقهم عن رضا وحب وإيمان بالله وبرسوله لكان خيرًا لهم ، فما عطاء الرسول إلا عطاء الحق سبحانه وتعالى ، ولا يفعل ذلك إلا المؤمن الراغب إلى الله المبتغى وجهه . والفعل يلمز معناه يعيب والمعنى أنهم يعبون فعلك يامحمد .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ
وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾

إن الصدقات لثمانية أصناف من المسلمين ، وفى هذا ردٌّ على اعتراض بعض من يلمز محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر الصدقة وكيفية توزيعها حيث تولى الله تعالى بنفسه عملية توزيعها وتقسيمها فى القرآن الكريم .

والفقراء هم أشد الناس احتياجًا من غيرهم ، فهم الذين لا يجدون قوت يومهم وعيالهم وأزواجهم لشدة فاقتهم وحاجتهم . أما المسكين فهو الذى عنده ولكن ما عنده لا يكفيه . أما ﴿ **العاملين عليها** ﴾ فهم الجامعون للزكاة . و ﴿ **المؤلفة قلوبهم** ﴾ هم الذين لا يتمكن إسلامهم حقيقة إلا بالعطاء ، فلا مانع أن تتألف قلوبهم بالمال(١) . أما قوله ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ ، فيجوز عتق المؤمن المملوك . ويجوز دفع الديات عن المسلمين المثقلين بالديون والمحكوم عليهم بالديات والحجوزات وما يماثله ويكون ذلك عن عجز .

أما ﴿ **الغارمين** ﴾ فى الآية فهم أقسام كما يقول ابن كثير : « فمنهم من تحمل حَمَالة أو ضمن دينًا فلزمه فأجحف بماله أو غرم فى أداء دينه أو فى معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم »(٢) .

وأما ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ فمنهم « الغزاة » .(٣) وعند الإمام أحمد أن الحج من سبيل

---

(١) وفى تحديدهم أقوال عديدة . انظر : القرطبى ٨/ ١٧٨ .

(٢) ابن كثير جـ ٢/ ٣٦٥ .

(٣) انظر : القرطبى ٨/ ١٨٥ .

الله . أما ﴿ ابن السبيل ﴾ فهو المغترب المقطوع به الطريق المسافر إلى بلد آخر ليس معه شىء ، فيعطى من الصدقات ما يعينه على نفقة سفره حتى يرجع إلى بلده وإن كان ذا مال .

وتلك الأبواب الثمانية فريضة على المسلمين القادرين فهى حكم مقدر بتقدير الله وحده ﴿والله عليم حكيم﴾ .

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

إن من المنافقين فريقًا يدّعى الإسلام إعلانًا أمام الناس . لكنّ سريرتهم مظلمة وقلوبهم مغلقة على ظلام دامس ، فهم يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجرحونه بالكلام فيه ويقولون عليه : هو أذن أى سمّاع ومصدِّق لكل من يحدثه شيئًا فكل من يقول له شيئًا عن فلان صدقه وإذا حلفنا ـ نحن ـ له كذب الأولين وصدقنا . ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير من يستمع القول فيقدره ويزنه وينزله منزلته . فالحق عنده مقبول والباطل مرفوض ، فالله وليه وهو سبحانه يتولى الصالحين الذين يصدقون رسول الله ويعادون من يكذبه ويعلمون بيقين أن رسول الله أذن خير يصدق المؤمنين ويثق فى مشورتهم ويحذر الكفار والمنافقين . ألم يتلق بأذنيه كلمات الله الخالدة وكذلك بقلبه وحواسه ؟ وحقًّا ﴿الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ .

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟
مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

درج المنافقون على إيذاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو منصرف عنهم . وما يزالون يؤذونه وهو يراجعهم ويقول ما بال أقوام يقولون أو يفعلون كذا وكذا . والمنافقون معروفون بنفاقهم ومداهنتهم ومواجهتهم أمام المسلمين المؤمنين بأكثر من وجه

فيحلفون أنهم مع المسلمين ليرضوهم ويقفوا موقفًا معاديًا لله وللرسول بعد ذلك أمام أنفسهم وأمام الآخرين ناسين أنه من يعاد الله ورسوله ويحاربه ويخالفه فإن له نار جهنم خالدًا فيها ، فويل للمنافقين من لقائه . أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ففى رضوان من الله ونعمه .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِءُوا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾
لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

المنافقون دائمًا يرتعدون لما يفعلون ومما يفعلون ، فالشيطان يزين لهم فيقول بعضهم لبعض إنا نخاف أن ينزلَ الله سورةً على محمد فتنشر عنا قبح أفعالنا وتفضح سرائرنا . وعندها يعود الشيطان يثبط عزائمهم فيظلون فى نفاقهم يتخبطون وفى بغيهم يترددون . وهذه هى عاداتهم الدائمة ووجه نفاقهم القبيح . فلا تعتذروا أيها المنافقون فلابد أن نعذبكم ولا يُعفى عن جميعكم بسبب مقالاتكم الفاجرة الخاطئة المجرمة .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

إن من خصال المنافقين أنهم ينهون عن المعروف ويصدون عنه ويأمرون بالمنكر ، ويمسكون أيديهم عن الإنفاق فى سبيل الله ، فعاملهم الله بمثل معاملتهم : نسيهم ، ومن ينسه الله فقد خرج من رحمته والعياذ بالله . إن المنافقين هم الفاسقون أى الخارجون عن طاعة الله الداخلون فى الضلالة . إنهم والكفارَ فى نار جهنم خالدون فيها .

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا
فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم
بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ
وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

يحذر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يفعلوا فعل اليهود والنصارى ، فيضلوا ويقترفوا من الآثام ما اقترفت الأمم من قبلهم سواء اليهود أو النصارى أو غيرهم من الأمم التى ضلت طريق أنبيائها فخاضوا فى طريق الضلال .

هذه الفرق قد ضلت طريقها وخسرت أعمالها فى الدنيا والآخرة . ثم يستمر الحق فى تذكير الأمة المسلمة فيقول : ألم تصلكم أنباء قوم نوح عليه السلام وكذلك عاد وثمود وغيرهم ؟!

كل هؤلاء الأقوام حاربت رسلها فكانت عاقبتهم الخسران فى الدنيا والعذاب فى الآخرة وتلك عاقبة الضالين عن طريق الأنبياء والمرسلين أولئك ليس لهم إلا النار وبئس مثوى المنافقين المتكبرين .

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

إن حُكم الله سبحانه وتعالى بأن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يبين دور

الوحدة بين المسلمين وأهميتها ، وأن الفرقة فى الرأى بين المسلمين مضيعة لجهودهم مثبطة لعزائمهم ، فما كان نصر المسلمين الأوائل حول رسول الله إلا لأنهم كانوا كالسوار حول المعصم . وبذلك أصبح من أوجب واجبات المسلم العامل توحيد صفوف أمته والعمل الدءوب على إلغاء الفرق والطرق والتقسيمات التى تعدد الجماعات فى الأمة فتضعف وحدتها وتبدد قوتها . وليكن لنا معاشر المسلمين درس من حكمة صلاة الجماعة والترغيب فى إقامتها بالمساجد . إن هذا يؤكد لنا أن الإسلام قوته فى تلاقى أفراد جماعته صفوفًا متراصة حول كتاب الله نتلو آياته فى ركعاتنا فى تلاق وحب . فهل آن الأوان لأن ننظر فى أمر الأمة وأين هى من كتاب الله ومن وحدة صفها حوله فى إخاء وحب واجتهاد وعمل؟ وعد الله عباده أهل الإيمان والتوحيد والصدق فى القول والعمل فى السر والعلن جنات تجرى من تحتها الأنهار هم فيها خالدون ، ولهم فيها مساكن طيبة فى جنات عدن ، ولهم أكبر من ذلك فيها وهو رضوان الله عليهم وذلك هو الفوز العظيم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟
بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ
فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ
وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أمر من الله العزيز الحكيم إلى نبيه بأن يجاهد الكفار والمنافقين ويشتد عليهم ، فإن جهنم مثواهم بنفاقهم ومقاومتهم للحق وبئس المصير . إنهم يحلفون بالله كذبًا وقد قالوا ما يغضب الحق سبحانه وتعالى من قول يخالف صدق الإيمان ونزاهة التوحيد . إنهم بظلمة قلوبهم كفروا بعد أن أعلنوا أنهم آمنوا فلم يكن لهم إسلام ولا إيمان . إنهم كفروا بعد إسلامهم وبعد أن أغناهم الله من فضله ، فما مصير من يفعل ذلك إلا أن يتوبوا بصدق وندم على ما وقع منهم من نفاق . إنهم إن فعلوا ذلك : يكن خيرًا لهم ، وإن تولوا وأعرضوا عن التوبة والاستقامة فسوف يعذبهم الله عذابًا أليمًا فى الدنيا والآخرة ، ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير .

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا
كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

ومن الناس الذين أسلموا من قالوا لو أتانا الله الرزق الواسع والمال العريض لنصدقن وسوف نكون من الذين صلح أمرهم مع الله ، ولكن لما أتاهم الله من فضله لم يفوا بها وعدوا وتولوا عن طاعته وهم معرضون عنها ، فأعقبهم ذلك نفاقًا فى قلوبهم وسيظل لهذا النفاق ظلمةٌ مخيمة عليهم حتى يلقوا الله يوم القيامة وهم فى خزيهم يتقلبون فى ظلمات إثمهم وبغيهم .

ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب سبحانه من عليم خبير يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يزال يفضح المنافقين وسرائرهم ، فيعيب عليهم نقدهم ولمزهم بالمتصدقين واعتراضهم عليهم ، بعد أن فضحهم الله فى بدايات السورة عندما قال ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ ، فإن تصدق الفقير بالقليل عرضوا به وإن أنفق الغنى قالوا مراءٍ . ثم يقول الحق لنبيه :

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يقول الحق لنبيه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ، فليسوا جديرين ولا أهلاً بهذا الاستغفار منك يا محمد . وكلمة السبعين فى الآية : لا يقصد بها التحديد

ولكنها مبالغة من العرب فى كلامهم وعدم المغفرة لهم بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين .

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟
يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٢)

يذم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الخروج للقتال فى غزوة تبوك ، وبخلوا وآثروا أن يمسكوا بأموالهم ضنًّا بها فى سبيل الله وتعللوا بأن الجو حار . ويقول لهم ربُّ العالمين إن نار جهنم أشد حرًّا ، ولو عقلوا لعلموا أن قيظ الحر فى الدنيا له ما يرطبه ولكنّ نارَ جهنم ليست بمنتهية .

إن المنافقين والكافرين خالدون فيها لا يخفف عنهم من عذابها ، وسيضحكون فى الدنيا والدنيا قليلة مهما طالت ، والعبرة بمن يأتى مستبشرًا يوم القيامة بما قدمت يداه ، والويل لمن يشاهد الموقف الشديد فيها ، إذ لا ولد يشفع له ولا والد . إنه يوم عصيب كل امرئ بما كسب رهين . وحقًّا ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ .

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟
مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ
ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣)

يقول الحق لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا عدت ومن معك من المؤمنين وجاءك طائفة من المنافقين فاستأذنوك ليخرجوا معك للجهاد فقل لهم لن تخرجوا معى أبدًا ولن تقاتلوا معى عدوًّا ، لأن شرف القتال لا يناله إلا الذين استقاموا على أمر الله . إنكم رضيتم بالقعود وخالفتم رسول الله فاقعدوا مع الخالفين الذين اشتروا الدنيا بالآخرة .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

احذر يا محمد أن تصلى على أحد منهم مات ولا تمشِ فى جنازته ولا تقم على قبره ، فقد فتحت لهم عرصات جهنم لأنهم كفروا بالله وتعالوا على الإيمان به وكذلك كذبوا رسوله وحادوا عن الطريق المستقيم وفسقوا عن الحق وانغمسوا فى نفاق الضالين فماتوا وهم كافرون . فالنفاق أشد من الكفر لأن الكافر صريح فى عدائه والمؤمنون يحذرونه ويتجنبون طريقه ، أما المنافق فيخدع ويراوغ حتى يوقع بالمؤمنين الصادقين ، فاحذرهم يا محمد حتى وهم فى سكرات الموت ، واحذر أن تعجبك أموالهم فإنها رجس يغريهم بها الشيطان ليوقعهم فى قاع جهنم ، واحذر كذلك أن تعجبك أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا فيعصوا الله بها .

وعدم صلاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ميت منهم فيها فوات كبير للخير تجاه هذا الميت . لم لا وهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة والشفيع يوم العرض على الله . والصلاة رحمة ودعاء .

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ
وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

إن الذين تخلفوا عن رسول الله وقعدوا عن الجهاد وهم قادرون عليه ، قد تلبست نفوسهم بعار النفاق والتقاعس عن طريق أهل التوحيد الصادقين ، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف من النساء والأطفال والشيوخ ، فإذا كان القتال كانوا أجبن الناس ، وإن كان أمْنٌ كانوا أول المتحدثين كلامًا . وهى نظير قوله تعالى ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم

ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾(١)

فسبحان الله خلق الحق وأهله وخلق الباطل وأهله . سبحانه حكم عدل لا يسأل عما يفعل لا إله إلا هو . فبعد أن عدّد مساوئ وذنوب المنافقين ، بين أن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا وبذلوا المال والنفس والولد والوقت والجاه فى سبيل الله بغير منٍّ ولا خيلاء ، ولكن فى تواضع وحب لله ثم لرسوله والمؤمنين . وقرر أن أولئك الخيرين الطيبين أهل الصلاح والفلاح بما عملوا وقدموا من الصالحات هم الخيرون فعلاً وهم المفلحون حقًّا مقابلةً بموقف المنافقين الجبناء الذين رضوا لأنفسهم الذل والعار والقعود مع النساء .

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

وجاء إلى رسول الله المتخلفون عن الجهاد من الأعراب يعتذرون له عن تخلفهم عن الجهاد . والآية توضح حال هؤلاء المعاذير فى ترك الجهاد . فمنهم من قبل النبى عذره ومنهم من لم يقبل . وفريق آخر تخلف حتى عن المجىء للاعتذار إلى النبى هؤلاء هم **﴿الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾** .

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟
مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

---

(١) الأحزاب : ١٩ .

إن الجهاد فى الإسلام فريضة على من أنعم الله عليه بالصحة والعافية والمال ، فأولئك إذا تقاعسوا عن الجهاد والدعوة إلى دين الله وإقامة دولته وتطبيق شريعته كانوا مقصرين ومسئولين عن تقصيرهم فى حق دينهم وشريعتهم . وإن أهل الإسلام كما يُسألون عن الصلاة والصيام والزكاة والحج وحسن توحيدهم لله وصدق عبوديتهم له سبحانه وتعالى، فكذلك يسألون عن تعطيل شعائر دينهم وعن ضلال حكامهم وعن التوقف عن الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى . فالجهاد فى سبيل الله الركن السادس من أركان الإسلام ، وحقًّا قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ (١) .

فالحق سبحانه وتعالى يستثنى من الأمة الضعفاء والمرضى وكذلك الفقراء الذين لا يجدون من المال ما يبذلونه فى سبيل عدة القتال ﴿ **لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها** ﴾ (٢)ـ ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ (٣) .

« ليس على كل هؤلاء حرج إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه » (٤) .

قال العلماء : « فعذَّر الحقُّ سبحانه أصحاب الأعذار وما صبرت القلوب؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أُحُد وطلب أن يُعطَى اللواء فأخذه مصعب بن عمير فجاء رجل من الكفار فضرب يده التى فيها اللواء فقطعها فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فأمسكه بصدره وقرأ ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ (٥) هذه عزائم القوم » (٦) . إن الذين صدقت نياتهم فى الله يسألون عن الدعوة إلى دين الله . ومن هؤلاء المستثنين من أمر الجهاد هؤلاء النفر الذين جاءوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستحملونه إلى المعركة ، أى يطلبون إليه أن يرفعهم على الظهور أو يوفر لهم أحمالاً يذهبون ، بها فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، هؤلاء أراحهم الله وسمح بقبول عذرهم لكن بشرط صفاء النيات والإخلاص القلبى لإخوانهم المسلمين فى المعركة ، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا على عدم مشاركتهم فى الجهاد ، ولم يفرحوا بمجرد أن وجدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير قادر على توفير حمولة لهم .

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(٣) النور : ٦١ .

(٤) القرطبى جـ٨ ص٢٢٦ .

(٥) آل عمران : ١٤٤ .

(٦) انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص ٢٢٦ .

كل هؤلاء المستثنين فى الآية ما عليهم من سبيل أى من عقوبة وإثم ، والله غفور رحيم .

ثم يبين الحق بعد ذلك أن السبيل أى العقوبة والإثم على الأقوياء فى المال والصحة غير ما ذُكر فى أول الآية . هؤلاء رضوا أن يكونوا مع الخوالف . لقد طبع الله على قلوبهم ، فهم لا يعلمون مكانة الجهاد والمجاهدين ، غافلون عن الحق واتباعه .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ
لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

حين رجع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ميدان الشرف والقتال مع الذين آمنوا وصدقوا ، أخذ المنافقون القاعدون عن الجهاد يعتذرون وينتحلون أسبابًا لتخلفهم ، فيقول لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تعتذروا ، فقد أخبرنا الله خبركم ونبأنا عن نفاقكم وستعرضون على الله وأسراركم مكشوفة وكتبكم منشورة وسرائركم مفضوحة ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، ويومها تشهد عليكم جوارحكم وعندها تهلكون بما ظلمتم به أنفسكم » . وأى ظلم أعظم من معصية الله ثم معصية رسوله ؟! فيأيها المؤمنون لا تصدقوا المنافقين واحذروهم ، سيحلفون بالله ، فلا تصدقوهم ، وأعرضوا عنهم واجتنبوهم ، إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن الله غير راضٍ عنهم إن الله لا يرضى عن قوم فاسقين والله من ورائهم محيط .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ

ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ
ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

الأعراب هم سكان البادية ، وقد عرف عنهم أنهم ذوو بأس وغلظة فى أنفسهم وعلى غيرهم قساة الطبع أجلاف .

والحق سبحانه وتعالى يخبر أن فى الأعراب كفارًا ومنافقين ، لكن كفرهم ونفاقهم يفوق غيرهم ، وقليل منهم مؤمن يعلم حدود الله فيتقيه . كذلك من الأعراب من يمنّ بما ينفق ويتربص بالمؤمنين ولكن الله يجعل السوء عليهم هم ، وسبحانه سميع عليم . كذلك منهم من يصدق فى إيمانه وتوحيده وينفق حبًّا فى الله ثم يتخذ من أعمال الرسول وصلواته قدوة فيعمل خوفًا ورجاء فى الله وأملاً فى دعاء الرسول لهم . وصلوات الرسول فى الآية : بمعنى دعاء الرسول لهم ، وكل ذلك حاصل لهم وباق عند الله لأنهم داخلون فى رحمته ، إن الله غفور رحيم .

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ
رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ، الذين هاجروا قبل رسول الله ومعه وبعده إلى المدينة ، وكذلك أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وعلى رأسهم الصديق ـ رضى الله عنه ـ صاحب رسول الله فى الغار ومستشاره الأول وحبيبه الأوفى ـ كل هؤلاء رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وقد أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم .

وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ
لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾

وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ
عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢

إن الله سبحانه لا يترك رسوله حتى ينبهه إلى ما حوله من المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون سواء أكانوا من الأعراب أم من أهل المدينة وأولئك قد مارسوا النفاق فهم يقولون غير ما يبطنون فما عليك منهم يا رسول الله ، إن الله معك يعرفك إياهم لن يضروك فإن وليك الله ومن كان الله وليه فما عليه من الناس . وهؤلاء سنعذبهم مرتين يعنى « القتل والسبى » (١) ثم عذاب شديد يوم القيامة .

يقول ابن كثير « لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكًّا ، شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أى أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه . وهذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطّائين المخلطين المتلوثين » (٢) .

خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ
ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤

إن الله جعل فى أموال الأغنياء قسمًا للفقراء ، والصدقة المعلومة هى الزكاة المحدودة وتخرج من المال إذا بلغ نصابه المستحق عليه . وهناك صدقة غير محدودة وهى حسب سخاء النفس ورغبتها فى الخير . وهذه الصدقة تطهر صاحبها وتباركه وتبارك له فيما عنده . والرسول يأخذ الصدقات ويصلى على أصحابها أى يدعو لهم بالبركة والنماء ، ويخلفه فى ذلك الحاكم المقيم لأحكام الشرع الحارس لدين الله . ثم يعلن الحق أنه يقبل

(١ ، ٢) ابن كثير ٢ / ٣٨٥ .

التوبة عن عباده ترغيبًا فى الرجوع إليه والتوبة له ، وهذا « تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها . وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد »⁽¹⁾ .

وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ
وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

وكأن تلك الآية تنذر الذين لا يطيعون الله فى كل ما أمر به من عبادات جسدية أو مالية أو جهادية أو أخلاقية ! إذْ هى عامة فى كل أمر ونهى .

فالحق يخبر أن أعمال العباد ستعرض عليه سبحانه وتعالى وعلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى المؤمنين ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾⁽²⁾ .

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن
تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾
أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ
بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

إن المنافقين اتخذوا مسجدًا ليضروا به الذين آمنوا وليفرقوا به بين المسلمين ، كما اتخذوه مرصدًا لمحاربة المسلمين .

---

(١) ابن كثير ٢ / ٣٨٦ . (٢) الحاقة ١٨ .

سورة التوبة

يقول الإمام القرطبى: « قال أهل التفسير: إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : نبنى مسجدًا ونبعث إلى النبى يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد إخواننا . . فأتوا النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا يا رسول الله قد بنينا مسجدًا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ونحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة. فقال - صلى الله عليه وسلم - إنى على سفر وحال شغل فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه . فلما انصرف النبى - صلى الله عليه وسلم - من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضرار ، فدعا النبى - صلى الله عليه وسلم - مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيًّا قاتلَ حمزة فقال « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه» فخرجوا مسرعين. . . ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه. وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً ». ثم يخبر الحق نبيه ألا يقم فيه أبدًا لأن من أقاموه إنما هم مدلسون كاذبون منافقون ، وإن المسجد الذى يليق بصلاتك يا محمد إنما هو مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، إنه لمسجدك يا محمد الذى بناه معك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

إن عمل المنافقين والمرائين سيظل علامة على خبث سرائرهم وظلمة قلوبهم كما قال عز وجل ﴿ لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ﴾ فسحقًا لهم بما ظلموا وطوبى لمن صدق مع الله وعده وصفى قلبه ونقّاه للعمل بدينه وشريعته .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِى
ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ
بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ
ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ
ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ
وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢

سورة التوبة

إن الله سبحانه وتعالى يعلن رضوانه وحبه للذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ، ويقرر أن نفوسهم وأموالهم له سبحانه وتعالى ، إن الصفقة هى الجهاد وإن الثمن هو الجنة . فالمؤمن يساوى الجنة فى تقدير الله والجنة تساوى المؤمن وبذلك يرفعه الله إلى مصاف ﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ .

إن هؤلاء المؤمنين قد باعوا لله بصدق فاشترى سبحانه ، فنعم البيع بيعهم ونعم الشراء شراؤه . والشراء أنهم قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الحق على ما بين دفتى الكتاب العزيز وبيان الرسول فكانت تلك صفاتهم . إنه اشترى منهم نفوسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ثم قدم تسعَ صفات هى مقامهم فى منازل السالكين إلى الله عن طريق الإسلام . منازل تسعة يرتقون فيها حتى يكونوا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا . فكيف نجتاز تلك المواقف كلها ؟ إنها كلمة واحدة ، كلمة حق قررها الله لعباده الذين اصطفى ، إذا قالوها كانت لهم الجنة وكانوا عباد الله المخلصين ، إذا قالوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله ، إذا أخلصوها وصدقوا فيها فقد باعوا لله والله قد اشترى . كلمة الإخلاص كلمة التوحيد . كلمة يخرج بها العبد من الظلمات إلى النور فتصفو عبوديته ويصدق حبه لله فيطيع الله ويطيع الرسول فيصبح مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

إنه شراء رابح لتجارة طيبة أحد طرفيها المخلصون الموحدون ﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ (١) والذين قال لهم ربهم ﴿ **لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ (٢) ذلك عهد الله لهم ومن أوفى بعهده من الله ؟ لا أحد أوفى بالعهد من الله .

« و ﴿ **التائبون** ﴾ هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله إلى الحالة المحمودة فى طاعة الله والتائب هو الراجع . . ﴿ **العابدون** ﴾ أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . . و﴿ **الحامدون** ﴾ أى الراضون بقضائه . . ﴿ **السائحون** ﴾ : الصائمون . . ﴿ **الراكعون الساجدون** ﴾ يعنى فى الصلاة المكتوبة . . ﴿ **الآمرون بالمعروف** ﴾ أى

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

بالسنة وقيل الإيمان . . . و ﴿ الناهون عن المنكر ﴾ قيل عن البدعة وقيل عن الكفر. . و ﴿ الحافظون لحدود الله ﴾ أى القائمون بما أُمر به والمنتهون عما نهى الله عنه »⁽¹⁾ .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى
قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ
لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

يذكر ابن كثير رواية لسبب نزول الآية (١١٣)فيقول : « قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال «أى عم ، قل : لا إله إلا الله كلمةً أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنزلت هذه الآية ⁽²⁾ .

أما الإمام القرطبى ، فيقول « روى النَّسائى عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه ؟ فأتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكرت ذلك له ، فنزلت ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ . والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم الخليل لأبيه ؛ فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَة »⁽³⁾ .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٨/ ٢٦٩ .
(٢) ابن كثير ٢/ ٣٩٣ .
(٣) القرطبى ٨/ ٢٧٤ .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا
لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يضل الناس بعد إذ هداهم إلى دينه وطريقه . وهو يبين لهم أسباب النجاة وطريق التقوى وبعد ذلك يسألهم ويحاسبهم وهو بكل شىء عليم . والله سبحانه له ملك السموات والأرض ليس له فيها شريك ، فاحذروا غضبه وليس لكم من دونه من ولى ولا نصير .

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى
سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قيل إن التوبة التى تابها الله على النبى والمهاجرين والأنصار هى من أجل إذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمنافقين أن يقعدوا عن الجهاد ويتخلفوا عن الحرب . وقيل التوبة فى الآية هى خلاصهم من نكاية العدو . و ﴿ ساعة العسرة ﴾ أى جميع أوقات الغزوات العصيبة التى شهدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابُه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم عن الحق ويشكون فى دين الله والرسول بسبب مالاقوه من شدة وعسر فى هذه الغزوات ، لكن الله لا يترك عباده ضالين فسرعان ما يأخذهم إليه برحمته وحنانه ، وحقًّا ﴿تاب الله عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾ .

وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة العامرى وهلال بن أمية الواقفى

وكلهم من الأنصار ، هؤلاء الثلاثة لم تكن تقبل توبتهم وأخر النبى - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن .

يقول القرطبى : قال كعب : كنّا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفنا تَخَلُّفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه »⁽¹⁾ .

إن من شدة ضيق هؤلاء الثلاثة أن ضاقت عليهم الأرض على اتساعها لأنهم كانوا يعاملون معاملة قاسية من المسلمين لا يكلمون ولا يعاملون بل كانوا منبوذين مهجورين ، « وفى هذا دليل على هجران أهل المعاصى حتى يتوبوا »⁽²⁾ .

وفى هذا درس للعاصى المذنب المقترف الذنوب والآثام أن يسرع فى العودة إلى الله حتى ينال رضا الله ورضا المجتمع ويعيش بينهم كائنًا حيًّا غير منعزل ، فالعزلة الحقيقية هى الانقطاع عن الله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩

أمر بالتزام الصدق واتباع طرقه وبتقوى الله وخشيته وهذا من كمال الإيمان .

عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا . . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا »⁽³⁾ .

مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ
وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا

---

(1) انظر تفسير القرطبى جـ٨ص ٢٨٢ . (2) القرطبى جـ ٢ص٢٨٧ .

(3) رواه الإمام البخارى فى الأدب ، ومسلم والإمام أحمد والترمذى .

مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا
إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

لم يكن من صالح أهل المدينة ولا لصالح الأعراب من حول المدينة أن يتخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك ، وما كان ينبغى لهم أن يفعلوه ورسول الله فى مشقة وعسرة . وإن الذين خرجوا مع رسول الله ولبّوا النداء والجهاد بارك الله لهم ورضى عنهم ، ذلك لأنهم لم يسيروا سيرًا يقطعون به وديانا أو طرقًا أو يصيبهم ظمأ وعطش شديد ولم يصبهم تعب ومشقة فى الغزوة أو مخمصة أى مجاعة ولا ينزلون أو يدوسون أرضًا مما يغيظ أهل الكفر والشرك بسبب دخولهم هذه الأرض ولا يقتلون العدو ويقتصون منه ، لا يفعلون واحدة من هذه إلا وكتب لهم بها أعمالٌ صالحة وجزاؤهم فى الدنيا والآخرة رضا الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والله لا يضيع أجر المحسنين .

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

ليس على المؤمنين أن ينفروا للجهاد كلهم فلابد من أن يكون فى القتال جماعة تخلفهم جماعة أخرى هم المقيمون خارج القتال لإدارة شئون المعاش والنظام . وكذلك لابد من انقطاع جماعة للتفقه فى الدين حتى يكون منهم الدعاة والفقهاء العارفون فى علوم الشرع والدين .

والمسلمون مكلفون بدراسة كل علوم الدنيا والدين معًا لأنهم مكلفون من الله بحراسة الدنيا . وما أصابنا من تقاعس وتخلف ما هو إلا تقاعس عن الدراسة والتحصيل والعلم والمعرفة التى هى أساس من أسس الشريعة الإسلامية . ولم تكن هناك شريعة إلا بدراسة هذه الشريعة والتفقه فيها حتى تنفذ على أكمل وجه . وحقًا

سُورَةُ التَّوْبَةِ

قولُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة »⁽¹⁾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ
غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

هذا أمر صريح من الله أن يقاتل المؤمنون الكفار أولاً فأولا الأقرب من العدو ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدأ بالكفار من العرب ثم الروم والفرس . وليجدوا فى المؤمنين غلظة وشدة ومجافاة حتى يرتدعوا ولا يغتروا ولتكن فيكم حمية الغيرة على الإسلام ومحارمه .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ
يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

يقرر الحق فى هذه الآيات حال المؤمنين والكافرين عندما يتنزل القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يتلوه عليهم . فالمؤمنون يزدادون بما يسمعون إيمانًا ومعرفة ووصولاً للحق الذى نزل ، فانشرحت صدورهم وفاض نور الإيمان واليقين من قلوبهم فنور وجوههم وشرح صدورهم فازدادوا بعد ذلك حبًا ووثوقًا وقربًا بحضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . أما المنافقون وهم أصحاب القلوب المريضة والنفوس الخبيثة فلم يزدادوا بسماعهم للحق إلا رجسًا أى شكا إلى شكهم وكفرًا إلى كفرهم . وذلك أمر يقع لأصحاب الوساوس والباطل ، يفتنون فى المعاش أو فى المرض أو ضيق ذات اليد

---

(1) رواه الترمذى كتاب العلم ، باب : فضل العلم . وقال : حديث حسن .

فلا يذكّرهم ذلك بالله ، وبدلاً من أن يتوبوا ويستغفروا ربهم إذا هم مصرون على الباطل والمعصية .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ
ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

إن من عادة المنافقين أن يتلفتوا خلفهم وأمامهم احتراسًا من أن يراهم أحد وهم فى إثم نفاقهم يترددون . فإذا حضروا إلى الرسول ووجدوه يتلوا قرآنًا مذكورًا فيه فعلهم فاضحًا لهم وكاشفًا سرائرهم ، ينظر بعضهم إلى بعض نظرة رعب وخوف ويتساءلون فيما بينهم هل يراكم أحدُ عندما تتكلمون عن محمد فينقلَ له أحاديثكم ؟ وهذا استمرار لجهلهم لأنهم مازالوا حتى هذه اللحظة يشكون فى محمد ونبوته واطلاعه على الغيب من جهة ربه بما يشاء سبحانه . حقًّا إنهم قوم لا يفقهون .

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

الخطاب هنا للعرب ثم للناس كافة بأن الله بعث لهم أشرف وأكرم رسول ، خيار من خيار من خيار فهو منكم ومن دمائكم وهو بشر رسول ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ﴾ (١) بل هو من أَنْفَسِكُم (٢) نسبًا وحسبًا وشرفًا .

عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » (٣) .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) أفعل تفضيل من نفيس أى غال وأصيل .

(٣) رواه : مسلم ، كتاب : الفضائل ، باب أفضل نسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، واللفظ له ورواه : الترمذى .

وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ عزيز عليه ما عنتم أى « يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها . وشريعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلها سمحة وهو حريص على إيمانكم وإسلامكم وهدايتكم . بالمؤمنين الموحدين رءوف رحيم كقوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم** ﴾ (١) .

فهل استجبتم له كى تنالوا خير الدنيا والآخرة ؟

هل استجبتم لنداء الله الذى أنعم عليكم فأرسل إليكم رسولاً يخرجكم من الظلمات إلى النور ؟ ألم تنظروا كيف وصفه الله سبحانه وتعالى بصفتين من صفاته وسمّاه باسمين من أسمائه تكريماً له وإعزازاً لعلكم تنزلوه من أنفسكم منزلة التكريم ؟ويالشقاوة من لايكرم من كرمه الله وأعزه ورفعه فوق النبيين والمرسلين !! فإن أعرض الكفار عنك يا محمد بعد كل هذه النعم التى أسبغها الله عليهم وتولى عنك قومك ، فقل حسبى الله لا إله إلا هو اعتمدت عليه وعليه توكلت وهو رب العرش العظيم . وسبحان رب العرش العظيم وسلام عليك يا سيدى يا رسول الله .

---

(٤) الشعراء : ٢١٥ـ٢١٧ .

(١٠) سورة يونس مكية

إلا الآيات ٤٠ و٩٤ و٩٥ و٩٦ فمدنية
وآياتها ١٠٩ نزلت بعد الإسراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿ الر ﴾ تلك الحروف التى بُدئ بها فى بعض السور قد سبق الكلام عنها فى سورة البقرة .

إن آيات الله التى يتألف منها كتابه العزيز الموحى به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هى آياتٌ محكمة من لدن حكيم خبير ، آمن بها من آمن وكفر بها من كفر . فالفريق الأول قد نجا أما الثانى فقد ضل عن الطريق وحاد عن هدى أنبياء الله كافة وفقد طريق السلام والأمن .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

إن الحق - سبحانه وتعالى - ينكر على الكفار تعجبهم من إرسال الله رسلاً من البشر ، وهى نظير قوله تعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - لقومه ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ (١) .

إنه لقسوة فى قلوبهم وكبر شيطانى فى نفوسهم أن قالوا بكفرهم وضلالهم إن هذا لسحر مبين - ولو هداهم الله لقالوا إنه لبيان عظيم ونور ورحمة من رب العالمين .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ

---

(١) الأعراف : ٦٣ .

ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ
حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾

يردّ الله تعالى على الذين كذبوا ـ فى الآية السابقة ـ قدرة الله على بعثه لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وهؤلاء المنكرون هم : المشركون بالله ومعهم النصارى واليهود . وقد أجاب الله على افترائهم : إن ربكم أيها المنكرون من مشركى العرب والضالين من اليهود والنصارى هو الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته سبحانه يدبر أمر الكون وأمر السماوات والأرض وأمر الخلائق كلها سبحانه **﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾**⁽¹⁾ . « ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير فى الجبال والبحار والعمران والقفار »⁽²⁾ . كل ذلك لأنه الرب الفعال الواحد الأحد وهو سبحانه المستحق أن يعبد بحق . وليس لسواه أن يعبد ، **﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾**⁽³⁾ .

سبحانه إليه مرجع كل الخليقة يوم القيامة ، وكما بدأ خلق الخلق كذلك يعيده وهو أهون عليه ليأخذ كل ذى حق حقه بالعدل والقسط ، ثم يسأل من كفر ويعاقبه بكفره ويسأل من آمن به ويجزيه على إيمانه بجناتٍ وعيون ومقام كريم .

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾

سبحانه هو الخالق للأفلاك الدالة على كمال قدرته وبديع صنعه . وهذه آيات بينات ترد على منكرى البعث والنشور ومنكرى النبوة كذلك . فسبحانه جعل من الشمس والقمر مصدرًا لإحياء الأرض ومشاهدة السموات والنظر فيها ، ما خلق الله ذلك

---

(١) سبأ : ٣ .　　(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٦ .

(٣) الشورى : ١١ .

إلابالحق وما خلق ذلك عبثًا ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾(١).

إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

إن فى اختلاف الليل والنهار من طول وقصر لآيات معجزة من عند الله ، إلى من يبصر آياته ويتفكر فى خلقه وإبداعه ، ثم يقر لله سبحانه بأنه الواحد القهار . فكيف تنسلخ برودة الليل من حرارة النهار؟ وكيف تنسلخ أنوار النهار من ظلمة الليل ؟ إنه هو الله القادر على كل شىء سبحانه عما يصفون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ
ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

إن الذين لا يرجون لقاء الله قد ضلوا طريق النجاة ، فلم يؤمنوا بالله وكفروا بخاتم المرسلين ، وبذلك ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا باطمئنانهم إليها وسكونهم فيها ، وحسبوا أن الدنيا باقية ، وأنها ليست إلى زوال أو خدعوا أنفسهم بذلك . والذين هم معرضون غافلون عن النظر فى آيات الله وكونه غفلة استغرقتهم حتى كانوا فى الآخرة من الهالكين - إن هؤلاء مأواهم النار جزاءً على فعلهم فى الدنيا من آثام ومعاص وسيجدون أنفسهم فى عرصات جهنم ، وليس لهم من دون الله ولى ولا نصير .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا
سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

هذه حال السعداء المؤمنين بلقاء الله، يرجون رضوانه حيث لم يطمئنوا بالحياة الدنيا

---

(١) يس : ٤٠ .

بل تعلقت قلوبهم بالله ورسوله وشرعه ، هؤلاء لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فيها ما لا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . دعواهم فيها ، « أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئًا ، أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد » . (١) وقيل إن الدعاء هنا بمعنى التمنى كما قال الحق ﴿ ولكم فيها ما تدّعون ﴾ (٢) أى ما تتمنون .

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١

لقد طبع الإنسان بفطرته على العجلة ، وفى حالة الغضب ربما يضر نفسه وهو لايدرى ، وهنا يخبر الحق أنه لا يعجل لهم استجابة الشر كما يستعجلون الإجابة فى حالات الخير ، لأنه هو السميع البصير يعلم السرّ الخفيّ ويعلم أن أكثر ما يعلنه الإنسان فى عجلته وغضبه ليس هو المراد إذا كان فى ثباته واتزانه .

من هنا حذّر الرسول الهادى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن ندعو على أنفسنا وأولادنا فقال : « لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لاتُوافقوا من الله ساعةً يُسْأَل فيها عطاءٌ فيستجيب لكم » (٣) .

يقول القرطبى : « قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا » . . وقال أيضًا « لو فعل الله مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم » . ثم يقول . . « إنه خاص بالكافر ، أى ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجّل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة » (٤) . ولكن الله بصير بالعباد .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ٣١٣ .　(٢) فصلت : ٣١ .

(٣) رواه مسلم كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر .

(٤) انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص ٣١٥ .

سُورَةُ يُونُس

هنا بيان من الله العزيز الحكيم عن الإنسان وطباعه التى جُبل عليها ، إذا مسّه الضر أسرع وتعجل وتضرع إلى ربه فى كل أحواله قائمًا وقاعدًا ونائمًا فى كل وقت ، وصار يلح فى الدعاء ويتعجل الإجابة . وهى نظير قوله تعالى ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاءٍ عريض﴾⁽¹⁾ . وإذا استجاب الله له نسى أنه كان مستغرقا فى الدعاء وأنه كان يومًا محتاجًا إلى ربّ السموات والأرض ، وكأنه لم يصبه ضر أو لم يمسسه هم أو حزن أو شر، إلا من رزقه الله سلامة الفهم ونعمة الهداية والاحتياج إلى الله فى حالى السراء والضراء فهذا خارج عمن تكلمت عنهم الآية .

وفى هذا يقول رسول ربّ العالمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ « عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرًا له » ⁽٢⁾ .

وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ
لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ
بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤

يخبر الله سبحانه وتعالى عن القرون والأمم الماضية بأنهم لما ظلموا وأشركوا أهلكهم ؛ وذلك بسبب عصيانهم رسل الله ، لأنهم حادوا عن الإسلام الذى هو دين كل الأنبياء والرسل من لدن آدم عليه السلام ، حتى جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتمم المسيرة ويصحح الخطأ ويبلغ الدين كله ، فمن استجاب له فقد فاز ومن ضلّ وعصى فقد خسر خسرانًا مبينًا .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت من النساء » ⁽٣⁾ .

---

(١) فصلت : ٥١ .

(٢) رواه : الإمام أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه .

(٣) رواه مسلم عن أبى سعيد .

ثم جعل سبحانه الأمة المسلمة هى أمة الإنابة عن الأنبياء والرسل ، لكونها وارثة للخلافة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وكذلك هى المسئولة عن تعطيل الدين بكافة شرائعه وتعاليمه .

فأنتم أيها المسلمون مسئولون أمام الله عن فساد العصور من بعد الخلافة الرشيدة ، فاعلموا وادعوا إلى الله على بصيرة وذكروا المسلمين بكتابهم وادعوهم للحكم به ، فمن لم يدعُ بذلك ويجاهدْ فى سبيل الله حتى ترجع أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى خلافةٍ رشيدة عادلة ، فحساب الله له عسير ، وسؤاله شديد .

فيا أمة محمد : أنتِ أمةُ الدعوة والخلافة فسارعى إلى مغفرة من الله بجهاد كبير حتى تقوم الأمة وتعود الدولة ، والله سبحانه نعم المعين لعباده المخلصين .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ
غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ
مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٧

هذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عن تعنت كفار مكة ومشركيها الجاحدين أنهم إذا سمعوا آيات الله يتلوها عليهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا له : لا نطيعك حتى تأتينا بقرآن غير هذا ، أو بدِّل فيه . ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجابهم بالقطع أنه لا يفعل ولن يفعل ، فأجاب الله عنه بقوله قل لهم يا محمد ما يكون لى أى ماينبغى لى أن أبدّله بنفسى إننى عبد الله ورسوله ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ ﴾ ولأنى أخاف إن عصيت ربى وطاوعتكم فى طلبكم التبديل أو التحريف أخاف عذاب يوم عظيم .

يأهل مكة ويا من حولها من الأعراب ، إنى لبثت فيكم من السنين أربعين سنة قبل البعثة سميتمونى أثناءها بالصادق الأمين ، واليوم تكذبوننى ؟!!

إنه ليس فى الخلق أظلم من عبد يدّعى افتراءً وكذبًا على الله سبحانه وتعالى أن له شركاءَ أو أن له ولدًا أو أن له ما يماثله ، سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون ! وليس فى الخلق أيضًا أظلم من عبد ينكر القرآن ويفترى على الله الكذب إنه لا يفلح المجرمون .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

لا يزال الحق سبحانه وتعالى ينكر على المشركين شركهم بالله عندما يعبدون غيره ظانين أن هذه الآلهة المزعومة (الأصنام) تشفع لهم عند الله . وهذا ضلال وبهتان عظيم، فمن عبد غير الله فقد ضلّ السبيل وأضلّ . فقل لهم يا محمد : أتنبئون الله وتخبرونه أن له شريكًا وشفيعًا فى خلقه وملكوته ؟ ومن أنتم ؟ أنتم الضعفاء والعاجزون . أنتم لاتستطيعون كشف الضر عنكم ، وشربة الماء تُحبَس فيكم فلا تملكون صرف أذاها عن أنفسكم ، فماذا يملك لكم هؤلاء الشفعاء المدّعون ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ، وتنزه فوق كل ذلك وتقدس عن الشرك .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

إن الكفار أرادوا أن يعجزوا محمدًا ، فطلبوا منه آيات معجزات غير معجزة القرآن ـ كما أعطى الله ثمود الناقة ـ وأن يحول لهم جبل الصفا ذهبا ، ويكون له بيت من زخرف، ويحيي لهم من مات من آبائهم وأجدادهم ؛ فقل لهم يا محمد إن نزول الآيات غيب ، فتربصوا وانتظروا قضاء الله بيننا .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

إن الله سبحانه وتعالى يكشف لنا عن طبيعة الإنسان ، ويبين أن له طبائع متغيرة متقلبة فربما يكون ساعة مع الحق ثم يتغير فى نفس الآن فيرى الباطل أنفع له فى الدنيا فينسى ما كان عليه من الخير . وذلك التغاير يقع بسبب ضعف الإيمان وعدم التمكن فى الحق . من هذا التغاير أنه إذا أصاب الناس رحمة من بعد ضراء ، كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب ، فإنهم لا يؤمنون فى الوقت الذى كانوا فيه ذوى دعاءٍ عريض ، ومرّوا كأن لم يمسسهم شىء . أجل إن رسلنا يكتبون ما تمكرون .

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ
وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ
بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

إن الله أنعم عليكم بما تستطيعون به الانتقال بين وديانكم والبلدان المختلفة البعيدة والقريبة بوسائل النقل فعلمكم كيف تسيروها فى البحر والجو وفوق الأرض . فإذا أصبتم بريح تعوق مسيرة السفن وأصبحتم تحاطون بالموج الشديد من كل جانب دعوتم الله مخلصين له الدين لئن صرفت عنا يارب هذا الكرب وهذه الشدة لنكونن من العاملين بطاعتك على نعمة إنقاذنا من هذه الشدة .

فلما نجاهم الله إذا هم يبغون متكبرين فى الأرض بغير حق ، حقًّا إليه مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون .

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ
ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ
قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ
بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

إن حلاوة الدنيا وما تغرى به من زخرفها وزينتها وتكاثر الأموال والأولاد فيها ، وإغراءها بالجاه وامتلاك أمرها بالحكم فيها والسيطرة من الحاكمين على المحكومين ، كل ذلك سرعان ما ينقضى . فمثله مثل النبات الذى أخرجه الله من الأرض وامتلأت به من جميع الأشكال والألوان وازينت بكل ما خرج من رباها وسهولها حتى يظن زارعو هذا النبات وأهله أنهم قادرون على حصاده وجمعه ، فإذا بصاعقة أو ريح شديدة تذهب بالأخضر واليابس فأصبحت عجفاء جدباء بعد خصب ونماء خاوية على عروشها صعيدًا زلقا .

فهكذا الدنيا تنقضى فى ساعة ويُبعث من فى القبور ويجىء يوم الحساب !! فمن يدفع عن الناس إذن ؟!! إنه يوم لا يدفع فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئًا ، يوم يقول فيه عيسى ابن مريم : ربى لا أسألك اليوم أمى ولكن أسألك اليوم يارب نفسى ، فاحذروا أيها المسلمون احذروا يأهل الإيمان ذلك اليوم واستعدوا له إنه يوم عصيب .

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

والسلام اسم من أسماء الله . والصراط المستقيم هو الإسلام فمن تمسك به فله الحسنى وزيادة . وهؤلاء تحدث الحق عنهم بقوله :

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

والحسنى : هى الجنة ، والزيادة : هى رضوان الله تعالى .

وتلك هى منزلة المصدقين المخلصين : ﴿ الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ﴾ أى غبار أو سواد مما يلحق وجوه الكفرة الفجرة فى عرصات جهنم .

وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

يبين العزيز العدل الحكيم صائب حكمه وعدله فى الذين كسبوا السيئات ، فجزاء السيئة سيئة بمثلها ، غير أن السيئات لها ظلمة وقسوة تكسب أصحابها ذلة ترهقهم بها

فى معاشهم وليس لهم من عاصم فالعاصم هو الله وقد حاربوه بالمعاصى فهؤلاء تسود وجوههم فى الدار الآخرة فهى وجوه مسودة عليها غبرة . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ
وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ
عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾

يوم القيامة ينادى الحق سبحانه وتعالى أصحاب الكفر والضلالة الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم . ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أى « فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا»⁽¹⁾ . كما يخبر الحق عنهم فى موضع آخر ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا ﴾ ⁽²⁾ وقوله ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا ﴾ ⁽³⁾وقوله ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ﴾ ⁽⁴⁾.

فساعتها سوف لا تنفع شفاعتهم شيئًا بل ستتبرأ منهم الأصنام ، قائلة ما كنا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم لأننا لم ندعكم إلى عبادتنا ولا طلبنا منكم ذلك . وهذا تقريع للجماعة المشركة التى كانت تعبد ما لا يسمع ولا يرى ولا ينفع ولا يضر. ﴿ إن كنّا عن عبادتكم لغافلين﴾ لا ندرى شيئًا حيث كنّا جماداتٍ صماءَ لا روح فينا ولا حياة .

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ تبلو ﴾ بمعنى تذوق وتعلم ما مضى من عملها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ ⁽⁵⁾ ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورا﴾⁽⁶⁾.

وترد الأمور كلها إلى الله للفصل فيها ، فيدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النار النار . هكذا عدل الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

---

(١) القرطبى جـ٨ص ٣٣٣ .
(٢) مريم : ٨٢ .
(٣) البقرة : ١٦٦ .
(٤) الأحقاف : ٦ .
(٥) القيامة : ١٣ .
(٦) الإسراء : ١٣ .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ
مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

هذه الآيات تدلل على قدرة الخالق وعجز المخلوق ، ثم تلوم المخلوق من بنى الإنسان على انحرافه فى الفهم السويّ . فيأيها الضالون عن طريق التوحيد من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أليس هو الله ؟ ومن يملك لكم السمع والإبصار ؟ أليس هو الله؟ ومن يخرج الحى من الميت وكذلك الميت من الحى ؟ أليس هو الله ؟! ومن يدبر أمر السماء والأرض ؟ فلماذا لا تتقونه ؟ وماذا بعد بيان الحق وظهوره ؟ إنه الضلال . . ! ! فقل لهم يا محمد « أفلا تخافون عقابه ونقمته فى الدنيا والآخرة » ⁽¹⁾؟

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

فبسبب شركهم وكفرهم ، حق عليهم القول باللعنة والخزى والعذاب المهين ، وهؤلاء هم الفاسقون . والفسق هو مفارقة الحق إلى الباطل .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ
أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

حاش لله أن يكون له شركاء فهو الخالق الواحد القادر على غير مثال . والحق - سبحانه وتعالى يبطل دعاواهم فى هذه الآيات ، ويبطل افتراءهم بادعائهم الصاحبة والشريك واتخاذهم أصنامًا وأندادًا لله ، فهل أى من هذه أو تلك ما يستطيع أن يبدأ

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ٣٣٥ .

الخلق ثم يعيده ؟!!" فكيف تنصرفون عن طريق الرشد والهدى إلى طريق الضلال والتخبط ؟ فما لكم كيف تحكمون أيها المشركون وأنتم تعلمون جيدًا أن هذه الآلهة التى تعبدونها لا تنفع ولا تضر ولا تقدر على هداية عاص أو إراحة حيران ؟ إنكم لا تتبعون إلا ظنًا ، أى : وهمًا وسرابًا لا يغنى عنكم من الله شيئًا لأنكم لا تستطيعون أن تقدموا ولو دليلاً أو برهانًا واحدًا على صحة ادعاءاتكم وافتراءاتكم وشرككم الذى أنتم به متلبسون .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ
وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ
وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن ، لأنه لا يستطيع أحد من البشر أن يأتى بسورة أو آية واحدة من مثله . ومستحيل أن يؤتى بهذا القرآن من عند غير الله ، وهو حق يصدق ما بين يدى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو تفصيل للحق الذى أنزله الله عليه . والذين يقولون إن محمدًا قد افتراه ، فحجتنا عليهم بينة ، فليأتوا بسورة من مثله إن استطاعوا وإن كانوا صادقين . إنهم لن يستطيعوا ذلك ولو اجتمعوا له . إنه كتاب مقدس من عند الله جاء مصدقًا لمحمد ومهيمنًا على الكتب السابقة .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(١) .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ تحداهم فى ذلك الأمر على ضروب ثلاثة : طلبه ـ سبحانه وتعالى ـ منهم أن يعارضوا هذا القرآن كله بنظيره من عندهم ، ردا على قولهم إن هذا القرآن من عند محمد . ثم طلبه ـ سبحانه وتعالى ـ منهم أن يأتوا بعشر سور منه ، كما

---

(١) الإسراء : ٨٨

نرى ذلك فى سورة هود ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ (١) .

ثم طلبه ـ سبحانه وتعالى ـ منهم فى هذه السورة أن يأتوا بسورة واحدة من هذا القرآن، وهذا إمعانٌ فى التحدى وإعجاز من الله .

بل إنهم كذبوا القرآن ولم يعلموا كنوزه وأسراره ، مثلهم مثل ما كذّبت الأمم السابقة أنبياءها ، فانظر كيف أهلكناها ، واحذروا أيها المشركون الضالون أن تقعوا فى مثل ماوقع فيه السالفون فتصيبكم اللعنة وتهلكون .

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

يقول الإمام القرطبى « قيل : المراد أهل مكة ، أى ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن طال تكذيبه ، لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من السعداء . . . . ومنهم من يصرّ على كفره حتى يموت كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل المراد أهل الكتاب . وقيل هو عام فى جميع الكفار ، وهو الصحيح . . وإنما أخر الله العقوبة لأن منهم من سيؤمن » . (٢) ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ تهديد لهم ووعيد .

ثم يقول الحق لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تبرأ منهم يا محمد إن كذبوك ، وقل لهم لى ثواب تبليغى لكم وإنذارى إياكم ، وقد بينت لكم طريق الرشد والصواب ، ولكم عملكم وجزاؤه النار لأنكم أشركتم ﴿ **قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولاأنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين** ﴾ (٣) . وهى أيضًا نظير قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم الخليل لقومه المشركين ﴿ **إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾ (٤) . فالله وليك يا محمد وسيجزيهم بكفرهم وضلالهم وسينصرك ويؤيدك ويجعل العاقبة لك ولمن معك .

---

(١) هود : ١٣ .

(٢) القرطبى جـ٨ ص ٣٤٥ .

(٣) الكافرون : ١ـ٦ .

(٤) الممتحنة : ٤ .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

ومنهم من يستمع إليك ولكن قلبه ليس معك. إنهم يستمعون ليجادلوا فى الحق ويخوضوا فيه ، فأنت لا تستطيع فتح مغاليق قلوبهم التى طبع الله عليها حتى ولو كانت آذانهم مصغية ، مثله مثل البصر تمامًا ، فمنهم من ينظر إليك ولكن قلبه أعمى ؛ فالمراد « أن أحدًا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . . . وفى هذا تسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[١] .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

إن جهل الناس بالله واستعلاءهم على ما جاء به رسول الله يجعلهم يظلمون أنفسهم وهم لا يشعرون . ويقول ابن كثير : « أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يظلم أحدًا شيئًا وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من عمى وفتح به أعينا عميا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفا وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف فى ملكه بما يشاء الذى لايُسأل عما يفعل وهم يُسألون لعلمه وحكمته وعدله »[٢] .

فى الحديث عن أبى ذر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربِّ العزة ـ سبحانه وتعالى ـ « يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا . . إلى أن قال فى نهايته . . . ـ يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفِّيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[٣] .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

سيأتى يوم عظيم يحشرون فيه إلى الله وكأنهم لم يلبثوا فى دنياهم إلا ساعة من نهار ، ﴿فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ .[٤] فلا أعراق ولا جاه

---

(١) القرطبى جـ٨ ص٣٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤١٨ .

(٣) الحديث رواه مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم .

(٤) المؤمنون : ١٠١ .

ولكنها أعمال تُحسب وحقوق تسأل ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ . وإننا سوف نوف كلا حسابه ولا يظلم ربك أحدا . « فطول أعمارهم فى مقابلة الخلود كساعة »⁽¹⁾ هكذا رأوْا .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

إما نرينك يا محمد بعض ما وعدناهم به بنصرك عليهم وخذلانهم ومذلتهم « وننتقم منهم فى حياتك لتقر عينك منهم »⁽²⁾ أو اصبر فإن مرجعهم إلينا ، وإلينا المنقلب فهناك الحساب الدقيق ثم الله شهيد على ما يفعلون .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

إن أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد شرفها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فجعلها أول الأمم ، وكل أمة تعرض بعملها على الله وأمامهم رسولهم وكتاب أعمالهم، وهكذا أمة بعد أمة .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

إن الكفار يقولون : متى الساعة ؟ ومتى هذا الوعيد ؟ إنكارًا منهم لكلام محمد وسخرية بكلام الله مع أنه لا فائدة من سؤالهم هذا . فأمر الحق نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول لهم : لا أملك من الله ما أنفع به نفسى فأدفع عنكم شيئًا ، وكل ما للإنسان إنما هو بمشيئة الحق سبحانه وتعالى ، فكيف أوفيكم ما تستعجلون به ؟ فلاتستعجلون ، فلكل أمة أجلها ووقتها المحدد لهلاكها وعذابها وحسابها ﴿ ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها ﴾⁽³⁾ ـ ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها ﴾⁽⁴⁾ .

---

(1) هذا القول لابن عباس ـ انظر القرطبى جـ٨ ص ٣٤٧ .

(2) ابن كثير ٢/ ٤١٨ .

(3) المنافقون : ١١ .

(4) النازعات : ٤٢ ـ ٤٤ .

سُورَةُ يُونُسَ

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا
مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

إنكم أيها الكفار تستعجلون العذاب فسوف يأتيكم بغتة ليلاً أو نهارًا ، فما أعظم ماتستعجلون به !! إنكم تستعجلون شيئًا عظيمًا مهولاً . أتأمنون لما يقع عليكم العذاب ثم ساعتها تؤمنون وتقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون ﴾⁽¹⁾؟

ثم بعد ذلك تقول لكم خزنة النار ذوقوا عذابًا شديدًا خالدين فيه أبدًا ، وذلك بسبب كفركم وشرككم .

۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ
وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

إنهم يقولون لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أحق ما أنت تاليه علينا يا محمد ومخبرنا به من أنباء الدنيا والآخرة ؟ قل لهم يا محمد : إى وربى . وإى « كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم »⁽²⁾.

أى نعم أقسم بالله إنه لحق ، فإن آمنتم كتبت لكم النجاة ، وإن كفرتم لستم بمعجزى الله ، والله هو القوى القادر الفعال ، ويوم القيامة لو أتيح لنفس أن تملك ما فى الأرض جميعًا لافتدت به ولكن هيهات هيهات . . !! فهنا دار العمل ، وهناك دار الجزاء يوم القيامة .

---

(١) السجدة : ١٢ .   (٢) القرطبى جـ٨ ص ٣٥١ .

إن الضالين ليس أمامهم يوم القيامة إلا خزى وعذاب شديد .

إن وعد الله حق ولن يخلف الله وعده سبحانه هو مالك السموات والأرض قادر على جمع الخليقة بعد فنائها و إليه المرجع والمآب .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يذكر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه بأعظم ما امتن به عليهم من موعظةٍ و إرشاداتٍ وتعاليمَ مشروحةٍ واضحة لهم فى كتابه العزيز (القرآن) ، فبين لهم فيه ما فيه شفاءُ صدورهم ونفوسهم من سقيم الأخلاق ، وشرح به صدورهم للحق فشُفيت به من الأدران والأسقام ، وهو بذلك هدى ورحمة للمؤمنين وتطهير وتنظيف لما فى النفوس من عوالق الرجس والأدناس . وهى نظير قوله تعالى : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا** ﴾ (١) .

إن الله سبحانه يقر وقراره الحق أن الإنسان أنعم الله عليه بالهداية فهُدى إلى ما فى كتاب الله من الحق ، فذلك هو الخير الذى يستحق من الإنسان أن يُسرّ به ويفرح لأن الذى أتاه هو الخير فى الدنيا والآخرة ، فكل ما هو من زينة الدنيا بعد ذلك أمر هين لايساوى شيئًا أمام فضل الله فى الآخرة . فبذلك فليفرح المؤمنون فما أعدلهم خير مما جمعوا له من حطام الدنيا ونعيمها الزائف الموقوت .

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

تخاطب الآيات الكفار أن ليس لهم من حق أن يحلوا ويحرموا من تلقاء أنفسهم ، فالله سبحانه وتعالى صاحب الشأن فى ذلك ، فهو ينزل الرزق ويبين طريق حلاله وطريق حرامه وليس لغير الله ذلك ، فمن أحل وحرّم بغير ما أنزل الله فقد افترى على الله .

---

(١) الإسراء : ٨٢ .

وما ظن أولئك الذين يفترون على الله ويحلون ويحرمون حسب أهوائهم ؟ « أيحسبون أن الله لايؤاخذهم به » [1] أين يذهب أولئك الذين افتروا على الله الكذب ؟ إن الله يمهلهم ويؤخر عقابهم علهم يرجعون . وهذا فضل منه سبحانه ، ولكن أكثرهم لا يشكرون نعمة الله ولا يعلمون فضله وقدره .

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

سبحانه لا تخفى عليه خافية . كلّ شئون الخلق تحت بصيرته ، يعلم مستقرها ومستودعها صغرت أو كبرت خفيت أم ظهرت . كل ما خلقه قائم فى علمه ، عنده مفاتح الغيب لا يعلم سرها إلا هو . يقول ابن كثير « وإذا كان هذا علمه بحركات الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة » [2]؟

فكل أمورنا ، الله رقيب ومطلع عليها وسامع لها ، ولذا يجب على الإنسان أن يعبد الله وكأنه يراه حتى تكتمل مرتبة العبادة ويصل بمرتبة التكليف إلى مشارف الإحسان .

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ
لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

أولياء الله : هم الذين اتبعوا رسول الله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلايفرطون فى فرض أو سنّة . هم الحراس على أمره ـ سبحانه وتعالى ـ يؤدون فرائضه وسنن رسوله لا يخشون فى الله لومة لائم يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . زهّاد فى الدنيا . رغبتهم فى الآخرة شديدة يحبون فى الله ويبغضون فى الله . الدنيا بين أيديهم عرض زائل والآخرة فى قلوبهم ميراث مقدس يبذلون النفس والنفيس لتكون كلمة الله هى العليا .

---

(١) القرطبى جـ٨ص٣٥٥ .

(٢) ابن كثير جـ٢ / ٤٢٢ .

إن أولياء الله هؤلاء لا خوف عليهم فى الآخرة ، وقيل فى ذرياتهم لأن الله يتولاهم ، ولاهم يحزنون لفوات وانقضاء الدنيا .

ويذكر القرطبى قولَ الزهرى وعطاء وقتاده فى ﴿ البشرى ﴾ أنها « هى البشارة التى تبشر بها الملائكةُ المؤمنَ فى الدنيا عند الموت »⁽¹⁾ .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

يسلّى الله نبيه المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن لا يحزن على قولهم وافترائهم وتكذيبهم له قائلاً إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين و إن القوة والغلبة له سبحانه فلا تحزن فالله عليم بهم سميع لأقوالهم . وكذلك كل ما فى السموات والأرض مشاهد وغائب فهو لله رب العالمين وحده لا شريك الله ، ودعْ الذين يعتقدون النفع والضر فى أشياء تافهة وأصنام إن يتبعون إلا الظن والتخرص والكذب .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

إنه من باب أولى أيها المشركون المعتقدون فى الأصنام النفع والضر أن تعبدوا إلهًا واحدًا يستطيع ـ وبالفعل ـ أن يجعل لكم ليلاً تنامون فيه وتريحون أبدانكم ونهارًا للسعى والجد واجتلاب الرزق ، أليس فى ذلك آية ؟ ألم تسمعوا هذه الحجج والبراهين فتعتبروا بها وتهتدوا إلى الله رب العالمين الفرد الصمد ؟!!

قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

---

(١) القرطبى جـ٧ص ٣٥٨ .

قالت النصارى : المسيح ابن الله ، وادعت ذلك اليهود لعزير ، وزعمت الكفار أن الملائكة بنات الله ، سبحانه وتعالى عما يصفون !! إنه الواحد الأحد الفرد الصمد لاوالد له ولا ولد كل ما فى السموات والأرض عبيد وملك له . لا يشاركه أحد فى ملكه . سبحانه هو الغنى ونحن الفقراء إليه . فأنتم أيها المتقولون المفترون ليس عندكم من سلطان أى دليل أو برهان أو حجة على صحة ما تتقولونه **﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئًا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعَوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾**(١) .

إنكم أيها المفترون ستلقون عذابًا خالدين فيه أبدًا . فتمتعوا فى دنياكم فما متاع الدنيا إلا قليل وإن طال ، فلكم يوم عظيم نذيقكم فيه العذاب الغليظ بسبب كفركم هذا .

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ
ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣

أخبر قومك يا محمد وأسمعهم قصص السابقين ، واحكِ لهم عن نوح النبى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكيف صبر مع قومه صبرًا كبيرًا حيث عاش بينهم يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا صابرًا محتسبًا ، كيف كانت عاقبة عنادهم له وإصرارهم على الكفر ؟ لقد أمر الله سبحانه الأرض ففاضت بالماء وأمر السماء فأمطرت مطرًا غزيرًا حتى كانت اليابسة كلها فى ديار نوح وقومه بحرًا أغرق كل من أبى أن يكون معه وعلى دينه فى سفينة النجاة التى أُمِر أن يصنعها ويركب معه فيها أتباعه الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقته وعلى شريعة الله .

---

(١) مريم : ٨٨ـ٩٥ .

واليوم شريعة الإسلام معطلة والأمة كلها مسئولة ومحاسبة على ذلك ، اللهم إلا من أعلن غضبه على ذلك وأقامها فى نفسه وبيته هو ومجتمعه وهو يجاهد فى سبيل الله بالنفس والمال .

هذا هو نوح مع قومه الذى أمره الله أن يقول لهم إن كان قد عظم وثقل عليكم مقامى أى لبثى فيكم وطول عمرى مع التذكرة والدعوة إلى الشريعة وآيات الله والحكم بما أنزل الله فإنى اعتمدت على الله . « ولم يزل عليه السلام متوكلاً على الله فى كل حال ولكن بين أنه متوكل فى هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم أى إن لم تنصرونى فإنى أتوكل على من ينصرنى »(١) .

وقد بلغت الثقة بنوح حدًّا فى اعتماده وتوكله على الله ما جعله يتحداهم ويطلب إليهم مواجهته بكل قواهم ، فكان من كيدهم غير وجل أوخائف لأنه يعلم مسبقًا أن آلهتهم لا تنفع ولا تضر . وفى كل هذا تسلية للنبى محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فآمن به من آمن وكفر به من كفر وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لأن نوحًا لا يفعل ذلك مقابل أجر إن أجره إلا على الله رب العالمين الذى أمره أن يكون موحدًا مسلمًا عبدًا منيبًا بعد أن أهلكهم بظلمهم .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ
مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

وقد جاءت بعد نوح رسل لأمم بعده كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب فجاءوا لقومهم بالمعجزات أيضًا فما كان صنيعهم معهم يختلف عن صنيعهم مع نوح . كذلك نختم ونغلق على قلوب المتجاوزين حدودهم فى الافتراء والكذب على الله والعناد معه ومحاربة الرسل .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟

---

(١) القرطبى جـ٨/ ٣٦٢ .

أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يبين الله أنه أرسل بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام موسى وهارون ، ولكن فرعون استكبر وكان من المجرمين ولم يستجب لهما ، فكانت عاقبته الخسران المبين . ولما جاء قومَ فرعون الحق من ربهم على يدى موسى وأخيه هارون الذى كان له بمثابة الوزير . . !! ولما أظهر موسى الآيات والحجج من العصا التى صارت حيةً وأخرج يده بيضاء فكانت نورًا !! ولما قال موسى لفرعون وقومِه إن الذى أنا عليه هو الحق من الله سبحانه !! لما كان كل هذا : قالوا فى تبجح وغطرسة بالباطل : أجئتنا ياموسى لتصرفنا عن آلهتنا تلك التى وجدنا أهلنا من قبلنا يعبدونها ، ونحن نرى أنك ما تفعل ذلك إلا طلبًا للكبرياء فى الأرض وتكون أنت وأخوك لكما الدنيا لتحكما بها فينا ؟ إننا سنظل على ما كان عليه آباؤنا ولن نؤمن لكما .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ
مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

مع ثبات موسى وأخيه على الحق ، قال فرعون لقومه ووزيره هامان وحاشيته : اجمعوا لى كل ساحر عليم بالسحر خبير به . وجُمع السحرة بآلات سحرهم وتمت المواجهة . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من السحر وأدواته ، فألقت السحرةُ حبالَها وعصيها . فلما انتهوا من عملهم وألقوا كلّ ما لديهم من أدوات السحر ، قال ـ موسى عليه السلام ـ إن الله سيبطله وذلك لأنه سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون . فألقى موسى عصاه فابتلعت كلّ أعمال السحرة وهى كما هى عصاه بعد أن انقلبت حيةً تسعى . وهنا وقعت الآية بأن آمن السحرة لموسى ولم يعبئوا بما كان من فرعون وقومه .

وآمن مع السحرة عدد من بنى إسرائيل ، وكذلك آمن لموسى من قوم فرعون شباب وشيوخ على خوف من فرعون وقومه ، فقد كانوا يحذرون أن يفتنهم فرعون بتعذيبهم ، وإن فرعون لعالٍ متكبر فى الأرض وإنه لمن المسرفين .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

قال موسى لقومه بعد أن آمن من آمن وكفر من كفر : يا قوم : إن كنتم آمنتم حقًّا وصدقًا فتوكلوا على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه وناصره ومؤيده فتوكلوا عليه إن كنتم مسلمين . فهى نظير قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ (١) ؟ ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ (٢) ـ و ـ ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . (٣) فقالوا : على الله توكلنا حقًّا ثم دعوا : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أى أصدر أوامره لموسى وأخيه هارون أن يتخذا فى مصر منازل وتكون هذه المنازل قبلة يعلن منها كلمة التوحيد ثم يقيم فيها شرعه وعدله وصلواته وعند ذلك تكون البشرى للمؤمنين . وهنا يوصيهم ربّ العزة أن يقيموا الصلاة خصوصًا وهم فى هذه الحال من الخوف والرعب والصراع بين الحق والباطل ، حيث إن الصلاة تهدئ من الروع وتطمئن النفوس ، حيث إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا حزبه أمر صلَّى . ثم بشرهم بعد ذلك يا موسى بأنَّ لهم العاقبة والنصر المبين . أما فرعون وأعوانه فلهم خزى فى الدنيا وفى الآخرة عذاب عظيم بسبب محاربتهم لله ولرسوله والمؤمنين .

---

(١) الزمر : ٣٦ . (٢) هود : ١٢٣ .

(٣) الفاتحة : ٥ .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا
تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال موسى لربه : إنك يا ربنا أعطيت فرعون وقومه متاعًا واسعًا فى الدنيا ومكنتهم فيها ليحكموها فحكموها بخلاف أمرك وأفسدوا فيها بغرور وكبر ، وكان الأولى بهم أن يشكروك ويعبدوك .

ربنا اطمس على أموالهم واطبع على قلوبهم حتى لا « تنشرح للإيمان » إذا رأوا العذاب الأليم ، قال الله سبحانه لموسى وهارون قد استجيبت دعوتكما فاستقيما على شريعتى وأقيما أمرى فى قومكما ولا تتبعا من يغريكما بغير طريقى ولا تتبعا سبيل الذين لا يعلمون . وهكذا قد استجاب الله لدعوة موسى كما استجاب من قبل لدعوة نوح على قومه ﴿ **ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا** ﴾ (٢) .

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ
نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا
لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر ولكن فرعون اتبع أثرهم ، ولما كاد يدركهم ويلحقهم ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فصار كل فرق كالجبل العظيم ، وسار موسى وقومه بين الحاجزين المائيين فى عمق البحر على اليابس ، واتّبعهم فرعون وقومه ،

---

(١) القرطبى جـ٨ ص٣٧٤ .   (٢) نوح : ٢٦-٢٧ .

فأغرقهم الله حيث تلاحم الماء عليهم. وقال فرعون وهو يغرغر آمنتُ برب موسى وهارون ولكن لم يتقبل منه ولا من قومه وأجابه الله سبحانه أفى هذا الوقت تقول آمنت؟!!!

فاليوم ننجيك ببدنك فقط لتكون لمن خلفك من بنى إسرائيل ولمن بقى من قومك ولم يصلهم هذا الخبر فتكون لهم آية وعبرة وعظة ، وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لمعرضون فى تأملها غائبون عنها .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

لقد نصر الله بنى إسرائيل على فرعون وجعل لهم مكانة وملكًا ، ولكنهم لم يسمعوا ولم يتعظوا . وقيل إن ﴿ مبوأ صدق ﴾ هذا هو بلاد مصر والشام (١) .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ سيقضى بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا عليه من الحق وساعتها سيعلمون أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، فالدنيا إن لم تكن مزرعةً للآخرة فقد خسرها الإنسان .

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ
جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

« الخطاب فى الآية للنبى والمراد غيره أى لستَ فى شك ولكن غيرك فى شك » (٢) .

إن اليهود يعلمون من كتابهم التوراة بأن نبيًّا من العرب سيُبعث بكتاب من عند الله .

والحق تبارك وتعالى يقول لنبيه بأن أمرك يا محمد مكتوب عندهم فاسألهم عنه فإنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وهذا أمر يؤكده الله لنبيه ولهم ، وإن إنكارهم للرسول مكابرة منهم للحق الذى يعلمونه ، فلا تكونن يا محمد أنت أو أمتك من المترين الشاكين .

---

(١) انظر : ابن كثير ٢/ ٤٣١ .

(٢) القرطبى جـ٨/ ٣٨٢ .

وهذا حث وتحذير من الله للمؤمنين أن يحرصوا دائمًا على التصديق بآيات الله ولايكونوا أبدًا مع من يكذب بها وإلا كانوا من الخاسرين .

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ
حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ
لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾

إن فى طبيعة قلوبهم مرضا وظلمة لا يستطيعون أن يتذوقوا حلاوة الإيمان ، وبذلك حقت عليهم كلمة ربك أى غضبه عليهم وسخطه بسبب معاصيهم ، ولو جاءتهم الآيات والحجج فساعتها يؤمنون ، ولكن لا ينفع نفسًا إيمانها فى يوم لا تنفع فيه المعذرة . لقد انتهت أيام العمل وفى الآخرة الحساب والسؤال والجزاء .

إن قرية نبى الله يونس أى أهل القرية لما عصوا يونس غضب عليه السلام وذهب مغاضبًا ، وخافوا أن يعاقبهم الله بسبب معصيتهم لنبيهم ، فآمنوا وبسبب إيمانهم كشف الله عنهم العذاب عذاب الخزى فى الحياة الدنيا بعد أن سبح يونس فى بطن الحوت أربعين يومًا حتى غفر الله له ونجاه وعاد إلى قومه وهم مؤمنون .

وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ
مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ
وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يا محمد لا تعجب لعدم إيمان كل الناس فلو شاء ربك لآمن كل من فى الأرض كافة .

فالإيمان إن لم يكن مصدره الإحساس العملى والشعور الصادق من العبد بأن الله مستحق العبادة من عبده بحق فلا يعد إيمانًا . وهى نظير ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾(١) ـ ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾(٢) ـ ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾(٣) .

إن الإيمان بالله عطاء يجتبى له الحق من استحق بحق أن يكون عبدًا لله فيطهره من الرجس ويغمس آخرين فى رجس وغضب . ولو شئنا يا محمد أن نهدى كل من فى الأرض من الخلق لفعلنا ، ولكن الله بحكمته وعلمه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بالمتقين وهو الهادى وما عليك إلا البلاغ .

إن الذين يكذبون بمحمد خاسرون للدنيا والآخرة مثل الذين كذبوا من قبل نوحًا وإبراهيمَ ثم الذين ضلوا من قوم موسى وعيسى عليهم جميعًا السلام . إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيصيب الذين كذبوا الرسل بعذاب وهلاك شديد ، أما المؤمنون والرسل من قبلهم فكان حقًّا على الله نجاتهم كما يقول سبحانه ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾(٤) .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه قل يا محمد للناس إن كنتم فى شك فيما أوحاه الله إلى وصحة ما جئتكم به من الدين الحنيف فإنى لا أعبد الذى تعبدون من الأصنام والأوثان التى هى شرك بالله ولكن أعبد الله ربًّا واحدًا لا شريك له . وإن كانت آلهتكم المدّعاة على حق ، فلتنصركم علينا ، فإنى أعبد الذى فطرنى على الإيمان والإسلام والتوحيد له سبحانه ولا أعبد ما لا ينفع ولا يضر ، وإن فعلت ذلك وحاش لله أن أفعل

---

(١) القصص : ٥٦ .
(٢) آل عمران : ٢٠ .
(٣) الغاشية : ٢١ـ٢٢ .
(٤) الأنعام : ١٢ .

معه ذلك فأنا إذن غير موفق إلى العبادة الصحيحة فى موضعها الصحيح . كما أمرنى الله سبحانه أن أتوجه إليه بوجهى وحقيقة نفسى وقلبى ، فأحصر حقيقة وجودى فى أن أتعرف بها على الله لأكون حنيفًا مسلمًا وأنجوَ من عذاب شديد وأكون من الموحدين .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ
يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

اعلموا أن الضار والنافع هو الله ، فإن أصابكم ضر فلا دافع له إلا الله ولا كاشف له إلا هو ، وإن أصابكم خير منه أيضًا فلن يستطيع أحد أن يرده عنكم . وهو سبحانه ينعم بفضله على من يشاء من عباده فيجعلهم على طريق الإسلام . وهو الغفور الرحيم لمن استقام على الكتاب والسنة وهما معًا الطريق المؤدى إلى الجنة .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قل يا محمد لكل الناس قد جاءكم من ربكم الحق واضحًا بيّنًا ، فالسعادة والفلاح لمن اهتدى بالقرآن والسنة . فمن كان القرآن هديه والسنة بيانه فقد اهتدى إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وأما من فارق نوره وتعاليمه فقد فارق الحق وحاد عن الطريق الذى به يكون لقاء الله ، والذى يضل طريق الإسلام فقد أورد نفسه المهالك .

فاتبع يا محمد ما يوحى به إليك ربك . تعايش مع القرآن واتبع الحق الذى به وعليه تقوم الساعة حتى يحكم الله بينك وبين الذين لم يستجيبوا لك واتبع ما يوحى إليك من القرآن واصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين .

والحمد لله رب العالمين .

(١١) سورة هود مكية

إلا الآيات ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنية
وآياتها ١٢٣ نزلت بعد سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى
لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾
إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

تكلمنا فى أول سورة البقرة عن الحروف المقطعة فى أوائل السور . ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ لعظم شأنه وجليل منزلته ، لا يتخلله باطل ولا يحمل إلا الحق والنور الذى يهدى البشرية إلى طريقها المستقيم .

إنها بحق آيات من كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾ أبلغكم مقاصده العالية وهى توحيد الله لا نعبد غيره ولا نحتكم إلا إليه بما أنزل ، وقد شرع وبيّن فى ذلك الكتاب الذى فصلت آياته .

ولما كان رسول الله هو النذير والبشير بهذا الكتاب : فقد ألهمه الله السنة ليبين لنا به ما دق وما غمض من أحكام التشريع والجائز وغير الجائز ، حصيلة غنية من لدن حكيم خبير . فلا يجوز لكم أن تعبدوا غيره ولا أن تتلقوا من سواه ، فإن فعلتم فتوبوا إليه واستغفروه برجوع قلب وعقل ، واحذروا أن تتولوا عنه ففى ذلك غضب منه سبحانه وإليه مرجعكم ، فأين منه تذهبون وهو سبحانه على كل شىء قدير ؟

سُورَةُ يُونُسَ

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

يقول القرطبى « أخبر عن معاداة المشركين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . و ﴿ يثنون صدورهم ﴾ أى يطوونها على عداوة المسلمين » (١) .

سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . فاختفوا كما تشاءون إنه عليم بذات الصدور لا تخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، مهما غطوا رءوسهم بثيابهم ومهما تواروا ومهما عقدوا فى قلوبهم من شحناء وعداوة وقد أظهروا خلافه .

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي
كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

إنه ما من خلق لله فى السموات والأرض إلا وقد ضمن رزقه وقضى أجله فى الدنيا وميعاده فى الآخرة . وما من دابة كبرت أو صغرت فى أقطار الكون المستور والظاهر إلا وقد قضى الله رزقها وأجلها وشقاءها وسعادتها على قدر طاقة قدرتها وحياتها .

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ
لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ
لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾

خلق تعالى السموات والأرض فى ستة أيام وقدر فيها أرزاق الخلق جميعًا ، وكان عرشه على الماء بما شاء وكيف شاء إنه الفعال لما يريد . وما قرره الله سبحانه وتعالى نؤمن به

---

(١) القرطبى ٩/ ٥ .

فهو العليم الخبير وهو على كل شيء قدير وهو سبحانه يبلو عباده بالأوامر والنواهى ثم ينظر أيهم أحسن عملاً وطاعة واستجابة ، فطوبى لمن أطاع أوامر الله وإرشادات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والفوز والسعادة لمن صدق بالبعث بعد الموت واستعد له . ويأيها المنكرون الجاحدون قدرة الله : أبعد ذلك تكفرون وتنكرون البعث والموت والحساب وأنتم تعلمون جيدًا أن الله خلق السموات والأرض ؟ ثم تقولون بعد ذلك ما هذا إلا سحر مبين ؟!!! إن هذا لشيء عجيب . . !!

ثم يخبر الحق بعد ذلك عن مكنون نفوسهم المريضة وأمنهم مكر الله عندما يؤخر عنهم العذاب إلى أجل مسمى ، فإذا هم يغترون بذلك بل يستعجلون هذا العذاب تكذيبًا من عند أنفسهم ويقولون (ما يحبسه) ؟ أى ما يؤخر هذا العذاب عنا ؟ ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم** ﴾ « قيل : هو قتل المشركين ببدر وقتل جبريل المستهزئين »⁽¹⁾ . والظاهر : أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يختص ببعض منهم ، على أنه لم يكن موعودًا يستعجل منه المجرمون ⁽²⁾. ومعنى ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أى نزل وأحاط . أما ﴿ **أمة** ﴾ فى الآية : فهى بمعنى أجل أو مدة مضروبة .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ
فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿١١﴾

إن الإنسان لينسى ما أنعم الله عليه من نعم فى سعة الرزق والصحة والجاه والأزواج والأولاد إذا ما اختبره الله سبحانه وتعالى فى ماله أو نفسه أو أولاده أو جاهه وساعتها يصبح يئوسًا كفورًا لم يذكر إلا ساعة شدته وأزمته .

ثم إذا أذاقه الله صحة ورخاء وسعة فى الرزق وفرج كربه بعد ضراء مسته إذا به يفرح

---

(١) القرطبى : ٩/ ١٠ .

(٢) تفسير أبو السعود ٣/ ١٤ .

« وينسى شكر الله عليه » . (١) وهكذا الإنسان دائمًا : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلّين** ﴾ (٢) .

فالإنسان خلق هلوعا ضعيفا يفرح ويحزن ، سريع النقم والغضب وشديد الفرح إلا من رحم الله من الذين صبروا على الشدائد والذين يعتقدون أن أمرهم كله خير إن أصابهم سراء شكروا فكان خيرًا لهم وإن أصابتهم ضراء صبروا فكان خيرًا لهم .

وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له » (٣) .

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وبثّ فيه من خصائص الطباع ما به يرضى ويُسَرّ وما به يغضب ويقنط . لكن مع الإيمان والتخلق بالخلق الحسن والصبر والتحمل يرتفع الإنسان إلى مراتب الصابرين فيرضى بالقضاء ويصبر فى الشدة ويشكر فى النعمة ويحسن العبودية لله مع حسن التبصر فيما أنعم به الحق عليه وجلّ قوله تعالى : ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ (٤) ـ أولئك هم المؤمنون وأولئك لهم مغفرة وأجر كبير .

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ
ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾

لقد اعتاد الكفار التحدى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذا يرشد الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يضيق صدره بهم وأن لا يصده غباؤهم عن الاستمرار فى الدعوة إلى الله ودعوتهم إلى العزيز الغفار .

---

(١) القرطبى ٩/ ١١ .

(٢) المعارج : ١٩ ـ ٢٢ .

(٣) رواه مسلم كتاب الزهد باب « المؤمن أمره كله خير » .

(٤) سورة العصر .

فلا يشغلك يا محمد قولهم : « إنك افتريت هذا القرآن أو اختلقته » إنهم لايبصرون الحق ولا يعقلونه . بل لا يقولون إلا بهتانًا .

قل لهم يا محمد : أيها الضالون المكذبون هاتوا عشر سور مثل سور هذا القرآن فى حسن صياغته وسبكه وبيانه وعلى نظم بلاغته ودقته وفصاحته وإحكامه وإتقانه . ولم ولن تستطيعوا أن تأتوا بذلك ولو اجتمع أعوانكم وكهنتكم وكان بعضهم لبعض ظهيرًا . فإن أصروا على باطل دعواهم ولم يستجيبوا لكم فاعلموا أن الله الذى أنزل على نبيه الكتاب هو القادر على أن يرد كيد المبطلين وأن لا إله إلا الله فهل أنتم مسلمون .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ
مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

إن الناس فريقان : فريق لم يؤمن بالله العزيز الحكيم وعاش يجمع الدنيا وحسبه منها زينتها وزخرفها وبهرجها يقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا . إن هؤلاء قد وفى الله لهم فى الدنيا كل ما سعوا إليه من زخرف الحياة وجاهها . أما الفريق الثانى فهو الفريق الذى يريد الآخرة ويسعى لها فى الدنيا وهو مؤمن . وهو الفريق الفائز برضوان الله وجنته ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾ ⁽¹⁾ .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا
وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ
فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

---

(١) الإسراء : ١٨-٢١ .

حقًّا ، ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون** ﴾ (١) . هل الذى هو على كتاب الله وأمره ونهيه مستقيم . وبسنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملتزم كمن لاهمّ له ولا شاغل إلا الدنيا وزينتها وزخرفها الباطل ؟! وقيل إن المراد بالشاهد فى الآية هو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل جبريل . ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ أى « ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض ومشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن»(٢). فالنار موعده .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بى ، لم يدخل الجنة » (٣) .

فلا تكن فى مرية أى فى شكٍ مما أنزلنا عليك إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون . وحقًّا قوله تعالى ﴿ **وإن تُطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ (٤) .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ
لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

إنه لا أحد أظلم منهم بسبب افترائهم الكذب على الله وزعمهم أن الله له شريك وولد واتخذوا الأصنام شفعاء لهم عند الله . أولئك يعرضون على ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء وتشهد عليهم الأشهاد ، أى الملائكة ، وقيل : الأنبياء والرسل .

نعم ألا لعنة الله على الظالمين الذين كانوا يصدون الناس عن طريق الإيمان والهدى والطاعة ويريدونها عوجا أى غير معتدلة أولئك لم يكونوا معجزين « أى فائتين من

---

(١) القلم : ٣٥-٣٦ . (٢) ابن كثير ٢/ ٤٤٠ .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى موسى الأشعرى .

(٤) الأنعام : ١١٦ .

عذاب الله »(١) لأنه هو الفعال ذو القوة المتين . إن أولياءهم ساعة العذاب لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ، فماذا يملكون لهم ؟ إن الذين حادوا عن صراط الله يضاعف لهم العذاب « وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صمًّا عن سماع الحق عميًا عن اتباعه »(٢) .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾

إن هؤلاء قد خسروا أنفسهم بضلالهم عن طريق الله وضلّ عنهم أى « ذهب عنهم الأنداد والأصنام فلم تُجْدِ عنهم شيئًا بل ضرتهم كل الضرر »(٣) . وجل قوله سبحانه ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾(٤) وأيضًا قوله ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾(٥). لذلك يخبرنا الحق أن هؤلاء الناس هم أخسر الناس فئةً وأخسرهم صفقة لأنهم خسروا رضوان الله وجنته وتبرأ منهم الذين اتبعوهم وهم بدورهم تبرءوا من الذين اتبِعُوا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ
وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم فى طريق مغايرٍ لطريق الذين خسروا أنفسهم . إن هؤلاء (أى المؤمنين) قد أخبتوا قلوبهم لله وخشعت أفئدتهم وسكنت واطمأنت إلى ربها فاستوعبت أمره ففعلته وعقلت نهيه فاجتنبته . والعبد المؤمن يحب كل ما أمر الله به فيفعله فهو حبيب مطاع ، وبذلك كانوا هم أصحاب الجنة وفيها خالدون .

---

(١) القرطبى ١٩/٩ .

(٢) ابن كثير ٤٤١/٢ .

(٣) ابن كثير ٤٤١/٢ .

(٤) الأحقاف : ٦ .

(٥) مريم : ٨١-٨٢ .

وكيف يسوّى عاقل بين المؤمنين والكافرين . مثل الفريقين كالأعمى ، وهو الكافر الذى غمت على قلبه ظلمة حجبته عن معرفة الحق ، وكالبصير وهو المؤمن الذى شاهد الحق قلبه فآمن به . كيف يسوى الله بين الأصم الذى طبع الله على أذنيه وبين السميع الذى استمع بقلبه مع أذنيه فاستطاع أن يفرق بين الحق والباطل ، هل يستوى الفريقان عند ربك ؟! كلا !!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يذكر الحق سبحانه وتعالى أنه قد أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه فقال لهم إنى لكم نذير مبين ، أدعوكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن أطعتم أمرى فإنى أبشركم بأن الله سيرضى عنكم وسوف ينجيكم سبحانه وتعالى من عذاب يوم أليم لا ينجو من هلاكه إلا من آمن بالله ثم برسله واعتقد أن الدنيا ساعة وبعدها حساب شديد وعذاب أليم . ولكن الملأ من علية قومه أجابوه فى غطرسة وكبرياء : يا نوح ما نرى أحدًا اتبعك إلا من هم أراذلنا ، أى « أخساؤنا وسقطنا وسفلتنا » (١) وعيّروا نوحًا بأن الفقراء هم الذين صدقوه . ودائمًا لا يقاوم الحق إلا أصحابُ الدنيا المالكون لها خوفًا على دنياهم . والإنسان عند الله يُقدر بما حمل قلبه من إيمان ووعى عقله من الحق . أما المال فعرض زائل ومتروك فى الدنيا عند الموت وصاحبه يحاسب عليه . ولجهل الأغنياء من قوم نوح بحقيقة الأمر كان ردهم على نوح هو دليل جهلهم بالحق . فلو كُشف عن قلوبهم وعقولهم لوُجدوا أنهم هم الأراذل وأنهم هم بادئوا الرأى دونما نظر أو تفكر أو تعقل ، وأن الفضل والصواب والعقل والإنسانية إنما كل ذلك لأصحاب نوح الذين لبّوا نداءه .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٣ .

أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

قال نوح لجماعة المتكبرين من قومه : أرأيتم أننى أكذب عليكم؟! وكيف بأمركم عندما تنكشف الحقيقة وتعلمون أنكم أنتم الضالون وأننى على بينة ويقين من ربى وأتانى رحمةً من عنده ؟ إنكم تعاليتم على الحق وليس على أن ألزمكم به ، ولكن أمرت أن أبلغكم إياه ، ومادمتم له كارهين فإلى الله مرجعكم وعليه حسابكم . ويا قوم اعلموا أنى لا أسالكم على ما أهديكم إليه وأدعوكم لاعتقاده أجرًا ، إنما أجرى على الله ربّ العالمين . وأمّا الذين صدّقوا برسالتى ما أنا بطاردهم ، إنهم أمتى وإنهم ملاقو الله وسيسألنى عنهم فلن أخذلهم ومن ينصرنى من الله إن طردتهم ما أراكم إلا قومًا تجهلون ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ (١) .

ويا قوم لست ملكًا ولست بمطلع على الغيب ولا أملك التصرف فى خزائن الله فأنا بشر مثلكم ، ولا أقول للذين تزدريهم أعينكم أى تحقرونهم وتكرهونهم إنهم ليس لهم ثواب عند الله على أعمالهم فالله أعلم بهم وبما فى نفوسهم ، فإن قلتُ هذا الذى تريدونه فأنا إذن من الظالمين .

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

---

(١) الأنعام : ٥٢ .

تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

لقد استعجل قوم نوح عذاب الله لهم ، فقالوا لنوح عليه السلام قد أعدت علينا القول مرارًا وهددتنا بها عند ربك من العذاب فأتنا بها وعدت وهددت إن كنت من الصادقين. قال نوح عليه السلام : إن الله إن شاء عذبكم فلستم بمعجزين له إذْ سبحانه الفعال ، واعلموا أننى عبد الله ورسوله أفعلُ ما أومر به وإن لم تنتفعوا بنصيحتى فأمرى إلى الله وأمركم كذلك إليه سبحانه . والله يشاء لعباده الخير فإن عاند العبد ربه فالله على ما يشاء قدير ، وإن عاقبكم وأهلككم بسبب غوايتكم وضلالكم الطريق فعليكم ظلمة غوايتكم وهو ربكم وإليه ترجعون . ربما يقول العرب من قريش إن محمدًا يفترى ما يقول فقل لهم يا محمد إن افتريته فأنا المسئول عنه عند الله الذى يعلم أننى بريء مما ترتكبون فى حقى وحقه سبحانه من الافتراء . وهذه الآية ﴿ أم يقولون افتراه﴾ «كلام معترض فى وسط هذه القصة مؤكد ومقرر لها »(١).

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ۚ
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

أوحى الله تعالى إلى نوح بأنه لن يؤمن إلا تلك الجماعة التى آمنت بك واتبعتك ، فلا تحزن يا نوح على هؤلاء الضالين المكذبين ، إنهم مهلكون بالغرق ، واصنع الفلك أى السفينة وخذ فيها كل من آمن بك وأهلكَ المؤمنين بك . نعم اصنعها بعين الله وبعلمه وبقدرته هذه هى سفينة النجاة لمن آمن بالله ورسوله وهذا هو عقابى لهم بدعائك عليهم إذْ قال نوحُ ﴿ ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا ﴾(٢) ـ ﴿ فدعا ربّه أنى مغلوب فانتصر﴾(٣) .

---

(١) ابن كثير ٢/ ٤٤٤ . (٢) نوح : ٢٦ .

(٣) القمر : ١٠ .

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

أمر الله نوحا أن يصنع السفينة وكلما مرت عليه جماعة من قومه سخروا منه إذْ إنه يصنع سفينة فى مكان غير جائز لصنعها به وهو الجبل وهم لا يدرون مكر الله وآمنون من عذابه ، لكنّ نوحًا والذين معه هم الساخرون منهم حقيقة لأنهم يعلمون مصير هؤلاء المجرمين قائلين لهم ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

لقد جاء وعد الله لنوح ففار التنور . والتنور : وردت فيه أقوال عديدة منها أنه وجه الأرض ، أو هو أماكن النار من الحجارة ، أو هو أعالى الأرض كما أوردها العلماء ⁽١⁾ .

وجاء أمر الله لنوح أن يحمل فى السفينة : من كل زوجين اثنين حتى يتم الاحتفاظ بنسل المخلوقات بعد الطوفان ، ثم الأهل المؤمنين بنوح إلا من سبق عليه القول منهم ، ثم من آمن كذلك ، أى احملهم أيضًا فى السفينة ، ولكنه لم يؤمن مع نوح إلا قليل .

يقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : آمن من قومه ثمانون إنسانًا منهم ثلاثة من بنيه سام وحام ويافث وثلاث كنائن ⁽٢⁾ له .

۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى
بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ

---

(١) انظر : هذه الأقوال فى تفسير القرطبى ٩/ ٣٣ وما بعدها .

(٢) كنائن : جمع كَنة وهى امرأة الابن أو الأخ ـ انظر القرطبى ٩/ ٣٥ .

لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يخبر الله عن نوح عليه السلام أنه قال لمن ركب معه وآمنوا به اركبوا فيها باسم الله سيرها ومنتهاها إنى ربى لغفور رحيم . وجرت السفينة بهم فى موج يشبه الجبال لقوته وغزارته وساعتها نادى نوح ابنه يا بنى اركب معنا . قيل إنه كان كافرًا واسمه كنعان وقيل يام وكان فى معزل من دين أبيه (١).

مازال نوح ينادى ابنه يا ولدى اليوم لا نجاة إلا لمن آمن وركب السفينة . وقال الولد العاق الكافر سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . وألحّ نوح على ولده بأنه لا عاصم اليوم من أمر الله ولكن ظلمةَ الكفر خيمت على الولد وألحّت عليه فلم يُجب أباه فكان من المهلكين .

وهنا قيل يا أرض ابلعى ما أخرجته من ماء وأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك ، وغيض الماء أى شرع فى النقص . وتحققت دعوة نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا ، فلم يبق منهم شىء ، استجابة لدعوة نوح عليه السلام . واستوت السفينة على الجودى وهو جبل بالقرب من إقليم الموصل بالعراق . وقيل إنه « جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت فغرقت ، وتواضع هو لله عزّ وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام » (٢).

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

---

(١) انظر القرطبى ٩/٣٨ .

(٢) انظر ابن كثير ٢/٤٤٦ .

يحكى القرآن الكريم بعض ما حدث قبل غرق القوم : إذْ نادى نوح ربّه إن ابنى من أهلى فنجّه . ظنًّا منه أن ابنه من أهله وداخل فى وعد الله فى قوله ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك** ﴾ ولذلك قال له نوح ﴿ **وإن وعدك الحق** ﴾ ويرد الله عليه : لا يانوح إن ابنك ﴿ **ليس من أهلك إنه عمل غير صالح** ﴾ . ولم يقتصر الحق على ذلك بل شرح لنوح القضية فليس لك وإن كنت نبيًّا ورسولاً أن تسألنى ما ليس من حق العبد فاحذر يا نوح أن تفعل ذلك فتكون من الجاهلين (أى الآثمين) .

يقول القرطبى « فى هذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين » . (١)

وهنا سلم نوح النبى الأمر لربه قائلاً ﴿ **ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين** ﴾ . وهذا الموقف من نوح يعلن عن عظمة العصمة فى الأنبياء .

قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ
سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ
مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

أمرٌ من الله بالهبوط من السفينة إلى الأرض ، والملائكة تقول لهم اهبطوا بسلام منّا وأمن فلا تخف يا نوح إن عناية الله معك وذلك السلام منا تصحبه بركاتٌ عليك وعلى أمم ممن معك . ويقول العلماء إنه قد دخل فى هذا كلّ مؤمن إلى يوم القيامة ، وأيضًا دخل كل كافر فى ﴿ **وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ .

تلك من أنباء الغيب نقصها عليك يا محمد ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل القرآن ، فاصبر على أمر تبليغ رسالتك وإيذاء قومك لك إن العاقبة للمتقين الخائفين من لقاء الله العاملين بكتاب الله وسنة رسوله .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤٧ .

فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾

إن فى قوله سبحانه ﴿ أخاهم هودا ﴾ معنى يرقق القلب ويزيل الصدأ من النفوس ، فماذا فعل معهم أخوهم هود ؟ قال لهم : يا قومى اعبدوا الله ليس لكم إله غيره هو ربكم وإليه مرجعكم . وإنكم لو عبدتم غير الله مالا ينفعكم ولا يضركم تكونون مفترين على الله الذى خلقكم فأطعمكم فستركم . وقال لهم أيضًا : يا قومى لا أسألكم على دعوتى إياكم إلى عبادة الله الواحد أجرًا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى والذى فطر السموات والأرض غير محتاج إليكم . فيا قومى راجعوا أنفسكم وتوبوا إليه وامتثلوا لأوامره يرسل السماء عليكم مدرارًا بسبب توبتكم واستغفاركم إياه .

قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

لقد تمادى قوم هود فى غيهم وضلالهم فقالوا له : نحن لن نترك آلهتنا بمجرد طلبك ذلك منا وما نحن لك بمؤمنين . وأنت لم تأتنا ببينةٍ أى حجة أو برهان على ما تدعيه . بل ازدادوا فى تماديهم على هود عليه السلام فرموه بالجنون وقالوا له فى سخرية واستهزاء : لقد مسك الجنون ، إذْ غضبت آلهتنا عليك فأصابك ما أصابك بسبب « نهيك عن عبادتها وعيبك لها » .(١) ولكن هودًا أجابهم فى ثبات وثقة قائلاً لهم : إنى أشهد الله واشهدوا أنتم كذلك أننى بريء مما تشركون مع الله غيره . فكل ما تتعبدون به لغير الله أنا ومن اتبعنى برآء منه ولن نقركم على شركم . ثم بإصرارهم على كفرهم ، قال لهم هود فكيدونى جميعًا بما ملكتم من حطام دنياكم أنتم وأصنامكم التى تعبدونها ثم لاتؤخرون ، وهذا كمال الثقة فى الله وبالله .

---

(١) ابن كثير ٢/ ٤٤٩ .

إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ
وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾

إنى توكلت على الله ربى الذى خلق كل شىء الذى ما من دابة فى الأرض إلا وقد قدر لها رزقها وحياتها إن ربى على صراط مستقيم « لا خلل فى تدبيره ولا تفاوت فى خلقه سبحانه » . (١)ويا قومى ، إن تتولوا عما جئتكم به فقد ثبتت عليكم الحجة وأقيم عليكم البرهان والله قادر على أن يستخلف قومًا غيركم طائعين ذاكرين الله موحدين له عابدين إياه إن ربى على كل شىء حفيظ .

وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ
غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ
عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا
لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾

وجاء أمر الله فنصر هودًا ومن معه وأهلك الكافرين ، وأصبحت عاد عبرة لما جحدوا بآيات الله وعصوْا رسله وكانوا من أتباع الجبابرة والمعاندين لأمر الله ورسله وكلماته .

« وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد »(٢) .

۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾

أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه صالحًا إلى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون أرضًا بين تبوك

---

(١) القرطبى ٩/٥٣ .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٥٠ .

والمدينة فى صحراء الحجاز . وقال لهم صالح إننى رسول من رب العالمين الذى خلق كل شىء ، ومهمتى فيكم أن أدعوكم إليه وأعرفكم عليه ليس لكم إله غيره فهو الذى خلق ذلك العالم أرضه وسماءه وأنشأكم من الأرض واستعمركم فيها لتعمروها ، فواجبكم أن تشكروه على إيجادكم وتستغفروه على تقصيركم فى عبادته فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه إن ربى قريب مجيب .

قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي
شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي
وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾

أما الآن يا صالح وقد دعوتنا إلى هجر ما كان يعبد آباؤنا ، فإننا فى شك من صحة ما تدعونا إليه ولدينا ريب فيه . تدعونا إلى ذلك وقد كنّا نأمل فيك أن تكون سيدًا علينا قبل مجيئك بهذا البيان ، فانقطع الآن رجاؤنا منك وأملنا فيك . فيرد عليهم صالح قائلا : يا قومى أنا على يقين من ربى ﴿ وآتانى منه رحمة ﴾ أى نبوة ورسالة . وقيل الهداية وقيل الإيمان والإسلام . ﴿فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ أى تضليل وإبعاد عن طريق الله .

وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي
دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا
صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قال صالح عليه السلام : يا آل ثمود هذه هى الناقة التى طلبتم إخراجها من الجبل ، فأخرجناها لكم بأمر الله من الجبل والصخور الصماء آية خارقة للعادة لتشهدوا

فيها قدرة الحق سبحانه وتعالى غير المحدودة ، لا تمسوها بسوء . إنها آية الله لكم اتركوها ترعى فى حشائش الأرض لأنكم إذا فعلتم فسيأخذكم الله بعذاب أليم لا تقدرون عليه ويكون به هلاككم . ولكنهم لم يسمعوا فعقروها أى قتلوها ، فأبلغهم ، صالح أن يتمتعوا فى دارهم ثلاثة أيام انتظارًا للهلاك الواقع عليهم من الله ، وذلك نفسه عذاب سابق للعذاب . وجاء غضب الله وهزّت الصواعق الأرض من تحتهم وزلزلت الأرض زلزالها وأخذت الصيحةُ الذين ظلموا وحاربوا الله وقاوموا نبيه صالحًا فأهلكهم الحق بما ظلموا وأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، صورًا هشةً كأنها أجساد خاوية ، فإن اقتربتَ منها أو لا مستّها فكأنها هشيم تذروه الرياح ، وهكذا كل من تكبر على أن يدين لله ربّ العالمين ووعد الله غير مكذوب .

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ
بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

إن الملائكة جاءت تبشر إبراهيم وسلمت عليه ورحب بهم إبراهيم ، ثم انصرف إلى داخل بيته فجهز عجلاً حينذًا (أى مشويًا) وقدمه تحية لضيوفه ودعاهم ليأكلوا ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام . ولما لم يستجيبوا لدعوة إبراهيم خاف منهم فقالت له الملائكة يا إبراهيم إنا رسل ربك فلا تخف إنا مرسلون من الله إلى قوم لوط لنذيقهم جزاء إعراضهم عن الحق الذى جاء به لوط .

وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ
يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

لقد بشرت الملائكة امرأة إبراهيم سارة بأنها ستلد لإبراهيم إسحاق وسيلد إسحاق يعقوب ، لأنها كما يقول القرطبى « لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست لكبر سنها فبشرت بولد يكون نبيًّا ويلد نبيًّا فكان هذا بشارة لها بأن

ترى ولد ولدها » . (١) وقيل إنها حاضت فى هذه الساعة ، وهذا معنى قوله تعالى ضحكت . ثم انصرفت الملائكة إلى قوم لوط فأهلك الله الكافرين بهم . وهذا سيتبين لنا بعد قليل .

قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ
مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

حقًّا ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾(٢) فلا تعجبى من هذا يا سارة إنما هى إرادة الله وقدرته فإن الله على ما يشاء قدير ، رحمة الله عليكم يأهل البيت وبركاته .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم عليه السلام ذهبوا إلى قوم لوط فى هيئة الآدميين وعليهم وقار ورهبة ووجاهة وذلك بعد أن أخبروا إبراهيم عليه السلام بما يريدون فعله ، ودار حوار طويل بين إبراهيم عليه السلام وبين الملائكة ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ . ولحلمه : كان يأسى على ما فات قوم لوط من الإيمان . ولأنه كان يرجع إلى الله تعالى فى الأمور كلها : رغب فى إنقاذهم خوفًا على المسلمين فيهم (٣) ، ولكن قال له ربه سبحانه ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ الجدال ، إن عذابى نازل بهم لا محالة ، وفى الوقت نفسه : ﴿ نحن أعلم ﴾ بالمسلم فيهم ﴿ لننجينه ﴾ (٤) وانتهى الحوار ، وكان ما أراد الله .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) القرطبى ٩/ ٦٩ .

(٢) يس : ٨٢ .

(٣) انظر : القرطبى ٩/ ٧٢ .

(٤) انظر سورة العنكبوت ، الآيات : ٢٨ ـ ٣٥ .

بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ
رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

وفى بجاحة من قوم لوط ووقاحة فى أخلاقهم ، أسرعوا إلى ضيوف لوط عليه السلام بنية الاعتداء عليهم وهم الملائكة الأطهار . فخاف لوط وتأزمت نفسه وقال لقومه لاتفضحونى فى ضيفى وعندكم بناتى ـ ويقصد بنات القوم « إذ نبى القوم أب لهم »(١). لقول الله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ (٢) وهو أب لهم ، ـ يا قومى هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم بالزواج . ولكنْ أجاب قومُه بأن رغبتهم القبيحة المنكرة السيئة ليست متوجهة إلى النساء ولكن للذكور ، وبذلك سيعتدون على ضيفه . ولوط فى حيرة ودهشة من صنيع القوم الفاحش المنكر وهو يقول أليس منكم رجل رشيد؟! أى شديد يأمر بالمعروف وينكر هذا المنكر .

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً
أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

يرد هؤلاء القوم الكافرون « إنك لتعلم أنه لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن . . وليس لنا غرض إلا فى الذكور وأنت تعلم ذلك فأيّ حاجة فى تكرار القول علينا . . فإنما نريد الرجال » (٣) . وييئس لوط منهم وتمنى عونا على ردهم وتمنى أنصارًا يرد بها كيد هؤلاء أهل الفحش .

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ
الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

---

(١) القرطبى ٩/ ٧٦ .

(٢) الأحزاب ٦ .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٥٣ .

قلنا إن لوطًا يئس من قومه وتمنى العون والأنصار ليستعين بهما عليهم ، أو يأوى إلى ركن شديد ينضوى عنده . « ويروى أن الملائكةَ وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد »⁽¹⁾ وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « رحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال ﴿ **لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ فما بعث الله من بعده نبيًا إلا فى ذروة من قومه »⁽²⁾ .

عندئذ قالت الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ يا نبى الله : إننا بأمر الله مهلكو هذه القرية بمن فيها ، فخذ من آمن بك وأهلك المؤمنين بك كذلك إلا امرأتك فإنها من الهالكين لكونها من الضالين عن طريق الحق . وإن نهاية هلاكهم الصبح ، فأسرع واخرج من القرية قبل أن يقع عليها غضب الله سبحانه . وخرج لوط ومن معه من المؤمنين وكانوا قلة قليلة حتى جاء أمر الله .

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

جاء أمر الله فكانت القرية مع الصباح منسوفة بمن فيها فقد سلط الله عليهم حجارة مسومةً أى مسمومة . والحجارة كانت معدة لذلك . وقيل يتبع بعضها بعضًا فى نزولها عليهم ، ومسوّمة أى « معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه »⁽³⁾ .

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

---

(١) القرطبى ٩/ ٧٨ .

(٢) رواه الترمذى كتاب التفسير باب ومن سورة يوسف ، وقال : حديث حسن .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٥٥ .

وهؤلاء قوم شعيب كانوا يسكنون ما بين بلاد الشام والحجاز أرسل الله إليهم نبيه شعيبًا ، وكان عليه السلام من أوسط أنسابهم وعلى خصال حميدة وخلق كريم شهرته بينهم الصدق والأمانة والعدل فى نفسه وغيره . أرسله الله فى قومه وهم قبيلة مدين وكانوا على كثرة فى المال والجاه غير أنهم مع ذلك كانوا يطففون فى الميزان ﴿ **إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ (١) فقال لهم شعيب يا قومى لا تنقصوا الكيل ولا الميزان واعدلوا إذا باعكم الناس أو بعتم لهم . ويا قومى اعلموا أن الله خالقكم ورازقكم فيجب عليكم عبادته واتخاذه ربًّا معبودًا واحدًا ولا تشركوا به شيئًا إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط لا تجدون فيه ما توفون به ما ظلمتم وأبخستم وأطففتم ، واعلموا أن ما تبقى لكم من أعمالكم الصالحة التى تريدون بها وجه الله هى التى لكم من دنياكم عند خروجكم منها . ﴿ **بقية الله خير لكم** ﴾ أى « ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس » (٢) . وحقًّا ﴿ **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ (٣) .

قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ
أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ
مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ
تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨

إن قوم شعيب لم يستطيعوا أن يتلقوا الحق من شعيب بعقول فاقهة مستنيرة ، وقلوب واعية لتقدر على فهم وفقه ما يقول شعيب ، فقالوا له على سبيل السخرية والاستهزاء : ما هذه الصلاة التى تمنعنا من عبادة أصنامنا والتصرف فى أموالنا كيف نشاء ؟!! اعقل يا شعيب لقد عرفناك فينا الحليم الرشيد . قل غير هذا . . قبحهم الله !! فأجاب شعيب : أتعجبون من أمرى إنه حق أوحى به إلى ربى وكلفنى أن أبلغكم إياه لنستقيم

---

(١) المطففين : ٢ ، ٣ .

(٢) ابن كثير ٢/٤٥٦ . (٣) المائدة : ١٠٠ .

معًا على طريقه المستقيم ، وبذلك يرزقنا رزقًا حسنًا طاهرًا من الحرام ، وكل ظلم للناس حرام عند الله . وأنا معكم إن أطعتم أمر الله فلن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه وأفوض الأمر إلى الله وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أرجع وأنيب .

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ
أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ
تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾

قال لهم شعيب : يا قومى لا يحملنكم ولا يدفعنكم عداوتكم لى وبغضكم لى على أن تستمروا على ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى فيصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم من قوم نوح وهود وصالح ولوط ، ثم استغفروا ربكم بسبب ما اقترفتموه من آثام ومعاص إن ربى رحيم ودود لمن تاب ورجع إليه .

قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ
لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ
ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ
وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾

قال قوم شعيب له مصرين على ضلالهم : يا شعيب ما نفقه وما نفهم لك قولاً ولن نرضى لك عملاً تأمرنا به ولا نجد حكمة فيما تقول لنا وإنا لنراك فينا ضعيفًا أوحد ، حتى عشيرتك لا تتبعك ، ولولا معزة أهلك وعشيرتك عندنا لرجمناك بالحجارة وما أنت فى هذه الحال بعزيز أو غال علينا حتى نتركك . قال يا قومى : أتتركوننى وتتركون عذابى من أجل أهلى وعشيرتى ، وليس من أجل الله الواحد الذى خلقنا جميعًا وما حملت الأرض وما أقلت؟ إن كلامكم لباطل إن ربى محيط بخلقه وسيريكم ما تستحقون

من العقوبة والغضب . فيا قومى اعملوا على مكانتكم أى طريقتكم وافعلوا ما تشاءون وإنى لعامل بما أمرنى الله وسوف تعلمون من يخزيه الله سبحانه جلت قدرته فارتقبوا أمر الله وإنى لمعكم أرقبه وأنا مؤمن به .

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا
بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

لقد جاء أمرنا وحان موعد القضاء من الله على الظالمين .

يقول ابن كثير « وقوله ﴿ جاثمين ﴾ أى هامدين لا حراك بهم . وذكر ها هنا أنه أتتهم الصيحة وفى الأعراف رجفة وفى الشعراء عذاب يوم الظلّة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه »⁽¹⁾ .

وهكذا أهلكنا قوم شعيب كأنهم لم يعيشوا فى ديارهم تلك من قبل مثلهم مثل ثمود، وكذلك تكون نهاية كل فاسق متكبر كافر .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟
أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ
ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ
ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

أرسل الله موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون يدعوه إلى عبادة الله وتوحيده، ومع موسى سلطان مبين أى قوة من الله تحوط به وتحفظه من كيد الكافرين ، وهذا السلطان كان متمثلاً فى قوة موسى وحجته وإحدى معجزاته وهى العصا . وكان حول فرعون أشراف قومه وقادة جيوشه ومستشاروه وكهّانه . والشعب دائماً فى أمة الكفر مسوق بقوة بطش

---

(١) ابن كثير ٢/٤٥٨ .

الحاكم وزبانيته . واتبع الشعب أمر طاغيته فرعون وهو أمر غير رشيد إذْ يوم القيامة سيساق فرعون وخلفه قومه إلى النار بسبب ذلك . ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أى « بئس المدخل المدخول » (١) .

كما أنه تتنزل عليهم اللعنات فى الدنيا . ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ أى بئس العطاء يعطى لهم فيها (٢) .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ
وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن
شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

تلك يا محمد من أنباء القرى الماضية نقصها عليك ، منها قائم أى عامر وحصيد أى هالك ، وما ظلمناهم عندما أهلكناهم لأن الله سبحانه منزه عن الظلم فهو العدل والحق . ولكننا أهلكناهم بسبب استحقاقهم لهذا الهلاك لأنهم هم أنفسهم ظالمون ولم تغن عنهم أصنامهم التى اتخذوها عوضًا عن الله سبحانه وتعالى عما يصفون فخسروا الدنيا والآخرة معًا ، وهذا هو ما يفعله الله سبحانه بالظالمين .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

فكما أهلكنا تلك القرى وأهلها الظالمين المكذبين كذلك نهلك كل من يشابههم فى أقوالهم وأفعالهم ، إن أخذنا وعقابنا أليم شديد .

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » (٣) .

---

(١) القرطبى ٩/ ٩٣ .
(٢) المرجع السابق ٩/ ٩٤ .
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه .

إن فى ذلك لآية لمن عرف الله وآمن بما جاء على يدي رسله من الحق وعمل لليوم الآخر ، ذلك اليوم الذى يجمع فيه كل الناس فهو يوم عظيم تشهده الملائكة والأنبياء والرسل وجميع الخلائق من الإنس والجن والطير يوم لا شك فى إتيانه وما نؤخره إلا من أجل ميعاد ثابت .

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟
فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾
فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا
لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

إن هذا اليوم يوم عصيب لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله **﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾** (١) ـ وجل قوله تعالى **﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا ﴾** (٢) .

وفى حديث الشفاعة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . . « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلمْ سلمْ » (٣) .

وفى ذلك اليوم أيضًا شقى وسعيد ، شقى بما عصى وسعيد بما قدم من الصالحات **﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾** (٤) والأشقياء فى النار ـ لهم فيها زفير وشهيق ـ لايخرجون منها والسعداء فى الجنة أبدًا إلا ما شاء ربك . لكن ما المغزى وراء الاستثناء الموجود وراء كل فريق بقوله تعالى **﴿ إلا ما شاء ربك ﴾** ؟

يقول ابن كثير إن الاستثناء « عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين حتى يشفعوا فى أصحاب الكبائر

---

(١) النبأ : ٣٨ . (٢) طه : ١٠٨ .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى والإمام أحمد فى مسنده .

(٤) الشورى : ٧ .

ثـم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتُخْرِجُ من النار من لم يعمل خيرًا قط وقال يومًا لا إله إلا الله »⁽¹⁾ .

أما الاستثناء فى الآية التالية ، آية ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ ، فيقول عنها ابن كثير أيضًا «معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائمًا »⁽²⁾ .

أما قوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أى غير مقطوع . فالعذاب عذاب خالد أبدى والجنة ﴿خالدين فيها ﴾أبدًا لا موت فيها . بل إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول عن الموت فى الحديث الذى جاء فى الصحيحين « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار خلود فلا موت » . كما ورد فى الصحيح أيضًا « فيقال يأهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا »⁽³⁾ .

فلا تتعجب يا محمد من الباطل الذى يعبدونه ، فليس لهم حجة أو دليل فى عبادتهم غير الله إلا آباؤهم الضالون ، وإن الله موفيهم نصيبهم غير منقوص ولايظلم ربك أحدًا .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

اعلم يا محمد أننا كذلك آتينا موسى الكتاب ، فما كان من قومه بنى إسرائيل إلا أن اختلفوا فى حقيقته وحججه ، ولولا أن الله قضى فيما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى بينهم ولعجل لهم ما يستحقون من العذاب ولكن عذاب الآخرة أشد وأخزى وأخلد وأبقى . واعلم يا محمد أن جميع من كفروا سواء قبل موسى أو بعده أو من قومك : فالنار موعد المعاندين منهم والمصرِّين على ألا يجيبوا ويستجيبوا لدعوة الله وأمره

---

(١) ابن كثير ٢/ ٤٦٠ . (٢) ابن كثير ٢/ ٤٦٠ .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والإمام أحمد فى مسنده والدارمى فى سننه .

فربّك لا يخفى عليه شىء والله هو المحصى للأعمال كبيرها وحقيرها ، وكل سيجازى على عمله .

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

أمر من الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستقيم . وليس معنى ذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مستقيماً ، فهو عليه الصلاة والسلام فُطر على الاستقامة من طفولته ، ولكن الله سبحانه يشرّفه بأن يأمره ليرقى من رقى إلى أرقى فى مراتب الاستقامة . فاستقم يا محمد واثبت أنت ومن معك على الإيمان والاستقامة ، واثبت وارتق فى نور كمالك المنعَم به عليك من الله . والاستقامة فى الإسلام إنما هى التلبس بروح الدين ليستطيع الإنسان أن يرقى فى سلوكه وأخلاقه ببعض صفات الحق .

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

ولا تركنوا وتميلوا إلى الظالمين « ولا ترضوا بأعمالهم »⁽¹⁾ فتنتقل ظلمة بغيهم إليكم فتتجاوزوا الحد المرسوم للعدل والحق فتُحرموا من نور البصيرة وتمسكم النار ، ولن تجدوا ساعتها من ينقذكم ويخلصكم أو يدفع عنكم عذاب الله ثم لا تنصرون .

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

يأمرنا الحق أن نقيم الصلاة ، وكأن الله يعلمنا أنه لابد من أن نزكى النفس والبدن والقلب والضمير ، وذلك بالاستقامة على ما أمر به ثم بهجران الظالمين . وذلك يلزم بأن نرعى العدل فى أنفسنا وفى الناس وطهارة الضمير والبدن ويقظة القلب مع النفس لنقف بين يدى الحق لنقيم الصلاة ، فالصلاة حضور بين يدى الله الخالق الرازق المحيي المميت الباعث . فأول ما ينظر فى عمل العبد الصلاة فإن صلحت فلصاحبها البشرى

---

(١) رأى ابن عباس أورده ابن كثير ٢/ ٤٦١ .

بأن كلّ شيء بعدها مقبول لأنها ميزان الأعمال . فالصادق فى صلاته لا يكذب خارجها والمتطهر لصلاته يخاف أن يمسه نجس والحاضر فى صلاته قد تمتع بالحضور فى حضرة الله فشاهد أنوار الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فعاش الاستقامة بين يدى الخالق فذاق طعم شراب المحبين واستمع إلى ربّ العالمين وأخذ طريقه مع الذين يقيمون الصلاة بحضور قلب وخشوع روح ويقظة ضمير فأقام الصلاة بقلبه وروحه وسجدت جوارحه وقالت لا معبود بحق إلا الله .

أما قوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ترغيب فى فعل الخيرات بكثرة حتى تُذهب وتمحو ما علق بالإنسان من ذنوب سالفة لقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث أبى ذر « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »(١) .

واصبر يا محمد على الصلاة ، نظير قوله تعالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾(٢) وقيل : « المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى »(٣) إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾

إن الله تبارك وتعالى يقول لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : انتبهوا ، فقد كان من القرون من قبلكم أقليّة من خيرة هذه القرون ، تذكر الناس بما عليهم لله وبما أنعم به الله عليهم ، وتبين لهم أنواع الفساد وأعمال الخير وسوء أهل الفساد ومكارم وفوز أهل الخير. وهؤلاء كانوا لا يخيفهم بطش ظالم ولا طغيان فاسد من حكامهم الطغاة . وقد نجينا الذين لم يفتنوا فى أمرنا . أما الذين ظلموا فاتبعوا شهواتهم وملذات الحياة ، هؤلاء قوم مجرمون . وفى هذا تحضيض على إنكار المنكر والأمر بالمعروف وإقراره .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى سننه ، والحاكم فى المستدرك عن معاذ والإمام البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى ذر . ورواه ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه .

(٢) طه : ١٣٢ . (٣) القرطبى ٩/ ١١٣ .

سُورَةُ هُودٍ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ
خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

ما كان الله العدل الحق ليهلك أهل القرى وهم على الحق ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بانحرافهم عن شرائع ربهم وحادوا عن طريق أنبيائهم . ولم يكن « ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط . ودلّ هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب » (١) .

وفى قدرة الله أن يجعل الناس أمة واحدة على فهم واحد ، ولكن ليستبين الحق من الباطل والعامل من العاطل ، فيميّز بين الناس : عرض لهم دينه ، وأنعم عليهم بعقل يميزون به بين الحق والباطل ، فآمن من آمن ، وكفر من كفر ، فحقّ العقاب والثواب . وهى نظير قوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا ﴾ (٢) أما قوله ﴿ولا يزالون مختلفين ﴾ أى على أديان شتى . ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ « بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف » (٣) وهو استثناء منقطع من ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ ولكن ثبت فى علم الله ومقدوره أنه سيملأ الجنة بمن يستحق منهم دخولَ الجنة ، وهكذا النار .

وعن أبى هريرة قال : قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنتِ رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنتِ عذابى أنتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها ربّ العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك » (٤) .

---

(١) القرطبى ٩/ ١١٤ .
(٢) يونس : ٩٩ .
(٣) القرطبى ٩/ ١١٤ .
(٤) رواه الإمام البخارى فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده .

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

تحمل الرسل باطل الناس وصابروا وصبروا وأتمّ كل نبى رسالته إلى أمته ، حتى جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحمل فى قلبه ومشاعره كل ما قص الله عليه من أنباء الرسل ، فثبت الله بذلك قلبه واحتمل الحق لمّا جاءه من الله نور قذف به سبحانه فى قلبه ، وأصبح كل ما يحوط بالنبى ويشع حوله حق وموعظة وذكرى للمؤمنين ، كما احتمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين آمنوا صلف المشركين والكافرين حتى نصر الله الحق أو ماتوا دونه .

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ
وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قل يا محمد للذين لا يؤمنون اعملوا على طريقتكم إنا على طريقتنا مع الله وشرعه وهديه ، وانتظروا عقاب الله وردعه لكم إنا منتظرون ﴿ **فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ (١) لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وقد أتم الله وعده لعبده ورسوله . واعلموا أن لله غيب السموات والأرض وإليه سبحانه وتعالى يرجع الأمر كله وإننا عابدون له متوكلون عليه والمؤمنون معنا فى ثبات ومثابرة . واعلموا أيها الظالمون المكذبون أن الله لن يخلف المؤمنين وعده ولن يترك رسوله وما هو سبحانه بغافل عما تعملون أيها الكافرون . فالنبى ومن معه بعين الله ولن يضيع الله عمل المؤمنين . نسألك اللهم ألا تضيع عملنا هباءً منثورًا واجعله خالصًا لوجهك الكريم يا رب العالمين .

---

(١) الأنعام : ١٣٥ .

(١٢) سورة يوسف مكية

إلا الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٧ فمدنية
وآياتها ١١١ نزلت بعد سورة هود

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢

تحدثنا عن الحروف التى بدأت بها السور وذلك فى سورة البقرة . أما المقصود بالكتاب المبين فهو القرآن الكريم ، قد أنزله الله على محمد خاتم المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبين فيه للخلق طريق فلاحهم ، لتستقيم الحياة وتعتدل بموازين شرع الله سبحانه وتعالى . والمقصود من سرد قصص ما وقع ليوسف ويعقوب عليهما السلام إنما هو تسلية ومواساة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصابر ويرابط ومن معه من المؤمنين حتى ينتصر الحق ويخذل الباطل وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣

لم يكن عندك علم أو أخبار يا محمد قبل أن نقص عليك هذا القصص المبين ، فعايشْ من سبقك فى قصصهم حتى يتحقق لك النصر والفوز إن شاء الله . وسميت هذه السورة أحسن القصص لأنه « ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة »(١) .

---

(١) القرطبى ٩/ ١٢٠ .

سُورَةُ يُوسُفَ

إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

كان لسيدنا يعقوب عليه السلام اثنا عشر رجلاً من الأولاد ، من أربع زوجات ، منهم يوسف . وكان يوسف على قسط وافر من الجمال ، صورة وخلقًا وذكاءً وإدراكًا للأشياء ، يسبق سنّه بكثير .

والمقصود بالشمس : أم يوسف ، أما القمر فهو أبوه يعقوب ، عليه السلام .

استمع يا محمد إلى أحسن القصص . فهذا هو يوسف وهو يقول لأبيه يا أبت إنى رأيت فى نومى ﴿ أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ . ولما كانت تلك الكواكب جمادًا ، ويوسف قد رآها فى هياكل حية واعية للسجود فهو أمر عجيب ، ولكن يعقوب النبى عرف أنه خضوع كائنات من الكون .

وتلك الرؤية من المبشرات بالنبوة المنتظرة ليوسف ، كما سيتبين بعد ذلك .

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾

لقد فسّر يعقوب الرؤية بأن يوسف سيبلغ منزلة من منازل القرب لله سبحانه وتعالى .

وهذا إرهاص بنبوة يوسف ، عليه السلام . وتعبير الرؤيا خضوع إخوة يوسف له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائدًا بحيث يخرون له ساجدين إجلالا واحترامًا وإكرامًا ، فخشى يعقوب أن يحدّث بهذا المنام أحدا من إخوته فيحسدونه على ذلك ويكيدون له . فحذّره أبوه أن يفسر لإخوته ما رأى ، وذلك لأن الشيطان للإنسان عدوّ مبين ، فربما يوسوس لهم بحسده والتربص به . وأطاع يوسف أباه ولكن إخوة يوسف حسدوه وتربصوا به . وتستغرق الرؤية يعقوب ويعايشها ، ويقرأ فى سطورها مستقبل يوسف ، ويقرأ فى وجوه إخوته وفى نبرات حديثهم عن يوسف ما يشغله عليه ، لأنه يشعر بابنه بينهم لما يتمتع به من جمال الصورة والخلق ونضوج الفكر مع صغر السن .

فاسمع لى يا ولدى وربما تريك الأيام ما لم تر اليوم . إن شأنك يا يوسف لرفيع جليل، ومستقبلك ينبئ بأن نبوةً تنتظرك مصحوبة بدنيا عريضة بمناصبها وأمجادها . وكان يوسف بين الفينة والفينة يسأل أباه عن جديه إسحاق وإبراهيم ، وكان يعقوب يحكى له عنهما . وهكذا ظلّ يعقوب يلقن ابنه ماضى آبائه وأجداده وهو يطمئن ابنه أن الله اختاره واصطفاه للنبوة المنتظرة وأتم عليه نعمه ، أى بإرساله والإيحاء إليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق أى جده ووالد جدّه . ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته كما فى آية أخرى .

۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ
أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ
ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

إن ما فات من قصة يوسف كان بمثابة مقدمة لها فى بلاغة جليلة رائعة . وتبدأ بالإشارة المجملة إلى آيات عجيبة لمن شاء أن يبصر . وهى قصة تصور أروعَ أساليب القصة وسبكها وحبكتها . ولعلّ من يدرس فن القصة يقول : إنها أساس متين لأروع القصص بكل ما يحمل من مقومات فنية من سبك وحبك ورسم محكم للشخصيات حتى تصل أحداث القصة إلى ذروتها ، فنجد الحلّ أمامنا وتنساق العبر والمواعظ التى تجرى وراء مجرى الأحداث .

لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته آيات ، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه . إذ قال إخوة يوسف يحدثون بعضهم البعض : إن يوسف وأخاه بنيامين ـ وكان شقيقه لأمه ـ ﴿ أحبّ إلى أبينا منا ﴾ ونحن جماعة ، وإننا ما نظن غير ذلك . إن أبانا بسبب حبه لهما عنّا لفى ضلال بين واضح . اقتلوا يوسف أو اطرحوه فى أرض بعيدة عن أبيكم لا يعرف مكانه ، وبذلك يصفو أبوكم لكم ويخلص لمحبتكم ، ثم بعد ذلك نتوب ويقبل الله منّا تلك التوبة ونكون صالحين ، أى أنهم أضمروا التوبة قبل الذنب .

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ
إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

اقترح أحد الإخوة بألا يقتلوا يوسف ، بل يلقوه فى أسفل بئر ببيت المقدس يلتقطه بعض السيارة من التجار المتجولين يستعمله فى خدمته . وقد اقترح عليهم هذا الاقتراح بدلاً من أن يصلوا فى عداوته إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه والتمكين له . فصرفهم الله عنه .

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا
يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

أخذ إخوة يوسف يدبرون الأمر ، فقالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ إننا إخوته ونحن حرّاس له وسنحافظ عليه . أرسله معنا يلعب ويتمتع كأصحاب سنه الصغار . فردّ عليهم أبوهم :

قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ
غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

قال يعقوب لأبنائه : إننى أخاف أن تغفلوا عنه ، فيأكله الذئب منكم ، قالوا يا أبانا إن أكل الذئب يوسف ونحن معه فهذا أمر يجعلنا غير جديرين بتحمل المسئولية ، ونحن إذن هالكون عاجزون .

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ
هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾

لما ذهب إخوة يوسف به إلى الخلاء البعيد ، وأجمعوا رأيهم على أن يجعلوه فى البئر ، أوحى الله إليه يا يوسف لا تخف ستكون فوقهم يومًا ما وستخبرهم بأنهم كانوا كاذبين ظالمين ، وساعتها سيكونون فى موقف الضعف وأنت فى موضع القوة . وفى قوله تعالى ﴿وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب﴾ تعظيم لما فعلوه ، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب .

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ
عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

لقد تركوا يوسف فى البئر ، وعادوا إلى أبيهم يبكون ويدّعون أن الذئب قد أكل يوسف ، وأنت يا أبانا لن تصدقنا ولو كنّا صادقين . لقد تركناه عند « ثيابنا وأقمشتنا حارسًا لها ، فأكله الذئب . وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب** ﴾ أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه »(١) .

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

جاءوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف وعليه دم كذب ، قيل إنه دم جدى أوظبية مدّعين أن الذئب أكل يوسف لما رجعوا إليه .

قال العلماء رحمة الله عليهم فى هذه الآية « لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التنْيِيب(٢) ، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ، ويسلم القميص من التخريق . ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص ، فلم يجد فيه خرْقًا ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيمًا يأكل يوسف ولا يخرق القميص» ؟!(٣) .

ولكن يعقوب النبى قال لهم ﴿ **بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا** ﴾ أى زينت غير الذى تصفونه وتدعونه فصبر جميل أستعين به على ادعائكم الذى اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه .

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

---

(١) القرطبى ٩/ ١٤٨ .

(٢) التنييب : التخريق . نتيجة دخول أنياب الذئب فيه .

(٣) القرطبى ٩/ ١٤٩ .

واعتبرت القافلةُ يوسفَ عليه السلام رزقًا ساقه الله إليها ، واعتبروه بضاعة تباع وتشترى ، ورحلوا به إلى مصر ، وعرضوه على عزيزها ، وكان رجلاً كريمًا وفيه فراسة ، فاستبشر خيرًا بيوسف ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، وأحبّه . وبتلك الرأفة التى قذف بها الله فى قلب عزيز مصر اشترى يوسفَ عليه السلام من التجار ، وكان ثمنه قليلاً جدًّا ، فالبائعون والمشترون لا يدرون ولا يعلمون من هو . ولكن الذى اشتراه وضع الله فى قلبه محبة عظيمة ليوسف وتقديرًا . فقد جعله الله يهاب يوسف حتى أكرمه إكرامًا شديدًا .

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ
نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ
وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

قال عزيز مصر الذى اشترى يوسف لامرأته أكرمى مثواه « أى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن »(١) إننى أشعر بأنه سينفعنا أو نتخذه ولدًا لنا ، وبهذا : مكن الله ليوسف فى الأرض ، أى بلاد مصر ، ليعيش ويتربى فى أرغد عيش وأسمى منزلة ، ويتعلم تعبير الرؤيا ، والله هو الغالب لما سواه ، ولكن الناس لا تعلم حكمته وتلطفه فيما يدبره لخلقه عامتهم وخاصتهم ، ويوسف من عين خاصتهم .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ ولما بلغ ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ أشده ﴾ أى استكمل عقله وتم خلقه ، ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ أى حباه الله بالنبوة . حقًّا يجزى الله المحسنين الصابرين على المصائب كصبر يوسف عليه السلام .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ
مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

---

(١) القرطبى ٩/١٥٩ .

هنا بيان وشرح عن الطبيعة البشرية وضعفها . وامرأة العزيز هنا هى محور وقائع الآيات التالية التى تصور قصة حبها ليوسف عليه السلام وأنها قد ضعفت فخانت زوجها وخانت يوسف عليه السلام أيضًا . هذه المرأة ، التى أوصاها زوجها بيوسف وبإكرامه ، تحاصره لتوقعه فى ذنب عظيم ، فهل يستسلم إذْ راودته عن نفسه ودعته إليها ، بعد أن غلقت الأبواب وقالت له : هيت لك وهى « لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها وهى كلمة حث وإقبال على الأشياء »⁽¹⁾ ، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، وقال : ﴿معاذ الله﴾ إنى أعوذ به من ذلك ومما تدعوننى إليه . ﴿ إنه ربى ﴾ يعنى زوجها ـ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ـ وهو عزيز مصر وسيدى الذى ربانى وأكرمنى فكيف أخونه وأنتِ امرأته ؟!

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ
مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن
يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ
إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى
لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

إن تلك الآيات التى نحن بصددها ، تزيد الشرح والبيان عن الفطرة البشرية وضعفها ، وكيف أن الله لا يترك عبده الذى يحتمى به ويجاهد لطاعته . فامرأة العزيز أحبت يوسف ابتداءً لدماثة خلقه وحسن طباعه ، وفجأة وجد يوسف نفسه محاصرًا ببطش هذه المرأة التى أرادت أن تفتنه . ويوسف لم يخش فى حياته غير الله ، ولم يتوكل على غير الله . ففى البئر تضرع إلى ربه ، وهو فى أيدى التجار الذين انتشلوه من البئر

---

(١) القرطبى ٩/ ١٦٥ وهو قول مجاهد وغيره .

كانت ثقته فى الله أشد من كل المواقف ، فهل يستسلم يوسف بعد كل هذا ؟ إن الله سبحانه وتعالى يراه ويشهده ، وهو كذلك يشهد نور الله . . فدفعها عنه ، واتجه إلى الباب ليرفع مغاليقه واتبعته زوج العزيز وأخذت بقميصه فمزقته ، فوجدا زوجها عند الباب . وأوجد الله سبحانه وتعالى من حكم بالعدل وأظهر الحقيقة ، بعد أن فُتح الباب ، ووُجد العزيز أمامه هو وزوجته فى صورة غير طبيعية ، حيث أسرعت زوج العزيز تبرئ نفسها مما وقع ، فحوّلت وجه التهمة بسرعة من عليها إلى يوسف موجهة الاتهام له قائلةً لزوجها : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا ﴾ وقال يوسف فى ثبات واطمئنان هى راودتنى عن نفسى ودعتنى إليها .

وهنا نرى كيف يدافع الله عن عباده الذين اصطفى ، الموقف شديد الحرج يوسف يقول وقوله حق : ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ وهى تقول وقولها باطل : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك ﴾ خيانة وغدرًا ؟ فشهد شاهد من أهلها . وفعلاً وجدوا قميصه ـ عليه السلام ـ قدّ من دبر وثبتت براءة يوسف .

وهنا قال لها زوجها استغفرى الله لذنبك هذا بعد أن قال ليوسف ، يا يوسف أعرض عن هذا واضرب عنه صفحًا ولا تذكره لأحد ، خصوصًا أنه « كان لينّ العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها استغفرى لذنبك أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو برىء منه » . (١) إنك كنت من الخاطئين .

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ
إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا
وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى
فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى

---

(١) ابن كثير ٢/ ٤٧٦ .

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

تناقل خدم القصر وعماله خبر يوسف ـ عليه السلام ـ وسيدة القصر ، حتى شاع فى المدينة وتحدث به الناس . **﴿وقال نسوة فى المدينة﴾** من صاحبات الشأن والمكانة فيها : **﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين﴾** . وهكذا شاعت فى مصر أخبار القصر ، وأن امرأة العزيز تطلب من خادمها ما لا يليق بمثلها ، وهو يتبرأ من هذا الفعل ويستعيذ بالله منه .

وسمعت زليخة زوج العزيز ما يدور فى المدينة وأن زوجات وزرائها وكبرائها يلمنها على ما فعلت ، فأرسلت إليهن ، ودعتهن على طعام . وبعد أن تناولن طعام الوليمة أجلستهن فى جلسة وثيرة الزينة والفراش الفخم ، وقدمت لهن التفاح ومعه السكاكين الحادة الآخذة ، ولما أخذت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به التفاح قالت زوجة العزيز: يا يوسف : اخرج عليهن فخرج يوسف ووقع عليه بصرهن ، فلم يدرين وذهب وعيهن ، وأخذت السكاكين فى أيديهن تجول ، ونفوا عنه أن يكون بشرًا من بين الناس وألبسوه لشدة جماله وحسنه لباس الملائكة .

وهنا قالت لهن امرأة العزيز **﴿ فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾** .

وهنا قال يوسف فى اطمئنان الواثقين بالله وبأنه سبحانه وتعالى هو الفعال : **﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾** أى من الوقوع فى الفاحشة . وفى ضراعة المخبتين قال يوسف متممًا دعاءه **﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾** والله الرءوف الرحيم المطلع قد استجاب لضراعة يوسف الصادقة الصاعدة من سويداء قلبه **﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾** .

هذا هو موقف يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ موقف صعب اختبره الله فيه ، فكان صادقًا مع الله ومع نفسه ، لما كان فيه من صراع تلك المرأة ذات المنصب والجمال ، التى دعته إليها بكل مغرياتها ، فرفض وخاف الله ربّ العالمين . ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله :

وذكر منهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ربّ العالمين » (١).

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥

يقول ابن كثير « ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أى إلى مدة ، بعد ما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات - وهى الأدلة - على صدقه فى عفته ونزاهته . وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك ، خرج وهو نقى العرض صلوات الله عليه وسلامه » (٢).

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ
أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن
يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ
هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن
نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨

كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه ، رأيا مناما وطلبا تعبيره ، فأخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه . ثم قال وهذا إنما هو من تعليم الله إياى ، لأنى هجرت طريق الكفر والشرك ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى والإمام أحمد ، عن أبى هريرة .

ورواه : مسلم والترمذى ، عن أبى سعيد .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٧٧ .

وسلكت طريق المرسلين عليهم السلام . وهكذا لم يترك يوسف مناسبة يستطيع فيها أن يعلن عن دينه وشريعته دون أن يفعل وإنها سنة الأنبياء ثم ورثتهم .

وهنا يبدأ يوسف عليه السلام منتهزًا فرصة حاجة الرجلين إليه لتفسير ما رأيا ، فيعطيهما درسًا فى التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى ، ويعلن لهما عن دين الإسلام الذى هو طريق عبادة الله بحق لا يتخلله باطل ، فيقول : اعلما معًا أننى على دين أنتم عنه غافلون ، وهو دين الإسلام دين كلّ الأنبياء من لدن آدم عليه السلام حتى جاء أبى إبراهيم رسولاً نبيًّا ، وكذلك جاء من بعده ولداه إسحاق ويعقوب كل منهما نبىّ يبشر بدين أبيه . وإنى كذلك على هذا الدرب أسير وطوبى لمن كان على شريعة الحق شريعة الإسلام .

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ
مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

وقبل أن ينتقل يوسف إلى موضوع الرؤية يقول ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ فينتبه الرجلان إلى يوسف ماذا يا يوسف ؟!!! فيلقنهم يوسف معارف التوحيد ، وينبههم إلى أن الله واحد وليس له شركاء ، وأنه خالق الكون وحده ، وأن الذين خسروا الدنيا والآخرة إنما هم الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى أو شركاء تصوروا أن لهم مع الله أمرًا وحكمًا ، وبذلك ضلوا عن أن السلطان والقدرة والفعل لله سبحانه وحده لا شريك له ، وأن ما يعبدون هم وآباؤهم باطل وزور وبهتان ، وأن الحكم لله لا ينبغى أن يكون لشىء أو لأحد آخر ، فليس للخلق حق التشريع ، وليس من حق البشر أن يبتدعوا شريعة من عند أنفسهم يحكمون بها الناس ، فالله سبحانه وتعالى هو المشرع والمقرر قوانينَ الحكم بين الناس .

والحكم بما أنزل الله هو رأس العبادة ورأس التوحيد . ومن شرع بنفسه ولنفسه ، فقد

ضلّ سبيل الحق وحاد عن سلامة الطريق ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ أى : القويم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وهكذا نشر يوسف عقيدة الإسلام داخل السجن عندما وجد طريقًا إلى ذلك ، فبين للرجلين طريق الخير . . ثم أخذهما إلى حاجتهما ، كما طلبا منه ، بعد أن أعدّ فكرهما للنظر فى سلامة الطريق وهو التوحيد ثم الحكم بما أنزل الله .

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ
فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾

ينادى يوسف الرجلين المستفسريْن عن رؤياهما : يا صاحبى السجن اعلما أن أحدكما سيسقى ربه (أى سيّده الذى يعمل عنده) خمرًا ، أما الآخر فسيقتل ويعلق على الأعواد حتى يأكل الطير من رأسه . قضى الأمر فيما استفتيتمانى فيه .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وقال يوسف للذى أيقن (١) أنه ناج من الصلب والموت : إذا ذهبت إلى ربك (٢) فاذكر له قصتى . وقد قال يوسف ذلك لهذا الرجل الذى سينجو من الموت خفية من وراء الرجل الآخر « لئلا يشعره أنه المصلوب » (٣) .

ولأن ذلك الطلب لا يصح ليوسف ، فالله هو سنده وهو الذى إليه يلجأ ويطلب منه ، فبسبب ذلك زادت سنو يوسف فى السجن ؛ لأن مثله لا يطلب من غير الله ، ونسى الذى هو ناج أن يذكر قصة يوسف لربّه أى رئيسه أو الملك « وكان من جملة مكائد الشيطان لئلا يخرج نبى الله من السجن » (٤) .

وفعلاً لبث فى السجن بضع سنين .

---

(١) ظنّ فى الآية بمعنى أيقن فى قول أكثر المفسرين انظر القرطبى ٩/ ١٩٤ .

(٢) ربّه فى الآية بمعنى رئيسه وليس الإله المعبود بحق .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٧٩ .

(٤) ابن كثير ٢/ ٤٧٩ .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا
تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

وهكذا لما أراد الله أن يخرج يوسف من السجن سبّب له الأسباب ، فكانت هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله أنها كانت سببا لخروج يوسف من السجن معززًا مكرمًا . وذلك أن الملك قص على كبار دولته ما رأى ، وسألهم عن تفسير ذلك ، فلم يعرفوا ، عند ذلك تذكر ساقى الملك ما وصاه به يوسف ، تذكر ذلك بعد أمة أى مدّة ، وأرشدهم إلى أن يوسف هو الذى سينبئهم بتأويل رؤيا الملك . وقصّ عليه الصاحب رؤيا الملك قائلاً له أفتنى فى ذلك لعلى أرجع إلى الناس « أى إلى الملك وأصحابه . . لعلهم يعلمون مكانك من الفضل والعلم ، فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيمًا له » (١) فقال يوسف ـ عليه السلام ـ : تزرعون قمحًا لمدة سبع سنين وشعيرًا كذلك ، بجد واجتهاد متواصل وما حصدتم من القمح فاتركوه فى سنبله أى «فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد » (٢) . ففسر البقر بالسنين .

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٠٢ .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٨٠ .

إذن فالبقرات السمان السبع ، والسنبلات الخضر المخصبات السبع ، هن السنون المخصبات . أما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات ، فهن السبع السنين المجدبات . ثم سيأتى بعد ذلك عام يكثر فيه الرخاء وينزل فيه المطر ويكثر الزرع والثمر بالفواكه المختلفة فتأكلونها ثمرًا ناضجًا وعصيرًا شهيًا .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ
يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

لما بلغ تفسيرُ الرؤيا الملك ، علم أن يوسف هذا شخصية خطيرة علمًا وأدبًا ودراية بشئون الحياة وآيات الوجود . فقال ائتونى به أى أخرجوه من السجن ، ليحضر بين يدى فأسمع بنفسى علم ذلك الرجل وأتعرف عليه . فذهب رسول الملك ليوسف وطلب منه أن يحضر بين يدى الملك ، ولكن يوسف فى عزة إيمانه بالله وكرامة نبوته قال : لا أفعل حتى يحقق الملك فى أمر النسوة اللاتى كن مع امرأة العزيز وقطعن أيديهن وما كان من أمر امرأة العزيز معى . ويعود الرسول إلى الملك . ويجمع الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز ، ويسألهن الملك : ما خبركن وشأنكن يوم الضيافة ؟ وهنا وقفت زوجة العزيز فى شجاعة وقوة تدل على أنها نادمة على ما فعلت ، فقالت وقالت النسوة معها : ﴿ حاش لله ﴾ أى معاذ الله من ذلك ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ . ثم قالت امرأة العزيز فى شجاعة شاهدةً بالحق : أنا راودته عن نفسه فاعتصم بربه الذى يعبده ، وأعلن فى وثوق بأن ربه سينصره ويحميه من أن يقع فى معصية . ولقد نجاه ربه وهو ربّ وإله كل الكون ، وحصحص (١) الحق وإنه لمن الصادقين .

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ
إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

---

(١) حصحص الحق : انقطع عن الباطل بظهوره وثباته . انظر القرطبى ٩/ ٢٠٨ .

تقول امرأة العزيز (١) « إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر . وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ، ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ . . ولست أبرئ نفسى ؛ فإن النفس تتحدث وتتمنى ؛ ولهذا راودته لأن ﴿ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ » (٢) .

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

بعد أن انتهى الملك من التحقيق فى أمر يوسف والنسوة ، وظهرت براءة يوسف باعتراف امرأة العزيز بالحقيقة ، قال الملك : أحضروا لى يوسف إننى أريده لنفسى ، أى لأجعله من خاصتى وأهل مشورتى . فلما حضر يوسف قال له الملك ﴿ إنك اليوم لدينا مكين ﴾ ذو مكانة وأمانة . فقال له يوسف اجعلنى أمينًا على خزائن ملكك فى الأرض التى أنت مالك لها ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ بما ينمى لك مالك ويقوى ملكك . ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ﴾ أى مصر ، جعلناه حاكمًا فيها أمينًا على ما يملك الملك ، يتبوأ فيها ومنها حيث يشاء ، أى يتصرف فيها كيف شاء . وهكذا ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ « يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا » (٣) .

وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ

---

(١) فى قول آخر أن هذا الكلام ليوسف ـ عليه السلام ـ موجهًا كلامه لرسول الملك .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٨١ .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٨٢ .

ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ
عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

وأراد الله أن يجمع شمل يوسف بأبيه ، فاشتدت المجاعة فى فلسطين ، وسمعوا بأن مصر تبيع لمن حولها من البلدان ما يحتاج إليه الناس من قمح وشعير وخلاف ذلك ، فأرسل يعقوب بنيه ليبتاعوا من مصر حاجتهم من الطعام ، ودخلوا على يوسف ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ غير عارفين له « لأنهم خلفوه صبيًّا ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدة ؛ وهى أربعون سنة . »⁽¹⁾ .

وقد استدرجهم يوسف ـ عليه السلام ـ فى حديث استفسر فيه منهم عن بلادهم ، وأين موقعها ؟ وعن عاداتهم فيها ، حتى حكوا له عن أبيهم الشيخ الكبير ، وعن أخيهم الصغير بنيامين ، وعن أخيهم المفقود . فقال لهم يوسف بعد أن أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم : أرأيتم كيف أحسنت إليكم فى الكيل ؟ فإن عدتم لتأخذوا بضاعة المعاش من عندى ، فلن أعطيكم حتى تأتونى بأخيكم من أبيكم، لأراه معكم وأتثبت منه أنكم صادقون فيما ذكرتم عن أبيكم وعن أخيكم بنيامين هذا . فقالوا له سنراود عنه أباه ونبذل كل جهدنا لنأتيك به . قال هذا شرط البيع لكم مرةً ثانية .

وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ
إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي
هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ
كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٢٠ .

أمر يوسف غلمانه أن يدسّوا ثمن بضاعة إخوته ﴿ فى رحالهم ﴾ ، أى فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون . ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم ﴾ قالوا له إن أمير مصر طلب منهم حضور أخيهم بنيامين . فقال لهم يعقوب لا آمنكم عليه فتفعلون به ما فعلتم بيوسف من قبل خصوصًا أنكم قلتم عند غياب يوسف ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ فظلوا يعطونه المواثيق التى تطمئن أباهم برجوع بنيامين إليه مرة أخرى وأنهم سيكونون أمناء عليه .

ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا ثمن بضاعتهم موجودة فى رحالهم فقالوا : يا أبانا إن ثمن بضاعتنا رد إلينا ، فأرسل معنا أخانا فنبتاع ويزيدنا أميرُ مصر جملاً محملاً ونجلب الميرة أى طعامًا [illegible] لأهلنا .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ
فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

قال لهم أبوهم لن أرسله معكم إلا بعد أن تحلفوا لى بالعهود والمواثيق التى تضمن رجوع أخيكم معكم إلا أن يحاط بكم بالهلاك أو الموت أو يمكر بكم ، فأعطوه المواثيق والعهود فأعطاهم يعقوب ابنه بنيامين .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم
مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ
إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

اشترط يعقوب على أولاده أن يحافظوا على أخيهم ، وألا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، ربما لأنه خاف عليهم .

وهكذا أمر يعقوب أبناءه أن يدخلوا من أبواب متفرقة قائلاً لهم ﴿ **وما أغنى عنكم من الله من شىء** ﴾ أى إن الحذر لا يمنع القدر فكل شىء بقضاء الله وقدره .

وهكذا احتاط يعقوب عليه السلام للأمر ، وأخذ بالأسباب ، ثم ترك الأمر لله وكل

جوارحه متوكلة على الله . فسمعوا لأبيهم ولم يدخلوا إلا متفرقين لأن وصية أبيهم لهم ما هى إلا نتيجة شفافية وإشراق روحى .

فلما وصلوا إلى مصر دخلوها من أبواب متفرقة ، وما كانوا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئًا إن أراد الله أىّ مكروه بهم ، إلا هذا الخاطر الذى جاء على قلب يعقوب بوصيته لهم أن يتفرقوا «لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسدًا أو حذرًا»(١) .

إن يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿ لذو علم ﴾ أى لذو علم بأمور دينه وصفات ربه **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾** ذلك عن يعقوب .

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

ولما وصل أولاد يعقوب لديوان يوسف ومعهم بنيامين أخوهم ، اجتمع بهم يوسف ، ثم ضم أخاه إليه ، فاختلى به وأسرّ إليه أنه أخوه . ففرح وكتم فرحته . وصارحه بنيامين كذلك بحزن أبيه عليه وآلامه المتواصلة وأعطى يوسف إخوته كل ما طلبوا من متاع المعاش وزاد لهم فى ذلك .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ
إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ
ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

ثم أمر يوسف عماله أن يضعوا صواع الملك ، أى ميزانه ومكياله ، فى متاع أخيه بنيامين ـ وقيل إنه وضعه هو بنفسه وهو مختلٍ بأخيه على غفلة من إخوته ـ ففعلوا ووضعوا المكيال أو الصواع فى رحل بنيامين . ولما سارت القافلة نادى منادٍ من قبل الملك : قفى أيتها العير ﴿ إنكم لسارقون ﴾ . فعزّ ذلك على أولاد يعقوب ، فقالوا **﴿ماذا تفقدون ﴾** ؟ وتركوا متاعهم ورحالهم للتفتيش ، وهم فى اطمئنان وأمن لثقتهم بأنفسهم أنهم بعيدون عن هذه الفعلة الخطيرة .

---

(١) القرطبى ٩/٢٢٨ .

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا
جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

قال أولاد يعقوب ، قبل التفتيش ، والله ما جئنا لنسرق ، وأنتم تعلمون أننا ما جئنا إلا للتجارة واجتلاب الطعام ، ولم نكن يومًا سارقين ، فنحن أبناء نبى . فقال عمّال الملك من نجد الصواع فى حوزته ورحله **﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ ﴿ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ﴾** أى « يستعبد ويسترق » .⁽¹⁾ « هكذا كانت شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن السارق يدفع إلى المسروق منه » .⁽²⁾ كذلك نفعل فى الظالمين أن يُقْتص منهم إذا سرقوا .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا
لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن
نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

انتهى التفتيش ، بعد أن بدأ بأوعية إخوته قبل وعاء أخيه بنيامين ، ووجدوا الصواع فى متاع بنيامين . **﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾** بوحينا له فعل هذا معهم ، لنمكن له وليتم الله أمرًا كان مفعولا . وشاء الله أن يأخذ أخاه منهم باعترافهم هم أنفسهم والحكم مسبقًا على السارق فيهم . فما كان ليوسف أن يأخذ أخاه فى سلطان الملك وحكمه إلا بهذا الاعتراف منهم ، الذى هو من شريعة يعقوب وإبراهيم بإذن الله الواحد المقتدر والحمد لله هو فوق كل علم وعالم .

۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ

---

(1) القرطبى ٩/ ٢٣٤ .

(2) ابن كثير ٢/ ٤٨٥ .

وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا
يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا
لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما رأى إخوة يوسف الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ، ذكروا أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام . حُكم على بنيامين بالسجن والأسر عنده في ظاهر الأمر وذلك ليستبقيه يوسف ـ عليه السلام ـ عنده . وهذا العمل كان بوحى من الله عزّ وجل ليبقى بنيامين عنده . فلما كان ذلك أخذ إخوة يوسف يستعطفونه ويقولون له إن كان قد سرق ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ والمعنى « اقتدى بأخيه ، ولو اقتدى بنا ما سرق ، وإنما قالوا ذلك ليَبْرَءُوا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق ؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق »⁽¹⁾ .

أما قصة السرقة⁽²⁾ هذه التى قصدها إخوة يوسف ، فهى حاصلة مع يوسف نفسه ، وملخصها كما ذكرتها كتب التفاسير : أن عمةً له كانت موجودة وحاضنة له وهو صغير. فأراد يعقوب أن يأخذ ابنه يوسف من عمته لشدة شغفه به ، ولكن عزّ عليها ذلك لحبها الشديد هى الأخرى له . فأرادت أن تبطل مراد أخيها يعقوب أن يأخذه ، فربطت شيئًا تحت ثياب يوسف وأعلنت عن فقدها إياه ، فأمروا بكشف أهل البيت فوجدوها عند يوسف فحكم عليه بأن يبقى عندها لأنه سارق . وذلك : مكر منها لكى تبقى يوسف ابن أخيها معها لحبها الشديد له . فعيره إخوته بهذه الحادثة التى هو برىء منها ، فآلم ذلك يوسف ـ عليه السلام ـ فقال لهم ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ من الذى تنسبون إليه هذه التهمة والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو العليم بكم وبصنيعكم .

وأخذ إخوة يوسف يرجونه أن يأخذ أحدًا منهم بدلاً من بنيامين ، لأن أباه شيخ كبير

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٣٩ .

(٢) القصة مذكورة بالتفصيل فى ابن كثير ٢/ ٤٨٦ .

ويحبه كثيرًا ولا يقوى على مفارقته ، خصوصًا إذا سمع ورأى رجوعنا بدونه . فقال لهم يوسف حاش لله أن نظلم من ليس فى محل الظلم ، إننا إن فعلنا ذلك كنا من الظالمين .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ
أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ
حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

ولما يئس إخوة يوسف من أن يسلمهم العزيزُ أخاهم ، ﴿ خلصوا نجيا ﴾ أى انفردوا عن الناس ببعضهم ، وليس هو معهم ، يتناجون ليتشاوروا فى الأمر . فقال كبيرهم إن أباكم قد أخذ عليكم ميثاقًا بالحفاظ على بنيامين ، وقد علمتم سوء جرمكم مع يوسف ، فأنا لن أترك هذه البلدة (مصر) حتى يأذن أبى ويوحى الله إلى أبى أننى مظلوم وبأننا لم نخنْه فى بنيامين والله ـ سبحانه وتعالى ـ خير حاكم بعدله فى قضيتنا تلك وهو خير الحاكمين .

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا
وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ
أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

عاد الإخوة إلى أبيهم ، وتركوا أخاهم بنيامين فى مصر ، وحكوا له ما وقع ، أن بنيامين سرق وما كنا نعلم الغيب حتى لا نطلبه منك للسفر معنا ، وما كنا نعلم عليه سرقة سيفعلها فى متاع الملك ، وإن كنت لا تصدقنا اسأل أهل مصر والبلدة التى كنا فيها والعير أى التى رافقناها ورافقتنا فى الرحلة بما فيها من خدم وأناس وعمال ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ
جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ
وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

قال أبوهم بعد سماعه كلامهم ، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب : لقد سولت (أى زينت) ﴿ لكم أنفسكم أمرًا ﴾ وتقولون إن ابنك سرق ، وما سرق ، فسأصبر صبرًا جميلاً عن رضا وتسليم بأمر الله ، لعل جزاء صبرى أن يأتينى يوسف وأخوه بنيامين ، إن ربى عليم بحالى ، حكيم فى حكمه ، يجزى الصابرين المحتسبين ، ويكفينى تسليمى بقضائه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

يقول الإمام القرطبى « الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل ، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدى بنبى الله يعقوب وسائر النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . »(١) .

واعتزل يعقوب أبناءه وأعرض عنهم ﴿ وقال يا أسفى على يوسف ﴾ أى يا حزناه . والأسف هو الحزن الشديد . واشتد بكاؤه حتى ﴿ ابيضت عيناه من الحزن ﴾ وكفتا عن الإبصار . وقيل إنهما لم تقويا على كل الرؤية . وظل على حاله هكذا حزينًا كظيمًا «ساكتًا لا يشكو أمره إلى مخلوق » .

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن
رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

قال له أبناؤه أنت يا أبانا لا تكف عن ذكر يوسف ، وما تزال تذكره حتى تصير حرضًا أى تالفًا فاسدًا جسمك وحالك ، ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ أى الميتين . وهذا إشفاق من أولاده عليه . ثم بعد ذلك استعطف أبناءه قائلاً : يا بنى اذهبوا وابحثوا عن يوسف وأخيه وتحسسوا أمره هو وأخيه أى « اذهبوا إلى الذى طلب منكم أخاكم واحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه »(٢) ، ولا تيأسوا من فتح الله وفرجه ، ولا تقطعوا الأمل فيه سبحانه إنه لا يفعل ذلك إلا القوم الكافرون اليائسون من رحمته ، فعسى أن تصيبنا رحمة الله وفضله .

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٤٧ .

(٢) القرطبى ٩/ ٢٥٢ .

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ
فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

واستمع إخوة يوسف لأبيهم ، ودخلوا على عزيز مصر يوسف عليه السلام ـ وقالوا له مستعطفين : يأيها العزيز قد وقع بنا وبأهلنا القحط والشدة والضر ، وجئناك ببضاعة مزجاة أى طيبة جيدة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزيك خيرًا بخير إن الله يحب المتصدقين .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ
وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ
ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ
ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ
وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

لما ذكر إخوةُ يوسف لأخيهم يوسف ـ عليه السلام ما أصابهم من القحط والجوع والجدب ، قال لهم : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ ؟ وهذا استفهام يذكرهم فيه بجرم صنيعهم القديم ويوبخهم به علهم يتذكرون ، وهو تحقيق لقوله تعالى : ﴿ لتنبئنَّهم بأمرهم هذا ﴾ لأنكم كنتم على جهل بتعاليم شريعتكم وبمقدار هذا الذى ارتكبتموه . وهنا قالوا إنك لأنت يوسف أخونا ؟! فقال لهم نعم أنا يوسف وهذا أخى بنيامين ﴿ قد من الله علينا ﴾ بفضله وكرمه وحفظه نتيجة تقوانا وخوفنا وحبنا لله ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الذين يعرفونه ويخافون حسابه . قال إخوةُ يوسف ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا﴾ نتيجة خطئنا . وأجاب يوسف جواب الكريم ابن الكريم ابن الكريم الذى لا يحاسب على السيئة بالسيئة ، ولكن يعطى بالسيئة الحسنة ، بل زيادة، طمعًا فى عفو الله وحبه وصفحه وعطائه . وبذلك أعطى الله يوسف ما تمنى أو

تصور من النعم ، فماذا قال لهم يوسف ؟ ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ أى لا تأنيب لكم عندى ، ولا عتب عندى لكم ، على ما أجرمتموه فى حقى القديم . بل زادهم بأن دعا لهم بالمغفرة من رب رحمان رحيم . ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى ﴾ فسيرتد بصيرا حين يعلم أنى فى سلام من الله وعافية .

وكان « ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قصبة من فضة وعلقه فى عنق يوسف ، لما كان يخاف عليه من العين . وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك ، فإن فيه ريح الجنة ، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفى . وقال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه سوف يرجع إليه بصره . »(١) .

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ
أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ
أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ
ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

لما عادوا إلى أبيهم وخرجت العير منطلقةً من مصر إلى الشام ﴿ قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ أى « تضعفون رأيى »(٢) أو « لولا أن تسفّهون » .(٣) وهنا دخل حامل القميص بالبشرى وبشر أباه بوجود يوسف وألقى القميص على وجه فأعاد إليه بصره و ﴿ قال ﴾ لأولاده ﴿ ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ إذْ نعترف أنّا ﴿ كنّا خاطئين ﴾ . وقال يعقوب لأبنائه ﴿سوف

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٥٨ .

(٢) القرطبى ٩/ ٢٦٠ وهو قول ابن عباس ومجاهد .

(٣) القرطبى ٩/ ٢٦٠ وهو قول ابن الأعرابى .

أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾ يغفر الذنب ويقبل التوب . وجاء يعقوب إلى مصر وكل أبنائه وأهله . وخرج يوسف وخرج معه الملك والوزراء وكبراء القوم لاستقبال نبى الله يعقوب ، عليه السلام . ولما التقى يوسف بأبويه **﴿ قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾** ودخلوا كذلك .

وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ
قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ
بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ
ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠

وضع يوسف أبويه على كرسى حكمه ، وخروا له سجدا ، أى خروا شكرًا لله و«يوسف كالقبلة لتحقيق رؤياه » .[1] وقال يوسف **﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقًا ﴾** . ثم حكى لأبيه قصة السجن ، وما كان من إخوته ، وقصة نزغ الشيطان بينهم وبينه . وها أنا ذا قد أخرجنى ربى من السجن وجمعنى بك وبوالدتى وإخوتى ، وأبطل الله سبحانه كيد الشيطان ، وأصلح قلوب إخوتى ، وتلك نعمة له سبحان ربى من لطيف فى حكمه وقضائه لما يشاء وهو العليم الحكيم .

۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١

هذا دعاء من يوسف لربّه يعدّد فيه نِعمَ الله عليه . وتلك النعم هى : نجاته من البئر ، وإكرام العزيز له ، وبراءته من تهمة امرأة العزيز له ، وجعلها بنفسها تحكى ذلك للملك . فثبت بذلك أن الله محيط بمن يجتبيه ويختاره لرسالته ، فهو به حفيظ كريم عليم محسن معط وهّاب فاطر السموات والأرض أى خالق الموجودات ومبدئها ، وهو أيضًا ولى يوسف أى ناصره ومتوليه فى شئون الدنيا وفى الآخرة . ثم يدعو فيقول **﴿ توفنى مسلما ﴾** أى على ملة الإسلام لأن تمنى الموت فى حد ذاته منهى عنه .

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٦٤ .

يذكر القرطبى قول سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : لا يتمنى الموت إلا ثلاث : « رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق محب للقاء الله عزّ وجل »(١) .

وفى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنيًا ، فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى »(٢) .

ورواه مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الذكر ، باب : كراهة تمنى الموت لضر نزل به .

هذا هو معنى دعوة يوسف توفنى مسلما . ثم يدعو فيقول ﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ من آباءى وأجدادى .

وهنا تنتهى قصة يوسف فى سورة يوسف ، ثم يتوجه الخطاب من الله لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول سبحانه :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد من أنباء الغيب ، فلم تكن حاضرًا فيها وما كنت تعلم عن خبر يوسف شيئًا ، فقد قصصناه مفصلاً لتصبر على ما تلاقى من قومك . فهذه الأخبار عمن سبق من الأنبياء فيها عظة وذكرى لك ولمن حولك من أولى الألباب . ومهما اجتهدت وحرصت على أن يكون الخلق على الإسلام فذلك لا يقع كما تتمنى ، إنما أنت تذكر الناس بالحق وتدعوهم إليه ، وهذا ما عليك والله يهدى من يشاء .

وهذه الآية ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ هى نظير قوله تعالى ﴿ إن فى

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٦٩ .

(٢) رواه البخارى ، كتاب التمنى ، باب : ما يكره من التمنى . ورواه مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الذكر ، باب كراهة : تمنى الموت لضر نزل به .

ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾⁽¹⁾ وأيضًا **﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾**⁽²⁾ وإنك يا محمد لا تريد من الناس أجرًا ، وما أجرك إلا على الله رب العالمين إن هو إلا ذكر للعالمين ، تتذكرون به وتهتدون وتنجون به فى الدنيا والآخرة .

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

إن أكثر الناس يا محمد يمرون على آيات الله . ينظرون إليها فى السموات والأرض ، ويدهشون لها ، ثم يعرضون عنها ، ويصبحون فى غفلة عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده وقدرته ، فهم معرضون .

أما قوله **﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾** فهى إخبار من الحق سبحانه وتعالى عن حقيقة إيمان أكثر الناس كما تفصل الآية ، وإن كانت قد نزلت فى قوم بعينهم ، لكن العبرة بعموم اللفظ . فكثير من الناس يقرون ويعترفون بالله خالقًا لهم ولكل الأشياء ، **﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾**⁽³⁾ لكنهم ارتضوا مع الله شريكًا وندا له ، إذن الإيمان مختلط عندهم بالشرك . وكل مظاهر حياتهم يشوبها الشرك مع الاعتقاد فى الوقت نفسه بالله ربًّا خالقًا معبودًا . وهذا مرفوض تمامًا فى مفهوم الفكر الإسلامى الراشد . وقد صحح القرآن هذا الفهم ولم نجد سورة فى القرآن خالية من قضية الشرك والعبودية **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا ﴾**⁽⁴⁾ . انظر إلى قوله **﴿ ولا يشرك بعبادة ربه ﴾** . وانظر إلى قوله **﴿أحدًا ﴾** إلماح منه سبحانه إلى أن المعبودات هنا فى صورة أفراد أو أشخاص فى مقابل

---

(١) الشعراء : ٨ .

(٢) الأنعام : ١١٦ .

(٣) لقمان : ٢٥ .

(٤) الكهف : ١١٠ .

ما قاله فى موضع آخر ﴿ **ألا تشركوا بالله شيئًا** ﴾ نفى الشرك فى كل جنسيات الوجود سواء بشرًا أو طاغوتًا أو حكمًا أو آلهة أو أى شىء آخر . ﴿ **ولقد أُوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾(١) .

فاعبدوا أيها الناس إلهًا واحدًا ، وكونوا له مخلصين ، ولا تلبسوا إيمانكم بظلم أى شرك ، ووجهوا نيتكم فى أعمالكم له وحده ، واحكموا أنفسكم بشرع الله ودينه ، وتلقوا منه وحده الشرائع ، وتوجهوا إليه بالشعائر ، ولا تفصلوا دينكم عن دنياكم . . فعبث قولهم « لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين » ، فهذا شرك وطاغوت وتنحية لله عن أمرنا وشئوننا ﴿**إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ فالحكم والعبادة مقترنان فى سياق إيمانى واحد .

إن حياتنا لمملوءة بكثير من مظاهر الشرك التى تغطى أوجه حياتنا اليومية ونحن لا ندرى ، وهى تسرى فى تصرفاتنا مسرى دبيب النمل ، حتى غلظت تلك المظاهر وباتت واضحة معلنة ، حتى حسبنا الله غائبًا وغير موجود وإن كنّا نتشدق بإعلان وجوده فى مجرد أقوال لا تؤصلها أفعال دون أن ندرى مقتضيات قول « لا إله إلا الله » وحتى أصبحنا نتقرب إلى غير الله معتقدين وساطته عند الله ، فأصبحنا لغير الله وبغير الله ووجهنا العبادة إلى غير صاحبها ، فأصابنا الحوَل التعبدى وانكسر شعاع التوحيد فى قلوب معظم الناس حتى صاروا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، وهم فى الحقيقة ـ بأفعالهم هذه ـ الأخسرون أعمالاً بضلال عبادتهم وإلباسهم ثوب التوحيد لغير صاحبه وهو الله الواحد .

وبعد . . أأمن هؤلاء المشركون أن يتنزل عليهم أمر وعذاب يغشاهم وهم لا يشعرون أو تأتيهم الساعة بغتة وساعتها لا ينفعهم شركهم شيئًا . أو لا يخافون أن تأتى هذه الساعة وهم فى لهوهم يعمهون ويلعبون ويلهون بدنيا ليست لهم ؟ فتوكل على الله يا محمد وقل للناس فى قوة وأنت متوكل على الله : هذه سبيلى وتلك طريقتى ومنهاجى أدعو له على بصيرة وبرهان ونور وهدى أنا ومن اتبعنى من المؤمنين حقًا الموحدين بالله الذين لا يعبدون مع الله إلهًا غيره وما أنا من المشركين .

---

(١) الزمر : ٦٥ ، ٦٦ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ
كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾
لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن
تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

إن الله لم يبعث يا محمد قبل إرسالك بالنبوة إلا رجالاً اختارهم الله لحمل أمانته وتبليغها للناس ، لم يكونوا ملائكة ولكن كانوا رجالاً أوحى إليهم . وهذا ردّ على القائلين ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ . . أى أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جنى ولا ملك .

وكان كل نبى أو رسول يبعث إلى قومه خاصة ، لكن الله بعث محمدًا رسولاً إلى كل العالمين ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾ (١) .

ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب حتى إذا استيأس الرسل أى يئسوا من إيمان قومهم . . . «وأيقنوا أن قومهم كذّبوهم » . (٢) فلما حصل كل ذلك جاءهم أمرنا بالنصر والفوز على أممهم الضالة ، فأهلكنا أعداء الحق ونصرنا ونجينا الذين اتبعوا أنبياءنا وجعلناهم الوارثين الحاكمين .

وإننا لنجد فى سيرة الأنبياء وقصصهم خصوصًا سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ عبرًا كثيرة وعظات رائعة وذكرًا وهداية لأصحاب القلوب والعقول المكتملة بالحياة والفهم والإدراك . . ومستحيل أن يكون القرآن الكريم أمر يفترى ولكنه تصديق الذى بين يديه من التوراة والإنجيل ، وجميع كتب الله تعالى . إنه تفصيل كل شىء مما يحتاج له العباد من هداية وطريق مستقيم وشرائع وعبادات ، وهو منحة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .　　(٢) القرطبى ٩/ ٢٧٥ .

(١٣) سورة الرعد مدنية
وآياتها ٤٣ نزلت بعد سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿ الـمـر ﴾ تقدم الكلام عن الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة . ﴿ تلك آيات الكتاب﴾ أى هذه آيات القرآن تنزيل من رب العالمين ، وإن كان أكثر الناس لا يسلّمون بذلك . إنه تنزيل الخالق المصور الفعال القادر بديع السموات والأرض ، وهو القول الحق ، والكتاب الحق ، والآيات الحق ، فما عليك يا محمد من منكرى نزوله وقد طمس الله قلوبهم وطبع عليها .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه . وعجبا لهذا الخلق الذى يشاهد قدرة الله فى الكون ثم لا يؤمن به سبحانه ، رفع السماء بلا عمد وذلك أمر مشهود لكل الناس . عجبا !! كيف لا يؤمنون ؟! ألم يشهدوا ما حملت السموات من كواكب وشموس وأجرام ومجرات ؟! سبحانه الله الخالق القادر المدبر لكل الخلق بعظمته وقدرته النافذة . سبحانه خلق فأبدع وصور ثم استوى على عرش قدرته . والله سبحانه وحده هو الذى يعلم كيف استوى سبحانه على العرش . فالاستواء فى الحقيقة من خواص علمه ، وهو الواحد الأحد وهو على كل شىء قدير وبكل شىء محيط . فيجب على المؤمنين التسليم بهذا الاستواء ، واليقين به ، ثم لا يبحثون فى كنهه وكيفيته . على أن الآية تقيم الدليل القطعى على نفوذ أمره ـ سبحانه وتعالى ـ وتمام سلطانه بالسيطرة الكلية والتدبير النافذ فى عوالم الوجود كافة . ﴿ يفصل الآيات ﴾ : أى يوضح الدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

سُورَةُ الرَّعْدِ

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بعد أن عدَّد الله سبحانه آياتِ خلق العالم العلوى ، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلى ، فقال، سبحانه وتعالى : ﴿ وهو الذى مدّ الأرض﴾ أى بالحياة والحركة والوجود ، أو بمعنى بسطها طولا وعرضا فجعل فيها رواسى من الجبال الثوابت التى تثبت الأرض وترسيها وشق فيها من الأنهار .

وفى بسطه للأرض جعلها صالحة لسكنى الإنسان ولكل دابة صغرت أو كبرت مستأنسة أو مستوحشة، وجعل فيها من الثمار فاكهة متنوعة كثيرة، وجعل فيها من كلٍّ زوجين اثنين أى « من كل شكل صنفان »[١] .

سبحانه كل شىء عنده بمقدار ، وجعل الإنسان قادرا عليه بعلم الله ورحمته ، كما جعله قادرا على استيعاب ما ييسر به أمر الأرض وتمهيدها وحرثها سبحانه علّم الإنسان ما لم يعلم .

وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ
صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

إن من آيات الله الدالة على قدرته أن الأرض فى مساحة محدودة على امتداد عريض تسقى بماء واحد واليد الزراعية واحدة والسماء واحدة . يرمى البذر فى الأرض متنوعًا متعددا، فتخرج من كل الثمرات طعوم مختلفة وألوان مختلفة. الحلو بجوار الحامض والحلو بجوار الملح والطويل بجوار القصير صنوان وغير صنوان . والصنوان « هو الأصول المجتمعة فى منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك. وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار »[٢] سبحانه من مبدع قادر جعل ذاك بجوار ذاك ، وفضّل بعضها على بعض فى الأكل . فسبحانه وتعالى جل قوله ﴿أفرأيتم ما تحرثون *أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[٣] ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقد قرر علماء البحث فى طبيعة خلق العوالم الأرضية والطبقات الجوية، الذين عاشوا

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٥٠٠. (٢) ابن كثير : ٢ / ٥٠٠ (٣) الواقعة : ٦٣ـ ٦٤ .

ضمير الإنسان، أن خلق هذا العالم وأمر هذا الكون وما فيه من نظام، إذا اختل قيد شعرة هلك العالم وفنى . أليس ذلك دليلا على وجود الله الصانع المدبر صاحب الكمال المطلق والقدرة النافذة فى كل شىء، وهو على كل شىء قدير . . ؟

۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥

« إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك، بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث » (١). وإن كان هناك عجبٌ، فعجب إنكارهم البعث بعد ما عرفوا قدرتى على الخلق وخلق كل هذه الموجودات السابقة . فكل هؤلاء يا محمد كافرون بربهم يسحبون على وجوههم فى النار خالدين فيها أبدا .

وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦

هؤلاء المكذبون يستعجلون الهلاك، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر بتأخير العقوبة لهذه الأمة ـ أمة محمد ـ إلى يوم الدين : وقد أبان المولى عن طلبهم العذاب واستعجالهم له بقوله ﴿ **وإذْ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء** ﴾ (٢)ـ وبقوله ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ (٣)وبقوله﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطّنا قبل يوم الحساب** ﴾ (٤).

أى عقوبتنا وحسابنا . ﴿**وقد خلت من قبلهم المثلات**﴾ أى العقوبات التى وقعت على الأمم السابقة . ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة** ﴾ للمشرك إذا آمن وأسلم وجهه لله، وللمذنب إذا رجع وتاب وعمل صالحا رغم ظلمهم السابق على توبتهم أو إيمانهم . وأيضا ﴿**لشديد العقاب**﴾ على من أصر على الكفر والإلحاد والجحود والإنكار ﴿ **غافر**

---

(١) القرطبى : ٩ / ٢٨٤ .

(٢) الأنفال : ٣٢

(٣) المعارج : ١

(٤) ص : ١٦ .

الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ (١) ـ ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هوالعذاب الأليم ﴾ (٢).

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

يقول المشركون كفرا وعنادا : لولا يأتينا بآية من ربه؟ عجبا من هؤلاء الكفار ! ألم يكتفوا بأن الله أرسل لهم رسولا شاهدا عليهم، وكتابا حجة عليهم؟! الحق ينادى رسوله ﴿ إنما أنت منذر ﴾ ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾.(٣) وقد أنذرت وبلغت وشرحت لهم ولكل قوم أرسلناك لهم. فما عليك إلا البلاغ يا محمد ، فالله هو الهادى عندما يشاء ذلك .

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لايخفى عليه شىء ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما تحمل كل أنثى من جنين ، ذكرا أو أنثى ، شقيا أو سعيدا ، طويل العمر أو قصيره. فهو المنفرد بالغيب وحده . وهو يعلم ما تغيض الأرحام، أى ما تسقطه المرأة من جنين قبل التسعة الأشهر. وما تزداد، أى وما يزيد عن ذلك . فالله هو صاحب القدرة والتصرف المطلق فى كل ذلك فكل شىء عنده بمقدار وحكمة وتصرف وتقدير ﴿ إنا كلَّ شىء خلقناه بقدر ﴾ (٤).

سبحانه عالم الغيب، لا يخفى عليه شىء غائب عن العباد أو شاهد لهم، كبير متعال على كل شىء، محيط بكل الموجودات ، وقاهر كل شىء ، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرها .

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

---

(١) غافر : ٣ . (٢) الحجر : ٤٩ ـ ٥٠ . (٣) الأحزاب ٤٥ ، الفتح ٨ . (٤) القمر : ٤٩ .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، فهو لا يخفى عليه شىء فى السموات أو فى الأرض، يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور، فيستوى علمه بكل كبيرة أو صغيرة، سواء مع من يسرّ فى نفسه الخير أو الشر، أومن يجهر بهما ويحدث بهما غيره . ولا يخفى عليه المتوارى الباطن فى الظلمات أو الظاهر الماشى فى ضياء النهار ، فإن كليهما فى علم الله على السواء . سبحانه وتعالى له ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار. إنها ملائكة تحوط بالعبد فتكتب ما له بحسناته وما عليه بسيئاته. وكذلك هؤلاء الحفظة يحفظونه من حوادث الطريق . والمقصود أن الملائكة حوله من كل جهة حارسة له من أحداث الزمان والمكان، فإن أطاع الله أعانوه وإن عصى الله انتظروا لعلّه يتوب وإلا كتبوا عليه السيئات بمثلها والحسنة بعشرة إلى سبع مائة ضعف حسب الصدق والرغبة فى الخير . وقد كانت الأمة المسلمة على صدق مع الله فى العمل بكتابه وسنة نبيه، عليه الصلاة والسلام . فلما تغيرت مع الله ،فحكمت بغير كتابه وسنة نبيه واتبعت الكفار واتخذت منهم مستشارين وأعوانا، أذلها الله وجعلها تعيش فى تبعية ذليلة ،تارة للغرب وتارة للشرق، وجعلوا أمرها فى غير يدها . ولو تابوا ورجعوا إلى الله فأقاموا دينه واعتمدوا على أنفسهم وحكموا فى أنفسهم كتاب الله وتمسكوا بسنة النبى ﷺ لعاد لهم عزّهم وحفظت كرامتهم المهدرة. فالله عز وجل لا يغير ما بقوم من سوء حتى يغيروا هم ما بأنفسهم . وجلّ قوله ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (١). وإذا أراد الله بقوم سوءاً أرشدهم إليه وأعمى أبصارهم ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدّا ﴾(٢). وما لهم من دون الله من ملجأ أو ناصر .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾
وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ
بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يعدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ مظاهر نعمته ورحمته وقدرته للخلق ؛ فيخبر أنه هو الذى يرينا البرق ويسخره، وهو الضوء اللامع الساطع من بين السحب خوفا منه وطمعا فى زيادته، لأنه بركة تبشر بالمطر. وأنه تعالى هو الذى ينشئ السحاب الكثيف

---

(١) الأنفال : ٢٥ (٢) مريم : ٧٥ .

بالماءالآتى بالمطر الذى هو نعمة ورزق من عند الله ـ سبحانه وتعالى ، يجعل الرعد يسبح بحمده والرعد صوت السحاب . وأيضا تسبح الملائكة بحمده من خيفته . ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ قيل إنها «نزلت فى يهودى ، قال للنبى ﷺ : أخبرنى ، من أى شئ ربك ، أمن لؤلؤ أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيل نزلت فى بعض كفار العرب » (١) .

إذن عقاب الله شديد على من يجادل فى الله ، وهو شديد المحال ، أى المكر . والمكر من الله تدبير للحق ونصرة لأهله ، وهو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر . . «وقيل المحال هو القوة والشدة » (٢) . كفانا الله شرّ الذين يجادلون فى الله بغير حق ، ونصرنا عليهم ، وهو سبحانه وتعالى ولينا وناصرنا ومؤيدنا . فهل من رجعةٍ إلى الله وكتابه وسنة رسوله فنسود الدنيا كما سدناها من قبل ونعيش بعزة الإسلام والتوحيد ؟ ! !

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

له سبحانه دعوة الحق ، أى دعوة الصدق ، وهى الإسلام بكل تكاليفه وشرائعه وعباداته ، والتسليم والتوحيد والخضوع لله عزّ وجل ، ثم الاحتكام لما أنزل الله عزّ وجل ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ . أما الذين يدعون من دون الله ويشركون به غيره ويركنون إلى عبادة الطاغوت (٣) ، فهم لا يستجاب لهم إلا إذا قبضت بكفيك على الماء لتبعث به إلى فيك من شدة العطش . فإن حدث ذلك الأخير تحقق ذاك الأول . وهذا منتهى الإعجاز . وحقا . . ما دعاء الكافرين للأوثان والأصنام إلا فى ضلال . وجل قوله ـ سبحانه ﴿ ضلّ من تدعون إلا إياه ﴾ (٤) وجل قوله أيضا ﴿ أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا﴾ (٥) .

---

(١) القرطبى : ٩ / ٢٩٦ . (٢) القرطبى : ٩ / ٢٩٩ .

(٣) الطاغوت = مصطلح قرآنى يطلق على كل باطل فى الأرض أشرك به مع الله فى العبادة ، سواء كان سلطانًا أو ملكا أو حكمًا أو بشرا أو أفكارًا هدّامة أو نظريات حديثة فاسدة . . إلى غير ذلك مما ألّهه الناس بحكم سيطرته عليهم لجلب منفعة أو إتيان مصلحة مع تجنيب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتهميشه عن أمور حياتهم مكتفين بمجرد إعلان لا إله إلا الله ، دون اللجوء إلى مقتضياتها الفعلية . (المؤلفة)

(٤) الإسراء : ٦٧ . (٥) الاعراف : ٣٧ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ، ولهذا يسجد له كل شىء طوعا من المؤمنين وكرها من المنافقين . ولله يسجد الإنس والجن والشجر والدوابّ طوعا ، أى من دخل فى الإسلام رغبة ، وكرها أى من دخل مقهورا بالسيف أو منافقًا ، وظلالهم كلها تسبح وتسجد لله رب العالمين فى وقت البكور والآصال أواخر النهار .

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ
جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

لما تمادى الكفار فى مجادلة حضرة الرسول بالباطل والمكابرة، قرر الله سبحانه أنه لا إله إلا هو، وقال سبحانه لنبيه ـ ﷺ ـ يا محمد قل لهم من رب السموات والأرض؟ أليس هو الله ! ! إنهم يعرفون ذلك جيدا **﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾**(١). ولكنهم يعبدون معه آلهة لاتملك لأنفسها نفعًا أو ضرا، ولا تحصل لهم مصلحة أو تدفع عنهم مضرة. وما عبدوا مع الله آلهة أخرى إلا وهم معترفون أنها مخلوقة لله لاتنفع ولا تضر كما كانوا يلبون «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك».

فكيف تتخذون من دون الله أولياء لا يملكون شيئا وهم مخلوقون ولا يخلقون ؟ قل كذلك يا محمد **﴿ هل يستوى الأعمى والبصير ﴾** ؟ ! ! كيف تفكرون ؟ وكيف تسوّل لكم أنفسكم أن تتخذوا أولياء من دون الله الذى خلقكم وصوركم وأخرجكم من ظلمة الأرحام إلى نور الحياة ؟ فكيف لا تتفكرون فى خلقكم وتطوركم من النطفة إلى المضغة إلى الطفولة فالشباب فالفتوة فالرجولة فالشيخوخة فمفارقة هذه الدنيا ؟

وقل لهم يا محمد أيضا هل يستوى طريق الحق مع طريق الضلال ، مثل طريق النور وطريق الظلام ؟ «أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربّ وتماثله فى الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ فليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شىء ولا يماثله أحد ، ولا ندّ له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة » (٢). **﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾** (٣).

---

(١) لقمان : ٢٥ .   (٢) ابن كثير : ٢/ ٥٠٧ .   (٣) الإسراء / ٤٣ .

سُورَةُ الرَّعۡدِ

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيۡهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ
فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧

يضرب الله تعالى أمثلة للحق والباطل، ويعقد مقارنة بينهما بأمثلة حياتية نفهمها ونتدبرها. وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه والباطل فى اضمحلاله وفنائه. فيبين الله تعالى أن للباطل زبدا، وهو ما يشبه الرغوة والفقاقيع والنفايات الخفيفة التى من خواصها أن تعوم على وجه الماء، فيقول الحق: أنزل من السماء ماءً فسالت أودية (جمع واد) أى جرت فى الوديان بقدرها، أى بحسب ما يتسع له كل واد من حمل الماء؛ « وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ». بعد ذلك ظهر هذا الزبد على وجه الماء عائما كثيرا لا فائدة فيه غير أنه غثاء ونفايات وعوادم ليس لها عمر، إذْ تضيع فى الجو والهواء. فهذا هو الباطل وما يصير إليه ومنتهاه ومآله، يغرى ويلفت النظر لكنه لا شيء، فهذا زبد. وهناك زبد آخر مثله هو ما يتبقى بعد انصهار الحديد أو النحاس أو الذهب لاستخلاصها وتشكيلها على هيئة حلى أو متاع، فلابد لهذه العملية من زبد يطفو على وجهها يعلوها كما يعلو زبد الأودية على سطحها. فهذان زبدان: زبد الأودية وزبد انصهار تلك الحلى عند تنقيتها. كذلك يضرب الله الحق والباطل « أى إذا اجتمعا، لاثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار، بل يذهب ويضمحل ». (١) وبعد ذلك يعطى الله الصورة الحقيقية المجردة للحق والباطل من خلال الأمثلة السابقة فيقول ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أى يذهب متفرقا متمزقا لا ينفع، بل يصير منثورا متفرقا تنسفه عوامل الجو والرياح ويذهب فى جوانب الوادى مبعثرا، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا الماء. كذلك زبد الذهب والفضة يروح ويذهب ولا يبقى إلا المعدن. فذاك هو ما ينفع الناس الذى يبقى ويمكث ويثقل فى الأرض كذلك. « فالباطل وإن علا فى بعض

---

(١) ابن كثير: ٢ / ٥٠٨.

الأحوال ، فإنه يضمحل كاضمحلال الزَّبد والخَبَث » (١). كذلك يضرب الله الأمثال ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٢).

لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨

يخبر تعالى عن مآل السُّعداء والأشقياء . فالحسنى ـ أى الجزاء الحسن ـ للذين استمعوا إلى رسول الله واتبعوه وأطاعوه وأطاعوا الله تعالى و ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٣). أولئك لهم من الله المثوبة ، ولهم الحسنى وهى الجنة التى وعدها الله المتقين . ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ (٤) . ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (٥). أما ﴿ الذين لم يستجيبوا له ﴾ أى لم يطيعوا الله ، فلهم العذاب الأليم يوم القيامة ، ولو استطاعوا ساعتها أن يفتدوا أنفسهم بملء الأرض ذهباً ومثله معه من أموال ومتاع حتى ينجوا بأنفسهم من العذاب : لفعلوا ، ولكن هيهات هيهات !! ولات ساعة مندم !!

إنهم كفروا بربهم ؛ فليس لهم إلا ﴿ سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠

يقول تعالى لا يستوى من الناس من تحقق صدق ما جئت به يا محمد من عند ربك ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير لا يفهمه ولاينقاد له . إن الذين يستمعون القرآن فتنفتح له قلوبهم وتنشرح له صدورهم إنما هم الذين لبّوا نداء الرسول وقالوا لربهم بحب﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ هؤلاء هم

---

(١) القرطبى : ٩ / ٣٠٥. (٢) العنكبوت : ٤٣ . (٣) النساء : ٨٠ .

(٤) الكهف : ٨٧ ، ٨٨ . (٥) يونس : ٢٦ .

أولو الألباب⁽¹⁾ الذين انفتحت قلوبهم ومسامعهم لذكر الله **﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾** ووفّوا ما عليهم لله سبحانه من صلاة وزكاة وصيام وحج وحسن توحيد وخافوا الله فى كل أمر له ففعلوه وفى كل نهى منه فتجنبوه، فهم ليسوا كالمنافقين إذا عاهد الواحد منهم غدر .

وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾
وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ
وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ
مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم
بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

هم أيضا الذين يصلون الأرحام والأقارب والفقراء والمساكين بالنفس والمال، ويحسنون إليهم جميعا، ويخافون الله ويتقونه فى كل تصرفاتهم وأفعالهم، ويخافون عاقبة مخالفة أوامر ربهم وسوء الحساب. **﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾** على ربط أنفسهم عن الوقوع فى المهالك والمحارم ،ويقبضون على دينهم قبضا محكما ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ،والذين أقاموا الصلاة ولم يضيعوها ولم يؤخروها، وأدوا الزكاة المفروضة سرًا وعلانية **﴿ ويدرءون ﴾** أى يدفعون ويزيلون ويمحون بالعمل الصالح الذى يفعلونه كلَّ سيئ من أعمال سابقة فهم يدفعون « الشر بالخير والمنكر بالمعروف والفحش بالسلام والظلم بالعفو والذنب بالتوبة »⁽²⁾ . **﴿أولئك لهم عقبى الدار ﴾** وهى الجنة فى الآخرة « يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته»⁽³⁾. **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾** بالتحية والسلام والتهنئة والخدمة تكرمة لهم

---

(١) قيل إن هذه الآية نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى جهل لعنه الله، انظر القرطبى : ٩/ ٣٠٧ .

(٢) أقوال أوردها القرطبى : ٩/ ٣١١ .

(٣) ابن كثير : ٢/ ٥١٠ .

وجائزة . (سلام عليكم) بسبب صبركم فى الدنيا على ما لا قيتموه من أذى فى سبيل الله فنعم الدار داركم وهى دار الخلد والنعيم المقيم .

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

درج القرآن الكريم على أنه إذا عدّد صفات أهل الخير والفلاح وسلوكهم القويم أخذ فى وصف أهل المعاصى والتائهين فى منعرجات آثامهم ، وذلك ليبيّن للبشرية الطريقين .

وهنا يعدد صفات أهل الضلال والشقاء بعد أن تكلم فى الآيات السابقة عن صفات أهل الهدى والرشاد . فهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ فهم منافقون ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من الرحم وذوى القربى وأصحاب الحوائج ﴿ويفسدون فى الأرض﴾ بالكفر وارتكاب الآثام والمعاصى أولئك مطرودون من رحمة الله و﴿لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ وهى النار يسحبون فيها على وجوههم .

ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتر على من يشاء ، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل . إن الذين يركنون إلى غير الله شغلتهم الدنيا وفرحوا بما أوتوا منها ، فانصرفوا لها يجمعونها . وما الحياة الدنيا بالنسبة للأخرة إلا متاع الطعام والثياب وزينة المنزل أو مراكز الدنيا ، وأعلاها الحكم فيها ، وهو إما يزول عن صاحبه أو يزول صاحبه عنه . والويل لمن تولى الحكم فى الدنيا فحكم بغير ما أنزل الله ، إن النار والغسلين فى انتظاره ، حقا ما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع قليل . . !!

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ
إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ
ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

إنه من جهل الإنسان بربه ورسله يقول ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أى هلا نزلت عليه آية صدق من ربه ومعجزة نصدقه بها . . وكأن القرآن وما فيه من سوْق الآيات ليس بآية أو معجزة ! ! لكن لشدة جهلهم قالوا ذلك ، وكأنه لا وجود لمحمد فى قلوبهم الذى عاش معهم أربعين سنة قبل النبوة فى كمال وصدق وأمانة حتى لقبوه هم أنفسهم بالصادق الأمين . . ! ! إنه الكبر البشرى الملوث بظلمة الجاهلية . والحق أن الله يهدى من يشاء بآياته ويعمى عنها من يشاء من الناس . فقل لهم يا محمد : قافلةُ التوحيد ستسير وستؤدى أمانتها ورسالتها ، فقولوا أيها الكافرون ما تريدون ، فذلك ليس بمعطل لمسيرة الموحدين. فسحقا لكم بضلالكم والله ـ سبحانه وتعالى يهدى إليه من يشاء أنصارًا لرسله وورثةً لنبيه الخاتم محمد ـ ﷺ ـ . والذين آمنوا هداهم الله بنوره فارتعدت قلوبهم بذكر الله فهداهم وطمأن قلوبهم ولانت هياكلهم البشرية وهدأت نفوسهم فذهب عنها اضطرابها فثابت واطمأنت ذاكرة الله فى إخبات .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم : أى (١): فرح لهم وقرة عين ، كما قال ابن عباس . وعنه أيضا : أنها أرض الجنة بالحبشية .

وقال إبراهيم النخعى : خير لهم ، وعنه أيضا : كرامة من الله لهم .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة لتبلغهم رسالة الله إليهم ، فإننا كذلك قد أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله رسلاً ، وقد كذبوا من قبلك فلك بهم أسوة، فأحطنا بالمكذبين ودمرناهم تدميرا ، فليحذر من حولك من وقوع النقم فإنهم يكذبونك ، وإن تكذيبهم لأشد من تكذيب غيرك من المرسلين ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ (٢).

---

(١) انظر القرطبى : ٩ / ٣١٦ .

(٢) الأنعام : ٣٤

سوف يكون عذابنا شديدا يا محمد لهؤلاء الذين يكفرون بالرحمن .⁽¹⁾ فقل لهم : إنه هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب أى مرجعى وإنابتى وخضوعى .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

يخبر الحق بأنه لو كان فى الكتب والقرون الماضية كتاب تسير به الجبال ويجعلها تفسح الطريق للناس، أو يحيى به الموتى ويبعثون من قبورهم، أو تقطع به الأرض وديانا للغرس والزراعة : لكان القرآن الكريم، أولى كتب الله عزّ وجل للقيام بهذه المهمة لما فيه من هدى وإعجاز وبيان شاف للقلوب ، لكن الأمر مرجعه كله لله تعالى فليس ذلك من وظائف القرآن إنما مهمة القرآن أن يهدى ويدعو الناس إلى توحيد الله وعدم الإشراك به. وهذا مدح للقرآن الكريم الذى أنزله الله على محمد ﷺ ، وتفضيل له على سائر الكتب المنزلة قبله .

أفلم يعلم أو يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس كلَّهم أجمعين، ولا تزال بسبب تكذيب الكفار وعنادهم تصيبهم قارعة ـ أى عذاب من السماء ـ تنزل بساحتهم أو بالقرب منهم حتى يأتى وعد الله يوم القيامة إن الله لا يخلف الميعاد .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

فلا تحزن لما يفعلون يا محمد ،فكم من رسول قبلك كُذِّب من قبل قومه فأنظرتهم وأجلتهم ، ثم أخذتهم بعذاب أليم لم يفلتوا منه . وهذا تسلية للرسول فى تكذيب من كذبه من قومه .

---

(١) كانوا يرفضون ذكر الرحمن الرحيم فى أقوالهم ، ولهذا رفضوها من رسول الله فى صلح الحديبية ، وقالوا ما ندرى ما الرحمن الرحيم .

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

الله القائم على كل نفس، فيعلم حوائجها وحقيقتها ، ويجزيها بما عملت من خير أو يعاقبها بما ارتكبت من معصيته ، والذى لا يخفى عليه خافية ، والذى ﴿ **هو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لاتسمع ولاتبصر ولا تعقل ولا تملك نفعا أو ضرا لها ولا لعابديها ؟إن هؤلاء يكابرون ويعاندون رسول الله ـ ﷺ ـ ويجعلون لله شركاء ويسمونهم، فقل لهم يا محمد : سمّوا ما شئتم من أحجاركم وأصنامكم ،فلن تغنى عنكم من الله شيئا ، أتدعون لله ما لا يعلمه سبحانه وهو خالق كل الكون ؟ إنه عالم الغيب والظاهر من السموات والأرض وما أخفيتم من القول وما أظهرتم . إن الشيطان زين لكم مكركم وصدكم. عن سبيل الله ، سبيل الحق والنور . فمن يضلل الله فما له من هاد ، بل لهم عذاب أليم فى الحياة الدنيا ، وكذلك لهم فى الآخرة عذاب شاق وصعب ويومها ما لهم من الله من واق أى مانع أو دافع .

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

إن الجنة التى وعد الله بها المتقون ـ أى الذين صدقوا برسل الله وخاتمهم محمد ـ ﷺ ـ فى هذه الجنة من الثمرات والمطاعم والمشارب بلا انقطاع ولافناء . ﴿ **وفاكهة كثيرة *لا مقطوعة ولاممنوعة** ﴾ . (١) ـ ﴿ **ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ (٢). ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى سارحة فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها .

جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « يأكل أهل الجنة ويشربون

---

(١)الواقعه : ٣٣ . (٢) الإنسان : ١٤ .

ولايمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس » (١).

هذه جنات أعدت للمتقين أكلها دائم وظلها دائم لا ينقطعان وهذه عقبى المتقين . أما عقبى الكافرين النار . فهل يستوى الفريقان ؟ كلا ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾(٢).

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

ومن الذين آتيناهم الكتاب يا محمد من اليهود والنصارى من يفرح وينشرح بما أنزل إليك من القرآن لأنه يشهد على صدق ما هو عندهم من أخبارك وأخبار رسالتك . ومنهم من ينكر بعضه جحودا وحقدا ، ويصرون على أن المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، فقل لهؤلاء جميعًا : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه أرجع فى كل أمورى وشئونى .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

وهكذا أنزلناه إليك ﴿حكما عربيا﴾ أى كتابا جمع أحكام الله وأوامره ونواهيه ، بلسان عربى على رسول عربى . فلا تتبع يا محمد أهواء المشركين ، إنهم أصحاب أهواء وعلل وحاش أن تتبع أهواءهم بعدما جاءك الحق من الله تعالى ، فتضل عن الطريق ، فلا تجد ساعتها ما يدفع عنك عقاب الله وغضبه . وقيل الخطاب للنبى ﷺ والمراد أمته . وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية الشريفة .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود والإمام أحمد فى مسنده .

(٢) الحشر : ٢٠ .

عاب اليهود والنصارى على رسول الله أنه عدّد أزواجه فقال الله تعالى ، ليس محمد بدعا من الرسل، فقد أرسلنا من قبله رسلا وكان لهؤلاء الرسل أزواج وذرية، فليس محمد إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، فإن تزوج فقد تزوج من كانوا قبله وإن عدد زوجاته فبأمر الله له .

يقول القرطبى « هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل وهو ترك النكاح » (١).

ثم عاد الله ـ سبحانه وتعالى ليرد عليهم فيما اقترحوه من نزول آيات ﴿ **لولا أنزل عليه آية** ﴾ أو طلبهم من الرسول أن يأتى لهم بمعجزة من عنده فيرد الحق ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ إذ إنه لكل أجل وقضاء عند الله موعد ووقت معلوم .

يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

سبحانه وتعالى ، هو العدل المطلق، لا يسأل عما يفعل، وعباده بين يديه يسألون . فهو يثبت ما يشاء من آجال ويمحو ما يشاء أو يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء من كل شىء ، ﴿**وعنده أم الكتاب**﴾ أى أصل ما كتبه من آجال وأعمار محفوظ بها كل ما شاء الذى لا يبدل ولا يغير . فهو المتصرف فى حكمه وملكوته كيف يشاء .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾

فإما نرينك يا محمد بعض ما وعدناهم به من الخزى والدمار والخذلان فى الدنيا بمعصيتهم لله ثم بإعراضهم عن بلاغك لهم بالحق، أو نتوفينك قبل ذلك وقد بلغت رسالتك ، وهذا هو المطلوب منك وعلينا الحساب ، أى حسابهم وجزاؤهم .

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِى ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾

أو لم ير هؤلاء المنكرون أن الله يأتى بالأرض فيصيبها بنقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض من تحت أقدام الكافرين ؟ فالله يريهم « النقصان فى أمورهم ليعلموا أن

---

(١) القرطبى : ٩/ ٣٢٧ .

تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز » . والإسلام من ناحية أخرى يسبح ويسطع بنوره وتفتح مكة وهذا هو التفسير الأثرى القديم .

وقد يكون هذا النقصان : مجرد اضمحلال طبقة الأرض من القطبين وانخفاضها تبعا لطبيعة كونية أرضية، بحيث يبدو منظر كوكب الأرض وكأنه بيضاوى الشكل. وتختلف هذه المناطق عن أخرياتها فى الطبيعة الجوية من برودة وشمس وخلافه، فالأرض منتقصة من الطرفين ، وذلك حسب ما وصل إليه العلم الحديث أخيرا من حقائق .

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ
لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

وكم من أمم يا محمد مكرت بأنبيائهم من قبلك وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فلله المكر جميعا يجازيهم به ويقلبه عليهم، فالمكر من الله كما قلنا تدبير وتمكين للمؤمنين وعبرة وعظة وهزيمة للكافرين والخير منه والشر لا يكون إلا بإذنه ، يحيط علمه كل الكون ويعلم ما خفى وما ظهر. ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ ؟ أى لمن الثواب ولمن العقاب وذلك فى الآخرة ، فالعبرة بالخواتيم ، والله ناصر عبده ورسوله ، ومتم نوره، ومخزى الكافرين ، وسيقول لك ﴿ الذين كفروا لست مرسلا ﴾ أى ما أرسلك الله، وما أنت إلا متقول علينا ، وذلك بسبب عدم استجابتك لهم بما يقترحونه عليك ، فقل لهم يا محمد حسبى الله هو الشاهد على وعليكم ؛ شاهد علىّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . إن الحق لله يقرره ويقضيه وليس لكم. والله هو الذى أرسلنى رسولا ونبيا وخاتما للأنبياء ، وأنزل علينا كتابا جمع فيه كل ما أنزل على الرسل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كتاب عزيز من رب عزيز يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وهو سبحانه شهيد بينى وبينكم وسبحانه وتعالى عنده وحده ﴿علم الكتاب﴾ .

(١٤) سُورَةُ ابراهيمْ مكيّة

إلا آيتى ٢٨ و ٢٩ فمدنيتان
وآياتها ٥٢ نزلتْ بعدَ سُورة نُوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

تكلمنا عن الحروف المقطعة ومعانيها فى أول سورة البقرة . هذا كتاب يا محمد أنزلناه إليك وهو (القرآن الكريم) ، لتبين للناس طريق الله ، وتعرِّفهم أن ربهم واحد لا شريك له ، فتخرجهم بذلك من ظلمات الشرك بالله ومعصية أمره إلى طاعته وتوحيده ، وتباعد بينهم وبين الضالين المكذبين برسل الله وكتبه ، حتى يكونوا على صراط الله العزيز أى القاهر لكل ما سواه ، الحميد أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه .

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

يقرر الله سبحانه أنه هو وحده الذى يملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت طبقات الأرض . فالويل لمن لا يتأمل بل ينكر آيات الله ، هؤلاء : ويل لهم من عذاب شديد يوم القيامة .

إنهم أصحاب القلوب المائلة إلى الدنيا ، يقدمونها ويؤثرونها على الآخرة ، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ، فقد أنساهم حبُّ الدنيا حبَّ الآخرة .

إنهم أصحاب السبيل المعوج ، يصدون من يريد الاستقامة عن هدفه ، ويحولون بينه وبين الهدى والرشاد ، ويقفون فى وجه كل خيِّر راشد ، ويصدون الناس عن الرسل وتعاليمهم وهدايتهم وطريقهم المستقيم ، أولئك أظلمت قلوبهم ، فهم فى ضلال بعيد .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ
وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾

إن من رحمة الله تعالى على خلقه ، ولطفه بهم ، أنه يرسل الرسل بلغة أقوامهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، حتى لا تكون هناك حجة .

عن أبى ذر قال ، قال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه » (١). وقد كانت هذه سنته فى خلقه : أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم . لكن الحق ـ سبحانه وتعالى اختص محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما قال سبحانه ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾ (٢).

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ
شَكُورٖ ﴿٥﴾

إن مهمة الرسل واحدة فى كل العصور ، وهى إخراج الناس من ظلمة الكفر بالله والجهل به إلى نور معرفة الله واليقين بوجوده ، سبحانه وتعالى . وتلك المهمة الجليلة أرسل بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسل بها موسى ـ عليه السلام ـ ليخرج قومه من ظلم فرعون وأسره لعلهم يفيئون إلى الله فيستقيمون ويعيشون حياة الإسلام وقد أمر الله موسى أن يذكر بنى إسرائيل بأيّام الله عندهم ، أى « بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله إياهم بالغمام وإنزاله عليهم المنّ والسلوى إلى غير ذلك من النعم » (٣). ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ صبار حالة الضراء شكور حالة السرّاء .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، ورمز له الإمام السيوطى بالصحة فى الجامع الصغير .

(٢) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) ابن كثير : ٢/ ٥٢٣ .

سُورَةُ إبراهِيمَ

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ
ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

تمردت بنو إسرائيل على موسى ، فقال لهم اذكروا نعمةالله عليكم لما أنجاكم من آل فرعون الذين كانوا يذبحون أبناءكم الذكور ، ويستبقون الإناث منهم ، وفى ذلك خزى وضياع لكرامتكم . فكونوا عبادا لله شاكرين . ولكن بنى إسرائيل جبلت على الغدر ونكران النعمة ولو شكروا لكان خيرًا لهم .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى
لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

واذكر إذْ أعلمكم ربكم بأنه إذا شكرتم نعم الله واعترفتم بها وحافظتم عليها قولا وعملا ، ليزيدنكم منها ويبارك فيها . أما إذا جحدتم وكفرتم بى وبنعمى ، فإن عذابى أليم شديد .

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

فالحمد لله الذى لا تنفعه عبادة ، ولا تضره معصية ، فسواء آمنتم أو كفرتم فلن ينفع الله إيمانكم ولن تضره سبحانه معاصيكم حتى ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا فالله هو الغنى الحميد أى هو غنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفر .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ
مُرِيبٍ ﴿٩﴾

إن المتكبرين على الله الذين ردّوا أيديهم فى أفواههم عاضّين عليها من الغيظ ، ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ ، أولئك النار مأواهم وبين عرصاتها مثواهم وما هم منها بخارجين . فليهلكوا بشكهم وريبهم تعصر النار أكبادهم فيموتون فيها ويحيون .

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما أنكرت وجود الله فى جحود وغلظة وقسوة قلب ، قالت لهم الرسل : ﴿ أفى الله شك ﴾ ؟ وهو الذى فطر السموات والأرض ، أى خلقها وأبدعها وأوجدها بعد العدم؟ وهو الذى بسط الأرض ورفع فوقها الجبال وشق فيها البحار ؟ : إنه يدعوكم فضلا منه ومنةً إلى طاعته ليغفر لكم ذنوبكم فى الدار الآخرة ويؤخركم لأجل مسمى فى الدنيا .

فما آباؤكم الذين تتمسكون بهم وبمعبوداتهم الباطلة إلا كفار عبدوا الطاغوت فاستحقوا النار فتوبوا إلى الله يغفر الله لكم .

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

لما قالت الأقوام لأنبيائهم ، أتريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، قالت لهم الرسل : إنما نحن أنبياء الله وعبيده كُلِّفنا أن نأتى إليكم ندعوكم إليه سبحانه لتوحيده فى ربوبيته لكم ، فلا تشركوا به شيئا ولا تتخذوا معه أوثانا تعبدونها .

وسارت مسيرة الأنبياء داعية إلى توحيد الله ، وتخليص العبودية من غبار الشرك حتى

سورة إبراهيم

جاء النبيُّ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد البشرية متممًا للمسيرة المباركة للأنبياء ، ومعه القرآن جامعًا مجمل شرائع الأنبياء ، فما كان لنا أيها الجاحدون المنكرون أن نأتيكم بحجة أو آية إلا بإذن الله ومشيئته لأن ذلك ليس فى قدرتنا نحن البشر ، ونحن متوكلون على الله فى كل أفعالنا حق التوكل الذى ينبغى أن يكون عليه المؤمنون .

واعلموا أيها الناس ـ وقد أبيتم أن تعبدوا الله وحده ـ أننا مستعينون به موحدون لذاته العليّة ، وكيف لا نفعل ذلك وقد هدانا ـ سبحانه وتعالى ـ إلى طريق الخير وعرّفنا إلى صفاته ؟ وهذا اجتباء منه وتكريم وسنصبر على إيذائكم لنا ما دام ذلك فى سبيل الله . وعلى الله توكلنا واستعنا . اللهم انصرنا على القوم الظالمين .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي
مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾
يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ
بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم ، والنفى من بين أظهرهم . قال الذين كفروا لرسلهم : لن نطيعكم وسنخرجكم من أرضنا إن لم تتركوا ما تدعوننا إليه وتعودوا فى ملتنا وديننا ودين آبائنا . **﴿ فأوحى إليهم ﴾** أى إلى الأنبياء **﴿ ربهم لنهلكن الظالمين ﴾** ثم لنسكننكم أيها المؤمنون أرضهم من بعدهم ويكون لكم الأمر . وذلك عهدى مع من **﴿ خاف مقامى وخاف وعيد ﴾** ، أؤمنهم وأرزقهم امتلاك الأرض والحكم فيها بعد إهلاك الظالمين ومحو آثارهم . وجل قوله تعالى **﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾** (١).

فلما اشتد عناد الكافرين لرسلهم ، استفتح هؤلاء الرسل أى لجئوا إلى ربهم

---

(١) الأعراف : ١٢٨ .

مستجيرين به سبحانه أن ينصرهم على المعاندين للحق المجادلين فيه ، أى طلب الرسل من ربهم النصر على الكافرين المعاندين للحق .

وفتح الله عليهم بالنصر ﴿ **وخاب كل جبار عنيد** ﴾ . وصار من وراء هؤلاء الكفار ومن أمامهم نار مشتعله بالحجارة وأجساد الكافرين ، وأخذوا يطلبون الشراب لتهدأ النار فى أجوافهم ، فيسقون شرابًا من حميم وغسّاق يسقونه جرعة جرعة لا مرة واحدة فلا يكادون يطيقونه ويبتلعونه ، ويأتيهم الموت من كل مكان من فوقهم وتحتهم وعن يمينهم وعن شمائلهم وكل أنواع العذاب ولكنهم لا يموتون كما قال عز وجل ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ (١).

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ
لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ
ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها وهم أحوج ما كانوا إليها .

فأعمالهم فى الدنيا صارت يوم القيامة ﴿ **كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف** ﴾ أى ذى ريح شديدة عاصفة قوية تهلك أمامها كل شىء ، لا يأخذون ولا ينالون منها شيئا عند الحساب . و ﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾ أى سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم وهم أحوج ما كانوا إليه .

ثم يهدد المولى سبحانه الكفرة المعاندين لرسلهم قائلا :

أليس من السهل على الله سبحانه ـ وهو القادر الذى خلق السموات وما فيها والأرض وما عليها ـ أن يفنيكم ويأتى بخلق جديد غيركم وعلى غير صفتكم ؟ ﴿ **وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ أى بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه . فلم لا تعتبرون . . ؟ وجل قوله ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ (٢)ـ ﴿ **يأيها الذين**

---

(١) فاطر : ٣٦ .

(٢) محمد : ٣٨ .

آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (١)ـ ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا ﴾ (٢).

وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ
أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ
إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن
سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ
إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

يوم القيامة تبرز الخلائق كلها مجتمعة فى صعيد واحد ، بارها وفاجرها ، لله الواحد القهار ، تستغيث وتستنجد بالله ﴿ **فقال الضعفاء** ﴾ الذين عصوا الله فى الدنيا وكانوا أتباعا لرؤسائهم وأوليائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن موافقة الرسل : إنا كنّا تابعين لكم فى الدنيا نطيعكم ونسمع كلامكم ونمشى وراءكم ، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن . ﴿ **فهل أنتم مغنون عنا** ﴾ أى دافعون عنّا شيئا من العذاب ، كما كنتم تعدوننا فى الدنيا وتزينون لنا وتمنون ؟!! فماذا كان ردّهم ؟ ﴿ **قالوا لو هدانا الله لهديناكم** ﴾ ما بيدنا شىء ، ولقد حقت كلمة العذاب علينا وعليكم . ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا** ﴾ ما لنا وإياكم من خلاص أو نجاة من عذاب الله .

ثم يقوم إبليس بعد ذلك خطيبا فيهم ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم فيقول لهم إن الله تعالى قال لكم الحق أى على ألسنة رسله ، ودعاكم إلى الخير والفلاح فلم تستمعوا له سبحانه ، ودعوتكم أنا إلى الكفر والضلال فأطعتمونى . استمعتم لى ولم تستمعوا لله ، فاليوم تهلكون ولن تجدوا من الله من واف . ﴿ **فلا تلومونى ولوموا أنفسكم** ﴾ فلن أغنى عنكم من الله من شىء ، فاليوم ليس للظالمين إلا العذاب الأليم .

---

(١) المائدة : ٥٤ .

(٢) النساء : ١٣٣ .

فيا ليت أبناءَ آدمَ تصحو ضمائرهم وهم لا يزالون فى الدنيا ، فيعادوا الشيطان وأهله ويصالحوا الرحمن ، فتكون توبتهم مقبوله ورحمة الله عامة عليهم فى كل وقت وحين .

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

بعد أن عرض علينا المولى موقف الظالمين فى النار ، عرض سبحانه موقف الصالحين فى الجنة فقال ﴿ **وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات** ﴾ لا جنة واحدة ، ولكن جنات كثيرة ، وفى تلك الجنات أنهار جارية حيث ساروا وأين ساروا ، ونعيم ورحمات من الله كثيرة : وفى نعيم الجنة حياة خالدة باقية لا تزول . خلود مبارك ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ ورضاه وحبه وعفوه تمر عليهم الملائكة بالسلام ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ (١).

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

هذه الآيات توضح ما يصير إليه حال السعداء بما عقلوا من الحق ، فقد ضرب الله مثلا هنا للكلمة الطيبة ، ليبين إلى أى مدى يؤتى الإيمان ثمارا طيبة فى قلب المؤمن . والكلمة الطيبة يقصد بها هنا كلمة التوحيد تلك التى ينطق بها الإنسان خالصةً من قلبه (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) . تلك الكلمة هى عمدة التوحيد ، والطريق إلى الجنة . إن صدق بها قلب المسلم فاكتسب بها فهم الأركان الخمسة ـ وهى عمدة هذه الأركان ـ فأدى هذه الأركان بفهم عقل وتصديق قلب ، واحتواها بروحه ، فإنه يغدو فى حضرة الحق عبدا ربانيا ربته الكلمة الطيبة صاحبة الأصل الثابت والفرع الواصل إلى السماء ، فصار كالشجرة الطيبة أصلها ثابت متينٌ وفرعها عالٍ فى السماء

---

(١) الرعد : ٢٤ .

تؤتى أكلها كل حين . وهكذا المؤمن يعطى فى كل وقت ، متصل بالله فى كل حين ، قلبه حى دائما نابض يقظ ينفع ولا يضر يؤتى ثماره الخيِّرة الطيبة .

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾
يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ
وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

ينتقل بنا الحق إلى المثل المواجه لتلك الدوحة بأهلها المصطفين الأخيار الأبرار ، وهو مثل مغاير تماما . إنه مثل لكلمة خبيثة ﴿ **كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض** ﴾ ليس لها من قرار أى أصل ترتكز عليه . إنها شىء ضائع ليس له معالم وليس له أساس . ﴿ **اجتثت** ﴾ أى استؤصلت . « كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتُقبل منه شىء » (١). والله العزيز الحكيم يثبت أولياءه وعباده على الحق فى الدنيا وفى الآخرة ، أما الظالمون فلا ثبات لهم ، بل هم فى ضلال ، وهذه حكمة الله تعالى فى خلقه ، إذْ هو يفعل ما يشاء .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

إنهم جهلوا الحقيقة ، وعميت قلوبهم ، فبدل أن يشكروا نعمة الله فيؤمنوا به ويعزروه ويوقروه حادوا عن صراطه المستقيم ، وخالفوا أمره ، وكفروا بنعمته ، وأضلوا قومهم ولم يصدقوهم النصيحة فأحلوهم دار البوار والفناء فكانت جهنم لهم مستقرا ومستودعا ، يعذبون فيها عذابا شديدا غير منقطع ، فبئس القرار قرارهم .

إن الظالمين الكفار جعلوا لله أندادا ونظراء وشركاء ، وذلك خسران مبين وما فعلوا ذلك إلا ليضلوا الناس عن طريق الله وعن سبيله المستقيم المؤدى للخير ، وليضلوا

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٥٣١ .

أتباعهم وأنصارهم عن سبيل الله . فقل لهم يا رسول الله تمتعوا بكفركم وماتستطيعون فعله : افعلوه، وتمتعوا به ، فإنه متاع قليل ومصيركم إلى النار ومرجعكم ومآلكم إلى جهنم . ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ (١).

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١

قل يا محمد لعبادى ، الذين شهدوا لى بالربوبية ولك بالنبوة والرسالة ، أطيعوا الله وقوموا بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن تقيموا الصلاة خالصة لوجه الله العزيز الحكيم، فالصلاة عماد الإسلام . أقيموها خالصةً وحافظوا على مواقيتها وحدودها . وقل لهم أن ينفقوا من أموالهم سرًا وعلانية ، لوجه الله وحده لا يرجون بها ينفقون شهرة فى الناس ، ولكن رجاءً فى الله وحبا فى مرضاته ورجاءً لمغفرته . فليسارعوا فى الخيرات ﴿من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أى من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا تقبل فيه شفاعة ولا فدية من أحد لنفسه يفدى بها نفسه ، والذى « ليس (فيه) مخالّة خليل ، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته ، بل هناك العدل والقسط » (١).

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعدد نعمه على خلقه ، فهو لا إله غيره ولا معبود سواه بحق، قيوم السموات والأرض ، خلق كل شىء فأبدع خلقه . رفع السماء بلا عمد

---

(١) لقمان : ٢٤ .

(٢) ابن كثير : ٢ / ٥٣٩ .

وبسط الأرض وشق فيها أنهارها وبحارها ورفع جبالها . سبحانه خلق السموات والأرض وما فيها . **﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾** ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع . وهو الذى أجرى الفلك فى البحار ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من المنافع . وكل شىء عنده بمقدار لا إله إلا هو .

وهو الذى سخر الشمس والقمر ، مستمرين فى فلك سيار ، لا الليل يدرك النهار ولا النهار مدرك الليل ، وكلاهما فى فلك واحد يسبحون فيه بأمر الله . ليل تسكنون فيه للراحة والهدوء والصفاء ونهار لتبتغوا فيه من فضل الله .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلاً عن القيام بشكرها . فقد أعطى الإنسان كل حاجته فى الدنيا من قبل أن يسأله ، وما سأله أعطاه. كذلك جعل عطاءاته للإنسان حسب حاجته . وأعطاه بغير سؤال لأنه سبحانه خالقه وأعلم منه بحاجته . فسواء سأل الإنسان ربّه أم لم يسأله ، فهو معطيه كل ضرورات حياته ، ومسخر له كل قوى الطبيعة ، وخلق فيه حكمة تصريفها ، وركّب فيه وفى فطرته وطبيعته قدرةً على استخدام البحار والهواء والريح والكهرباء والغوص فى طبقات الأرض والتحليق والاختراق لطبقات الجو . ونعم الله غير ذلك لا يقدر على إحصائها أحد **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفّار ﴾** .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ
عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ
عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ
وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ
وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ
لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

سورة إبراهيم

«يذكر تعالى فى هذا المقام ، محتجا على مشركى العرب ، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه وآهلة ، تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ » (١). أى اجعل مكة بلدا آمنا لا يسفك فيه دم ولا يقع فيه ظلم لأى أحد، ولا يصطاد طيره ولا يقطع شجره . وفعلا استجاب الحق له فقال ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾ الآية (٢). ثم دعا إبراهيم ربه أن يجنبه هو وبنيه أن يعبدوا الأصنام «وينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته » (٣) بناء على هذه الآية . ثم تبرأ إبراهيم بعد ذلك ممن عبد الأصنام ، وذكر أن هناك خلائق كثيرين من الناس افتتنوا بهذه الأصنام وعبدوها ، وتبرأ ممن اتبعها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم. أما من اتبعه فإنه من إبراهيم على دين الإسلام .

ثم رفع إبراهيم دعاءً ثانيا إلى ربه بعد الدعاء الأول ، إذْ طلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى هذا البيت ليقيموا الصلاة حوله ويتعبدوا . وارزقهم يا رب من الثمرات لأنه واد غير ذى زرع وغير خصب . وقد حقق الله دعوة إبراهيم بقوله سبحانه ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ﴾ (٤). ثم قال إنك يا ربنا تعلم السر والعلن من الدعاء وغيره ، وليس شىء خافيا عنك سبحانك علام الغيوب . كل ما فى الأرض أنت تعلمه وكل ما فى السموات أنت تدريه . ثم يشكر الله ويحمده على نعمته عليه بأن رزقه من الولد بعد الكبر ، فرزقه إسماعيل من هاجر وإسحاق من العاقر العجوز سارة. سلام الله عليهم أجمعين . إنك سبحانك تستمع لعبدك بقدر إخلاصه ، وفوق ذلك تفضلا منك وعطاء على غير استحقاق . ثم يختتم إبراهيم مناجاته لربه داعيا ضارعا فى عبودية خاشعة ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ﴾ أى واجعلهم هم الآخرين كذلك مقيمين للصلاة مثلى . ﴿ ربنا وتقبل دعاء* ربنا اغفر لى ولوالدى ﴾ ـ وذلك قبل أن يتبرأ من أبيه ويعلم أنه عدو لله ـ ﴿ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾.

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٥٤٠ .

(٢) العنكبوت : ٦٧ .

(٣) ابن كثير : ٢/ ٥٤٠ .

(٤) القصص : ٥٧ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

لا تحسبن الله يامحمد ، إذا أنظر الظالمين وأجلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم ؛ بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عدًّا . «وهذا تسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن أخبره عن أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى اصبرْ كما صبر إبراهيم ، وأعلِمْ المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهالُ العصاة مدة »[1] إلى يوم ﴿تشخص فيه الأبصار ﴾ أى لا تغمض أبدا من شدة هول ما ترى يوم القيامة . ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر ، فقال ﴿ مهطعين ﴾ أى مسرعين ، ﴿ مقنعى رءوسهم ﴾ رافعين إياها ﴿لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أى أبصارهم ظاهرة شاخصة يديمون النظر لا يطرفون لحظة ، فلا ترجع نظراتهم إلى عادتها من شدة الهول والذلّ ، أفئدتهم خاوية خربة من كل خير.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

إنك مكلف يا محمد بإنذار الناس جميعا بأن الله خالقهم سبحانه ؛ وسيأتيهم يوم شديد يُسألون فيه عن رسلهم وما أرسلوا به إليهم ، فلم يعتبروا ببلاغ رسلهم إليهم . ولكن يوم يرون العذاب والبعث والسؤال والحساب يسألون الله أن يؤخرهم ﴿ إلى أجل

---

[1] القرطبى : ٩/ ٣٧٦ .

قريب ﴾ ليستعيدوا النظر ويتبعوا الرسل . وهذا لا يغنى عنهم يومئذ من الله من شىء ، فهم كمن قال ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ﴾ (١). وجل قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ (٢). ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ وهذا قول الملائكة لهم ﴿ ما لكم من زوال ﴾ أى من رجوع مرة أخرى إلى الدنيا ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ . (٣) هذا يوم يقال لهم فيه ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٤). فمهما اعتذرتم وتعذرتم بقولكم ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (٥) . فاليوم ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ (٦).

وقد عدد الله تعالى جرائم الذين ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لله ، فلم تأخذهم العبرة إذ قال لقد سكنتم فى مساكن الظالمين ، وفعلتم فعلهم ، وقد شاهدتم ما فعل الله بهم من إهلاك وعذاب ، وضربنا لكم أمثالاً كثيرة لتحذروا مسيرتهم وتجتنبوا طريقهم ، فلم تفعلوا . فاليوم لا تلوموا إلا أنفسكم .

لقد مكر الكافرون والظالمون بأصحاب الدعوات وبالأنبياء والرسل ودبروا لهم ما تصوروا ، من جهلهم ، أنه يصرفهم عن الحق ، ولكن أهل الحق فى معية الله سبحانه يحتملون فى سبيله مظالم المفترين سواء كانوا من الحكام أو من عملائهم . فالحاكم الظالم يظن بجهله أنه يفعل ، ولكن الشيطان يزين له ، والله مطلع على ما يفعل الظالمون حكاما أو محكومين . وكم من ظالم انتهت حياته بعبر لمن يتعظ .

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤٧

فلا تحسبوا أيها الناس أن الله مخلف وعده لرسله ، كلا . إنه سبحانه لا يخلف وعدًا وعده رسله أو خلقه ، فالنار لمن عصى والجنة لمن اتقى ، فاحذروا معصيته . إنه سبحانه عزيز ذو انتقام . وهذا تقرير وتوكيد من الله تعالى لوعده .

---

(١) المؤمنون : ٩٩ .

(٢) الأنعام : ٢٧ .

(٣) المرسلات : ٣٥ـ٣٦ .

(٤) المؤمنون : ١٠٨ .

(٥) السجدة : ١٢ .

(٦) السجدة : ١٤ .

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى
ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

اذكر لهم يا محمد هذا اليوم الذى تبدل فيه الأرض غير الأرض ، وتبرز الخلائق أى تخرج كلها من قبورها لله . والمجرمون يؤمئذ مشدود بعضهم إلى بعض ، أرجلهم مع أيديهم ، مشدودون فى أصفاء وقيود وحلقات من حديد مُحمى عليها فى النار ، ملابسهم من قطران وهو شىء سريع الاشتعال يشبه النحاس المذاب تضرب وجوههم النار فتغشيها .

هؤلاء الكافرون برسل الله وكتبه والمعطلون لدين الله وأحكامه والمحاربون للدعاة إلى الله ، والمعذبون لأهل الدعوة ، هؤلاء الظالمون لهم فى الآخرة عذاب عظيم ، كما سبق، بسبب محاربتهم لله ولرسوله والمؤمنين **﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾** .

إن القرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى بلاغًا للناس . وهل هناك بلاغ أقوى من بلاغ القرآن ؟ وأى بلاغ يبلغ من الحق ما بلغ القرآن ؟ وأى بلاغ يبلغ نوره ما بلغ نور القرآن ؟ وأى هداية تساوى هداية القرآن ؟ إنه بلاغ الله إلى خلقه . فمن اتعظ بما أُنذر وحُذر كان من الناجين ، ومن استمع القرآن ولم يتدبر فقد أهلك نفسه ! إنه بلاغ للناس! فطوبى لمن خاف أمره فأطاع الله وحفظ حدوده فأقامها وراجع سنة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففسر القرآن بها وأقامها به وأقامه بها ! فهى بيانه الأمين وتفسيره الواضح . وسبحانه من إله واحد ! ولن يستطيع أن يذكر آيات الله ويتعرف عليها إلا أولو الألباب ! وهم الذين قالوا **﴿ ربنا الله ثم استقاموا ﴾** .

رقم الإيداع ٧٥٣٦/ ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0129 - 5

مطابع الشروق

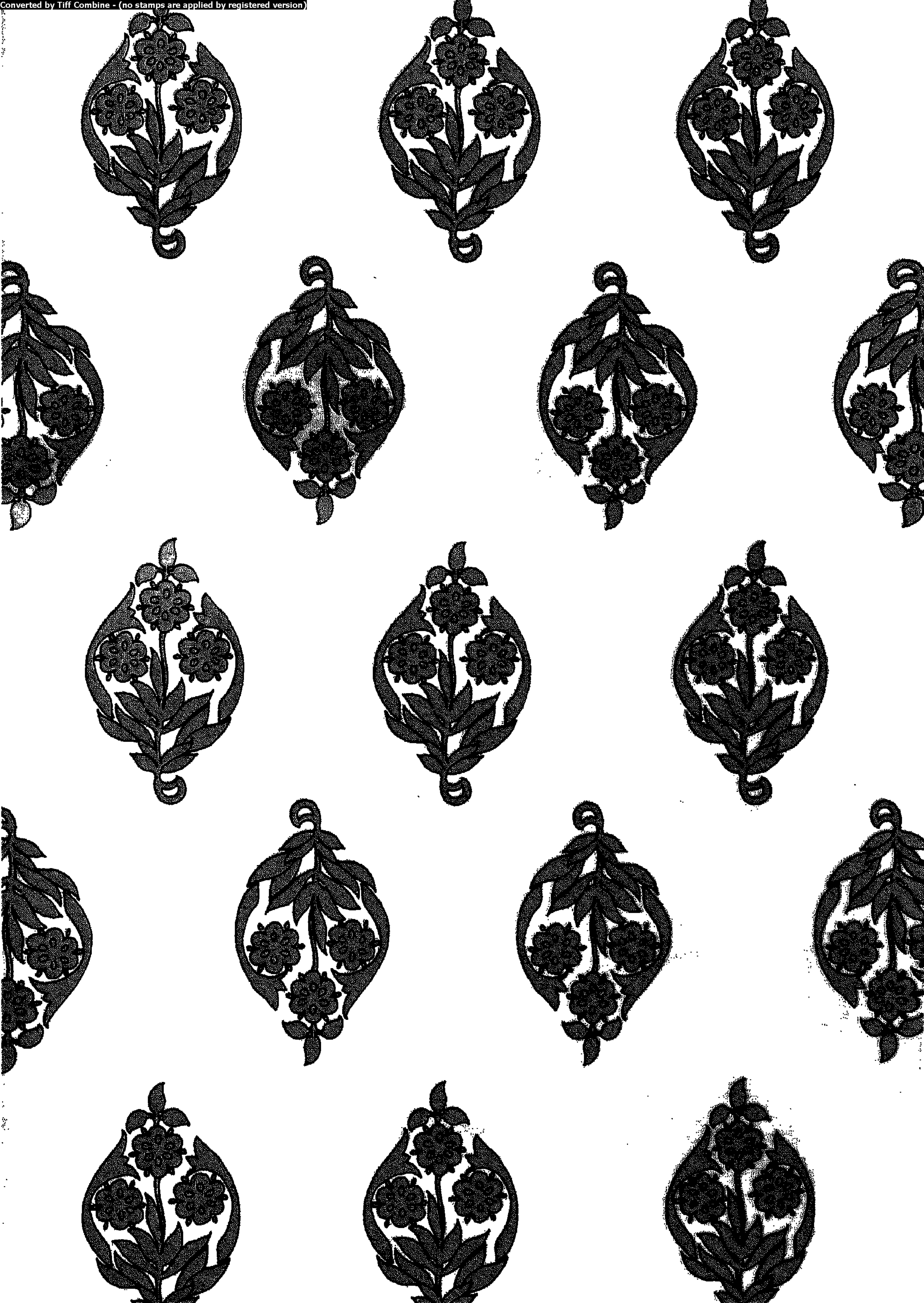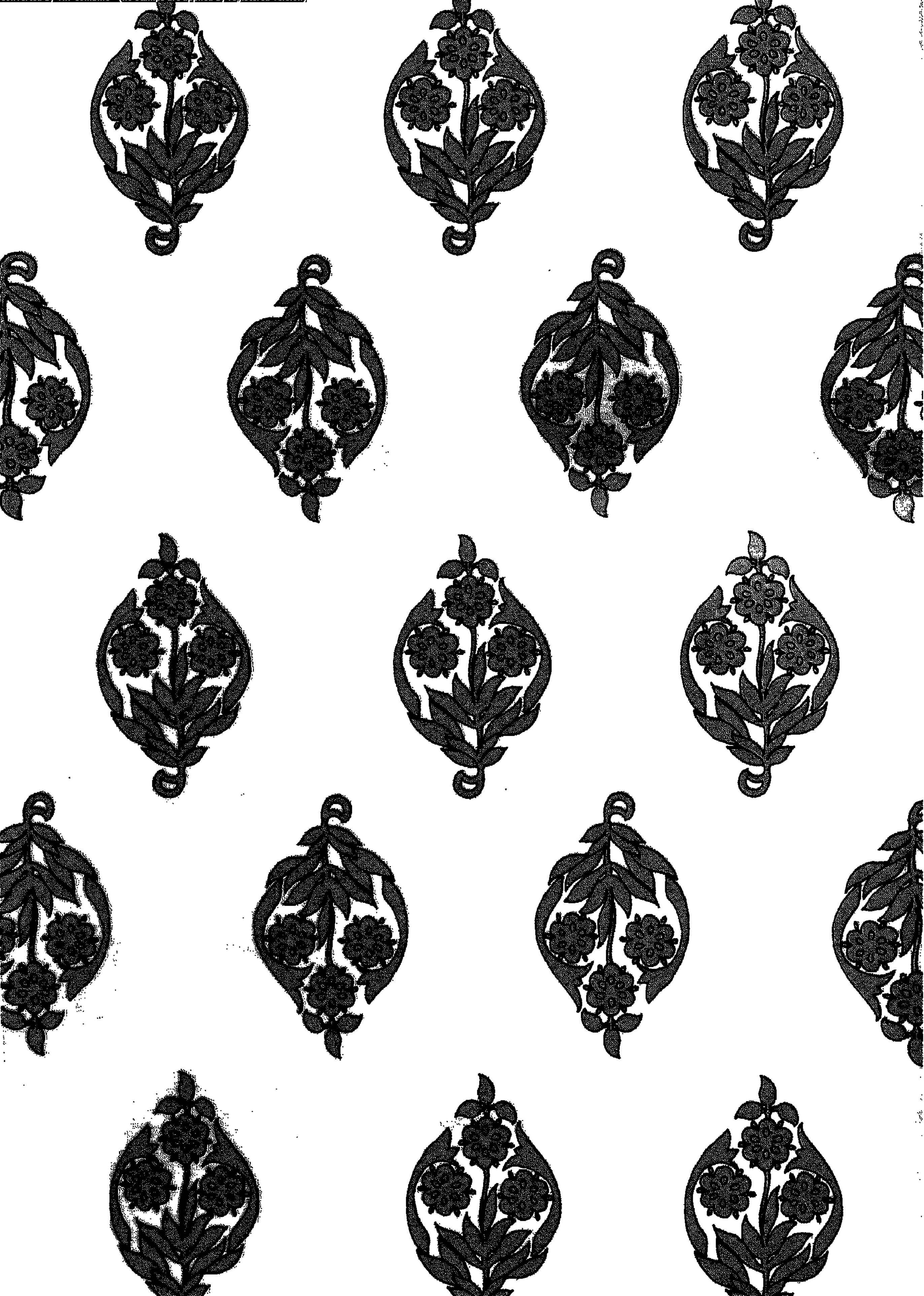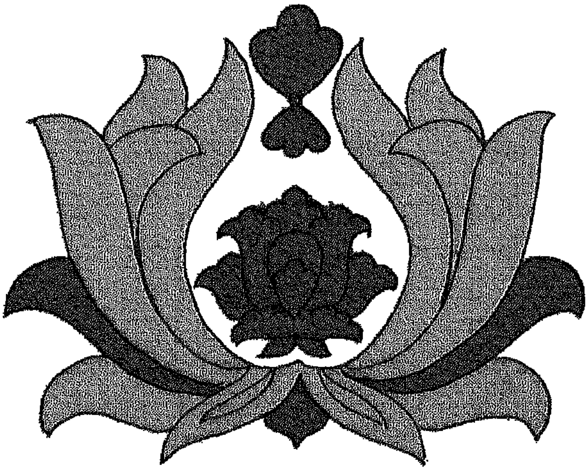القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣